

جامعة الجزائر

معهد اللغة والآدب العربي

الموقف الثوري في الرواية الجزائرية المعاصرة 1970 - 1982

بحث لنيل شهادة الماجستير

الطالب : محمد البصير

المشرف : الدكتور عبد المطيف اطيمش

السنة الجامعية 1985 - 1986

مقدمة

عرفت الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية تطورا وازدهارا كبيرين ،منذ ظهورها في بداية الخمسينات على أيدي كتاب جزائريين ،ومنذ ظهورها أحاطتها وقتئذ وسائل الاعلام الفرنسية بهالة من الاشادة والتنويه ، وقد أستقبل النقاد الفرنسيون هذه الاعمال الروائية بالحفاوة والترحاب ،وتناولوها بالدراسة والتقييم والتشجيع . وظل الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية ،هو الأدب المشهور المعروف لدى الاوربيين والمشارقة على حد سواء .

على أن الرواية المكتوبة بالفرنسية ،قد تراجعت وانحصر دورها في نطاق ضيق في فئة محدودة من المثقفين الجزائريين بالفرنسية،بل ان دور هذه الرواية تقلص تدريجيا بعد أن ظهرت الرواية الجزائرية المكتوبة بالعربية منذ بداية السبعينات الى الآن . وتبوأت مكان الصدارة حيث فرضت نفسها بقوة على الأوساط الأدبية داخل البلاد وخارجها واهتم بها الباحثون والنقاد وأقبلوا على دراستها .

ولقد ظهرت في الفترة الأخيرة بعض الكتب التي تناولت الأدب الجزائري بصفة عامة . ومن هذه الكتب : (الأدب الجزائري المعاصر للمؤلفة سعاد محمد خضر 1967) و (الأدب الجزائر في رحاب الرفض والتحرر) . ل (نور سلمان 1981) . ثم كتاب (تطور الأدب القصصي في الجزائر 1982) للكاتبة (عائدة أديب بامية) تناولت هذه الكتب جميعها الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية بجميع فنونه شعرا ،ورواية ،وقصة قصيرة ،ومسرحية ،وخطبة ،ومقالة سياسية ... الخ . وكان نصيب الفن الروائي ضئيلا من هذه الأبحاث . ويندرج ضمن هذه الأبحاث آخر كتاب درس الأدب الجزائري المكتوب بالعربية وهو كتاب (أدب النضال في الجزائر) للباحثة (أنيسة بركات درار) .

مع الملاحظة أن هذه الكتب كلها درست الأدب الجزائري بشتى فنونه وحددت له فترة ما قبل الاستقلال .

والمتأمل في هذه الكتب يجد أنها عبارة عن مقالات ومقتطفات لصحف ومجلات جزائرية وتونسية وفرنسية ،نشرت في فترات متقطعة في الخمسينات والستينات جمعها أصحابها ودونوها في كتبهم دون تمحيص ولا تدقيق .وكان أغلبها يعتمد على مراجع فرنسية غير نزيهة . ومعلوم أن هذه الكتب يطغى عليها الجانب التاريخي البحت وهي في الحقيقة لا تتعدى النقل ،والجمع والانطباع الشخصي ،والوصف الصحفي ،والآراء المرتجلة التي تفتقر الى التحليل والمناقشة والدراسة النقدية التطبيقية الموضوعية الجادة .

أما اذا أنتقلنا الى الرواية الجزائرية المكتوبة بالعربية فان الدارس يلحظ ندرة الأبحاث المعمقة والدراسات النقدية التي كتبت حول هذه الرواية في هذه الفترة . (1970 - 1982) . (1)

باستثناء بعض المقالات المنتشرة هنا وهناك في بعض الدوريات الوطنية والعربية ،وهذه المقالات التي كتبت حول الرواية الجزائرية لا تتجاوز التلخيص المقتضب والاشارة الخاطفة والتعليق السطحي السريع .

هذا ومن الدوافع التي جعلتني أختار دراسة الرواية الجزائرية دافع ذاتي فقد كنت منذ الصغر أقرأ بشغف كبير القصص والروايات العربية والأجنبية ومن خلال هذه القراءة المستمرة والتعلق الشديد بالفن القصصي انجذبت الى دراسة هذا الفن المفضل لدي ،وهناك دافع موضوعي أني لاحظت في بداية السبعينات صدور عدد كبير من الروايات المكتوبة بالعربية التي حققت

---

1 - صدر في أواخر عام 1983 كتاب يدرس الرواية الجزائرية بالعربية وهي دراسة حرة غير جامعية . للدكتور محمد مصايف .

قدرا ملحوظا من النضج الفكري والفني والجمالي .

ثم اني لاحظت من جهة أخرى تنوع الدراسات النقدية والبحوث الأكاديمية التي تدرس الفن الروائي في أغلب الأقطار العربية وخاصة في مصر والشام والعراق بينما الرواية الجزائرية لم تلق أية عناية أو اهتمام.(1)

وهذا ما دفعني للتفكير بجدية لدراسة الفن الروائي فدرست عشرين رواية وهي عبارة عن مسح شامل للرواية الجزائرية المكتوبة بالعربية منذ (عام 1970 الى 1982) وقد تناولتها بالنقد والتحليل والمناقشة معتمدا على المنهج التحليلي التركيبي ،متبعا في ذلك عنصر الموازنة بين الروايات العربية ، ومقارنا الرواية الجزائرية بالرواية الأجنبية رابطا بذلك الشكل الفني بالمضمون الثوري الاجتماعي ،مؤثرا مزج المنهج الاجتماعي بالمنهج النقدي وذلك للعلاقة العضوية بين المجتمع والأدب ،اذ أنه لا يمكن فصل العمل الأدبي عن الواقع الاجتماعي نظرا للعلاقة الجدلية بينهما تأثرا وتأثيرا . ومن جهة أخرى ركزت كثيرا على الموقف الثوري في الرواية وهذا الموقف يعني موقف الشخصيات الروائية وما اشتملت عليه من نبض فكري وروحي وفني وجمالي سلبا وايجابا في جميع الأحداث والقضايا العامة للحياة اليومية في جوانبها المتعددة وأبعادها المختلفة ومشاكلها المتنوعة .

هذا وقد قسمت بحثي الى مقدمة وتمهيد وأربعة فصول وخاتمة يضاف الى ذلك الفهرس والمصادر والمراجع العربية والفرنسية والدوريات . وذكرت في المقدمة أسباب ودوافع اختيار البحث ثم تحدثت في التمهيد عن الظروف والأبعاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي عاشتها البلاد

---

1 - بلغنا بعد طبع هذه الرسالة أن الاديب الاعرج واسيني قد أنجز رسالتين الماجستير والدكتوراه في الرواية الجزائرية وهما على التوالي (اتجاهات الرواية العربية في الجزائر) و (تطور ملامح البطل في الرواية الجزائرية) .

قبل الثورة وأثناءها ،وما تخلل ذلك من عنف وتمرد ،وثورة ،ونضال سياسي ،تتوج فيما بعد بالحرية والاستقلال ،وبناء ثورة البناء والتشييد.ثم ذكرت ظروف نشأة الرواية الأوربية والعربية ،ثم الرواية الجزائرية بشكليها الفرنسي والعربي وعرضت بايجاز لمضامين الروايات الجزائرية المكتوبة بالفرنسية ودرست في الفصل الأول الاتجاه الاجتماعي الذي اشتمل على الروايات التي صورت مظاهر الفقر والجهل وآثار التخلف الذي عرفته البلاد في فترة الاحتلال الأجنبي .

وتناولت في الفصل الثاني الاتجاه الثوري والنضالي الذي يحاول التغيير والتطوير الى الأحسن والأفضل بل انه يدعو الى ثورة عامة شاملة في أوسع معانيها ومختلف أبعادها بغية تحريك الشعب وتنويره وتثويره في جميع المستويات وعلى شتى الأصعدة .

وفي الفصل الثالث حللت روايات الاتجاه الايديولوجي العقائدي الذى يشتمل على روايات الواقعية الاشتراكية في الجزائر .

أما الفصل الرابع فقد درست فيه الاتجاه الأسطوري الرمزي وهو فصل قصير جدا نظرا لندرة الروايات التي دارت حوله . وبعد ذلك تأتي الخاتمة التي ذكرت فيها النتائج التي استخلصتها من بحثي .

هذا ولا يفوتني أن أتقدم بالشكر الى أساتذتي الذين أمدوني بالنصائح والآراء القيمة والمراجع الهامة . أما أستاذي الجليل (الأستاذ الدكتور عبد اللطيف أطيمش) الذي أحاطني بالعناية والتشجيع والتوجيه طيلة مدة البحث فلولا ملاحظاته القيمة وتوجيهاته السديدة ما كان ممكنا أن يخرج هذا البحث على هذه الصورة . فله أقدم آيات الشكر والثناء والتقدير . واني لأرجو أن أكون موفقا فيما قصدت اليه وعملت من أجله .

تمهيـــــــــد

- 1 -

الحالـــة السياسيـــــــة :

منذ أن دنست أقدام الاستعمار الفرنسي أرض الوطن ، هـب الشعب الجزائري يقاوم الاحتلال مقاومة عنيفة . ولم تتوقف ثورة في جهة ما من الوطن ،الا واشتعلت في جهة أخرى . فمن ثورة الأميرعبد القادر بغرب البلاد ،الى ثورة أحمد باي بشرق البلاد ، الى ثـورة أولاد سيدي الشيخ ،ثم ثورة المقراني والحداد ،ثم ثورة بوعمامـة وغيرها من الثورات والانتفاضات السياسية والشعبية . وأخيرا ، اندلعت الثورة التحريرية الكبرى سنة 1954 .

وفي هذا السياق يقول أحد المؤرخين المحدثين :

(لقد كانت مسيرة الكفاح المسلح للشعب الجزائري في القرن التاسع عشر طويلة جدا ،وقاسية دامت سبعين عاما قدم خلالها الشعب الجزائري ثمنا غاليا . فاستشهد الملايين من أبنائه وتشرد ملايين آخرون . وجرد الشعب من كل أملاكه وثرواته العقارية ،والحيوانية ،وطعن في كرامته الوطنية والقومية . وفي مقدساته الدينية) .(1)

1 - د .يحيى بوعزيز : ثورات الجزائر في القرنين 19 - 20 . ص : 286.

ولعل أهم التيارات السياسية التي عرفتها البلاد قبل ثورة نوفمبر 1954 ، ثلاثة تيارات كبرى هي :

- التيار الأول يطالب بتحقيق المساواة بين الجزائريين والاوروبيين .

- التيار الثاني المتمثل في حزب نجم شمال افريقيا . وبرز في الثلاثينات باسم حزب الشعب الجزائري وتجدد بعد الحرب العالمية الثانية باسم حركة الانتصارات للحريات الديمقراطية .

- التيار الثالث اصلاحي اجتماعي تمثله جمعية العلماء المسلمين في بداية الثلاثينات .

وعاش الشعب الجزائري في فترة ما بين الحربين العالميتين أحداثا ضخمة حيث ظهرت أفكار جديدة نتيجة للحرب . وظهرت في هذه الفترة معالم الحركات الوطنية والاصلاحية التي أخذت تهز الشعب هزا عنيفا وتبعث فيه روحا وأملا جديدين . وانتشرت الدعوات وتعالت الاصوات من كل فج تنادي بالنهوض ، كما تنادي بالتحرك ، والتحرر من هذه القيود الثقيلة التي رزح تحتها الشعب الجزائري أجيالا طويلة .

(ومن الملاحظ أن الشعب الجزائري قبل سنة 1930 كان يتوفر على بطولات ولكن هذه البطولات تتمثل في جرأة فرد لا في ثورة شعب ، وفي قوة رجل لا في تكاتف مجتمع) .(1)

وجاءت بعد ذلك مجزرة 8 ماي 1945 التي ذهب ضحيتها 45 ألف جزائري . اثر مظاهرة سلمية ، تطالب بحرية الجزائر واستقلالها بعد

---

1 - د . أنيسة بركات درار . أدب النضال في الجزائر ، ص : 30 .

الحلفاء على النازية . أن هذه المجزرة الرهيبة أثبت للشعب الجزائري ، وخاصة المناضلين منه أن الحرية لا يمكن أن تتحقق الا بالقوة والعنف الثوري .

(ان مأساة 8 ماي 1945 تعتبر فاصلا تاريخيا بارزا في حياة الشعب الجزائري من الناحية السياسية والثقافية . فقبل هذه المأساة كانت الافكار مضطربة والدعوات متناقضة ولما أنفجرت حوادث ماي 1945 التي ذهب ضحيتها 45 ألف جزائري في خلال أيام قليلة ،أدرك الساسة الجزائريون أن آمالهم في فرنسا قد أنهارت وأن الاساليب التي كانوا يعتمدون عليها في كفاحهم لم تعد مجدية ،وأن الطريق أصبح واضحا والهدف قد تحددت معالمه). (1)

وبعد أن رسخ الاستعمار أقدامه وقوى أركانه في أرض الجزائر. وحكم البلاد بالحديد والنار . حاول رجال المقاومة اجراء مفاوضات سلمية معه ،لكنه لجأ الى سياسة المناورة والخداع . حينئذ لم يجد بعض المناضلين والثوريين بدا من رفع السلاح في وجه الاستعمار.

وفي هذا المعنى يقول أحد المؤرخين :

(وبينما كانت السلطات الاستعمارية تواصل سياسة الاستبداد والاستعباد ،وتطبق فكرة الاهانة والاذلال بواسطة الغش والتزييف ،كان التيار الثوري يقوى ويتدعم داخل الحركة الوطنية . ودعاة العنف الثوري وأعطتهم الحجة الدامغة على أن المشاركة في الانتخابات ولعبة الديمقراطية في ظل قوانين الاستعمار . لا يمكن أن يقودا الغير التفكك

---

1 ـ د . أنيسة بركات درّار . أدب النضال في الجزائر، ص : 8 .

والتميع . أما السبيل الأوحد للخلاص من السيطرة الأجنبية فيتمثل فقط في الكفاح المسلح ، لأن ما أخذ بالقوة لا يسترجع الا بالقوة).[1]

وعملا بمبدأ أن ما أخذ بالقوة لا يسترد الا بالقوة قامت الثورة التحريرية بفضل المناضلين والثوار الذين كافحوا كفاحا مريرا . وتعرضوا لحرب الابادة والتعذيب في السجون المظلمة والضغط والارهاب والمشانق التي ذهب ضحيتها الآلاف من الشعب الجزائري الاعزل ،الذين لم يكن لهم ذنب سوى المطالبة بالحرية والاستقلال !!

وهكذا وبعد استعمار دام 132 سنة وبعد ثورة عارمة دامت أكثر من سبع سنوات استشهد خلالها مليون ونصف مليون شهيد من خيرة أبناء الوطن .إسترجعت الجزائر استقلالها وحريتها سنة 1962.

وفي بداية الاستقلال بدأت المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية تطل برؤوسها ،لتجابه الشعب الجزائري ،الذي وجد البلاد مخربة ومدمرة في جميع الميادين المختلفة . فمثلا نجد أكثر من 50% من السكان ما بين ابن شهيد ولاجئ ،ومجاهد ،من بينهم كثير من المعطوبين وممن كانوا في المحتشدات والسجون ،بالاضافة الى النزوح من الارياف الى المدن وكلهم في حاجة الى العمل ،والمسكن ،والعلاج ،وقلة فرص العمل ،وانخفاض مستوى المعيشة . وتدهور الصّحة العامة . وانخفاض نسبة التعليم ،وانعدام المدارس والمعلمين . والهجرة الى الخارج فضلا عن أن الاستعمار قد دمّر ما يقرب من ألف قرية تدميرا كاملا . واتبع سياسة الأرض المحروقة فحرق الغابات والاراضي الزراعية وقتل الماشية

1- د . محمد العربي الزبيري ،الثورة الجزائرية . ص : 35 .

وخرب الطرق وحطم الكثير من المؤسسات الاقتصادية والثقافية وعاث في الارض خرابا ودمارا . الامر الذي دفع بالدولة أن تبذل مجهودات جبارة في بناء مجتمع جديد ، يسوده الرقي والازدهار . فأعلنت ثورة عارمة على التخلف والجهل والمرض .

وحررت الدولة الفلاح من الاستغلال والاستعباد وأزالت نهائيا الرعي والخماسة في الريف وعملت على القضاء على التشرد والبطالة في المدن . واسترجعت البلاد ثرواتها . فأممت الشركات الاجنبية وعملت على محو الفوارق الجهوية . وشيدت المصانع الضخمة ، والمعامل الصغيرة ، في جميع أنحاء الوطن لتوفر العمل وتقضي على البطالة .

وأدخلت المرافق الضرورية العصرية الى القرى والارياف النائية وقررت بناء ألف قرية اشتراكية مدعمة بالسد الاخضر و(طريق الوحدة الافريقية) .

وفتحت الدولة أبواب التعليم المجاني بكافة مراحله ، لجميع أبناء الشعب الجزائري . وقررت الطب المجاني للمواطنين .

وبعد تحقيق هذه الانجازات الكبرى . صوت الشعب الجزائري على الميثاق الوطني ،الوثيقة الايديولوجية للبلاد ،كما عزز الميثاق الوطني بالدستور ومقررات مؤتمرات حزب جبهة التحرير الوطني . استكملت البلاد جميع هياكلها السياسية والادارية والبرلمانية .

وهكذا نلاحظ أن الجزائر قطعت في ظرف أربعة وعشرين سنة من الاستقلال أشواطا كبيرة وانتصارات باهرة في ازدهار البلاد وترقية الشعب بكافة فئاته وطبقاته .

الحالـة الاجتماعيـــــة :

لقد أولى معظم المؤرخين الجزائريين ،اهتماما كبيرا بالحالة المأساوية التي كان يتخبط فيها الشعب الجزائري ،أثناء فترة الاحتلال ،وما عـانـاه هذا الشعب من مصائب وويلات ،سلطها عليه الاستعمار الفرنسي البغيض. فانحدرت قيمة الفرد الجزائري الى الحضيض الاسفل . وغرق الى الأذقـان في مستنقع العادات والتقاليد البالية ،يؤمن بالخرافات والاساطـير والسحر والشعوذة ،الى أبعد الحدود .

وسقط الشعب في هوة عميقة من الفقر والجهل والمرض . ونتيجـة لذلك برزت طائفة جديدة من الدجالين الجهال وطفت على السطـح . فراح البعض منهم يضلل الجماهير الشعبية . ويقاوم كل من يحاول الوقـوف في وجهه فيتهمه بالكفر والالحاد والمروق عن الدين . خوفا منهم أن تضيع مصالحهم الشخصية .

ومن جهة أخرى انتشرت الآفات الاجتماعية ، والجرائم الفتاكـة فجاهر بها أصحابها في رابعة النهار ،دون وازع ديني أو رادع خلقي !

وهناك داء عضال يعاني منه الشعب الجزائري يعد أشد فتكا وأعظم خطرا من غيره من الامراض الاخرى ، الا وهو أذناب الاستعمار وأعوانـه الخونة ،الذين يعملون ليل نهار لاشعال نيران الفتنة بين فئات الشعب وطبقاته المختلفة . فعملوا جاهدين في بث الشقاق والتخريب في صفوف الجماهير الشعبية ،بدون كلل أو ملل . تنفيذا لأوامر السلطات الاستعمارية ومخططاتها الجهنمية .

وكان جل الشعب الجزائري يعاني مرارة البؤس ،وشقاء الحياة ،وشظف العيش ،لانه طرد من أرضه وسلبت منه خيراته ،وشتت الى الاماكن النائيـة

البعيدة . وقد وصل الشعب الى حالة خطيرة من التقهقر والانحطاط ، وانحدر الى درجة تدعو الى الاضطراب والتشاؤم الى درجة أن الفرد الجزائري فقد معها كل ثقة في الحياة والناس . ولم يبق بين يديه الا اليأس القاتل والظلام المحدق الذي ليس الا وراءه الا الحزن والقلق والموت المرتقب تخلصا من متاعب الحياة ومشاكلها المويصة .

ومن الملاحظ أن قضية الفقر التي كانت تعيشها البلاد ابان فترة الاحتلال الاجنبي ،لا تنحصر في منطقة دون أخرى ،من الوطن . وانما عمت أرجاء الوطن كله من أقصاه الى أقصاه . واستأثرت هذه القضية انتباه الأدباء ،فتناولوها في أعمالهم الأدبية شعرا ونثرا . فركزوا على مأساة الفقر وما ينجم عنه منجرائم وآثام عظيمة .

ونتيجة لهذه الظروف القاسية والمعيشة الصعبة تقوقع شباب الريف تحت سيطرة الاقطاع يعمل في الرعي والخماسة طوال حياته . بينما سقط شباب المدن في بؤرة السطو والسرقة وانغمس في حمأة الرذيلة فتعاطى المخدرات المحظورة ،وسفك الدماء ،وزهق الارواح ،وتحول جله الى لصوص مجرمين لا يخشون خالقا ولا يرهبون سلطة . فكان مصيرهم الاعتقالات والسجون المظلمة .

أما الناحية الصحية أيام الاستعمار ،فكانت في أسوا حالة وأبشع صورة . وكان الشعب الجزائري ،يعاني الامرين ،في هذا المجال ،من جراء الامراض ،وسؤ التغذية وعدم العناية الصحية وندرة الأدوية .

وفي هذه الفترة كانت الأمراض القاتلة تفتك أغلبية الشعب الجزائري المغلوب على أمره .

واستمرت البلاد على هذه الحالة المأساوية حتى جاء الاستقلال ونعم المواطنون بالطب المجاني وانتشار المستشفيات والمستوصفات عبر أنحاء الوطن كله .

الحالـة الثقافيـة :

لقد ابتليت البلاد بأبشع استعمار استيطاني ،لم يعرف التاريخ له مثيلا . عاث في الارض فسادا . وأتى على الاخضر واليابس ،ولم يكتف باغتصاب الارض وتشريد أهلها منها ،واستغلال اليد العاملة ،وتخريب اقتصاد البلاد كليا . بل راح يستهدف محو الثقافة العربية الاسلامية . وتجريد الشعب من كل مقوماته الاساسية .

وكانت نتيجة ذلك أن حرمت بلادنا من لغتها العربية ، وسدت في وجوه أبنائها المدارس والجامعات . فانتشر الجهل وعمت الأمية ،وتعرض الشعب الى محاولات المسخ ، والاذابة ،والتشويه ،وذلك بمحاربة اللغة العربية والمبادئ الاسلامية .

لقد نجح الاستعمار الغاشم الى حد بعيد في القضاء على اللغة العربية ،واحلال اللغة الفرنسية محلها مستخدما في ذلك كل المخططات والأساليب الجهنمية ،تنفيذا لمآربه العدوانية .

وهكذا (استطاعت ثقافة الاستعمار أن تغزو مراكز الثقافة القومية ، وأن تقصيها عن المدارس والجامعات ، ثم بدأت تشوهها في عقول المواطنين وأذواقهم ، وكان هذا الغزو الثقافي طبقا لعملية منظمة ،بدأت منذ لحظة الاحتلال . واستمرت عبر السنين تغذي العقول بالكره للثقافة القومية .واظهار مساويها وجمودها . وترغيب الناس عنها . وحملهم على الاقتداء بالغزاة ، وتحصيل ثقافتهم ونظمهم وآدابهم . واذا كانت وسائل العيش تدفع الناس الى تقبل هذه الثقافة الدخيلة ، فلتكن شروط العيش نفسه والحصول على وظيفة

أو مكانة هي الكفاءة الشخصية من ثقافة الاحتلال .

وبذلك وجد الناس أنفسهم مضطرين الى تعلم اللغة الفرنسية ،واكتساب الدرجات العلمية والحصول على الشهادات ونحوها مما يضمن للفرد قوتــه وعيشه ، ويخرجه من جحور الجبال وظلماتها الى أنوار المدنية المنبعثة مــن أوروبا كما كان يدعي الاحتلال .) (1)

وقد كان لسياسة التجهيل التي اتبعتها السلطات الاستعمارية خطـورة كبرى ،بحيث أن معظم الشعب الجزائري قد تنكر لمبادئه وأخلاقه ،وأصبح يشعر شعورا قويا بالغربة والضياع والاستلاب في وطنه .

وفي هذا المضمار يقول أحد الباحثين :

(وأدى ذلك التجهيل الى جعل المجتمع الجزائري يتخلى بدون وعــي ، عن الكثير من مميزاته حتى كاد يصبح جسدا بلاروح ، فاقدا لهويته الحقيقيــة ، متنكرا لاخلاقه ومبادئه ،يجري وراء أنماط لحياة مستوردة ،ولاعلاقة لها بما ضينا ولا بحاضرنا . ان هذا التجهيل المخطط له ،في الواقع ،قد أدى الى خلــق مجتمع ساذج في أغلبيته .) (2)

وفي هذه الحالة أصبحت اللغة الفرنسية هي لغة الخبز والثقافـة والتقدم ،بينما اللغة العربية هي لغة الزهد والعبادة . وفعلا فان اللغـة العربية أصبحت في وضعية غريبة ،اذ أن الاستعمار شدد عليها الخنـاق وكتم أنفاسها حتى باتت محصورة في الزوايا والكتاتيب يتعلم فيها أبناء الشعب مبادئ القراءة والكتابة أو حفظ القرآن فقط .

---

1 - د . أبو القاسم سعد الله : محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائر.ص: 78-79 .
2 - د . محمد العربي الزبيري . الثورة الجزائرية في عامها الاول . ص : 49 .

(ولم يكن هدف الاستعمار لخنق العربية ومحو الشخصية الجزائرية واحلال الفرنسية محلها فحسب . بل كان أيضا يرمي الى الجهل واسدال ستار الظلمات على الجزائر وفصلها عن العالم العربي ،والعالم كله . ولم يكن يسمح حتى بتعلم الفرنسية ،الا بقدر ما يحتاج اليه من أعوان له في مهمته وتدلنا على هذا الاحصائيات الرسمية الفرنسية سنة 1955 . التي تقول أن نسبة الامية في الجزائر سنة 1954 بلغت 94٪ بين الرجال و 96٪ بين النساء.) (1)

كانت تلك وضعية اللغة العربية بصفة خاصة والثقافة الجزائرية بصفة عامة في عهد الاستعمار البغيض ،وكاد يقضي على العربية قضاء مبرما لانعدام استعمالها نطقا وكتابة الى درجة أن ما سمي الاحذية في بلادنا أصبحوا يجيدون التعبير والمخاطبة بالفرنسية ولا يستطيعون النطق بلغتهم العربية ! فما بالك بطبقات الشعب الأخرى . وقد (تكالب الاستعمار على محاربة الثقافة العربية بغية القضاء عليها ، فكانت أهدافه تحقيق سياسة الفرنسة والاندماج ، ولما عجز عن فرض هذه السياسة بواسطة القوانين ،استعمل التعليم الفرنسي كوسيلة أساسية لتحقيق هذا الهدف الشنيع ولهذا أخذ منذ 1883 يفتح أبواب المدارس ليعلم أبناء الجزائر اللغة الفرنسية ،ولم يكن يهدف من وراء هذا التعليم الى تثقيف المواطنين الجزائريين ورفع مستواهم العلمي بل كان همه هو صهرهم في البوتقة الفرنسية وفرض الفرنسة والتجنيس عليهم) (2).

فالمدرسة الفرنسية اذن هي وسيلة لتجريد الشعب من شخصيته العربية الاسلامية . وكانت مهمة هذه المدرسة هو افساد عقيدة الشعب وغرس الاحتقار لتاريخه ولغته العربية !! .

---

1 - مولود قاسم : مجلة الثقافة . ص : 31 ،عدد 3 - 1971 .
2 - د . أنيسة بركات درّار ،أدب النضال في الجزائر . ص : 52 .

ولعل أهم الوسائل والاسباب التي ساعدت على ايقاظ الشعور الوطني.وبث الحماس في نفوس الجماهير الشعبية . هي :

1 - ظهور جمعية العلماء المسلمين التي كان لها دور بارز في نشر الثقافة العربية وتصفية الدين من كل الشوائب . ومقاومة البدع والخرافات والاوهام .

2 - الصحافة الوطنية التي تبناها رجال الاصلاح ورجال الدعوة مثل المنقذ (الشهاب) البصائر) (الاصلاح) هذه الصحف التي ساهمت في خلق جيل جديد من الشعراء والادباء والمثقفين .

3 - انشاء مطبعة عربية حيث طبعت عدة كتب من التاريخ والتراجم والدين . واهملت الأدب واللغة . لان هدف المطبعة ورجالها الاهتمام بالدرجة الأولى على الاصلاح وما يدور به من قريب أو بعيد .

4 - صلة الكتاب الجزائريين بالمشارقة خاصة في اليقظة الفكريةوالاصلاحية.

5 - ارسال البعثات الثقافية من الجزائر الى المشرق العربي .

6 - وفي مجال المسرح فقد برزت الى حيز الوجود مسرحيات اجتماعية وفكاهية يغلب عليها الطابع الديني والاخلاقي .

وفي هذا المجال يقول بعض الباحثين :

(ومما يذكر للحركة الوطنية عموما وجمعية العلماء على وجه الخصوص تأسيس النوادي الاصلاحية والثقافية والجمعيات الكشفية التي كانت مراكز للنشاط ومنطلقا واسعا للفكرة القومية ،ونقط تجمع لافراد الشعب بجميع طوائفه. ففي هذه النوادي والمؤسسات كانت تناقش السياسة ،ويلقي الشعر ،ويسمر

الادباء ،وتمثل المسرحيات ويغني الأدب الشعبي ،كما تقام منابر الخطابة وتلقي الاناشيد الحماسية .) (1)

وبعد مأساة 8 ماي 1945 استيقظ الشعور الوطني بعد تلك الصدمة العنيفة التي كان لها دوي قوي في الأوساط الثقافية والفكرية ،والتي نظمت حولها قصائد شعرية ودبجت فيها خطب دينية ومقالات سياسية تنديدا واستنكارا ، لتلك الجرائم البشعة التي اقترفها الاستعمار الفرنسي ضد الشعب الجزائري .

(أما من الناحية الفكرية والثقافية فان الشعراء والطبقة المثقفة وجدوا أنفسهم يعيشون هذا الحدث الضخم ورأوا بأعينهم كيف تهان كرامة شعبهم وتداس حقوقهم،وجدوا شعبهم يعيش في جهل فاضح وفقر مدقع وذل دائم.

فقاموا بتوعية الجماهير وتنوير الاذهان حيث وجدوا في مأساة 8 ماي 1945 التجربة الجديدة التي نبهتهم الى الحقيقة المرة .
ان هذه الفترة حفلت بحركة ونشاط ثقافي هائل ففي هذه المرحلة ظهرت صحف شتى بالعربية والفرنسية وقد كان لجميع الهيئات والمنظمات صحافة تنطق باسمها وتدافع عن وجهة نظرها مما جعل الرأي العام يزداد يقظة وشعورا بالتضامن من أجل تحقيق الهدف الاكبر وهو الاستقلال) .(2)

وهكذا وبعد ما انتهينا من تحليل الاوضاع السياسية ،والاجتماعية والثقافية،يجدر بنا أن ننتقل الى الظروف التي نشأت فيها الرواية الأوروبية ثم العربية . ولنبدأ بالحديث عن ظهور نشأة الرواية الأوروبية .

---

1 - أبو القاسم سعد الله ،محمد العيد آل خليفة . ص : 82 - 83 .
2 - د . أنيسة بركات ،أدب النضال في الجزائر : ص : 8 .

- 4 -

ظروف نشأة الروايـــة الأوربيـــة :

(كان النظام الاقطاعي يمثل الظاهرة المسيطرة على المجتمع الأوربي ، قبل عصر النهضة . وكانت الملكية المستبدة تمثل أعلى المراحل التي وصل اليها هذا النظام . وكانت الطبقة الحاكمة هي التي يتوافر لديها الفـــراغ والتعليم . وكان هدفهم ينحصر في الاحتفاظ بأرضهم وتوريثها لابنائهم بعد وفاتهم . وكان من الطبيعي الا يهتموا بالتجربة العلمية أو انتشار التعلـــيم ، واتجهوا الى المحافظة في كافة المجالات ،فانتجأوا الى المثالية والمطلق والعام والمجرد . . .

وما نكاد نصل الى القرن الثامن عشر حتى نرى الطبقة الوسطى ،وقـــد صارت صاحبة النفوذ الأكبر في المجتمع ، وأصبحت بذلك القوة الأولى الـــتي يتجه اليها الأدب ويعبر عنها ،وصاحب ظهور هذه الطبقة زيادة عدد جماهير القراء بصورة ملحوظة ،ولم تعد الطبقة الاقطاعية هي المتلقية للفن).(1)

في هذه الظروف نشأت الرواية الأوربية على أيدي كتاب عالميين فـي القرن الثامن عشر ،وما لبثت أن تطورت في القرن التاسع عشر ،وبلغت الذروة في القرن العشرين ، لاسيما الرواية الفرنسية والانجليزية والروسيـــة والامريكية ، فبرز في هذا المجال أعلام كبار في هذا الفن المستحدث من أمثال (دوستويفسكي) و (تولستوي)و (جوركي) و (شولوخوف) من كتاب الرواية الروسيـــة .و (فلوبـير) و (بلزاك)و (زولا) و (بروست)و (جيد)و (سارتر)و (كامو)من كتاب الروايـــــة الفرنسيـــة . و (د .هـ. لورانس) و (هكسلي)و (جوزيف كونراد)و (ديكنز)

---

1 - د . عبد المحسن طه بدر. تطور الرواية العربية : ص، 194 ، 197 .

و (جيمس جويس) و (فرجينيا وولف)و (كولن ولسن) من كتاب الرواية الانجليزية .

و (هنري جيمس) و (فوكنر) و (همنغواي) في الرواية الامريكية .

وتطورت الرواية تطورا كبيرا ،حتى ظهرت الرواية الجديدة في فرنسا التي يتزعمها (الآن روب جرييه) و(ميشال بوتور) و (ناتالي ساروت) وغيرهم الذين حاولوا بنجاح أن يكتبوا الرواية على نحو جديد . ولنترك المجال لزعيم هذه المدرسة الآن روب جرييه ،ليوضح لنا معنى الرواية الجديدة ، وموقفها وأهدافها وأفكارها ،وفي نفس الوقت يصحح أخطاء النقد بالنسبة للرواية الجديدة .
(ان العنصر المشترك، بين كل الذين اشتركوا في تكوين أي حركة أدبية في تاريخ الأدب الفرنسي ،هو الرغبة في الخروج على التجمد والحاجة الى شيء آخر . . ان الاشكال تعيش وتموت في كل ميادين الفن وفي كل الازمة ، ويجب أن تتجدد هذه الاشكال باستمرار . ان التكوين الروائي لنمط الرواية في القرن التاسع عشر الذي كان الحياة نفسها منذ مئة عام ليس الآن الا صيغة فارغة مطلة لا تجدي شيئا).(1)

(ويدفع روب جرييه عن نفسه وعن زملائه تهمة تقنين الرواية الجديدة .

نعرف فقط ان الرواية اليوم ستكون تلك التي سنكتبها اليوم وما علينا أن نشبهها بما كانت عليه بالامس .

الرواية الجديدة ليست الا استمرارا لتطور الرواية ،ذلك التطور الذي بدأ في عصر بلزاك . وكافكا أو فولكنر ليسا مؤلفين طليعيين ،وانهما مؤلفان محدثان فحسب ،سيصبحان كلا سيكيين عما قريب .) (2).

---

1 - الآن روب جرييه ،نحو رواية جديدة ترجمة مصطفى ابراهيم .ص: 120 .
2 - د . سامية أحمد أسعد ،في الأدب الفرنسي المعاصر . ص : 24 .

والكاتبة (سامية أحمد) تلخص وجهة نظرها حول الرواية الجديدة بقولها : (ولا تكمن أهمية الرواية الجديدة في ما تأتي به من جديد ،بل في كونها ظهرت في فترة مرت فيها الرواية بأزمة ،واعتقد فيها الجميع أنها تسير في طريق مسدود ، ورأي الجمهور في هذه التجارب لا يقبل الشك : انها تبحث على الطلل ،ومن الصعب فهمها وتفسيرها . صحيح أن الرواية الجديدة استرعت الانتباه ،وحظيت باهتمام المثقفين في عواصم العالم ،لكن الجماهير العريضة لا تزال تحن الى الرواية القديمة التي تشتمل على قصة وشخصيات . . . ولا يختلف رد فعل الجمهور الفرنسي كثيرا عن ردود فعل الجماهير الأخرى . صحيح أن مؤلفات ناتالي ساروت وروب جرييه . . . ترجمت في لندن وطوكيو ونيويورك والقاهرة وبيروت - على سبيل المثال لا الحصر - لكن النقاد استقبلوها استقبالا قاسيا أو فاترا ،حسب الحال . أما الجماهير فلم تتحمس لها كثيرا).(1)

---

1 - د . سامية أحمد أسعد ،في الأدب الفرنسي . ص : 24 .

تعريف الرواية الفنية :

اختلف النقاد في تعريف الرواية وتحديد مقوماتها ، وذهبوا مذاهب شتى بين الاطناب والايجاز . وسنقتصر على أهم التعاريف الأوربية والعربية .

أ) التعاريف الأوربية :

(يعرف فورستر الرواية بأنها قصة خيالية نثرية طويلة يجب ألا تقل عن خمسين ألف كلمة .

أما الاستاذ دوبريه فلا يجد مناصا من مزيد من التفصيل ،فيذهب الى أنها ذلك الشكل الأدبي الذي يقوم مقام المرآة للمجتمع ،مادتها : انسان في المجتمع ،أحداثها نتيجة لصراع الفرد - مدفوعا برغباته ومثله - صراعه ضد الآخرين ،وربما مثلهم أيضا ،وينتج عن صراع الانسان هذا للملاءمة بينه وبين مجتمعه أن يخرج القارئ بفلسفة ما أو رؤيا عن الانسانية) (1)

ويرى ايفور ايفانز في تعريف الرواية . على (أنها قصة نثرية تدور حول حوادث يصف من خلالها المؤلف شخصيات وحياة العصر ،ويحلل مشاعر وعواطف الرجال والنساء وهم يتفاعلون مع بيئاتهم . ويستطيع أن يفعل هذا مستخدما صورا من عصره هو أو صورا من عصور غابرة ،وعلاوة على ذلك ،قد يبدأ بتصوير الحياة العادية ثم يستطرد الى استخدام القصة لعرض صور خيالية بعيدة عن الواقع .) (2)

---

1 - د . فاطمة موسى . بين أدبين . ص : 12 - 13 .
2 - ايفور ايفانز : موجز تاريخ الأدب الانجليزي . ص : 162 .

ولعل خير تعريف للرواية هو تعريف (هـ . ب تشارلتن) (ان القصة ضرب من الخيال النثري له مهمة خاصة به ، وهي أن تقص أعمال الرجل المادي في حياته المادية بعد أن تضعها في شبكة من الحوادث كاملة الخيوط متتبعة كل فعل الى أدق أجزائه وتفصيلاته وسوابقه ولواحقه ، موغلة في دخيلة النفس حينا لتبسط مكنونها أثناء وقوع الفعل ، مستعرضة الآثار الخارجية للفعل حينا آخر ، لا تترك من جوانبه وملحقاته ونتائجه شاردة ولا واردة الا سجلتها في أمانة وصدق كما تحدث في الحياة الواقعية التي يخوضها الناس ويمارسونها .) (1)

ب - التعاريف العربية :

بعدما أوجزنا نشأة الرواية والتعريف بها لدى النقاد الأوربيين يجدر بنا أن نوجز ، نشأة الرواية العربية وتعريفها . ونقتصر على ذكر تعريفين لناقدين عربيين هما : محمود تيمور ، ومحمد يوسف نجم . (تيمور) يعرف الرواية بأنها (هي التي يعالج فيها المؤلف موضوعا كاملا أو كثر ، زاخرا بحياة تامة واحدة أو اكثر فلا يفرغ القارئ منها الا وقد ألم بحياة الأبطال أو البطل في مراحلها المختلفة وميدان الرواية فسيح أمام القاص ، يستطيع فيه أن يكشف الستار عن حياة أبطاله وتجلو الحوادث مهما تستغرق من الوقت .) (2)

وهذا تعريف قريب جدا من تعريف الدكتور (يوسف نجم) الذي يعرف الرواية بأنها (مجموعة من الاحداث التي يرويها الكاتب ، وهي تتناول حادثة واحدة أو حوادث عدة تتعلق بشخصيات انسانية مختلفة ، تتباين أساليب عيشها وتصرفها في الحياة ، على غرار ما تتباين حياة الناس على وجه الأرض . ويكون نصيبها في القصة متفاوتا من حيث التأثر والتأثير .) (3)

---

1 - هـ . ب . تشارلتن . فنون الأدب : ص . 149 - 150 .
2 - محمود تيمور ، فن القصص . ص : 100 .
3 - د . محمد يوسف نجم ، فن القصة . ص : 09 .

نشأة الروايـــة العربيـــة

يكاد يجمع النقاد على أن رواية ـ زينب ـ لـ (محمد حسين هيكل) هي أول روايـة فنيـة في مصر اذ سرعان ما ازداد الاقبال بعد ظهورها على كتابة الرواية الفنية .

(وانطلقت الرواية المصرية في محاولة جادة للتوفيق بين متطلبات البيئـــة المحلية وبين مواكبة التطورات العالمية ،وتعددت اتجاها وتشعبت موضوعاتها واغتنت تقنياتها ،واحتلت مكانتها اللائقة في مسيرة الأدب العربي الحديث وبلغت مستويات جيدة من النضج والاتقان .) (1)

وكانت الروايـة التاريخية أسبق أنواع الروايات العربية الى الظهور وأول من ألف في هذا الميدان (سليم البستاني) ،و (جرجي زيدان) ،و (محمد فريد أبو حديد)، و (عبد الحميد جودة السحار) . وفي الرواية الاجتماعية كتب (طه حسين) ،و (توفيق الحكيم) ،و (عبد الرحمن الشرقاوي) . ثم جاء عملاق الرواية العربية (نجيب محفوظ) . ثم تلا هم الجيل الثاني (يوسف ادريس) ،و (جمال الغيطاني) و (يوسف القعيـــد) ، و (صنع الله ابراهيم) و (عبد الحكيم قاسم) ،وغيرهـم .

ان الظروف التي أدت الى انتشار الرواية العربية يمكن اجمالها فيمايلي :

1 - (بروز الطبقة الوسطى التجارية والمهنية التي تتطلب أدبا يعبر عـــن ذوقها ويصور آمالها وطموحها .

2 ـ ظهور فئة المثقفين الذين درسوا في المدارس والكليات الحديثة واطلعوا على العلوم والآداب الغربية . فتغيرت أمزجتهم ،وتبدلت نظرتهم الى الحياة .

3 ـ ظهور المطبعة التي ساعدت على انتشار الكتب المترجمة والمؤلفة وعلـــى اصدار الصحف والمجلات المختلفة .) (2)

1ـ د . حسام الخطيب : سبل المؤثرات الاجنبية وأشكالها في القصة . ص : 14 .

2ـ د . محمد يوسف نجم ،مجلة الآداب البيروتية عدد 10 . 1977 .

نشــأة الروايــــة الجزائـرية

ظهرت الرواية الجزائريــة المكتوبـة بالفرنسيــة بعد الحرب العالميــة الثانية وبالتحديد في سنة 1950 على أيدي رواد كيار بلغوا درجة عاليــة في مضمار الفن الروائي .

وفي هذا السياق يقول أحد الباحثين مشيرا الى هذه الكوكبـــــة من الروائيين الذين كانت لهم شهرة واسعة في هذا المجال (في الخمسينات من هذا القرن برزت في الادب الفرنسي التعبير جماعة من الكتاب الذيـــــن يتميزون بالموهبة الاصيلة والعبقرية الفذة في الانتاج الأدبي والمسرحـــي والذوق الحسن ،والمقدرة على الرواية والكتابة ،والمنف في التعبير ،والتجـاوب العميق مع الارض التي ولدوا فيها والمجتمع الذي نشأوا فيه ...

هذه الجماعة ،ونعني بها كاتب ياسين ،ومولود فرعون ،وجان عمـــروش ومولود معمري ،ومحمد ديب ،ومالك حداد ، وآيت جعفر ،برزت على المسرح الوطني فخلفت جماعة الكتاب الفرنسيين الذين لم يكن يهمهم من الجـــزائـــر سوى ما فيها من مناظر طبيعية خلابة ،وخيرات كثيرة . ولهذا فان انتـــاج الفرنسيين كان ذا طابع غنائي ،فعبروا عن أحاسيسهم الذاتية ولم يهتمـــوا لا بالمجتمع ولا بالانســان .) (1)

وقد عالج الكتاب الجزائريون القضايا والاوضاع الاجتماعية والاقتصاديــة والثقافية والسياسيــة في البلاد قبل الثورة وأثنائها ،وبعد الاستقلال .

---

1 - د . حنفي بن عيسى . الرواية الجزائرية المعاصرة ،مجلة الثقافة عدد 8، 9، 1972 .

فألف (مولود فرعون) رواية (ابن الفقير) عام 1950 ورواية (الارض والدم) عام 1953 ،و (الدروب الوعرة) عام 1957 . كما ألف مولود معمري (الهضبة المنسية) عام 1952 ،و (سبات العادل) عام 1955 ثم ألف فيما بعد (الافيون والعصا) عام 1965 .

أما (محمد ديب) فنشر ثلاثيته الشهيرة (الدار الكبيرة) عام 1952 و(الحريق) عام 1954 ،و (النول) عام 1957 .

وألف (كاتب ياسين) رواية (نجمة) عام 1956 . ونشر (مالك حداد) أربع روايات بدأها (بالبصمة الاخيرة) عام 1958 ،و (سأهديك غزالة) عام 1959 ،و (التلميذ والدرس) عام 1960 ،و (رصيف الازهار لا يجيب) عام 1961 .

أما (آسيا جبار) فألفت (العطش) عام 1957 ، و (الجازعون) عام 1958 ،ثم ألفت فيها بعد (أبناء العالم الجديد) عام 1962 . وأخيرا وليس آخرا جاء دور (رشيد بوجدرة) بعد الاستقلال فألف عدة روايات من بينها . (الطلاق) عام 1969 ، (الرعن) عام 1972 ،و (الحلزون العنيد) عام 1977 ،و (الف عام وعام من الحنين) . 1981 وهناك روائيون آخرون من الشباب كتبوا روايات بالفرنسية ،لا يتسع المقام لذكرهم . عالجت الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية قضايا الشعب وهمومه المختلفة من فقر وجهل وتشرد وبؤس وحرمان . كما وصفت الهجرة والبطالة والظلم والقهر الذي كان يعاني منه الشعب الجزائري ،وخاصة الجماهير الكادحة التي كانت تعيش في ضنك العيش وبؤس الحياة الى درجة أصبح فيها الفرد الجزائري لا يجد ما يسد رمق جوعه ،فهو في شقاء دائم وعذاب مستمر ،يسعى وراء لقمة العيش الصعبة البعيدة المنال فلا يظفر بها !

(ان الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية هي رواية واقعية نقدية تنعكس فيها أماني الجزائر وعواطفها وتقاليدها وأساطيرها واعتقاداتها . وهذه الرواية شديدة الارتباط بالارض الجزائرية وبالأمة الجزائرية . هذه الأمة التي قاومت الاستعمار الاستيطاني وسياسته في التجهيل والافقار بكل مستوياته الفكرية والروحية والمادية . احتفظت بصلابة طابعها وقد تمكنت هذه الرواية بالرغم من لغتها المستعارة تصوير سنوات الجمر التي اكتوى فيها الشعب الجزائري . بما فيها من مرارة وألم وحرمان وعذاب وبؤس وشقاء وفجائع .) (1)

كما سجل الروائيون الجزائريون الأمراض الاجتماعية الخطيرة كالرشوة وبيع الضمير والانتهازية وجهل المرأة وضياعها . . . الخ .

هذه الامراض التي عاقت المجتمع عن التطور وكبلته سنين طويلة حتى انقشع ظلام الاستعمار وانبثق فجر الاستقلال . كما عبر هؤلاء الكتاب بصدق وعمق عن فترة قاسية ذاق الشعب خلالها من الظلم والاضطهاد الشيء الكثير .

وقد اتخذ كتاب الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية موقفا حازما مع الشعب الجزائري كله ،فصوروا في رواياتهم ، آلامه وآماله وحالة تشرده وضياعه أصدق تصوير وأدق تفصيل كان هذا قبل ثورة نوفمبر 1954 .

أما أثناء الثورة فقد سجل هؤلاء الروائيون صيحات الرفض والتمرد وتحول هذا الرفض والتمرد الى السخط والغضب والاستنكار فأعلن الشعب حينئذ العنف الثوري ضد الاستعمار ولم يكتف الأدباء الجزائريون بالتحدي

---

1 - الشاذلي الساكر . سنوات الجمر في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية مجلة الحياة الثقافية التونسية ،عدد خاص بالجزائر.عدد 32 ، 1984 .

السياسي بل شنوا حربا على العدو بالكلمة المقاتلة والأدب الملتزم ودفعوا أرواحهم الطاهرة ودماءهم الزكية في سبيل تحرير الوطن وتطهيره من الأرجاس الغاصبين . فاستشهد (أحمد رضا حوحو) و (مولود فرعون) من كتاب الرواية . كما أستشهد (الربيع بوشامة) ،عبد الكريم العقون) و(محمد الأمين العمودي) من الشعراء :

أما في مجال القصة المكتوبة بالعربية فيشير بعض الدارسين الى أن فضل الثورة التحريرية كان كبيرا في تطوير أحداث القصة ومضامينها . (وتأتي الثورة التي دفعت بالقصة الجزائرية خطوات الى الأمام بأن جعلتها تتجه الى الواقع تستمد منه مضامينها وموضوعاتها . لقد كشفت ظروف النضال للكتاب عن امكانيات ضخمة وتجارب جديدة . وأصبح بطل القصة هو الانسان البسيط المناضل لا البطل النادر الخارق للعادة .،أصبحت القصة تعالج مشاعر هذا الانسان ومعاناته ،حياة المجاهدين في الجبل ومشاركة المرأة في الثورة ،الاغتراب والهجرة للفلاح والعامل .) (1)

وقد تعاطف كتاب الرواية مع كافة الفقراء وجميع فئات الشعب المختلفة من عمال وفلاحين وفقراء كادحين وفقراء كادحين فاتخذوا منهم موقفا تضامنيا أخويا فصوروا آلامهم وآمالهم وحالة تشردهم وضياعهم أصدق تصوير وأدق تفصيل في جميع رواياتهم سواء كان ذلك في الريف أو القرية أو المدينة .

يقول أحد الدارسين عن طبيعة الأبطال وواقعهم .

(ومن هنا لا نعجب حين نرى أولئك الأبطال الذين يعالج الكتاب من خلالهم المشكلات يصورون الحياة الاجتماعية ببؤسها وحاجاتها وشعورها

---

1 - د . عبد الله ركيبي . تطور النثر الجزائري الحديث . ص : 171 .

بالمرارة وثورتها على الظالم والمسف ،انهم أبطال واقعيون يعيشون في مستوى الشعب العادي . انهم يعيشون بشعوره ويتفاعلون معه سلبا وايجابا ليسوا خياليين أو مثاليين . كما أنهم ليسوا انهزاميين أو رجعيين . انهم أفراد تتمثل فيهم طبائع البيئة بخيرها وشرها ،بحقدها وتعاونها ،بفشلها وانتصارها ، بارتباطها بالماضي وتطلعها الى المستقبل . هذا هو البطل كما فهمته الرواية الجزائرية . انه شخص عادي ركز فيه وعليه كل مشاعر المواطن ،فليس له مؤهلات خاصة ولا استعدادات خارقة .) (1)

وفضلا عن هذا فان أبطال الكتاب الجزائريين (انما يعطون كذلك صورة لمجتمع القرية والمدينة فهم أصحاب الأرض أو الفلاحون أو الاجراء الذين يعملون في أراضي الاوربيين . وتختلف تلك الصورة تماما عن صورة الجزائر التي تصادفها في قصص كتاب الاستعمار ،والتي لا تتعدى كونها بلاد الشمس المشرقة والسماء الصافية ومزارع الزيتون الممتدة على مدى البصر ،والبحر الهادئ أحيانا والهادر أحيانا أخرى بلاد الشمس والهواء النقي والطبيعة الجميلة . وأبطال قصصهم لا تتعدى حدود الصورة التي رسمها (ألبير كامو)وهي صورة الشباب اللامبالي القلق الذي لا يعرف ماذا يعمل وماذا يريد . يحب ويكره ويقتل وهو لا يعرف لماذا . تلك الصورة تناقضها تماما الصورة التي رسمها محمد ديب ،وأبطال محمد ديب هي جزائر أولئك الجزائريين الذين يهبون دموعهم وعرقهم ودماءهم لتخضر غابات الزيتون ،ولكي تثمر أزهار البرتقال . وهو يصور حياة أولئك وآمالهم وآلامهم وحرمانهم ووجودهم المرير .) (2)

---

1 ـ د . أبو القاسم سعد الله : دراسات في الأدب الجزائري الحديث .ص: 58 .
2 ـ د . شعاد محمد خضر : الأدب الجزائري المعاصر . ص : 153 .

ولا غرابة في ذلك فقد كان أولئك الكتاب أنفسهم قد يذوقون مرارة الفقر وبؤس الحياة فانعكست تلك المآسي على آثارهم الأدبية . فخبروا شرحها وعرفوا بؤسها عن قرب وعن تجربة وخبرة وممارسة .

(فهم في الواقع يشبهون الكتاب الامريكيين الى حد كبير من هذه الناحية حيث أنهم لم يمارسوا الأدب الا بعد التجارب التي اقتنوها في مختلف الحرف ،لذلك جاءت موضوعاتهم الأدبية تعبر عن حيرة شخصية بالمشاكل اليومية .

وهكذا نجد (كاتب ياسين) مثلا قد احترف الصحافة والعمل في الموانئ والزراعة قبل أن يمارس كتابة الرواية .

أما (محمد ديب) فقد اشتغل محاسبا ونساجا ومعلما وصحفيا قبل أن يدخل ميدان الأدب . ومن المهم أن نلاحظ أن هؤلاء الكتاب جميعا قد مارسوا مهنة التعليم ،وهي مهنة مازال يشغلها الكثير منهم الى اليوم . أما الصحافة فقد منحتهم الفرص لكي يروا ويشعروا بالعالم حولهم .) (1)

ومن المعروف أن أبطال الروايات المكتوبة باللغة الفرنسية انما ينتمون الى الطبقات الكادحة المطحونة التي كبلتها القيود الاستعمارية من تخلف وجهل وفقر وحرمان . . . الخ .

(وصفات أبطال (محمد ديب) وغيره من كتاب الرواية تحاول أن تدلل على أن الصراع قد أصبح عاملا من عوامل تكوين الشخصية الجزائرية ،ويتحرك أولئك الأبطال ولكن ذلك القلق يتحول الى ترقب الى ثورة مسلحة لا تبقى

---

1 - د . أبو القاسم سعد الله ،دراسات في الأدب الجزائري الحديث . ص : 58 .

ولا تذر ليعبروا عن بداية حركة الجماهير انها الجزائر تستيقظ وتستعد للمعركة الفاصلة .) (1)

وفي هذا المجال يؤكد الدكتور أبو القاسم سعد الله على : (أن البطل في الرواية الجزائرية ليس مثلا أعلى ولا نموذجا خارقا تتجسد فيه فكرة أو مبدأ عام . وانما هو انسان واقعي فيه كل ما في الواقع من مأساة وحرارة وصراحة سواء كان هذا البطل صغيرا أو كبيرا ، رجلا أو امرأة ، يمثل عمالا في المصانع أو نساء بين أربعة جدران .) (2)

ورغم أن ثقافة كتاب الرواية فرنسية محضة وتعبيرهم ولغتهم فرنسية صرفة . الا أن أفكارهم وشعورهم ومعتقداتهم عربية أصيلة ، تنبع من الواقع الجزائري : (وأقل ما يمكن أن يقال أنهم يشعرون بشيء من الحرج اذ يكتبون بلغة ليست هي لغتهم ألم يقل أحد هؤلاء ، وهو مالك حداد ، بأن اللغة الفرنسية هي منفاه ؟ وكيف لا يشعر بالحرج وهو يعرف أنه مهما حاول فلن يرتفع الى مستوى الكتاب الفرنسيين ، لأن قلبه عربي الشعور وان كان لسانه أعجمي الألفاظ ؟ ان العبارات المنمقة التي يصوغها بأسلوبه الفرنسي ان هي الا قوالب وأشكال . . . وأما الروح ، وأما الافكار ، وأما المعاني ، وأما الشعور فكلها عربية تنبع من صميم الواقع الجزائري ، ومن هنا نشأ هذا الصراع النفسي الذي يعانيه كل كاتب جزائري . فهو متمكن من الفرنسية ، مقتدر فيها ، عارف بأسرارها ، ومطلع على آدابها ، ولكنه متيقن أنه لن يبلغ فيها الذروة ولن يصل الى ذلك المستوى الذي يجعل الكاتب راضيا عن انتاجه .) (3)

---

1 - د . سعاد محمد خضر . الادب الجزائري المعاصر . ص : 152 .
2 - د . أبو القاسم سعد الله ، دراسات في الأدب الجزائري الحديث . ص : 60
3 - د . حنفي بن عيسى . الرواية الجزائرية المعاصرة مجلة الثقافة عدد 8-9 ، ص: 68 .

(أما الشاذلي الساكر) فيشير الى أن الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية كانت متأثرة بالرواية الفرنسية الى حد بعيد وأنها ولدت ناضجة مكتملة .
فـ(الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية ولدت ناضجة مكتملة وكأنها ابنة تجارب الرواية كلها لقد بدأت من حيث انتهت الرواية الفرنسية لكنها نجحت . لقد كتبت باللغة الفرنسية - لا منازع في ذلك - لكن طريقة السرد فيها والحوار وبناء الحادثة ورسم الشخصيات والصياغة كانت كلها عربية ،كان الجسد افرنجيا لكن الروح عربية .) (1)

ونلاحظ أن تطور الرواية المكتوبة بالفرنسية يرجع الى المستوى الثقافي الذي يمتاز به كتاب هذه الروايات والى اللغة الشاعرية الجيدة التي تعبر عن أفكارهم وآرائهم المختلفة أصدق تعبير ،يضاف الى ذلك تشجيع النقاد الفرنسيين لهم واحتفاء دور النشر الفرنسية المختلفة بأنتاجهم الادبي والفني مع تقديم الجوائز المشجعة لهم ،وكذلك احتكاك هؤلاء الروائيين الجزائريين بكبار الكتاب والنقاد الفرنسيين عن كثب . وتأثرهم الشديد بهم ،فصقلت مواهبهم الفنية وازدهرت أساليبهم الأدبية بشكل ملحوظ . يتجلي ذلك واضحا في انتاجهم الروائي . ولا غرابة في ذلك فقد كان معظم هؤلاء الروائين يكتبون الشعر الجيد الى جانب الرواية مثل (محمد ديب)و (مالك حداد) ،و (مولود فرعون) و (كاتب ياسين) وغيرهم .

وبعد انقشاع ظلام ليل الاستعمار الحالك عن بلادنا ،كانت وضعية التعليم تمر بظروف صعبة ومعقدة للغاية من جراء هجرة الكفاءات العلمية التي تركت فراغا رهيبا في المؤسسات الرسمية ،مما دفع بالدولة أن تبذل مجهودات جبارة لتطوير قطاع التعليم ، وانقاذه من الوضعية المتدهورة التي آل اليها ،فسخرت له جميع الامكانيات وانتهجت سياسة ديمقراطية

1 - الشاذلي الساكر . مجلة الحياة الثقافية التونسية . عدد خاص بالجزائر 1984 .

ففتحت أبواب المدارس على مصراعيها لابناء الشعب الجزائري الذي ظالما حرم من نعمة العلم والمعرفة .

وهكذا أصدرت وزارة التربية في اكتوبر 1962 قرارا يقضي بفتح المجال للغة العربية في جميع المدارس عبر أنحاء التراب الوطني ، رغم ندرة معلمي اللغة العربية .

واذا ألقينا نظرة فاحصة على التعليم بين الامس واليوم نجد أن البون شاسع والفرق كبير بين ما كانت عليه اللغة العربية في السابق وعلى ما أصبحت عليه اليوم ولغة الارقام خير شاهد على ما نقول . فاذا ما تصفحنا المصادر الرسمية للتعليم غداة الاستقلال نجد أن عددا التلاميذ الذين طرقوا أبواب المدارس لاول مرة في عهد الاستقلال كان لا يتجاوز 700 ألف تلميذ عام 1962 في المرحلة الابتدائية .

أما التعليم الجامعي فلا يتجاوز عدد طلابه 1000 طالب . وبعد أربعة وعشرين سنة من الاستقلال -(1962 - 1986) تطالعنا المصادر الرسمية بأرقام مذهلة تصل الى حد الخيال في ارتفاع نسبة التعليم في جميع مراحله المختلفة . ففي المرحلة الابتدائية كان عدد التلاميذ عام 1962 لا يتجاوز 700 ألف تلميذ ليقفز هذا العدد في سنة 1985 - 1986 الى خمسة ملايين وأربعمئة ألف تلميذ في المدارس والمتوسطات والثانويات .

أما التعليم العالي فقد خطا خطوة عملاقة منقطعة النظير اذ قفز هو الاخر قفزة جبارة ليرتفع عدده من 1000 طالب الى 180 ألف طالب جامعي.(1) واستجابة لتطلعات ومطامح الجماهير الشعبية العريضة في ربوع البلاد التي

---

1 - انظر جريدة الشعب ومجلة المجاهد . يوم 10-9- 1985 و 7 - 10 - 1985 .

ظلت سنين طويلة ،تنتظر في شوق دائم ولهفة كبيرة ،وحنين بالغ عودة لغتها العربية من جديد واعطائها المكانة اللائقة بها لذلك اتخذت الدولة قرارا ثوريا يقضي بتعريب التعليم في جميع مراحله المختلفة . ولم تكف بهذا بل كلفت لجنة من الوزراء تقوم بمهمة المتابعة والتطبيق والتقييم .

وعلى هذا الاساس نرى أن اللغة العربية التي أشرفت على الاحتضار في العهد البائد ،قد ازدهرت وتطورت وعاد اليها اعتبارها ووجهها المشرق الوضاء ،فأصبح أدباؤنا يعدون بالمئات ،بعد ما كانوا يعدون على أصابع اليد الواحدة ،فلمعت وتألقت أسماء عديدة في مجالات الشعر والقصة القصيرة والرواية والمسرحية والدراسة النقدية .

- 8 -

أشرق فجر الرواية الجزائرية العربية سنة 1947 علي يدي الرائد الاول (أحمد رضا حوحو 1911 - 1956) . في روايته (غادة أم القرى) التي كتبها بالحجاز وأراد بها أن يلمح الى المرأة الجزائرية التي تعاني ضروبا مختلفة من الجهل والتخلف ولم يستطع المؤلف أن يخرجها باسم أسرة جزائرية خوفا من سلطة المجتمع ،مكتفيا باهدائها الى المرأة الجزائرية فيقول في مقدمة الرواية (الى تلك التي تعيش محرومة من نعمة الحب ،من نعمة العلم ،من نعمة الحرية ،الى تلك المخلوقة البائسة المهملة في هذا الوجود ،الى المرأة الجزائرية أقدم هذه القصة تعزية وسلوى) .(1)

وحينما صدرت الرواية عام 1947 ثار عليها كثير من الناس وخاصة القلوب المتحجرة والنفوس المتزمتة التي اعتبرتها دعوة لتحرر المرأة وخروجها من سلطة الرجل .

وخرجت هذه الرواية الى حيز الوجود في وسط منغلق يعتبر خروج المرأة وصمة عار في جبين الفرد والمجتمع .

---

1 - أحمد رضا حوحو ،غادة أم القرى ، ص : 05 .

وتبدو الرواية في حد ذاتها دعوة صارخة من (أحمد رضا حوحو) الى تحرير المرأة الجزائرية من الأوهام والخرافات ،متأثرا في ذلك بدعوة (قاسم أمين في تحرير المرأة وقضية الحجاب في الشرق العربي .

وتعتبر هذه الرواية أول رواية جزائرية بالعربية ، ومثلما تؤرخ الرواية المصرية ب (زينب) عام 1914 ل (محمد حسين هيكل) تؤرخ الرواية الجزائرية العربية ب (غادة أم القرى) ل (أحمد رضا حوحو) عام 1947 . بغض النظر عما أثير حولها من خلاف في مستواها الفني .

وفي حوالي عام 1951 ظهرت رواية (الطالب المنكوب)[1] ل (عبد المجيد الشافعي) ،تتحدث هذه الرواية عن طالب جزائري عاش في تونس في أواخر الاربعينات . أحب فتاة تونسية وسيطر عليه حبها حتى انه كاد يغمى عليه من شدة الحب .

يصف الدكتور (عبد الله ركيبي) هذه الرواية ،(بأنها رومانسية في أسلوبها وموضوعها ،أنها ساذجة في طريق التعبير .)[2]

هذا بالنسبة للرواية قبل الاستقلال ،أما بعد الاستقلال فقد نشرت أول رواية عربية جزائرية بعنوان (صوت الغرام)[3] مؤلفها (محمد منيع) تدور أحداثها في الريف الجزائري ،حول علاقة حب تنشأ بين البطلين (العمي) و (فلة) ،في وسط متخلف تتحكم فيه العادات والتقاليد البالية التي تحرم أية

---

1 - عبد المجيد الشافعي . الطالب المنكوب ،دار الكتب العربية تونس عام 1951

2 - د . عبد الله ركيبي ،تطور النثر الجزائري الحديث عام 1976 . ص : 198 .

3 - محمد منيع . صوت الغرام مطبعة البعث قسنطينة عام 1967 .

علاقة حب بين شاب وشابة ،مهما كانت براءة هذه العلاقة ، وتفشل هذه العلاقة . بسبب خجل البطل ،وسلبيته الذي لم يستطع حتى التعبير عن مشاعره لتلك الفتاة . بل كانت الفتاة أكثر منه جرأة وصراحة ،حين اقترحت عليه خطة الفرار عندما فشل في ايجاد حل لمشكلتهما .

ورواية (صوت الغرام) سطحية الطرح وساذجة الافكار وضعيفة الاسلوب واللغة ،وبالتالي فهي رواية رديئة شكلا ومضمونا . وهي تشبه رواية (الحب المنكوب) ل (عبد المجيد الشافعي) فكلتا الروايتين ضعيفة في الشكل والمحتوى !! .

يعزو الدكتور (عبد الله ركيبي) تأخر ظهور الرواية العربية في الجزائر الى الاسباب التالية :

(1 - صعوبة فن الرواية ،لانه يحتاج الى صبر وأناة وتأمل طويل .
2 - انعدام نماذج روائية جزائرية بالعربية ،يمكن تقليدها والنسج على منوالها .
3 - عدم توفر اللغة الطيعة المرنة التي تصور البيئة الكاملة في الرواية (1)

واذا دققنا النظر في هذه الاسباب ،نخالف الدكتور (عبد الله ركيبي) ، لأن هذه الاسباب ربما تجوز في عهد الاحتلال الظالم . أما بعد الاستقلال فلا يجوز بأية حال من الاحوال ،ولا ينبغي أن يبقى الكتاب مكتوفي الايدي فترة تقرب من عشر سنوات بحجة الصبر والتأمل الطويل ،فلا تخرج أية رواية فنية جيدة ،الى حيز الوجود ،من بداية الاستقلال الى أوائل السبعينات الا اذا أعتبرنا أن الكسل العقلي كان مسيطرا على الروائيين ،فلا تصدر رواية واحدة ،

---

1 - د . عبد الله ركيبي : تطور النثر الجزائري الحديث : ص : 198 .

الا بعد سبع سنوات . كما صرح بعضهم في مقدمة روايته .

أما عن عدم توفر اللغة الطيعة التي تصور الرواية ، فهذه ليست بحجة يتمسك بها الروائي ،بدليل أن القصاصين قبل الاستقلال وبعده ، هم الذين كتبوا في الرواية . وكانت لغتهم مرنة وطيعة مثل (عبد الحميد ابن هدوقة) و (الطاهر وطار) و (زهور ونيسي) .
هؤلاء الكتاب ،قد مارسوا الفن القصصي ،كما مارسوا الفن الروائي فيما بعد وفي قصص الدكتور (عبد الله ركيبي) نفسه والدكتور (أبو العيد دودو) لغة جيدة . تمتاز بالمرونة والمتعة الفنية والقيمة الادبية والجمالية الى حد بعيد . فكيف اذن لم يعالجا هما وغيرهما فن الرواية ؟

أما عن انعدام نماذج روائية كتلك التي يمكن محاكاتها . فليس بحجة يتذرع بها الروائي أيضا . فأذا كانت النماذج الروائية منعدمة لكتاب جزائريين ف (القاهرة) و (بيروت) و (دمشق) لا يفتقرون الى تلك النماذج الروائية الفنية الجيدة .

علما أن هذا الفن نشأة عندهما منذ العشرينات من هذا القرن ، وبرز فيه كتاب كبار ،مثل (طه حسين) ،و (العقاد) ،و (المازني)وغيرهم.

فكيف لا يحاكي ولا يقلد كتابنا أولئك الكتاب الذين قطعوا أشواطا بعيدة في فن الرواية ؟ مثل (توفيق الحكيم) ،و (نجيب محفوظ) ،و (يوسف ادريس) ،وغيرهم ممن لهم باع طويل في هذا المجال .

ومالنا نذهب بعيدا ،اذ أن أسواقنا زاخرة . بمؤلفات هؤلاء الكتاب منذ الاستقلال الى الآن .

والغريب أن بعض المثقفين الذين غادروا البلاد الى تونس والمشرق العربي طلبا للعلم والمعرفة ومكثوا مدة غير قليلة هناك ،على اتصال وثيق بالفن الروائي ونهلوا من معينه الذي لا ينضب بالاضافة الى احتكاكهم بكبار النقاد عن كثب ومع ذلك لم يحاولوا كتابة الرواية وحصروا أنفسهم في نطاق دائرة القصة القصيرة الضيق دون الاهتمام بالفن الروائي ؟! .

وكنا نود لو أن الرواية العربية الجزائرية استمرت منذ أن بدأها الرائد الاول (أحمد رضا حوحو) وازدهرت فيما بعد على أيدي كتاب آخرين مثلما هو الشأن في المشرق العربي لتصير في مصاف الروايات العالمية الراقية ولكن الظروف أبت ذلك وتأخرت الرواية الى بداية السبعينات كما سبق أن أشرنا .

وأملنا أن يزدهر هذا الفن في المستقبل القريب على أيدي كتاب يبشر انتاجهم بالجودة والاتقان مثل (الطاهر وطار) ،و (عبد الحميد بن هدوقة) و (مرزاق بقطاش) و (رشيد بوجدرة) الذي تحول الى كتابة الرواية بالعربية بعد ما كان يكتبها بالفرنسية .

وفي الفصل التالي نعالج دراسة الروايات التي تشتمل على الاتجاه الاجتماعي .

الفصل الأول

الاتجـــــاه الاجتماعـــــي

تناولنا في التمهيد كيف أن الاستعمار الفرنسي ،صبّ على الشعـــــب الجزائري المصائب والويلات ،فعانى الشعب الجزائري من جراء ذلك مآسي الفقر، ومشاكل الجهل ،والمرض لقد عانى الكثير الكثير . وأوضحنا كيف أن الشعـــــب الجزائري كان يعيش أجواء من التخلف والخرافات والأوهام . وقد امتدت هــــذه الظروف المأساوية الى ما بعد السنوات الأولى من الاستقلال .

وأمام هذه الوضعية السيئة ،تعالت أصوات الشعب الجزائري ،بكـــل فئاته وشرائحه المختلفة ،منددة ومستنكرة بشاعة الاستعمار ووحشيته ،لأنها أعتقدت اعتقادا راسخا ،أن الاستعمار الفرنسي هو المسؤول الأول وأنه هـو السبب الرئيسي لخلق هذه المآسي والكوارث التي أصابت الشعب ودمرته سنين طويلة . بدءا بتجويعه وتجهيله ،ومرورا بطمس مقوماته الأساسية ،وانتهاء بمحاولاته الكثيرة لاجتثاث ثقافته العربية الاسلامية .

وكانت هذه هي الأسباب والدوافع الرئيسية التي جعلت الشعـــــب الجزائري برمته يثور في وجه الاستعمار ،ويعلنها حربا شعواء ضده ،ومالبث أن فجر ثورة نوفمبر 1954 . بقيادة جبهة التحرير الوطني التي حررتـــه من قيود وأغلال الاستعمار .

واذا كانت الرواية الجزائرية بالفرنسية قد ركزت على تشخيص مظاهر البؤس والفقر والحرمان والتخلف قبل الثورة التحريرية . فان الرواية الجزائريـــة المكتوبة بالعربية حاولت أن تشير الى أحداث الثورة الوطنية ثم الخوض في الحديث عن ثورة البناء والتشييد التي انتشلت الفلاح والعامل الجزائري من بؤرة الفقر والتخلف .

ريح الجنوب

ل (عبد الحميد بن هدوقة)

تعتبر رواية " ريح الجنوب ،أول رواية فنية راشدة باللغة العربية بعد الاستقلال . في الادب الجزائري المعاصر . وهي أيضا أول بكورة فنية للمؤلف في الفن الروائي .أما انتاجه القصصي فقد بدأه منذ أوائل الستينات من هذا القرن .

تعلم المؤلف العربية والفرنسية في المنصورة . ثم تابع دراسته بقسنطينة ثم انتقل الى جامع الزيتونة بتونس . وذهب الى فرنسا للعمل فأتقن اللغة الفرنسية جيدا .

وبعد الاستقلال عاد (ابن هدوقة) الى أرض الوطن فعين مسؤولا في الاذاعة الوطنية وتدرج في سلم الوظيفة الى أن أصبح مديرا . وهو الآن مستشارا ثقافيا للادارة العامة للاذاعة والتلفزة الجزائرية .

صدرت للمؤلف الأعمال الأدبية التالية :

- ظلال جزائرية مجموعة قصصية نشرت عام 1960 بيروت .
- الأشعة السبعة مجموعة قصصية نشرت عام 1962 تونس .
- الكاتب وقصص أخرى مجموعة قصصية نشرت عام 1973 الجزائر .
- ريح الجنوب رواية نشرت عام 1970 الجزائر .
- نهاية الأمس رواية نشرت عام 1974 الجزائر .
- بان الصبح رواية نشرت عام 1978 الجزائر .
- الجازية والدراويش رواية نشرت عام 1983 الجزائر .

- الأرواح الشاغرة شعر حر نشر عام 1983 الجزائر
- قصص من الأدب العالمي (ترجمة) نشرت عام 1980 الجزائر.

وله أعمال أخرى قصصية روائية تحت الطبع .

ملخص الرواية :

تتلخص رواية " ريح الجنوب " في أن فتاة ريفية تدعى (نفيسة) في الثامنة عشرة من عمرها كانت تسكن عند خالتها في الجزائر العاصمة تدرس في الجامعة . وفي عطلة الصيف عادت الى القرية لتقضي العطلة الصيفية بين أهلها وذويها طلبا للراحة من عناء الدرس والمراجعة ،ولم تمر على هذه الفتاة غير فترة وجيزة من العطلة حتى فوجئت بأنها لن تعود الى العاصمة مرة ثانية ، لأن أباها قرر أن يزوجها (بمالك) شيخ بلدية القرية حرصا منه بأن تكون هذه المصاهرة سندا قويا يحتمي به ، ويحفظ أملاكه وأراضيه من التأميم . باعتبار أن قضية الاصلاح الزراعي في نظره هي قضية الخطر المهدد له . لأن رياح الاصلاح الزراعي قد هبت على الأرياف الجزائرية ،وأصبحت حديث الخاص والعام . وأحدثت الرعب والهلع في قلوب البرجوازية والاقطاعية .

وعندما سمعت (نفيسة) خبر هذا الزواج رفضته رفضا قاطعا بحجة مزاولة دراستها الجامعة . وأنها لن تفكر في قضية الزواج اطلاقا مادامت لم تكمل دراستها الجامعية بعد . وبعثت رسالة فورا الى خالتها (زبيدة) بالعاصمة لتحول دون هذا الزواج المفروض عليها قصرا من طرف أبيها (ابن القاضي) . وطلبت من (رابح الراعي) أن يحمل هذه الرسالة الى بريد القرية المركزي ولما عرفت أن والدها قد صمم على اجبارها من

الزواج بمالك قررت الفرار الى العاصمة ،وأثناء هروبها تعرضت للسعة ثعبان أغبر سقطت اثرها على الارض بين الموت والحياة . وصدفة مرّ بها (رابح الراعي) الذي كانت قد شتمته من قبل . وتردد رابح في أن يتركها تموت ،لكنه أشفق عليها ونقلها الى بيته قصد معالجتها . وتسربت أخبار اختفائها الى أبيها ، فأتى مسرعا الى بيت (رابح الراعي) يحاول ذبحه كالشاة . الا أن أم الراعي هوت على رأس (ابن القاضي بضربة فأس ،سقط على أثرها يتخبط في دمه . وفشلت (نفيسة) في محاولة الهرب فعادت الى البيت تجرّ أذيال الخيبة والاخفاق !؟

الشخصيات :

وتشتمل الرواية على شخصيات رئيسية و ثانوية وهامشية . الا أن الرواية تتركز على شخصيتين محوريتين رئيسيتين : هما شخصية (ابن القاضي) وشخصية ابنته (نفيسة) وسنبدأ بشخصية (ابن القاضي) التي تبدو أكثر حضورا وأشد بروزا من الشخصيات الأخرى في الرواية . هذه الشخصية التي تتمحور حولها أحداث الرواية كلها باعتبارها الشخصية الاقطاعية التي يريد الكاتب من خلالها أن يفضح الاقطاع والبرجوازية وأذناب الاستعمار الذين عاثوا في الأرض فسادا . وركز الكاتب على هذه الشخصية التي لعبت أقذر الأدوار وأبشعها ،أثناء الثورة وبعد الاستقلال حفاظا على مصالحها الذاتية ومآربها الدنيئة . ولو داست بعد ذلك على كل القيم الانسانية والمبادئ الاخلاقية ف (ابن القاضي) عرف بأنه صاحب مكر وخداع يلبس لكل حالة لبوسها ويتخذ لكل أمر قناعا حتى لا تتعرض مصالحه الشخصية للضياع . بل انه يضحي في سبيل ذلك بشرفه وأبنائه مستعملا في ذلك شعاره المعروف " الأبناء هم الحل ". وسار على هذه الخطة طوال مراحل حياته لا يحيد عن ذلك قيد أنملة

مطبقا ذلك الشعار نصا وروحا .

وكان (ابن القاضي) حذرا يقظا خوفا من أن تحرقه الثورة بلهيبها المستعر الذي أحرق كثيرا من الخونة وأذناب الاستعمار . ومن جهة أخرى أخذ الحذر والحيطة من الاستعمار خوفا أن يفتك به عندما يعرف أنه يتعاون مع الثورة أو يتعاطف معها .

ونظرا للمكانة التي يتمتع بها (مالك) في صفوف الثورة والمنزلة الكبرى التي يحتلها في صفوف جيش التحرير الوطني ، فقد قرر (ابن القاضي) أن يتودد اليه ويجعله من أصدقائه المقربين ومن خلصائه المحبين ، وفكر في أن يزوجه بابنته زليخة التي كانت تدرس بالجزائر العاصمة ، هذا الزواج الذي أراد منه (ابن القاضي) أن يكون علاقة وطيدة مع (مالك) فيأمن بذلك جانب الثورة من جهة ودفع الاشتراكات والاعانات التي قد ترهق كاهله من جهة أخرى ، وفعلا وقع مالك في الشراك التي نصبها له (ابن القاضي) فخطب (زليخة) وكاد الزواج أن يتم بينهما لولا وقوع ذلك الحادث المؤلم الذي حطم القطار الذي كانت (زليخة) من بين ضحاياه ، فتحطم القطار وتحطمت (زليخة) وتحطم معهما قلب (مالك) الى الأبد . وفور سماع خبر حادث القطار سارع (ابن القاضي) الى السلطات الاستعمارية ليخبرها بمكان الثوار ومخبئهم الذي كانوا يلتجئون اليه . فحولته السلطات الاستعمارية بمن فيه الى خراب ودمار وتركته أثرا بعد عين ، وانتقمت كذلك من القرية شر انتقام ولم تسلم دار (ابن القاضي) هي الأخرى فقد دمرت وقتل ابنه الحسين من جراء غارات الطائرات وقنبلة المدافع الثقيلة وجرح (مالك) جروحا خطيرة في تلك الكارثة الرهيبة ، وقد ارتكب (ابن القاضي) ذلك الجرم الخطير ، انتقاما لابنته من الثوار ولم يتردد لحظة واحدة في الوشاية بهم الى العدو .

خدمة كبرى قدمها (ابن القاضي) للاستعمار ما كان له أن يقدم عليها لولا خيانة ذلك الماكر الخبيث الذي كان له سجل حافل بالغدر والخيانة والعمالة للاستعمار . ويعتبر (ابن القاضي) هنا نموذجا لفئة من الخونة التي باعت ضمائرها للشيطان .

وتواطأت مع الاستعمار فكم من خائن مثل (ابن القاضي) قد مزقته خناجر الثورة وحصده رصاص الثوار وجلله الخزي والعار عبر القرون والأجيال .

أما المرحلة الثانية من حياة (ابن القاضي) التي تتمثل في فترة الاستقلال والتي تتميز بالاضطراب والقلق النفسي لهذه الشخصية الغريبة الأطوار التي لم تذق طعم الراحة والاستقرار أبدا ، فهو في خوف مستمر سواء في أثناء الثورة أو بعد الاستقلال نتيجة لحرصه الشديد على جمع من المال من جهة وهربا من الضرائب من جهة ثانية وخوفا من ضياع الأراضي والأملاك من جهة ثالثة . وهو يتذمر من حالته السيئة التي صيرت حياته جحيما لا يطاق .

((حياتنا كلها مرت في التخوف والحذر . . . قبل الاستقلال كنا نعيش تحت الظلم فتعودنا حياة الظلم ،وجاء الاستقلال فاذا بظلم الأمس يستمر وتزداد عليه الضرائب الجديدة)) (1)

ف (ابن القاضي) في هذه الفقرة يجعل فترة الاستعمار وعهد الاستقلال في كفتي ميزان واحد ، فكلا هما حسب رأيه استعمار لا فرق بينهما الا في التسمية واختلاف الأشخاص . هكذا يعتقد (ابن القاضي) بكل بساطة وليس غريبا هذا المنطق على الاقطاعية الاستغلالية التي انحدر منها (ابن القاضي) الذي لا يروقه أبدا أن يكشف النقاب عما يقترفه من جرائم وموبقات.

1 - ريح الجنوب . ص : 180 .

انما يهمه أن يعيش في الظلام كالخفاش دون أن تسلط عليه الأضواء الباهرة فتنكشف عيوبه للعيان . ولذلك فهو عندما أحس أن مصالحه قد تتعرض للتأميم ،أقام الدنيا وأقعدها صراخا وضجيجا متناسيا أن هذه الأراضي والأملاك التي استولى عليها . انما هي في حقيقة الأمر أموال الشعب ،قد اغتصبها من أهلها ظلما وعدوانا . منذ عهد طويل . وحينما أحاط به الخطر المحدق ،أشتد حنينه الى الأيام الماضية أيام كان للاقطاع صولة ودولة ،وله الكلمة الأولى والأخيرة دون نقاش أو جدال . أما الفلاحون والعمال فلا يستطيع أحد منهم أن ينطق بحرف أمام جبروت الاقطاع وقهر الاستغلال . الا أن الدائرة دارت عليهم وضاع منهم ذلك العز وتلك المظلمة فراحوا يندبون على الفردوس المفقود في حسرة وحرقة مستمرة .

وانطلاقا من ذلك فان (ابن القاضي) اعتقد جازما أن أرضه سوف تخرج من بين يديه رغما عنه ، وتوزع على صغار الفلاحين ،وان حدث هذا الأمر وأصبح ساري المفعول فيكون بمثابة الكارثة المدمرة التي لا تبقى ولا تذر والتي يرفضها (ابن القاضي) جملة وتفصيلا ، وهو الآن يبحث عن حلول سريعة لهذا المأزق الخطير ،يقول الكاتب واصفا بطله (ابن القاضي) :

((ان الحل القريب الذي يفكر فيه يتعلق بمأزق معين : بأرض لا يود أبدا أن يراها تخرج من حيازته وبسمعة لا يرضى أبدا أن يلحقها الزيف)) (1)

ان (ابن القاضي) يريد أن يبحث عن حل وهذا الحل لابد أن يكون مستعجلا وفي أقرب وقت ممكن خوفا من أن تفلت منه الفرصة الثمينة ويبقى بعدها ذليلا حقيرا فهو في سباق حاد وسريع مع الزمن والأحداث وهو مع ذلك متمسك بعدم افشاء السر حتى مع أقرب الناس اليه وهي زوجته وشريكة

---

1 - ريح الجنوب . ص : 48 .

حياته لئلا تحول بينه وبين ما كان يطمح اليه أو تفسد عليه هذه الخطة التي ينوي تنفيذها مهما كانت الظروف والأحوال الا وهي زواج (نفيسة) من (مالك) شيخ البلدية : ((فالموقف يدعو الى السرعة فالاشاعات المتعلقة بالاصلاح الزراعي كثر دورانها على الألسنة . لو حدث زوجه بكل هذا ماذا ستقول ؟ لا شك أن ابنتها تهمها أكثر من الأرض . وهذا مالا ينبغي أن يقع أبدا !)) (1)

وعلى هذا الأساس سارع (ابن القاضي) الى زوجته طالبا منها أن تخبر ابنتها حول قضية زواجها من (مالك) شيخ البلدية ،ولما بلغه ان (نفيسة) رفضت هذا الزواج غير المرغوب فيه . صرخ بأعلى صوته في وجه زوجته :

((ترفض ؟ ذلك لا يكون أبدا . ان قراري ينفذ مهما كان الأمر . وأضاف قائلا اذا كنت لا أستطيع التصرف حتى في ابنتي فلماذا أحيا بين الناس اذن)) (2).

لقد كان (ابن القاضي) رجل قسوة وعنف وكان يعامل أفراد عائلته معاملة جد سيئة ،فلا يسمح لأيٍّ منهم أن يعصى له أمرا أو يناقش معه قولا مهما كان هذا الأمر بسيطا . وهو مع ذلك متشدد مع أفراد العائلة كلها ومن خالف أو عصى فسوف يسلط عليه صنوف العقاب وأقسى أنواع العذاب ،استمع اليه يخاطب زوجته في شأن زواج ابنته (نفيسة).

((أنا قررت وقراري قضاء)) (3)

قال ذلك وهو في ثورة من الغضب والسخط ،ولما هدأ غضبه ،رجع الى أساليب الخداع والنفاق موجها كلامه الى زوجته في خبث ومكر مستعطفا

---

1 - ريح الجنوب . ص : 91 .
2 - ريح الجنوب . ص : 92 .
3 - ريح الجنوب . ص : 90 .

اياها بكلمات معسولة مؤكدا لها بأنه سوف يبذل كل ما في استطاعته من أجل أن يضمن السعادة والهناء لابنته (نفيسة) فيختار لها زوجا تعيش معه في بيت يسوده الاطمئنان والاستقرار .

واذا كان (ابن القاضي) يحاول تضليل وخداع زوجته حول زواج ابنته المزعوم . فليس معنى ذلك أنها نزوة عابرة تنتهي بانتهاء الغرض المطلوب بل انها سجية شريرة طبعت في نفس صاحبها واستحكمت فيه أيما استحكام فكان لا يترك أية فرصة تمر دون أن يستغلها استغلالا بشعا فيما كان يطمح اليه . ارضاء لفسفته النفعية .

ف (ابن القاضي) ((من النوع الانتهازي ، المداور ، الأناني ، الفردي ، وهذه الشخصية بهذا المعنى تعد سلبية أيضا لأنها لا تقوم بالعمل لهدف سام نبيل أو لمصلحة الآخرين ، بل كل ما يخطط له ويفعله انما هو لمصلحته الخاصة ومن هنا فان كل الطرق والوسائل مباحة عنده مادامت تساعده على أن يحتفظ بالأرض ولو على حساب ابنته وسعادتها فهو يمثل الطبقة الاقطاعية الاستغلالية .)) (1)

أن (ابن القاضي) قد توهم أن حربا لا هوادة فيها ، أصبحت تشن عليه من جميع الجهات ، وشعر أن الناس كلهم ضده ، وهي في حقيقة الأمر حرب وهمية ليس فيها سلاح ولا أعداء ولا خصوم . وانما هي مجرد احساس رهيب استولى على مشاعره فزلزل كيانه وقوض أركانه كالزلزال الذي أحس به (بو الارواح) في رواية الزلزال (للطاهر وطار) وهو سمة مشتركة بين جميع الاقطاعيين الذين عاشوا في الأرض فسادا فدارت عليهم الدائرة وابتلوا

---

1 ـ الدكتور عبد الله ركيبي ، تطور النثر الجزائري الحديث . ص : 205 .

بهذا الفزع الشديد دون عامة الناس . أما عداوة (ابن القاضي) و (مالك) فكانت عداوة خفية يكتنفها الغموض والابهام ولعلها عداوة ذاتية تكتسي صبغة المصلحة الذاتية والمنفعة الشخصية يرجع السبب الرئيسي فيها الى ذلك الخوف الشديد الذي أستولى على (ابن القاضي) خوفا من أن تؤخذ منه أرضه وتوزع على صغار الفلاحين .

ان القارئ لرواية " ريح الجنوب " يكتشف أنها تفتقر الى ذلك الصراع الدرامي العنيف الذي تدور رحاه بين التخلف والتقدم أو بين الجديد والقديم فيجعل أحدهما منهزما والآخر منتصرا . أما الخلاف الذي دار بين (ابن القاضي) و (مالك) حول قضية الأرض والفلاحة فخلاف أثار جدلا ضعيفا ،ومناقشات خافتة ولم ترق الى درجة الصراع المحتدم بين الاطراف المتخاصمة أو المتناحرة في بعض الاحيان .

أما تلك المناقشة التي دار فيها الخصام والخلاف بين (ابن القاضي) و (مالك) فتتجلى فيمايلي :

1 - أن سكان القرية يملأون المقاهي في اللعب والميسر وقتل الوقت في الثرثرة والكلام الفارغ .

2 - ان السكان يكرهون العمل بكافة أنواعه وخاصة خدمة الأرض والفلاحة .

3 - ان أهل القرية لا يحبون خدمة الأرض ولا غيرها . ظنا منهم أن الاستقلال يوفر لهم الراحة والعيش الكريم بدون عمل ولا معاناة .

4 - ان الأرض اذا وزعت على الفلاحين ستصبح في ظرف سنة واحدة أرضا يبابا ومكانا خرابا نتيجة للاهمال وعدم الاهتمام والعناية الكاملة .

5 - يقدم (ابن القاضي) تحذير للدولة من مغبة الاقدام على مغامرة توزيع الأراضي على الفلاحين الصغار . لأنها في رأيه مغامرة غير مأمونة العواقب.

وهو بهذا يريد أن تبقى الأمور على حالها . كما كانت أيام العهد البائد المظلم الذي تنعم فيه فئة قليلة من الاقطاعيين والبورجوازيين المستغلين على حساب الفقراء الكادحين الذين عانوا الكثير من الظلم والقهر والاضطهاد .

وهكذا لم يوفق (ابن هدوقة) في القصد الذي كان يرمي اليه وهو التنديد بأخلاقيات الطبقة الاقطاعية وكشف عيوبها ومساويها للخاص والعام مبرزا فضائعها وجرائمها لجمهور القراء . بدلا من ذلك كله جعل المؤلف بطله (ابن القاضي) رمز الخيانة والاقطاع والجشع في موضع استعطاف القارئ بحيث يظهر في الرواية وكأنه مظلوم يدافع عن اغتصاب أملاكه وأراضيه التي قد تؤخذ منه ظلما وعدوانا . فكان يأتي بالأدلة والبراهين التي تثبت شرعية الأرض له ،دون غيره من الناس .

و (ابن هدوقة) لا يكتفي بأن جعل بطلة (ابن القاضي) يشن هجوما عنيفا على الفلاحين وعمال الأرض ويدعي أنهم يبغضون الأرض ويكرهون العمل مهما كان نوعه . بل انه ذهب الى أبعد ذلك اذ جعل بعض الشخصيات الهامشية في الرواية تردد هذه النغمة الناشزة في حوارلها حول قضية الأرض قال شيخ يحاور شبابا " ان الناس هنا منذ الاستقلال لم يعد يروقهم أي عمل . كل واحد صار ينتظر أن يمنح شهرية مقابل ما يعمله أو ما لم يعمله أثناء الثورة . ولولا كم يابني أنتم الذين تحيون في الغربة ،لولا ما ترسلونه من حوالات لما بقيت في هذه الناحية قائمة ! ان الناس هنا كما قلت لك كرهوا العمل . كرهوا الأرض ومن يكره الأرض ترجعه الى بطنها ."(1)

---

1 - ريح الجنوب ، ص : 44 .

والغريب أن (ابن هدوقة) قد فشل فيما كان يهدف اليه كما فشل قبله (نجيب محفوظ) حين أراد أن يصور أبطاله في رواية" بداية ونهاية " أبطالا ناجحين في حياتهم ينعمون بالسعادة والرفاهية لكن الرواية انحرفت عن القصد وأفلتت من صاحبها زمام الأمر وتحول أبطالها الى الناس يؤساء يتجرعون مرارة الخيبة والاخفاق وانتهت الرواية نهاية مأساوية مؤلمة ! ولم تنته نهاية سعيدة كما خطط لها المؤلف عند البدء .

والملاحظ أن (ابن هدوقة) لم يحاول أبدا أن يفك القيد عن الفلاح لكي يثور ضد الاقطاع والبورجوازية التي سلبت أرضه وانتهكت حرمته وامتصت دمه ."(وان يكن ابن هدوقة قد وفق في طرح مشكلة المرأة في الريف فان توفيقه كان أقل في طرح قضية الأرض اذ أهتم الكاتب بالجري وراء شؤون أبطاله الهامشيين الذين كان يمكنه توظيفهم لخدمة فكرته الأساسية الأرض .)" (1)

وقد عجز (ابن هدوقة) عن اثارة الصراع الدرامي بين الفلاحين وجلاديهم من رجال القطاع والبورجوازية في رواية " ريح الجنوب " بينما استطاع (عبد الرحمن الشرقاوي) مثلا أن يعمق الصراع الحاد والنضال المرير بين الفلاحين وملاك الأرض . حيث كافح الفلاحون كفاحا مستميتا ضد الهيمنة والاقطاع . فحارب بواحر بالاهوادة فيها كافة أشكال الاستغلال صور ذلك الصراع في رواية " الأرض "عام 1954 ،ورواية الفلاح عام 1968 .
ذلك أن " الشرقاوي في كل ما كتب قبل الثورة يؤيد تأييدا كاملا كفاح الفلاحين الأجراء الذين يضحون بكل شيء وبأغلى شيء دفاعا عن أرضهم وعرضهم وترابهم." (2)

---

1 - محمد زنيلي : مقدمة في الرواية الجزائرية مجلة الثقافة والثورة عدد 5 . 1978
2 - د . سيد حامد النساج . بحوث ودراسات أدبية . ص : 146 .

أما (ابن القاضي) فكانت نهايته نهاية مأساوية . اذ بينما كان يلهث وراء كسب ودّ (مالك) لتحقيق أمنيته التي يرغب في تنفيذها بوسيلة أو بأخرى حدث ما لم يكن في الحسبان اذ يفاجأ بنبأ اختفاء ابنته (نفيسة) فأحس بالطعنة القوية تغوص في أعماق قلبه ووجد نفسه وحيدا عاريا من جميع البراقع والاقنعة المزيفة التي كان يخفي وراءها وجهه الحقيقي البشع. فانهار كل ما بناه طيلة حياته وتحطم في لحظة واحدة .

وأخيرا عندما سمع خبر وجود (نفيسة) في بيت (رابح) الراعي. ذهب مسرعا وقد أعماه الغضب ليرتكب جريمة شنعاء . يريد قتل (رابح) انتقاما لشرفه وكرامته . لكن محاولته تفشل ،ويخر على الأرض صريعا اثر ضربة فأس تلقاها من أم (رابح) .

وهكذا دفع (ابن القاضي) ضريبة الجشع والطمع والانانية. واندحر أبشع اندحارا وذهبت جميع محاولاته أدراج الرياح . وبذلك لم يتم ذلك الزواج المزعوم أو تلك المصاهرة المفتعلة بين (ابن القاضي)و (مالك) . كما لم يتم الوفاق والتصالح بين الثورة والاقطاع . بل حدثت المقاطعة التامة والانفصال الكامل بين الطرفين الى النهاية .

أما المحور الثاني في الرواية فهو محور المرأة في الريف والذي تتقمص دوره الاول (نفيسة) الطالبة الجامعية التي كانت تعتزم أن تقضي العطلة الصيفية في الريف بين أهلها وذويها . الا أنه لسوء حظها طرأت عليه ظروف مستجدة أعاقتها عن العودة الى الجزائر العاصمة . كما سبق أن أشرنا .

وقد شعرت (نفيسة) بالقلق والضجر منذ الايام الاولى التي دخلت فيها بيت أهلها واشتد بها الشوق والحنين الى العاصمة . التي ندمت على مفارقتها

ندما شديدا لانها حرمت في هذه القرية من كل شيء ،ولم يسمح لهـا بمغادرة البيت اطلاقا . ولذلك صاحت من أعماقها متبرمة مما هي فيه من احساس ومرارة شديدة ."كل شيء هنا يحرم الخروج ،حتى الشمس ! لكن أي فائدة في الخروج الى الخراب . الصمت ،الصمت ،الصمت ،أكاد أختنق من هذا السكون وهذا الصمت ."(1)

لم تتكيف (نفيسة) مع أوضاع القرية الصعبة . فقد تعودت على الحرية الكاملة في العاصمة . ولم تستطع صبرا عن حياة الجزائر العاصمة وصخبها المدوي وضجيج أهلها وازدحام شوارعها المكتظة بالسيارات وتدفق شوارعها بأمواج البشر الهادرة . وقد انطوت (نفيسة) على نفسها وازداد قلقها حدة وتأزما خاصة عندما سمعت خبر الزواج فقالت في ثورة غضب لامها " قولي له - تعني أباها - لن أتزوج ولن انقطع عن دراستي سأعود الى الجزائر مهما كان الحال."(2)

ولم تكن هذه الثورة سوى مجرد نزوة عابرة زالت بسرعة . وفكرت (نفيسة) أن تحل مشكلتها بنفسها فخطر ببالها عدة حلول جاء في مقدمتها فكـرة الانتحار لكنها أحجمت عن ذلك !

واختارت أسهل الحلول وهي :

1 - اما أن تنتحر بعد أن تترك رسالة توضح فيها دوافع الانتحار وأسبابه وقد ألغت هذه الفكرة .

2 - واما أن تذهب الى مقهى القرية لتعلن أمام الجمهور أنها ترفض فكـرة الـزواج .

---

1 - ريح الجنـوب ص : 13 .
2 - المصدر نفسه ص : 88 .

لكنها أعرضت عن ذلك، خشية القتل أو خوفا من الفضيحة والعار .

3 - واما أن ترضخ وتستسلم للأمر الواقع فتقبل الزواج رغم أنفها .

وظلت (نفيسة) تدور حول هذه المشكلة ولا تواجهها نتيجة لعجزها وسلبيتها ((ان البطلة (نفيسة) تبدو قلقة ،ممزقة ،حائرة ،نتيجة ثقافتها التي ساعدتها على الوعي بالحياة ،وفتحت عينيها على عوالم من الأحلام زادتها المراهقة حدة كما زادتها الوحدة عزوفا عن الواقع وابتعادا عنه ،فهي تعيش في عزلة روحية كاملة رغم أنها بين أهلها وأقاربها وفي قريتها التي نشأت فيها ،ولكن القضاء المتمثل في أبيها خطط لها مصيرها ونهايتها المؤلمة)).(1)

وبعد فترة صعبة قضتها (نفيسة) بين التأرجح والحيرة والتردد والخوف من المواقب التي قد تنجم عن هذه المغامرة الخطيرة . واهتدت في آخر الأمر الى فكرة الفرار . وقررت أن تهرب الى الجزائر العاصمة مهما كانت الصعاب والعقبات . لكن هروبها باء بالفشل الذريع . لأنها فضلت الفرار على مواجهة الحقيقة . وعجزت عن أن تناقش أباها في موضوع الزواج . وتبين له وجهة نظرها بالحجج المنطقية التي ربما تخفف من موقفه المتصلب ،وذهنه المتخلف وقلبه المتحجر ، لكنها لم تفعل ولم تقم بأية محاولة ،وربما يرجع ذلك الى ضيق أفقها وقلة تجربتها وعدم خبرتها بتجارب الحياة اليومية فضلا ((على أن هذه الشخصية المتوترة سلبية ،لأنها بلا أهداف ولهذا فهي منفية حلما وواقعا ،وكلما صادفتها صعوبة لجأت الى دموعها تنفس بها عن كربها واستكانتها ، وكل شيء يشعرها بالضيق حتى الحجرة التي تعيش فيها .))(2) . . .وتحتل شخصية (مالك) الدرجة الثالثة في الرواية بعد شخصية (ابن القاضي) وشخصية (نفيسة) فهذه الشخصيات الثلاث الرئيسية هي التي تتقاسم أحداث الرواية

---

1 ، 2 - الدكتور عبد الله ركيبي ،تطور النثر الجزائري الحديث . ص : 201 .

وتتمحور حولها الأفكار . لقد انضم (مالك) الى صفوف جيش التحرير الوطني ابان الثورة المسلحة وشارك في العمليات الحربية مشاركة فعالة . وبعد الاستقلال تقلد (مالك) منصب شيخ البلدية في قرية مسقط رأسه بالذات . ومنذ اللحظة الأولى نلاحظ أن تصرفاته كانت مخيبة للآمال ،حيث كنا نتوقع من هذه الشخصية أن تكون ايجابية متطورة فعالة تؤثر في الأحداث وتتأثر بها وتتفاعل معها . غير أن شيئا من ذلك لم يحدث . لأن المؤلف قد قسا على هذه الشخصية فخنقها وسلبها حرية الارادة والتصرف قولا وفعلا . ولهذا أصيبت بالمسخ والتشويه ،واستحالت الى شخصية تتسم بالسلبية والتخاذل .[ومن تتبعنا لشخصية مالك من بعض مواقفه في الرواية نلاحظ أنها كانت مضطربة حينا ،ومتناقضة بين ما تحمل من آراء ، وبين ما تقوم به من أعمال حينا ،وغامضة حينا آخر فهي مضطربة لأن مالكا الثائر المثقف اليقظ الذي يعرف مواطئ قدميه ،يقع في شرك ينصبه له ابن القاضي ، الذي يكاد يكون أميا ،ان لم يكن أميا حقا ،وتنطلي عليه هذه الخديعة ببساطة وعفوية ،وينقلب الثائر الى عاشق رومانسي . يدبج الرسائل ويغرق في الأحلام نحن لا نحرم الرومانسية في الحب ،ولكننا نستغرب أن يقع ثوري واع في مثل هذا الفخ وبسرعة لا يكاد العقل تقبلها .] (1)

ولعل أبرز مواقف (مالك) الذليلة وتصرفاته المشينة هي التي جعلته يسقط في هوة الذل والمسكنة الى درجة أصبح يتخيل أنه هو والأموات في منزلة واحدة . حدث ذلك وهو يمشي وراء جنازة العجوز رحمة . فها هو يتساءل والحزن يمزق قلبه نظرا لما آلت اليه حالته المزرية .[لست أدري من منا المسكين الحزين ، أأنا الحي أم العجوز الميتة .] (2)

---

1 - زهير العلاف الشخصية الثورية في الرواية الجزائرية الثقافة عدد 46- 1978 ص : 76 .

2 - ريح الجنوب . ص : 175 .

وكأن النضال الثوري في نظر مالك قد انتهى بانتهاء حرب التحرير، فرمى بالسلاح ولجأ الى البكاء وذرف الدموع على الماضي وآلامه. متناسيا أن ثورة البناء والتشييد قائمة على قدم وساق. وان ثورة البناء والتشييد أيضا تتطلب جهدا وكفاحا وتضحية لا تقل عن تضحية ثورة التحرير.

وقد استحال (مالك) من ثائر يقظ وذكي شديد الحساسية الى شخص لا يفارقه الاخفاق والشعور بالمرارة والعزلة والاكتئاب وقد فقد كل أمل وثقة في المستقبل. وراح يسخر من نفسه هازئا :"كيف أنا ؟ من أنا ؟ أنا. نعم شيخ بلدية، يدشن المقابر بدل المعامل ! هذا هو أنا الحقيقي"(1).

والسؤال المطروح هنا من منع (مالك) من تدشين المعامل والخروج من قوقعته الذاتية وسجنه الاختياري ؟ منعه اذن التخاذل والانهزام والسلبية وكان باستطاعته لو شاء أن يطور قريته المتخلفة الجاهلة التي تشكو قسوة الطبيعة وتجهم الحياة. فيحولها الى قرية نموذجية. تنبض بالحركة والحياة والنشاط المتزايد، مهما كلفه ذلك من تضحيات جسام، ومهما واجهه من صعاب وعقبات. لأن بفضل عزيمة الرجال يصبح المستحيل ممكنا. ويضحي العسير سهلا. غير أن مالكا لا يسعى لهدف واضح ولا لغاية محددة. "أبقى هنا الى الأبد. هكذا كنت أقول، هكذا كنت أغني. أبقى هنا الى الأبد لا أسمع باستمرار أحاديث ما وراء الأبد ! ربما استطعت ذلك، استطعت أن أغير وأبدل، لو كنت رسولا. حتى الرسل لم يغيروا ويبدلوا الا بعد أن هاجروا"(2)

وهكذا استمر (مالك) في قريته. فلم يغير ولم يبدل شيئا انما راح يردد مع

---

1 - ريح الجنوب، ص: 63.
2 - المصدر نفسه، ص: 179.

المغني المصري " أحيا وأموت في الحتة دي ."

وظلت أفكار (مالك) ومشاعره حبيسة نفسه . فلم يستطع أن يترجمها الى أقوال وأعمال ايجابية بناءة . توقظ الجماهير الشعبية الكادحة من سباتها العميق . فتشمر عن سواعد الجد لفلاحة الارض والعمل على ازالة مظاهر البطالة والكسل . فيهب الجميع للعمل الجاد المثمر الذي يستفيد منه الفرد والمجتمع . ولا يقتصر (مالك) في هذه المهمة على نشر التوعية والتثقيف. وبث روح الثورة والنضال وضرورة حتمية التغيير في أوساط الجماعير الشعبية فحسب بل يتعدى ذلك الى المساندة المادية والمعنوية . فيطلب يد المساعدة من الدولة لتمد الفلاحين بكل ما يحتاجون اليه من بذور وأسمدة وجرارات وقروض فلاحية ...الخ .

وعندئذ فان الفلاحين بكل تأكيد سيحصلون على نتائج جد ايجابية ومشجعة للغاية . غير أن (مالكا) في الحقيقة والواقع تنقصه أرادة الثائر وصلابة المجاهد ،تنقصه الجرأة والشجاعة في اتخاذ القرارات الحاسمة التي تخدم المصالح العليا للجماهير الفقيرة الكادحة . ونظرا لا نعدام المواقف الايجابية الفعالة لدى (مالك) فانه اكتفى بالكلام دون العمل ، كلام بينه وبين نفسه فقط . متحسرا على الحالة المأساوية التي يعيشها هؤلاء الفقراء البائسون . " هؤلاء الشعب هؤلاء الفقراء . آه لو عرفوا فقط قوتهم الحقيقية واستعملوها كما ينبغي لأدركوا أن الارض مهما كان أديمها فهي صالحة للخصب . " (1)

وهذا عجز وسلبية من (مالك) حين ردد ذلك الاحساس بينه وبين نفسه . ولم يعلن ذلك صرخة مدوية أمام الناس . ويترجم الاقوال الى أفعال

---

1 - ريح الجنوب . ص : 171 .

على أرض الواقع المعاش . مهما كلفه ذلك من ثمن وتضحية . وعلى هذا الاساس فهو شخصية سلبية عاجزة تنتظر من الاخرين أن يحلوا مشاكلها دون أن تحاول هي حل مشاكل الغير . تريد من الناس أن يثوروا وتتقهقر هي الى الوراء ، تاركة زمام المبادرة وفرصة العمل لغيرها .« ان الثورة المسلحة حررتنا من الاستعمار ولم تحررنا من الاوهام يجب القيام بثورة أخرى لكن من يقوم بها ؟ المدرسة وحدها لاتكفي .»(1)

ولكن من منع (مالكا) من أن يثور ويحرك السواكن الجامدة ويهز النفوس هزا عنيفا ؟ لم يمنعه أحد ! ولم يقم هو بأية محاولة . وظل يكرر بمناسبة وبدون مناسبة مقولته الاستسلامية المتخاذلة .
« مازلت شيخ بلدية بائسا في بلدية بائسة .»(2)

ومن صفات (مالك) المميزة الحزن والضيق والنوم .« وكان من عادته اذا بلغ به الحزن أقصاه والضيق منتهاه ينام »(3).

نام (مالك) نوما عميقا فضاع وضيع القرية وتركها تتخبط في مشاكلها وتخلفها الى النهاية !؟

هذا ويعتبر (رابح الراعي) من الشخصيات الثانوية في الرواية . نشأ فقيرا معدما يعمل راعيا عند (ابن القاضي) ، ويسكن كوخا حقيرا مع أمه البكماء . وهو منغلق على نفسه لا يعلم شيئا عما يدور حوله لا يهمه من دنيا الناس شيئا سوى الرّعي وعزف الناي . وكان لا يشعر بالذل والمهانة المسلطة عليه من قبل (ابن القاضي) الا عندما اقتحم دار (نفيسة) فطردته ووصفته بأنه قذر حقير . حينئذ أدرك الفارق الطبقي الرهيب . وطلق مهنة الرعي

1 - ريح الجنوب . ص : 178 .
2 - المصدر نفسه . ص : 229 .
3 - المصدر نفسه . ص : 191 .

نهائيـــا .

على أن شخصية (رابح) لم تتطور كثيرا . ولم تتخلص من التخلـــف والانحطاط. وانما حققت بعض ما كانت تصبو اليه من حرية وانطلاق . ولـم يطمح (رابح) الى تغيير وضعيته ،،والى تحسين معيشته . وانما كانت ثورتـه ثورة غضب وسخط وانفعال . لا ثورة تسعى لتغيير الوضع وتطويره . وبالتالي اتسمت هذه الثورة بالتسرع والارتجال ،وعدم التخطيط المحكم ، لقلـــة وعي صاحبها ،وعدم ادراكه وفهمه للامور الصعبة الكبيرة من جهة ولجهله وأميته وضيق أفقه من جهة أخرى . وهكذا ثار (رابح) على الاقطاع حسب مفهومه وطريقته الخاصة .

ومن بين الشخصيات الثانوية في الرواية شخصية المعلم (الطاهر) مدرس اللغة العربية . وهو رجل يعيش في عصر غير عصره . ساخط على وضعيتـه البائسة يندب حظه متذمرا من معيشته الصعبة . ورغم ذلك كله لم يبذل أيـة محاولة في تحسين حالته المادية أو المعنوية مما يدل على ضعفه وعجـــزه . يذكرنا بصديقه (مالك) شيخ البلدية فهما وجهان لعملة واحدة . يتضح ذلك عندما يجتمع (الطاهر) بصديقه (مالك) ،فيدور حديثهما حـــول الاشياء ،الهامشية التي تبتعد كثيرا عن القضايا التي تهم القرية ،وما يعانـــي أهلها من بؤس وتخلف وانحطاط ! وشخصية (الطاهر) تبدو في منتهـــى السلبية ، تعجز عن تحقيق رغباتها الذاتية ومصالحها الشخصية . ترى أن الحصول على السكن أمر عسير المنال ،وأن التفكير في الزواج ضرب من الأوهام!! وذلك راجع الى شعورها بالتفاهة تارة وبالغباوة تارة أخرى . فهي شخصيـــة ثابتة جامدة لا تعرف تطورا ولا تغييرا !!

وخيرة أم (نفيسة) هي الاخرى شخصية ضعيفة مستسلمة خاضعــــة

ترجع كل شيء في حياتها الى الحظ العاثر ،معتقدة أنه يقف حجر عثرة في طريقها فلم تحقق ما كانت تصبو اليه من عزة وعلو شأن لدى زوجها فهي لم تحاول أن تبرز شخصيتها أو تفرض رأيها أمام زوجها في شؤونها الخاصة ،وشؤون العائلة عامة . يتجلى ذلك عندما فشلت (خيرة) في حل مشكلة ابنتها (نفيسة) ،فلم تستطع أبدا أن تقف بجانبها وتساندها لتخرج من مأزقها بأمن وسلام . ويرجع ذلك الى سلبية (خيرة) وانهزامها . لأنها فضلت أن تحبس نفسها في زاوية من البيت متقوقعة على ذاتها تتقطع حزنا وحسرات على سوء حظها التعيس . فهي تعيش في بكاء دائم وحسرة مستمرة طول حياتها . لا يعرف السرور الى قلبها طريقا !

واذا أمعنا النظر في شخصيات رواية " ريح الجنوب " نجد السلبية والجمود والتخاذل قاسما مشتركا بين هذه الشخصيات . ولم نجد بينها شخصية ايجابية واحدة - باستثناء العجوز رحمة - تطمح الى العمل الجاد المثمر الفعال ، والكفاح المستمر الدؤوب الذي يجعل المصلحة العامة فوق كل اعتبار. شخصية تطمح الى الحرية والانعتاق . ولا نعثر في هذه الرواية الا على بعض الاستثناءات القليلة جدا . كتمرد (نفيسة) على طاعة أبويها دون أن تحقق رغبتها . أو انتفاضة (رابح) الذي ترك مهنة الرعي ليتخذ الاحتطاب حرفة. وهي كما نرى طموحات جد بسيطة وجد محدودة . لأن المؤلف لم يسمح لهذه الشخصيات أن تمارس أفعالها وسلوكها بحرية كاملة . وكان على هذه الشخصيات أن تتمرد على المؤلف ،كان عليها أن تثور ،وأن تحطم الأغلال وأن تكسر القيود ،وأن تكافح وتناضل ،وان تقضي على روح السلبية والاستسلام أن تكون صلبة الارادة قوية العزيمة أن تتطور أن تكون ايجابية ،ديناميكية لها أبعاد وأعماق ودلالات ورموز .

ولكن هذه الشخصيات جاءت مواقفها مخيبة للآمال !

"وهي شخصيات على العموم لم يستطع المؤلف أن ينفخ فيها روحا قويا ، يجسد المعاناة الداخلية والأحاسيس الدفينة الحادة ،بل غدا في مواضع كثيرة ينطقها بجمل خطابية ،وبتعابير حماسية معدة جاهزة محفوظة ،لتنطق باسمه ، فهو قائدها ومحركها ،وكان لا حول لها . ولا رأي في موضوع يخصها . وقد كان في استطاعة المؤلف أن يمنح أبطاله فرصة التعبير عن همومهم وآلامهم . وهو ما لم يفعله الا في القليل ."(1)

ولعل الوجه المشرق الذي أضاء جوانب الرواية هو وجه تلك الفنانة الشعبية التي أعطت الكثير من (عملها الفني) لأهل القرية ولم تبخل في يوم ما بعرق جبينها . معتبرة أن السعادة الحقيقية في حياتها لا تكون الا في العمل الجاد المتقن . ولذلك بقيت وفية لعملها طول الوقت والى آخر لحظة من حياتها . هذه الفنانة الشعبية هي العجوز (رحمة) صانعة الفخار التي تحتل مكانة عظيمة في قلوب سكان القرية رغم فقرها وقلة ذات يدها فهي تعيش من صنع الفخار ،وأحبت الأرض حبا شديدا الى آخر نفس من حياتها . وكان شعارها الوحيدة الذي ترددده باستمرار هو" أنا والفخار الى الأبد" وكانت العجوز (رحمة) تعمل عملا متواصلا بدون انقطاع وترجمت شعارها هذا من أقوال الى أفعال تجربة وممارسة على أرض الواقع المعاش . وكانت حين تنجز أية آنية من الأواني تغمرها فرحة كبيرة ابتهاجا بهذا الاختراع الجديد . ان العجوز (رحمة) تحاول أن تتطور في عملها الى أن يصل الى درجة الكمال " وهكذا أبدأ وأعيد أبدأ وأنا سعيدة بذلك لأن نفسي تحدثني أنه لابد أن يأتي اليوم الذي أصل فيه الى الاتقان الذي أنشده وأجد الصورة المثلى التي أبحث عنها ."(2)

---

1 - الدكتور عمر بن قينة رواية ريح الجنوب الثقافة العربية عدد 8. 1979 ص : 57 .

2 - ريح الجنوب . ص : 64 .

والعجوز (رحمة) تعرف جيدا أن العمل المتقن الجيّد لا يأتي عن طريق ترديد الكلام ورفع الشعارات . وانما يأتي عن طريق الممارسة الفعلية عبر العمل الشاق والتعب المضني والتجربة الطويلة والمعاناة الكبيرة ."لعل كل من يقرأ يفكر أن التعلم يكفي بالكلام؟ لو كان ذلك ممكنا لما تشققت أصابعي من الطين . لو رأت عرقي يتصبب وأنا أرقم آنية أو أصقلها ! لو رأت ماذا تصير اليه أتعابي وعرقي . لو عرفت كل ذلك لأدركت أن التعلم بالكلام حلم من الأحلام ." (1)

ان العجوز (رحمة) متجددة في صناعة الفخار بتجدد الأيام والأعوام. تريد أن تربط أحداث الماضي بأحداث الحاضر في فنها الفخاري الممتاز.

"أحب أن أصنع أواني اذا رأيتها من بعيد لا تفرق بينها وبين الأواني القديمة ولكن اذا اقتربت منها وأمعنت النظر فيها وجدتها جديدة في البناء؟ في الصقل في الزخرفة ؟ في كل شيء !" (2)

وواضح أن المؤلف من خلال هذه النصوص التي جاءت على لسان (رحمة) قد بالغ فيها مبالغة كبيرة حيث ضخم الأمور وصور الأشياء أكثر من أحجامها من ذلك أنه أنطق العجوز (رحمة) بآراء فكرية ونظريات فلسفية ومناقشات ثقافية من الصعب بل من المستحيل أن تدور على ألسنة العامة فضلا عن أن تتفوه بها عجوز أمية جاهلة !

وهكذا متى دخلت بيت العجوز (رحمة) وتأملته مليا وجدته عبارة عن معرض فني للأواني الفخارية منها القديم والمعرق في القدم ومنها ما دون ذلك ، ومنها الجديد المتوهج . وهي مختلفة الأشكال والألوان . ومتنوعة

1 - ريح الجنوب . ص : 34 - 35 .
2 - المصدر نفسه . ص : 22 .

الأحجام والزخارف تبهج النفوس وتسر القلوب والعقول . هذه الأواني يصلح استعمالها لأغراض شتى تصلح للأكل ،للشرب ،للأزهار ،للزينة . . . الخ

وليس هذا فحسب بل ان هذه الأواني عبارة عن سجل تاريخي هام كتبت فيه أهم الأحداث التي عاشتها القرية . ابتداء من الحرب العالمية الثانية وما جرته على البشرية من كوارث وويلات . ومرورا بالثورة التحريرية وعنفوانها وقساوتها . وانتهاء بعهد الاستقلال ورخائه ورفاهيته الى أيام وفاة العجوز (رحمة) . سجلت ذلك كله بدقة وإحكام . مع ما تحمله هذه الرسوم من دلالات ورموز وإشارات أبدعتها أيما ابداع !!

وهكذا تنتهي حياة العجوز (رحمة) التي قدمت لقريتها الشيء الكثير . وتنطفيء الى الأبد شعلة كانت مضيئة في سماء القرية المظلم .فنانة وهبت نفسها لفنها وللمصلحة العامة للقرية . فنانة جسدت آمال وطموحات المجتمع الريفي في فنها . كما صورت بؤس قريتها وشقائها وهمومها في أوانيها وأعمالها الفنية الرائعة . فنانة كافحت وناضلت ضد البؤس والشقاء والحرمان الى نهاية .

وبهذا نستطيع القول أن رواية ريح الجنوب (لابن هدوقة) رواية تاريخية اجتماعية . تاريخية لأنها أرخت للفترة التي تبدأ من الحرب العالمية الأولى الى فترة السبعينات ما بعد الاستقلال . واجتماعية لأنها سجلت بصدق وموضوعية وأمانة كل ما يجري في القرية خاصة والريف الجزائري عامة ،من أفراح وأحزان ،ومن عادات وتقاليد وأعراف . ووصف عام لكل مأكل ومشرب ولباس في المجتمع الريفي وما يموج فيه من خرافات وأساطير . وما يدور فيه من جهل وفقر، وتخلف واقطاع ورجعية ،كما صور (ابن هدوقة) في روايته قساوة الطبيعة في الريف وما فيه من معيشة صعبة كان يعيشها سكان القرية خاصة والأرياف الجزائرية عامة . صور ذلك بأسلوب مشوق جذاب ولغة شاعرية عذبة جميلة جدا .

نهايــة الأمــس

ل (عبد الحميـد بن هـدوقـــة)

ملخـــص الروايـــــة :

تتمحور نهاية الأمس ل (عبد الحميد بن هدوقة) حول شخصيـــة (البشير) الذي كان ضابطا في صفوف جيش التحرير الوطني ،ابان الثـورة المسلحـة . وكان (البشير) يتردد على زوجته (رقية) من حين لآخر. وفـــي المرة الأخيرة . ترك زوجتـه حاملا في بيت أبويه ، ليذهب لخوض غمـــار الحرب ضد قوات الاحتلال الفرنسي مع فرقته . وأثنا هجومه على بعض الدوريات العسكرية جرح (البشير) جرحا خطيرا ،نقل اثره الى مصحة جيش التحرير لاجراء الاسعافات الأولية . ثم نقل الى تونس ،ثم الى المانيا الشرقية للعلاج . وعندما انتهت مدة العلاج وشفي (البشير) من جراحة . عاد الى تونس والتحق بالجامعة ليدرس علم الاجتماع هناك . لأن حالته الصحية لم تعد تسمـــح له بمواصلة خوض المعارك الحربية في الجبال .

وقد تعرف (البشير) على فتاة تونسية تدعى (ناجية) ،أثناء دراستـــه الجامعية . وبعد الاستقلال رجع (البشير) الى أرض الوطن ليعمل مديـرا في احدى الشركات الحكومية بالعاصمة ،وتزوج بتلك الفتاة التونسية .الا أن هذا الزواج لم يحالفه التوفيق والنجاح طويلا . فافترقا لسوء التفاهم الذي حدث بينهما . وقد سئم (البشير) كثيرا حياة المدينة ومل صخبها وضجيجها . فقرر أن يتوجه الى الريف ،ليحدث فيه ثورة ضد التخلف والجهل ،وعـزم أن يقيم في كل قرية سنة واحدة . ثم ينتقل بعدها الى قرية أخـــرى . وهكذا يظل متنقلا باستمرار حتى يتحرر الريف من الاقطاع والتخلف .

واختار (البشير) مهنة التدريس حرفة. فذهب الى قرية نائية ،تنعدم فيها كل الوسائل الضرورية للحياة . وحين حط رحالة بالقرية واجهته مشكلة عويصة جدا وهي مشكلة أنعدام الماء بالمدرسة . وازاء هذه الوضعية طلب (البشير) العون من أصدقائه ومعارفه في كل من العاصمة ومديرية التربية بتلك الولاية . وكذلك من مجلس التنسيق الولائي بتلك الناحية. فأمدوه بكل ما طلب . وبكل ما تحتاج اليه المدرسة من وسائل ضرورية الا أن (البشير) اصطدم بشخصية اقطاعية تدعى (ابن الصخري) الذي يملك أكثر مما تملك القرية مجتمعة . من أراض وبساتين ؛

وكان (ابن الصخري) هذا هو المتسبب الرئيسي في عرقلة مشروع نقل الماء الى المدرسة . وتصدي له (البشير) بقوة وشمن عليه هجوما عنيفا ، وكانت الغلبة في نهاية الأمر لـ (البشير) فانتزع منه الماء وحوله الى المدرسة بمساعدة (بوغرارة) المجاهد القديم الذي كان سندا قويا لـ (البشير) فقدم له يد المساعدة ماديا ومعنويا ضد (ابن الصخري وضد سكان القرية . ولما عرف (ابن الصخري) أن مشروع الماء قد أخذ طريقة الى المدرسة . فجر المسجد بواسطة قنابل مدمرة . وأشاع في الأوساط الشعبية أن (البشير) هو الذي هدم المسجد باعتباره شيوعيا يكيد للاسلام والمسلمين. وساعده في ذلك أمام المسجد .

وبينما كان (البشير) منهمكا في صراعه ضد الاقطاع ، وكفاحه ضد التخلف في أثناء ذلك ظهرت صدفة زوجته القديمة (رقية) مع ابنتها (فريدة) . وما لبثت هذه البنت قليلا حتى قضى عليها مرض السل. وماتت فجأة !

وفي الأخير تزوج (البشير) ب (رقية) من جديد . وواصل سعيه

في تنفيذ مشروعه الذي كان خططه من قبل بعزم واصرار وثبات الى النهاية.

شخصيـــــة البشـــير :

تتركز رواية نهاية الأمس (لعبد الحميد بن هدوقة) كما أسلفنا على شخصية محورية هي شخصية (البشير) المناضل الثوري الذي انضم الى صفوف جيش التحرير الوطني منذ السنوات الأولى للثورة التحريرية وأظهر كفاءة كبيرة في التضحية ونكران الذات ،حتى رقي الى رئيس فرقة ، وأبلى البلاء الحسن . وكان كله ثقة وأمل وتفاؤل بالمستقبل . يقول مخاطبا زوجته عند الوداع . "ثقي أنني سأعود وأن الجزائر ستتحرر. يجب أن تدركي معنى هذا الفراق . انه من أجل أن نحيا حياة أخرى لم يعرفها وطننا حياة لا يبقى فيها الأجنبي سيّدا والأذناب رؤساء . اننا يا عزيزتي لسنا نخوض حربا فقط وانما نحن نمحو لعنة الأجيال الماضية . . .انناسننتصر ان ثورتنا الآن قوية ولم يبق من الكثير الا القليل." (1).

هذه العبارات التي وجهها (البشير) لزوجته كانت تتردد باستمرار على ألسنة الثوار والمناضلين من الجندي البسيط الى الضابط . فالكل يردد ذلك لأبيه ،لأخيه ،لابنه ، لأمه ،لصديقه ،لجميع أفراد المجتمع الجزائري الكل يتغنى بهذا الشعار ،شعار أن نحيا حياة أخرى لم يعرفها وطننا من قبل " حياة لا يبقى فيها الأجنبي سيدا والأذناب رؤساء" ،وهذا الشعار قد ينطبق على المناضل في الجزائر ،في العالم العربي ،في أفريقيا ،في أمريكااللاتينية على جميع أحرار العالم الذين يطالبون بالحرية والانعتاق في أرجاء المعمورة كلها .

---

1 - نهاية الأمس . ص : 36 .

وبهذا الشعار المذكور ثار المناضلون في الجزائر بعزيمة ثابتة ،وايمان قوي ،وارادة صلبة لا تعرف اللين ولا الضعف . وبذلك تحقق حلم البشير وحلم رفاقه الثوار بعد كفاح مرير وتضحيات جسام . تحررت بلادنا من سيطرة كل أجنبي دخيل واقطاعي فظيع .

وبهذا الروح الثورية واصل (البشير) طريق الكفاح المسلح ضمن صفوف جيش التحرير حتى سقط جريحا على أرض المعركة نقل اثرها الى الخارج كما سبق أن أشرنا في التلخيص . وعبر (الفلاش باك) في الرواية يعود ابن هدوقة ببطلة (البشير) الى سنوات مضت ،قضاها (البشير) في ألمانيا الشرقية لعلاج جراحه الخطيرة . وفي ألمانيا الشرقية اعتنق (البشير) المذهب الاشتراكي على أيدي الفتيات الشقراوات ،اللائي كن يسهرن على علاجه حتى شفي نهائيا من جراحه .» وكن ماهرات في أعمالهن بارعات . وكن ينادينه بالصديق والرفيق وبالأخ أحيانا . ولم لا ؟ فمذهبهن الاشتراكي علمهن الرحمة في أجلى صفاتها والأخوة في أجمل مقوماتها ، فهن لا يفرقن بين لون ولون من البشر ،وانما بين طبقة وطبقة وعقيدة وعقيدة «(1) .

كان سفر (البشير) اذن الى ألمانيا الشرقية قصد العلاج حدثا هاما وخطوة تقدم كبيرة فتحت أمامه مجالات واسعة ،فكرية وسياسية واجتماعية ، فتعمق خلال ذلك بالمذهب الاشتراكي واعتنقه عن قناعة تامة وادراك عميق وبهذا يكون (البشير) مدينا لألمانيا الشرقية في تعليمها له هذا المذهب وهذا الموقف يذكرنا بموقف (زيدان) بطل رواية (اللاز) "الطاهر وطار فهو الآخر تعلم الشيوعية من باريس أولا ثم من موسكو ثانيا فدرس بهما الاقتصاد السياسي ومبادئ القيادة . بينما انكب (البشير) في دراسته على علم الاجتماع والتعمق فيه بالجامعة التونسية وتسلح بعلوم ومعارف متنوعة أهلته لأن يكون

1 - نهاية الأمس . ص : 38 ، 39 .

ثوريا اشتراكيا تقدميا ،يحارب الاقطاع والاستغلال ،كما حارب من قبل الاستعمار وأذنابه . وبهذا يكون (ابن هدوقة) قد هيأ بطله (البشير) وسلحه بكل ما هو في حاجة اليه من ثورة وثقافة لمواجهة الاقطاع والتخلف وبالتالي ليكون منتصرا في المعركة ضد خصومه في النهاية .

"هل أن (البشير) هو (جوناتان بيرل باك) في "الرائد"؟ أم هو (بول غوركي) في "الأم"، أم (البوشا) (دستويفسكي)؟ أم شخصية ذات نزعة جيفارية ؟ انه خليط من هؤلاء فهو متحمس لمهنته (جوناتان) وهو يثابر باصرار من أجلها (بول) وهو انسان وديع ومسالم لكنه صاحب موقف (البيوشا)"(1) .

قبل أن نشاهد ذلك الصراع المنيف الذي دار بين (البشير) و(ابن الصخري) أو بعبارة أخرى الصراع بين الاشتراكية والتقدمية من جهة وبين قوى الاقطاع والرجعية والجهل والتخلف من جهة ثانية . فلابد أن نذكر باختصار مغامرة (البشير) في الجزائر العاصمة التي مكث فيهامدة غير قليلة مديرا باحدى المؤسسات الحكومية . وفي هذه المدة تعرف (البشير) على أصدقاء كثيرين ،كما عرف أنواعا مختلفة من الخمور التي تجلبها زوجته (ناجية) للبرجوازية والمتعاونين الفرنسيين . يقول (ابن هدوقة) في وصف دار (البشير وزواره :"(لم تمض أيام كثيرة حتى كثر أصدقاء الزوجين الحبيبين . وصار بيتهما ملتقى لكل البورجوازية الادارية في الجزائر ،ولكثرة من المتعاونين وعرف (البشير) في هذه الفترة من حياته كثيرا من أنواع الخمور والكحول وأسمائها والفروق الدقيقة بين لون ولون . فمن الكونياك ذي النجوم الخمس الى الويسكي الأسود الى الشمبانيا وما اشتق منها من أمزجة رفيعة. . . حتى

---

1 - عبد الأمير الحبيب "نهاية الأمس بين الصدق الفني والصدق الموضوعي" الشعب الأسبوعي عدد 35 ، 13 مارس 1976 .

الغودكا وجدت مكانها في مخمرة الزوجين ."(1)

ومهما يكن من أمر فان (البشير سار مرغما على الطريق الذى رسمته له زوجته (ناجية) لا يحيد عنه قيد أنملة وفتحت امام عينيه مجالا واسعا للخلاعة والغرور وعالم الخمور ،لا مجالا لاعلى المناصب كما كانت توهمه وتدعي أنها توصله الى ذلك وها هي تخاطب زوجها (البشير) بكل تبجح وغرور ممزوج بأحلام جوفاء وسراب خادع "(انك رجل يخجله ظله . دعني أنا افتح بين يديك المجال لاعلى المناصب)"(2) لكن (ناجية) بدل أن تفتح (للبشير) مجالا لاعلى المناصب فتحت له أبواب الالام وأنواع الاحزان وانتهى به الامر الى باب مستشفى الامراض العقلية .(ذاق (البشير) علقم الغيرة ،ثم مرارة الاغتراب في بيته . الزوجة سادرة في لهوها ،تريد أن تحيا في شهور مالم تعرفه في كل حياتها السابقة . الاصدقاء يترددون على بيته لمراودة الزوجة عن نفسها أو للسكر . وأصبح في دوامة لاقرار لها من اليأس ،انتهت به الى البليدة : الى مستشفى المجانين)(3).

وكأن (ابن هدوقة) يريد أن يقول من خلال هذا الكلام ،ان المجتمع البرجوازي في المدينة تتحكم فيه الفواني وبنات الهوى اللائي أصبحن يسيّرن الامور ويمهدن الطرق لكثير من الناس الى أعلى المناصب وأسمى الوظائف فكم من موظف تبوأ مكانة عالية بواسطة عاهرة ،وكم من مدير نال منصبه بفضل غانية . وكم من مسؤول داس على العرض والشرف ولوّث سمعته ورضي بالذل ساكتا خوفا منه على ضياع مركزه . لكن (البشير) رفض هذه الوضعية جملة وتفصيلا ولم يخدعه سراب الشهرة ولا بريق المادة ولهذا كله طلق

---

1 - نهاية الامس . ص : 143 .
2 - نهاية الامس . ص : 142 .
3 - نهاية الامس . ص : 143 .

(البشير) (ناجية) وطلق معها المدينة وشرورها وآثامها ورجع الى المنبع رجع الى الأصل الى البادية وهذه الحالة لا تنطبق على (البشير) وحده وانما هي سمة يشترك فيها معظم الريفيين فكم من ريفي فقير ذهب الى المدينة يحلم بالمال والشهرة ،فاصطدم بالمجتمع البرجوازي المستغل وجشعه الذي لا يعرف حدودا . وهنا يصاب الريفي بخيبة أمل مريرة حيث يتيه في المدينة ويشعر بالضياع القاتل ويظل قلقا ، مضطربا ،حائرا ،ممزقا ،محكوما عليه بالفشل الذريع . ولا يسلم من هذه الرحلة الشاقة المتعبة أبدا . فاما أن ينتحر ،واما أن يقتل ،واما أن يسجن واما أن يرجع الى قريته عاريا من الغربة والضياع ، يده فارغة وقلبه حزين لانّه لم يعرف كيف يتكيف مع المجتمع ولم يفهم كيف يتأقلم في المدينة نظرا لتمسكه بقيمه ومبادئه وعاداته وتقاليده ،فمن الصعب جدا التخلي عن هذه المبادئ ،والقيم بسهولة وبيسر ، من خلال تصادم القروي بعالم المدينة الصاخب ومن هذا المنطلق خرج (البشير) من المدينة التي كادت أن تعصف بكيانه كفرد وتقضي على وجوده كانسان فعاد الى القرية ،ليراجع نفسه ويصحح أخطاءه التي ارتكبها في السنوات الماضية من حياته . وكان أول هدف يسعى لتحقيقه هو اقامة ثورة في الريف وبث التوعية والتثقيف في ربوعه ليستيقظ من سباته ، ويتحرك من سُكونه . واختار مهنة التعليم بمعناه الواسع وهدفه الأسمى . وليس تعليم الأطفال ، بل تعليم الناس كيف يثورون على أوضاعهم ليتحرروا من الجهل والتخلف .

والملاحظ أن (ابن هدوقة) قد ركز اهتمامه في رواية " نهاية الأمس" على فئات ثلاث هي :

1 - فئة ثورية تقدمية اشتراكية يمثلها (البشير) المناضل الثوري يساعده في ذلك صديقه المجاهد القديم (بوغرارة) ثم صاحب المقهى .

2 ـ فئة فقيرة جاهلة متخلفة يمثلها معظم سكان القرية .

3 ـ فئة اقطاعية مستغلة رجعية يمثل رموزها (ابن الصخري) ومن لف لفه ، يساعده في مخططاته الجهنمية امام مسجد القرية معلم أطفالها .

هذه الفئات الثلاث هي التي تشكل أحداث الرواية .

وكان (البشير) على وعي تام بالمهمة الصعبة والمسؤولية الكبرى الملقاة على عاتقه ، والتي ألزم بها نفسه الزاما تاما ، مستعذبا في سبيلها كل التضحيات الجسام ، والأهوال الشداد . وعمل على تذليل الصعوبات والمراقيل المحتملة التي قد تعترض سبيله ، أو تعوقه عن مسيرته الثورية وهدفه المنشود .

وحاول (البشير) أن يروض نفسه في هذه القرية النائية المحرومة من كل شيء . رغبة منه في التكيف مع هذه الأوضاع المستجدة . وحرصا منه على تطبيق برنامجه الثري . وحين نزل ضيفا على القرية ودخل المدرسة واجهته مشكلة عويصة جدا تتمثل في انعدام الماء ، كما أسلفنا . وهي مشكلة طالما عانى منها سكان القرية ، وأقلقت المعلمين الذين كانوا يفرون منها سريعا . فلم يستطيعوا المقام بها طويلا .

وبناء علي ذلك قرر (البشير) أن يجعل من مشكلة انعدام الماء هي نقطة الارتكاز التي ينطلق منها في تنفيذ مشروعه الجديد . ولم تمض مدة طويلة في التفكير حول انعدام الماء ، حتى اكتشف (البشير) أن يدا خفية كانت وراء عرقلة مشروع نقل الماء الى المدرسة . هذه اليد الاثمة هي يد (ابن الصخري) التي دفنت المشروع قبل أن يرى النور . وحين عرف (البشير) أن (ابن الصخري) رجل اقطاعي وهو أغنى رجل في القرية . وكان فوق ذلك يستخدم نفوذه وسيطرته على سكان القرية ، فيخضعون له خضوعا تاما ، وازاء هذه الحالة اشتد

الصراع بين الرجلين لأنهما على طرفي النقيض. فـ(البشير) ثائر اشتراكي تقدمي مثقف ، بينما (ابن الصخري) اقطاعي رجعي متخلف شبه أمي. وكانت بين الشخصيتين عداوة مذهبية : بين بورجوازية اقطاعية ،واشتراكية ديمقراطية . تحولت فيما بعد الى عداوة شخصية ، فصار كل منهما يضمر الشر لخصمه . محاولا الايقاع به بأي ثمن ،وفي أية مناسبة . وأخذ الصراع يتصاعد بينهما ليتحول الى مشادات كلامية . وصلت الى حد الشتم والسباب من ذلك أن (ابن الصخري) عيّر (البشير) بوظيفته البسيطة ومركزه الاجتماعي المتواضع ، الذي لا يخوله أن يخوض في شؤون القرية وقضاياها الخاصة والعامة . باعتباره معلما بسيطا ورجلا غريبا . ينبغي عليه أن لا يهتم الا بشؤون المدرسة فقط . ولا يلتفت الى شيء سواها . متشككا في عدم امكانية فتح المدرسة فضلا عن ذهاب التلاميذ اليها .

وهناك نقطة أخرى دارت حولها الخصومة غير تحويل الماء الى المدرسة هذه النقطة هي توظيف العجوز (ربيحة) كعاملة بالمدرسة ،والتي وقف ضدها (ابن الصخري) بشدة . محاولا سد جميع الطرق في وجهها لأنها أم لخائن ،يجب مقاطعتها نهائيا . غير أن (البشير) لم يعر أي اهتمام أو يقيم أي وزن لخصمه (ابن الصخري) . ووظف العجوز رغم تهديدات (ابن الصخري) ،وسخط وغضب سكان القرية . محققا بذلك انتصارا باهرا على جميع خصومه . لأنه (يمتلك أرضية قوية تحركه ،فكره أولا وماضيه ثانيا وعلاقته بأعلى المستويات ثالثا .) (1)

ومن جهة أخرى صور (ابن هدوقة) مشكلة الفقر المدقع والبطالة

---

1 - عبد الأمير الحبيب نهاية الأمس بين الصدق الفني والصدق الموضوعي عدد 35 . 1976 .

المتفشية في القرية بشكل خطير . اذ لا يوجد في هذه القرية أي مصدر للعمل مهما كان متواضعا ،اللهم الا الرعي والخماسة للرجال . أما النساء فكان عملهن خدمة الصوف وصنع الفخار . وكان الممول الرئيسي للقرية هو الثروة الحيوانية التي تمتلكها فئة من الاقطاعيين الاستغلاليين . وبدلا من أن يولي سكان القرية اهتماما كبيرا بمأساة الفقر والحرمان التي يتخبطون فيها . بدلا من ذلك شغلوا أنفسهم بمشاكل هامشية من بينها توظيف العجوز أم الحركي التي انصبت جل اهتمامات سكان القرية حولها ؛

وازاء هذه الحالة المزرية التى تعيشها القرية باستمرار لم يجد (البشير) بدا من أن يطلق صرخة مدوية اهتزت لها أرجاء القرية ، محاولا بذلك ايقاظ كل نائم وتنبيه كل غافل ، لأن القرية في حاجة أكيدة الى التوعية الشاملة ،والتجنيد الكامل ،وبث الأفكار التقدمية الاشتراكية بين ربوعها لتنير الطريق أمام العمال والفلاحين الذين يتخبطون في ظلام الجهل ،ويتألمون من مرارة الفقر والبؤس والحرمان . يحاول (البشير) أن ينفخ فيهم روح الثورة والتمرد على تلك الأوضاع الفاسدة . يريد أن يقضي على الفقر والبطالة التي تسود القرية . وبذلك يهتم الفلاحون بالأرض ويتعلقون بها ويكرسون لها حياتهم . لتمنحهم الأموال وتغدق عليهم الخيرات بسخاء كبير ان مهمة (البشير) " في الظرف الحالي أن يعلم أبناء الفقراء ،وأن يرشد آباءهم ما استطاع ،الى أنهم مسؤولون عن فقرهم ." (1)

لذلك كان (البشير) يلح باصرار على ضرورة الاهتمام بالعمل الجاد المثمر ، الذي . يدر على صاحبه النفع العميم ويقيه شر البطالة ونكد الحياة. "ان أكبر جريمة يرتكبها الانسان ضد نفسه وضد مجتمعه هي البطالة . ان

---

1 - نهاية الأمس . ص : 149 .

الذي لا يجد الشغل وخاصة في قرية مثل هذه ،هو الذي لا يصلح للشغل لا يصلح للحياة ."(1)

ف (البشير) يريد أن يهدم قلاع الاقطاع ويحطم أغلال الاستغلال ويقضي على الاوضاع المتعفنه بالحزم وبالصرامة ليمحو تلك الفوارق الطبقية المقيتة التي كانت تمشش في أذهان الاقطاع والبرجوازية المتسلطة على رقاب الفقراء والمحتاجين . يحاول البشير بقدر الامكان أن يوحد الصفوف المتنافرة ويجمع الآراء المتباعدة ويطهر القلوب المتباغضة حرصا منه على أن يجعل المصلحة العامة فوق كل اعتبار ."ان البدأة الحقيقية لكل اصلاح هي اعادة النظر في قضية الملكية . لا يمكن أبدا أن تتحقق ديمقراطية في التعليم أو في العمل أو في السياسة ما لم تتغير هذه الأوضاع الظالمة لملكية الأرض ."(2)

وعندما شاهد البشير البون الشاسع والفرق الكبير بين ما يملكه سكان القرية وبين ما يملكه ابن الصخري من أراض وبساتين أخذته الدهشة واستولى عليه الاستغراب للمفاجأة الصارخة فبساتين ابن الصخري تعد آية في الروعة والجمال تنظيما وتنسيقا أما بساتين سكان القرية فكانت في مجملها مهملة شبه ميتة تفتقر الى مزيد من العناية والى كثير من الاهتمام يهددها البوار والخراب من حين لآخر لقلة عناية أصحابها وانشغالهم عنها بالثرثرة والقيل والقال على مدار العام . وقد سخر البشير من أعماقه قائلا "يشتكون قلة العمل والفقر بينما العمل أمامهم والثروة بين أيديهم ...(3).

وحول وضعية القرية المأساوية وما تعانيه من ظلم واضطهاد بسبب

---

1 - نهاية الأمس . ص : 56 .
2 - نهاية الأمس . ص : 148 .
3 - نهاية الأمس . ص : 120 .

الاقطاع الجاثم على صدرها والكاتم لانفاسها يدور الحوار التالي بين (البشير) وصديقه (بوغرارة) يقول (البشير) بشيء من التفاؤل في المستقبل "لا عليك ،سوف تعود الأمور الى طبيعتها طال الزمان أم قصر ان الذي يملك نصف ما تملكه قرية كاملة لن يوجد في المستقبل.

أي مستقبل ؟

- عندما يفهم الفقراء معنى التعاون .
- على ماذا يتعاون الفقراء ،على البكاء ؟
- يتعاونون على الاغنياء ....
- ان الفقراء لا يستطيعون أن يعملوا شيئا لو استطاعوا لما بقوا فقراء.
- يستطيعون الكثير ولكنهم لا يعرفون قوتهم .
- قوتهم ! أي قوة يملكها الفقير ؟ "(1)

وكان (البشير) يؤكد بالحاح لبوغرارة) ان في استطاعة الفقراء صنع المستحيل شريطة أن تتوفر فيهم الارادة القوية والعزيمة الصادقة وأن يتحدوا جميعا ،ضد قوى الاقطاع والاستغلال لأن في الاتحاد قوة وفي التفرق ضعف وتمزيق وتلاش. عليهم أن يضعوا نصب أعينهم أن (ابن الصخري) معمر من المعمرين يفعل مثلما فعل أسياده من قبل ،يستولي على أملاك الفقراء بالنصب والاحتيال حينا وبالربا الفاحش المدمر حينا آخر وبذلك ينتهي أمرهم الى الافلاس ثم الى السقوط والانهيار نهائيا .

ان (البشير) كان يطمح الى تنظيم ثورة شعبية شاملة تعتنق الاشتراكية وتؤمن بالتقدمية وضرورة التغيير والتطوير ليقضي على كل مخلفات الماضي

---

1 - نهاية الأمس . ص : 122.

وتركاته الثقيلة قضاء مبرما . وبذلك تتحرر القرية من كل القيود التي كبلتها طيلة العهود المظلمة عهود القهر والاستعباد . ولن يتأتى ذلك الا بواسطة منظمات جماهيرية ومجموعات نقابية تشرح مبادئ الاشتراكية وتلقن دروس التوعية والتثقيف والتعليم العام ومحو الأمية في النوادي ، والمراكز الثقافية وجميع دور التثقيف بواسطة مشرفين أكفاء ،يقومون بالمهمة خير قيام . بمساعدة السلطات العليا في أجهزة الحزب والدولة . سعيا وراء محو آثار الجهل والتخلف من البلاد عامة والقرية على وجه الخصوص لتلتحق بلادنا بركب الحضارة والتقدم وبذلك ينتهي الخوف الشديد والتشاؤم القاتم من المستقبل المجهول .

ان البشير كان يود أن يلقن الفقراء تعليم الاشتراكية عن قناعة وايمان ليكونوا على بصيرة من أمرهم فيدفعوا عن أنفسهم كل ظلم أو قهر محتمل ويحاربوا كل فئة استغلالية مهما كانت سواء كانت دينية متزمتة ، أو رجعية متخلفة ،أو برجوازية اقطاعية متسلطة . . .الخ .

وكان (البشير) أول من تصدى لهذه الفئات في القرية فأعلنها عليهم حربا شعواء لا تبقى ولا تذر . برز ذلك واضحا في الصراع الذي احتدم بين ابن الصخري والبشير مرات عديدة وفي قضايا مختلفة . فكان (البشير) يستفز خصمه ابن الصخري بعنف ويجره الى حلبة الصراع بقوة .

يقول (البشير) متهكما ساخرا من ابن الصخري في حوار طويل نختصره فيما يلي :

- أتدري أن الحكومة بصدد اعداد ميثاق الاصلاح الزراعي ؟
- ان هذه القرية أرضها لا تسمن ولا تغني من جوع .
- كل القرى الجزائرية التلية كذلك . ولذلك لابد من الاصلاح الزراعي

- وماذا فعل التسيير الذاتي بالأراضي الخصبة ؟ الم يصيرها قاعا صفصفا ؟
- التسيير الذاتي نجح . واذا كان هناك فشل فلن يعود الى العمال .
- لمن يعود اذن ؟
- للمتآمرين على فشله الذين يخشون الاصلاح الزراعي بعده .
الا تخاف الاصلاح الزراعي ؟
- ولماذا أخافه مادمت متحققا أنه لن ينجح .
- ولا يمكن أن ينجح لانّه يخالف طبائع الاشياء .
- فهل من طبائع الاشياء أن يملك شخص أكثر مما تملكه قرية مجتمعة؟

وفي نهاية الحوار يطلب ابن الصخري من البشير بخبث ودهاء أن يترك مهنة التعليم ويعمل عنده كمدير للمزرعة . ويرد عليه (البشير) بسخرية مريرة . اتعني أن أكون عندك خماسا من نوع جديد ولكن بدل الخمس أخذ السبع! "(1)

وفي هذا المجال يعقد بعض الدارسين مقارنة بين البشير ومالك بطل رواية ريح الجنوب فيرى أنهما يتشابهان تشابها كبيرا .

" ولا بد لنا من القول في آخر الأمر : ان شخصيتي البشير ومالك متشابهتان حتى تكادا أن تكونا وجهين لعملة نقدية واحدة . وهذا بالطبع لا يلغي وجود بعض وجوه الخلاف بين كل منهما .

1 - فكلاهما ثوري قبل الثورة وبعدها .
2 - وكلاهما يحلم باصلاح القرية وبالاصلاح الزراعي
3 - وكلاهما يكره الاغنياء .
4 - وكلاهما يصارع صاحب الأرض صراعا مستمرا ولو اختلفا في نهاية "

---

1 - نهاية الأمس .. ص :189 - 190 .

وأما أهم وجوه الخلاف بينهما :

أن مالكا ضعيف ساكت تنطلي عليه الحيل ،أما البشير فذكي ،وأعمق فكرا ولا تنطلي عليه حيلة صاحب الأرض الذي حاول امتصاص نشاطه وحيويته" (1)

ولكي يعمق (ابن هدوقة) هوة الخلاف بين الشخصيتين ،فتزداد نار الحرب اشتعالا بينهما جعل ابن الصخري يتسمع أخبار البشير من جميع المصادر القريبة والبعيدة حتى يحصل على ما يريد في كل ما يهمه في أمر خصمه ليوجه له الضربة القاضية في نهاية الأمر .

"(يجب أن تعلم عنه كل شيء . قلت من انصار الاشتراكية . . .

- اذن هو شيوعي ! هذا هام . . . شيوعي .
- المهم أن تذيع نحن في الناس بأنه شيوعي معاد للدين ويعمل للخارج ضد وطنه . هذا مهم جدا . . . جدا !

- المهم الآن أنه مجنون وشيوعي والمجنون والشيوعي كلاهما خطرا ا وحين حذره ابنه من مغبة الجهر بعدائه (للبشير)
- يجيبه (ابن الصخري) في ثقة وتفاؤل .
- " لا تخشى شيئا . نحن أقوياء وسنبقى أقوياء بحول الله . سوف تراه مطرودا من هنا مدحورا كالشيطان ، كالشيطان تماما) (2) .

وراقت الفكرة (لابن الصخري) ووجد ضالته المنشودة ،فلم يدخر وسعا في بث الاشاعة واصفا البشير بأنه شيوعي ومجنون يجب اجتنابه والابتعاد عنه قدر المستطاع . لجأ ابن الصخري الى هذه الحيلة الماكرة ليؤلب عليه

---

1 - زهير الملاف : الشخصية الثورية في الرواية الجزائرية الثقافة عدد 46 ص 85 .
2 - نهاية الأمس . ص : 210 ، 211 .

جمهور القرية وسلطة الدين . ذلك أن كلمة " شيوعية " في عالم الريف كلمة تقشعر منها الأبدان وتشمئز منها النفوس . وأن كلمة " شيوعية " تعني الكفر والالحاد وأن الشيوعي عندهم هو الكافر بل هو الشيطان الذي يجب رجمه وصب اللعنة عليه .

ومن هذا المنطلق فان السكان القرية ليسوا على استعداد أبدا أن يبعثوا أطفالهم الى مدرسة تعلم الكفر والالحاد بواسطة معلم مجنون وبالتالي يرى ابن الصخري أنه من الضروري طرد البشير من القرية فورا قبل أن يستفحل أمره ويشتد خطره فيكون له أتباع يناصرونه وأصدقاء يؤازرونه في مهامه ومواقفه المتطرفة وبذلك ينتبه الناس من غفلتهم ويستيقظون من سباتهم العميق وعندئذ تشتد الأزمة ويتفاقم الأمر وتنقلب الموازين لغير صالحه .

وفكر (ابن الصخري) في أمر (البشير) جليا واتضح له حسب رأيه : "انه اما أن يكون شيوعيا فوضويا واما أن يكون يساريا متطرفا من هذه الشرذمة التي تنخر عظام المدن . وفي كلتا الحالتين فهو عدو تجب محاربته ومطاردته من هذه القرية والا انتهى به الأمر الى فتح عيون الناس . والفقراء اذا أفاقوا من سباتهم انقلبت الأمور رأسا على عقب" (1) .

وراح (ابن الصخري) ينادي في الناس أن (البشير) مجنون وشيوعي يكرر ذلك في كل مناسبة على مرأى ومسمع من أهل القرية . ولم يترك أية لحظة تمر دون أن يعلن في الناس هذا الخبر الجديد . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل ذهب الى التشهير بالبشير) والتشنيع به حتى وهو في قفص الاتهام لدى الدرك الوطني الذي اتهمه بهدم المسجد .

---

1 - نهاية الأمس . ص : 195 .

" يقول ابن الصخري للضابط " أنت تملي من شأني كثيرا ... تتصورني رجلا ثائرا متمردا على الأوضاع لا يخاف خالقا ولا مخلوقا - يعني البشير- بينما أنا أضعف الناس وأشدهم خشية لله ."(1)

لكن (البشير) لم يخرج مطرودا كما توهم (ابن الصخري) خطأ بل انه خرج عزيزا مكرما وحقق انتصارا كبيرا ضد خصومه . وعمل على ايجاد أشياء كثيرة في فترة وجيزة . لم تكن القرية تعرفها من قبل . ولنفسح المجال لـ(بوغرارة) يوجزها بقوله مندهشا من حالة (البشير) أشد الدهشة ." أقول بصراحة انني لم ألاق في حياتي رجلا مثلك !

ان ما عاشته القرية من أحداث في هذه الأيام القليلة لم تعشه في أجيال . نقل الماء، هدم الجامع ،تسييج المدرسة وخدمة أرضها ، استخدام أم الحركي . وها أنت ذا تريد أن تتزوج بزوجته !

القرية لا تتحمل كل هذا ."(2)

وفي مجال المقارنة والتأثر والتأثير بالآداب العالمية يمكن أن نقول بأن رواية " نهاية الأمس" تشبه الى حد بعيد رواية (الآباء والأبناء) للكاتب الروسي تورجينيف وأن (ابن هدوقة) متأثر تأثرا شديدا بـ(تورجينيف) يحذوه ويترسم خطاه . فـ(البشير) بطل رواية " نهاية الأمس" يكاد يكون نسخة طبق الأصل لـ(بازاروف) بطل رواية " الآباء والأبناء " فكلاهما ثائر اشتراكي وكلاهما في صراع مستمر ضد الاقطاع والبرجوازية وكلا البطلين له صديق نصير لـ(بازاروف) صديق يدعى (أركادي) و (للبشير) صديق ونصيره هو (بوغرارة) وكان لكل من البطلين عدو لدود فبالنسبة لـ(بازروف)كان عدوه

1 - نهاية الأمس . ص : 238 .
2 - نهاية الأمس . ص : 275 .

الرئيسي هو (بافل كيرسانوف) .
كان يسخر كثيرا من (بازاروف) ويعتبره رجلا دجالا ويرى فيه شخصا وقحا متعاليا . وبالنسبة (للبشير) فكان عدوه الأول هو (ابن الصخري) الذي كان يمقت البشير كثيرا ويراه شيوعيا فوضويا ويساريا متطرفا تجب محاربته بمختلف الوسائل وشتى الطرق الممكنة . وكان كل من (بازاروف)و(البشير) بسيطا متواضعا ،قريبا في تعاملة مع أبناء الشعب بدون تكبر أو ترفع منهما لأحد !!

"كان (بازاروف) يرفض المبادئ والأسس الاقطاعية النبيلة وكذلك الكثير من القيم التي ترتبط مع البنيان الاقطاعي ،وزيادة عن ذلك كان لا يطأطئ رأسه أمام أي شخصية مرموقة . ولا يتقبل أي مبدأ دون تمحيص مهما كان الاحترام الذي يحظى به هذا المبدأ . ثم انه لا يعترف الا بالحقائق العلمية والتجربة المحسوسة "(1) .

وفي نفس السياق نجد البشير يحذو حذو بازاروف حين يقول :
"الاشتراكية الحقة هي التي تأبى الغيب وما في الغيب من جنة ونار"(2)

وبينما كان (بازاروف) يرفض الفن ولا يعترف الا بالعلم ويرى أن الكيمائي الحاذق أفضل بعشرين مرّة من أي شاعر . فضلا عن أن الفنان - في رأيه - لا يساوي قرشا معدنيا "(3) .

وفي نفس المعنى يؤكد البشير أن الاشتراكية الحقة هي التي تأبى الشعر وما في الشعر من عاطفة وغيوم "(4) .

---

1 - د . مكارم الغمري الرواية الروسية . ص : 147 .
2 - نهاية الأمس . ص : 72 .
3 - د . مكارم الغمري الرواية الروسية . ص : 148 .
4 - نهاية الأمس . ص : 72 .

ثم ان (بازاروف) كان يدافع عن حقوق الشعب وكان يرغب في تحطيم البنيان القائم من أجل خير الشعب ورفاهيته "(1).

ونجد الأمر نفسه لدى (البشير) حين يقرر أنه لن يستسلم لأيّ تهديد وأنه : "سأحطم هذه الأواني القديمة "(2).

ويصرح (البشير) في موضع آخر رغبة منه في ضرورة تغيير الأوضاع المتعفنة واستبدالها ببناء جديد خاصة في قضية الملكية اذ بدون تجديدها لا يستقيم أي شيء في جميع المجالات الحيوية "ان البدأة الحقيقية لكل اصلاح هي اعادة النظر في قضية الملكية لا يمكن أبدا أن تتحقق ديمقراطية في التعليم أو في العمل أو السياسة ما لم تتغير هذه الأوضاع الظالمة لملكية الأرض "(3).

واذا كان بازاروف يرفض رفضا قاطعا المبادئ والأسس النبيلة وكثيرا من القيم التي ترتبط مع هذا البنيان الاقطاعي"(4).

فان البشير كان أشد بغضا للاقطاع وأكثر كرها للأغنياء . فها هو البشير يخاطب ابن الصخري صراحة يقوله انك غني وأنا أكره الأغنياء"(5).

ويقول عنه في موضع آخر وهو غائب عنه " أعادي فيه الهيمنة والاقطاع"(6).

1- د . مكارم الغمري الرواية الروسية . ص : 151 .
2 - نهاية الأمس . ص : 137 .
3 - نهاية الأمس . ص : 148 .
4 - د . مكارم الغمري الرواية الروسية . ص : 147 .
5 - نهاية الأمس . ص : 191 .
6 - نهاية الأمس . ص : 144 .

ويصرف (بازاروف) كل وقته في العمل ويصرح " أن الانسان عامل في ورشة الطبيعة " (1).

كذلك نرى (البشير) يؤكد ذلك في معرض حديثه اذ يقول :" الاشتراكية هي أن يعمل الناس جميعا وفق معطيات العلم التجريبي بدون أي اعتبار للغيبيات والاعراف القديمة البالية "(2).

أما مضمون الروايتين فيتركز حول صراع الاجيال حول الاصلاحات الزراعية والحرب الدائرة هناك بين الاقطاعية والبرجوازية من جهة والاشتراكية والتقدمية من جهة أخرى في كلا البلدين كما تدور أحداث الروايتين في أقصى الريف وأشده فقرا . وتهتم الروايتان اهتماما كبيرا بتصوير حالة الفقر والبؤس والحرمان التي يعانيها الفقراء في هاتين القريتين وأخيرا فالروايتان ، الاباء والابناء ،ونهاية الامس تصوران تصويرا مأساويا حياة الشعب المغلوب والقرية المنسية .

ان (ابن هدوقة) من خلال رواية نهاية الامس يؤكد على ضرورة احداث ثورة شاملة تحرر القرى والارياف الجزائرية لتقضي على التخلف والفقر والجهل وكافة الرواسب الاستعمارية وتغير وجه الريف تغييرا جذريا لينتقل من حالة البؤس والشقاء الى حالة الرفاهية والعيش الكريم ومن الركود والكسل الى النشاط والعمل الدؤوب . ولذلك جعل (ابن هدوقة) (البشير) بطلا ثوريا يقتحم الصعوبات والمراقيل بعزيمة ثابتة وارادة قوية ،يتحمل وحده عبء المسؤولية الثقيلة وكله تفاؤل وثقة في المستقبل لانه متشبع بالوطنية وعزة النفس ومتسلح بالمبدأ الراسخ القوي وهكذا انتصر (البشير) رمز

---

1 - د . مكارم الغمري الرواية الروسية . ص : 154 .
2 - نهاية الامس . ص : 57 .

الاشتراكيـة والتقدمية والثورية على خصمه العنيد (ابن الصخري) رمز الاقطاعية والبورجوازية والرجعية .

ونلاحظ في الأخير أن (ابن هدوقة) منحاز الى بطله البشير متعاطف معه الى حد بعيد بحيث أنه ركز جهده في ابراز هذه الشخصية في جميع المواقف والآراء والأحداث تركيزا ملحوظا .

شخصيـــة بـورغـــرارة :

أما (بوغرارة) فهو الرجل الثائر الثاني في القرية بعد (البشير) وهو الرجل الوحيد الذي وقف بجانبه وناصره في أحلك اللحظات وآزره حين اشتدت به الكوارث والأزمات وشاركه مشاركة فعالة في جميع مواقفه وكفاحه ضد الاقطاع والتخلف ،يرد عنه كيد الأعداء والخصوم . يقول (بوغــرارة) في هذا الشأن لـ (ابن الصخري) مؤكدا عزمه ومناصرته لـ (البشير) مهما كانت النتائج المترتبة عن ذلك (وأنا أصارحك : سأقف الى جانب سي البشير مهما كان الحال لن يخيفني مال ولا سيف) .(1)

وفي موضع آخر ينصح (بوغرارة) (البشير) بتنفيذ ما كان يطمح اليـه وأن لا يرضخ أو يستسلم لأهل القرية لكي لا يحتقروه مستقبلا وتفشل مشاريعه وخططه أخيرا يقول (بوغرارة) : (أنا رأيي أن لا تسمع لأحد . انك لا تعرفهم مثلي . انهم اذا وجدوا ضعفا في الرجل استغلوه الى النهاية . ما يهمك أن يرضوا أو يسخطوا .) (2)

وكان (بوغرارة) يؤكد لـ (البشير) باستمرار مساندته المطلقة له بدون قيد أو شرط . (لا تخشى أحدا فأنا معك الى النهاية .) (3)

---

1 - نهاية الإمس ، ص : 155 .
2 - نهاية الإمس ، ص : 135 .
3 - نهاية الامس ، ص : 137 .

ولم يكتف (بوغرارة) بالتأييد القولي بل دعمه بالتأييد الفعلي العملي . وذلك حين تألب سكان القرية وهجموا على (البشير) يريدون به شرا اثر حادث هدم المسجد مباشرة لاعتقادهم أن (البشير) هو الذي هدمه وكان يحرضهم في ذلك (ابن الصخري) والامام . فردهم (بوغرارة) بعنف وشهر في وجوههم السلاح مهددا : (أقسم أنه من تحرك منكم أفرغت في بطنه رصاص بندقيتي . أيها الأنذال ! جئتم الى رجل أعزل وحيد تستظهرون عضلاتكم ،يا أبناء الاثم!) (1) .

ف(بوغرارة) يحاول استعمال الثورة والعنف كوسيلة لتغيير الأوضاع الفاسدة . وكان يتمنى من حين لآخر أن تعود الثورة مرة ثانية ليطهر الأرض من تلك النفوس الشريرة التي عاشت في الأرض فسادا : (آه لو عادت الثورة من جديد لذ بحت جلهم .) (2)

وهناك شخصية أخرى ساعدت (البشير) ووقفت بجانبه وأمدته بالنصائح الثمينة وعالجته من جرحه عندما شج أحد السكان رأسه . هذه الشخصية هي شخصية صاحب المقهى ،الرجل الثاني في القرية بعد (بوغرارة) الذي ناصر (البشير) وانضم الى جانبه فكان نعم الصديق ونعم الناصح والمشير.

أما الشيخ (حمودة) والد (البشير) فقد ثار على طريقته الخاصة ثورة غضب وانتقام بمفرده على جنود الاستعمار . وأحدث مجزرة رهيبة انتقاما من تلك الغرفة العسكرية الآثمة التي لطخت شرف الأسرة عندما اعتدت على (رقية) زوجة (البشير) ودنست عرضها . فلم يرض الشيخ (حمودة) بالظلم ولم يقبل العدوان أبدا . ولذلك سقط شهيدا برصاص جنود الاستعمار دفاعا عن العرض وحفاظا على الكرامة .

1 - نهاية الأمس . ص : 230 .
2 - نفس المصدر . ص : 134 .

ولا نختم الكلام عن الشخصيات دون أن نشير الى أن هناك تشابهـا كبيرا بين شخصيات رواية " نهاية الأمس " ورواية " ريح الجنوب " فالشخصيات في الرواية الأولى هي نفسها في الرواية الثانية مع تطوير خفيف وتحوير طفيف (ف (البشير) بطل رواية " نهاية الأمس " هو نفسه (مالك) بطل رواية " ريح الجنوب " و (ابن الصخري) هو نفسه (عابد بن القاضي) والعجوز (ربيحة) أم الحركي هي نفسها العجوز (رحمة) كلتاهما مولعتان بالفخار. وأن (عبد القادر بن عابد) هو نفسه (سي قدور) والقهواجي نفسه في كلتا الروايتين تبقى شخصية فذة هي (بوغرارة) لم نجد لها وجودا قويا في " ريح الجنوب " وانما لها ملامح عند (مالك) شيخ البلدية .) (1)

أما الشخصيات النسائية في الرواية فقد كان حظهن قليلا ،فكلهن صور باهتة ،لا أبعاد لها ولا أعماق ،كأنهن أشباح معلقة في فضاء . وليس لهن دور بارز في دفع الأحداث والمواقف الى الأمام . لأن السلبية والتخاذل كانت سمتهن جميعا !

وأخيرا وبينما كان (البشير) منهمكا في صراعه ضد التخلف والجهل وضد الاقطاعية والبرجوازية اذ برز حدث جديد في حياته قلب أو ضاعه رأسا على عقب هذا الحدث الجديد هو ظهور (رقية) زوجته القديمة على مسرح الأحداث ،عثر عليها فجأة تسكن في القرية التي يعمل بها مدرسا بعد أن انقطعت أخبارها عنه وظن أنها ليست على قيد الحياة لأنها انزوت في طي النسيان . وبمجرد ما التقى بها في المدرسة لاحت له فكرة جديدة تطرح نفسها بالحاح وهي هل يتزوج ب (رقية) من جديد ويتصالح مع

---

1 - عبد الأمير الحبيب ،نهاية الأمس بين الصدق الفني والصدق الموضوعي الشعب الاسبوعي عدد 35 . مارس 1976 .

الماضي أو يرفض هذا الزواج ويضرب بالماضي عرض الحائط . وبعد تفكير طويل قرر الزواج منها واجتمع شملهما بعد فراق طويل ورجعت البسمة الى الشفاه الحزينة . وبعد ذلك واصل كفاحه ضد التخلف والاقطاع لينتقل من قرية الى أخرى ،ليستكمل مشروعه الطويل الطموح ليتحقق الحلم الذي طالما راوده منذ خروجه من المدينة .

يقول (البشير) في هذا المضمار (الزواج لا دخل له في تغيير مشروعي الأول . سأقضي في كل قرية سنة ،حتى تبرز الى الوجود قرى في كل مكان لا تمت بصلة الى قرانا القديمة الا من حيث الانتساب .) (1)

وبذلك يطلع على (البشير) و (رقية) فجر جديد . وينتهي أمسهما نهائيا . ورواية "نهاية الأمس" معناها بالنسبة للشعب الجزائرى نهاية الاستعمار ،نهاية الاقطاع والاستغلال والاستعباد . معناها نهاية الأمراض نهاية الفقر والذل ،نهاية البؤس والشقاء ،معناها نهاية الرعي والخماسة نهاية الأكواخ والبيوت القصديرية الحقيرة الى الأبد !

وطلوع فجر جديد ،فجر ثورة البناء والتشييد ،فجر الثورة الاشتراكية

---

1 - نهاية الأمس . ص : 286 .

بان الصبح

لعبد الحميد بن هدوقة

- ملخص الرواية (1)

تحكي رواية " بان الصبح ل (عبد الحميد بن هدوقة) ،قصة أسرة (الشيخ علاوة) الذي كان لاجئا في تونس ،أثناء الثورة التحريرية . وبعد الاستقلال ،عاد (الشيخ علاوة) الى أرض الوطن ليستولي على " فيلا " من فيلات المعمرين الفرنسيين ،تدعى" الربيع "بحي حسين داي بالجزائر العاصمة . تتكون أسرة (الشيخ علاوة) من سبعة أفراد : ثلاثة ذكور : هم (عمر) وهو مدير شركة وطنية بالعاصمة . و (مراد) وهو طبيب جراح . أما (رضا) فهو طالب بكلية الآداب ،وأربع بنات ، هن (اليامنة) متزوجة ،و (زبيدة) عانس بالبيت ،و (دليلة) طالبة بكلية الحقوق . أما (هالة) فطالبة في الثانوية . وهناك (نعيمة) التي جاءت من الريف قاصدة بيت عمها لمزاولة الدراسة الجامعية . غير أن أمورا طارئة أرغمتها عن قطع الدراسة والرجوع فورا الى دار أبيها . وسبب رجوعها الى البيت ،يعود أساسا الى تلك الرسالة التي وقعت في يد (الشيخ علاوة) صدفة ،والتي تدعوها الى فكرة الاجهاض والتخلص من الجنين بأسرع وقت ممكن . فنقم عليها عمها من جراء ذلك . وازداد الأمر خطورة حينما حاول (عمر) ابن عمها الاعتداء على شرفها . رغم أنه متزوج وله ثلاثة أبناء ! وقد ظهرت براءتها بسرعة ،لأن الرسالة في حقيقة الأمر كانت موجهة الى (دليلة) بنت (الشيخ علاوة) . والتي كانت حاملا في شهرها الثاني ، وكانت قد مارست الجنس مع (كريمو) الفتى ،الماجن المستهتر ،الذي أوقع فتيات كثيرات في شباكه فلطخ شرفهن ودمر حياتهن

---

1 - بان الصبح فرغ المؤلف من كتابتها عام 1978 ونشرها عام 1980 بالجزائر.

خاصة (دليلة) التي كانت ترغب في الزواج منه ولما فشلت كادت أن تنتحر لهول الكارثة .

وتشير الرواية من جهة أخرى الى عائلة (عبد الكبير بن عبد الجليل) والد (كريمو) وما تنعم فيه هذه الأسرة من ثراء فاحش وأموال طائلة حيث يملك (ابن عبد الجليل) شركات ومصانع وقصور في الجزائر العاصمة . ولذلك حاول (الشيخ علاوة) أن يعقد صلة مصاهرة مع عائلة (ابن عبد الجليل) البورجوازية فيزوج ابنه (مرادا) بابنة (ابن عبد الجليل) .

وفي الرواية نجد مناقشات المشروع التمهيدي للميثاق الوطني عام 1976 ونجد أيضا خصومة (عمر) مع النقابة التي تعمل على عزله . كما تتطرق الرواية الى مشكلة الأمراض الاجتماعية الخطيرة ،كالرشوة والمحسوبية والبيروقراطية والسطو والاختلاس والفساد التي يمارسها بعض المسؤولين في المؤسسات الحكومية برز ذلك جليا من خلال مناقشات المواطنين ،لمشروع الميثاق الوطني .

وقد شن (عبد الحميد بن هدوقة) هجوما عنيفا على المسؤولين المكلفين بالاستيراد . مبرزا أساليبهم الدنيئة التي يستعملونه في السرقة والاختلاس فمزق تلك الأقنعة التي كانوا يتسترون بها ويخفون وجوههم القذرة وراءها .

ولم ينس المؤلف أن يشير في ثنايا روايته الى قضية السطو على الفيلات والعمارات التي كان يسكنها الأوربيون في المدن ،والاستيلاء على مزارع المعمرين في السهول خارج المدن الكبيرة في الوطن ،غداة الاستقلال .وأشار من جهة أخرى ،الى الحديث عن لصوص القصبة وألاعيبهم بالمواطنين الى غير ذلك مما هو مسجل ومبسوط من خلال أحداث الرواية .

الشخصيـــــــات :

من الملاحظ أن (عبد الحميد بن هدوقة) لم يركز في روايته " بان الصبح " على شخصية محورية واحدة تدور حولها جميع الأحداث والمواقف والأفكار أو تتمحور حولها الآراء . وانما وزع المؤلف الأدوار على شخصيات متعددة ومتناقضة ايديولوجيا وسيكولوجيا . كما فعل (الطاهر وطار)في روايته "(العشق والموت في الزمن الحراشي)".

الا أن هذا لا يمنع أسرة (الشيخ علاوة) من أن يكون لها نصيب الاسد من الرواية . ولذلك لابد أن نبدأ الكلام بشخصية (الشيخ علاوة) ذلك الاب الاقطاعي الرجعي ،الذي يذكرنا بشخصية (بو الارواح) بطل"رواية الزلزال " لـ (الطاهر وطار). وهذان البطلان يشتركان في كثير من الخصائص والمميزات والمواقف والتصورات ، فالاثنان عاشا في قسنطينة وتونس ،والاثنان يعملان مديران بالجزائر العاصمة والاثنان يحملان ثقافة تقليدية واحدة ،وكلاهما رجعي يحن الى الماضي البائد .

وكان (الشيخ علاوة) ،يحاول جاهدا أن يتشبث بأهداب الرأسمالية الاقطاعية . وأن ينضم الى صفوفها ،ويرتمي في أحضانها بأي شكل من الاشكال وان جاء ذلك عن طرق ملتوية ،فهو يحاول أن يقضي على آثار التخلف ويتغلب على مركب النقص الذي لحقه من جراء نشأته بالبادية ،ولو كان بطرق ملتوية ولذلك فهو يثني على ابنه (عمر) عندما سرق مائة وخمسين مليون سنتيما من أموال الدولة . فالرجل الكامل الرجولة في نظره ،هو ذلك الذي يملك ثروة وان كانت سرقة واختلاسا ! والا فهو من الغوغاء ودهماء الناس وأراذلهم .

ومع ذلك فـ(الشيخ علاوة) شخصية رجعية متعالية تتصف بالغرور والتعالي عن جميع الناس ،وأنه يظن أنه بلغ درجة عالية من السمو وعلو المنزلة

فهو أشرف الناس ،وأكثرهم علما . وفضلا عن ذلك فان أبناءه حسب اعتقاده ليسوا كأبناء الآخرين " أنا لست كسائر الناس وأبنائي لا ينبغي أن يكونوا كسائر الابناء"(1) .

ورغم ذلك فان (الشيخ علاوة) ناقم على الحياة والمجتمع ،ويحن الى العهد البائد ، حنينا جارفا ،عهد انتهى الى غير رجعة ،وانتهت معه أحلام البورجوازية المستغلة الى الابد . ولذلك امتلأت نفس (الشيخ علاوة) مرارة وحقدا ،حين وجد نفسه متأخرا عن الركب متخلفا فكريا وحضاريا أمام فئات الشباب المثقف ولاذ بالصمت الرهيب يتمزق قلبه أسى وحسرة عما آل اليه أمره ،متسائلا بمرارة : "أين كنت ؟ لماذا أشعر بهذا الانقلاب المريع في حياتنا قبل اليوم ؟ ماذا فتح عيني بهذه الصورة الفجائية ؟ أهم أولئك الشبان الخبثاء الملاحدة في الاجتماع ؟"(2) .

وما لبث أن شعر (الشيخ علاوة) بالغربة والضياع . لأن ثقافته التقليدية التي طالما كان يفاخر أقرانه ومعارفه بها وجدها فجأة أسلحة تقليدية متخلفة كالسيف والرمح ، بالنسبة للطائرات والصواريخ . فأفكاره المتخلفة لم تصمد طويلا أمام المناقشات التي دارت رحاها حول مشروع الميثاق الوطني.فأصطدمت بالتيارات الفكرية والعلمية ،والايديولوجيات المعاصرة ،والنظريات الاقتصادية العالمية المتطورة . التي كانت تدوى في عالم المدينة الصاخب .

وكم كانت دهشته عظيمة حين صرخ في وجهه ذلك الشاب المثقف الذي كان يناقشه حول ملكية الأرض . (لهذه الارض التي نتحدث عنها نحن ،يملكها أشخاص استولوا عليها بأوجه غير مشروعة ،وهم يستغلون الشعب بها افهمت؟ لم يجد ما يقول . الشاب لا يهمه رأي القرآن ،يهمه رأي الناس في الموضوع ا

1 - بان الصبح . ص : 46 .
2 - بان الصبح . ص : 31 .

مع من يتحدث (الشيخ علاوة) اذن ؟ مادام القرآن والحديث والفقه وكل ما قرأه لا دخل له في النقاش ؟ بما يناقش ؟ أسلحته هي القرآن والسنة والعرف ،وهذه كلها قيل له اليوم أنها لا دخل لها في النقاش . انه اذن محكوم عليه بالصمت". (1)

وقد أصيب (الشيخ علاوة) بخيبة أمل مريرة . فراح يصب جام غضبه على المجتمع كله سبا وشتما لعله يجد متنفسا لنوباته الهستيرية التي وصلت به الى حد الاختناق . "كان يشق طريقه بين الناس وهو يقول في نفسه :هؤلاء ليسوا عما لا ،ليسوا آباء ولا أبناء ،ولا حتى بشرا . هم ملاحدة ،أو باشز ،نشالون . هم اشتراكيون ! يشتركون في كل شيء ،حتى في حلائلهم !" (2) .

واذا كانت البلاد تعرف كل يوم تطورا مستمرا في جميع مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية . وأن كل شيء قد تغير وتطور الى الافضل والأحسن . فان (الشيخ علاوة) ظل متقوقعا على ذاته يعيش في عصر غير عصره وثقافة غير ثقافته العتيقة ! يلهث وراء سراب الشهرة وبريق المال . ولما أفاق من سباته العميق وفتح عينيه . وجد أن قطار التقدم والرقي ،قد تجاوزه طبقته الاقطاعية المتعالية . وهنا راح يتساءل في حيرة وذهول عن مصدر التغير الذي طرأ عليه : هل هو نفسه الذي تغير ؟ أم المدينة هي التي تغيرت؟ أم الزمان هو الذي تغير ؟ واهتدى أخيرا الى الحل الصحيح ."ان الذي تغير اذن هو الزمان كان يجري و(الشيخ علاوة) واقفا ينظر اليه . فوجد نفسه لما اجتمع الشمل غريبا !" (3) .

وهكذا أصبح (الشيخ علاوة) محل سخرية وازدراء من طرف جميع الناس ،

---

1 - بان الصبح . ص : 34 .
2 - المصدر نفسه . ص : 30 .
3 - المصدر نفسه . ص : 27 .

حتى أقرب الناس . وجهوا اليه النقد والتجريح ،فكل ينمته بنمت حقير . فهذا (رضا) ابنه الصغير،يقول عنه بتهكم مريرا "انه مجموعة من قطع الغيار، لا تشابه الواحدة الأخرى ،ولا هي من مصدر واحد !انه يحيا في عدد من العصور، وفي عدد من البلدان في نفس اللحظة يريد أن يكون من عداد الاغنياء ،ومع المثقفين ،ومع الزعماء ومع الحكام . يناصر الحق ،ويناصر الجلادين . أب طيب وفظ . يريد أن يكون كل ذلك ،وهو ليس شيئا من ذلك . يعتقد أنه أذكى الناس وهو أبلههم ."(1)

وفي محطة الحافلات يهاجمه شاب جرىء،بكل حدة وقسوة . قائلا : "لا تسمني ولدا . ثم لا يهمني من أنت . ان لم أكن أعرفك انني الآن عرفتك أنت الماضي الذي لا نريده ،هذا أنت!"(2).

وكأني بهذا الشاب يريد أن يقول للشيخ (علاوة) .أنت من الطبقة البورجوازية أنت من الطبقة الاقطاعية . أنت من أذناب الاستعمار . أنت من بقايا التخلف والتقهقر أنت رجعي تريد أن تكبح عجلة التقدم والتطور .أنت من الذين ينتمون الى التزمت والانغلاق . ولهذا كله ينبغي أن تكون منبوذا من طرف الجميع . أنت الماضي بكل مآسيه وشروره وآثامه . ولا حاجة لنا بهذا الماضي أبدا .

ولهذا فالشيخ علاوة) ليس بشخصية في رواية وانما هو رمز حتى لطبقة وهذه الطبقة حتما مصيرها الاندثار والتلاشي .

ومن الشخصيات الأخرى البارزة في رواية "بان الصبح" شخصية (دليلة)

---

1 - بان الصبح . ص : 276 .
2 - المصدر نفسه . ص : 25 .

التي سلط عليها المؤلف الأضواء الباهرة . والتي كان لها حضور كامل على مسرح الأحداث من بداية الرواية الى نهايتها . لم تغب عنا لحظة الا لتعود من جديد ،وتبرز في صورة أخرى . و (دليلة) هذه فتاة ثائرة على المجتمع وتقاليده وقيمه . متمردة على سلطة الأبوين . و (دليلة)هنا تعد تطورا لـ (نفيسة) في رواية " ريح الجنوب " وهي الوجه الثاني لـ(نفيسة). فكلتاهما فـتـاة متمردة رافضة ثائرة على القيود الأسرية والاجتماعية . الا ان (دليلة) كانت أكثر جرأة وشجاعة وتحررا وأكثر اباحية في في ممارسة الجنس ،حيث شربت من الخمر حتى السكر ،وارتوت من الجنس حتى الثمالة بينما حرمت (نفيسة) من كل الملذات الحسية فلم تعرف لها طعما ؟

ويمكن أن تقول أن (دليلة) هي (نفيسة) نفسها . بعدما حطمت قيود الجهل والتخلف . وكسرت أبواب القرية التي كانت محبوسة بين جدرانها .

وتحررت من سلبيتها وجمودها . ودخلت المدينة من أوسع أبوابها . فعبرت عن مشاعرها وأحاسيسها في صراحة وحرية وانطلاق . فانغمست الى الأذقان في بؤرة الخمر والجنس ! وكانت أغلى أمنية في حياتها أن تتلذذ وتغرق في الخمر والجنس الى النهاية . استمع اليها تعبر عن مشاعرها بكل تبجح ."(الذي يهمني الآن هو كأس ويسكي لو وجدت اليها سبيلا ورجل)"(1)

وكانت أحلى لحظات حياتها العابثة الماجنة ،هي اللحظة التي تكون فيها في أحضان رجل داعر . أو شاب مستهتر مائع . مثل (كريمو) ليطفئ لهيب شهواتها الجامحة ."أود أن أجامع رجلا بدون أن أخشى الحمل"(2) .

---

1 - بان الصبح . ص : 185 .
2 - المصدر نفسه . ص : 183 .

ولكن (دليلة) وقعت فيما كانت تخشاه ،وتتخوف منه . فحطمت وكان حطمها كارثة دمرت حياتها . والملاحظ أن (دليلة) كانت تحيا حياتين متناقضتين تمام التناقض : حياة الأسرة والحريم والمحافظة التي تتمسك بها العائلة التقليدية في بيت أبويها التي ضربت حصارا شديدا على البيت خوفا من الفضيحة والعار . وهناك حياة أخرى ،وهي حياة اللهو العبث والمجون ،ضمن صفوف طلاب اللذة والعربدة والسكر . حياة التلق والاضطراب والخوف من المستقبل المجهول .

ونتيجة لهذا الضغط الرهيب الماسك بخناقها . لجأت الى الوسائل التي تنفس عنها ذلك الكبت الذي تعاني منه . فشربت الخمر كثيرا ،ودخنت طويلا ، ومارست الجنس بنهم وشراهة شديدة . ومع ذلك لم تحل مشكلتها بل ازدادت تعقيدا . وكانت نهايتها الانهيار والسقوط المدمر !!

و(دليلة) تعاني التمزق والضياع الذي تعاني منه أغلب فتيات المدن وخاصة منهن الفتيات اللائي انحدرن من أصل ريفي قروي ،فهن يحاولن تقليد الفتيات البورجوازيات المتفسخات . لكنهن لم ينجحن . وظللن يتأرجحن بين عقليتين متناقضتين . ولم يعرفن أين يتجهن ،وأي طريق يسلكن ، وفضل أغلبهن حياة اللهو والعبث اعتقادا منهن أنه الطريق الصحيح ،طريق الحرية المطلقة والرقي المزدهر . فالفتاة المتقدمة الراقية في رأيهن هي التي تخلع ثياب الحشمة والأدب والاخلاق ،فتتكلم ببذاءة وتدخن وتشرب الخمر وتمارس الجنس بدون قيود ولا حدود ! ثم بعد ذلك تصم كل فتاة لا تتبع طريق الغواية والفساد بأنها رجعية متخلفة !!

ان (دليلة) اذن رمز لكل فتاة متمردة رافضة ،لقد حاولت أن تكسر أغلال المجتمع ،فرفضت ،وتمردت ،وانغمست في كل الشهوات والملذات . وأخيرا

وجدت نفسها وحيدة في ساحة المعركة بدون سلاح ، وبدون ناصر أو معين فانهزمت شر هزيمة ، وتبخرت أحلامها . وتبين لها بعد فوات الأوان ، أنها كانت تسعى وراء سراب خادع وأوهام كاذبة .

والغريب أن (عبد الحميد بن هدوقة) جعل جل الفتيات يتسابقن الى الجنس ويتهافتن الى الاقبال على الملذات والشهوات بأعداد الضخمة فيستسلمن للشباب المستهتر بكل سهولة ويسر . وفي هذا السياق يخاطب (كريمو) (دليلة) قائلا :" لست أول فتاة تحبل ان أكثر من عشرة آلاف فتاة يجهضن سنويا في العاصمة وحدها ؟". (1)

وهؤلاء الفتيات يتهافتن على الجنس ليس اضطرارا تحتمه ضرورة الفقر والعوز كما هو الشأن بالنسبة لبطلا (نجيب محفوظ) ك (حميدة " في زقاق المدق " أو (نفيسة) في " بداية ونهاية " أو (احسان شحاته م" في القاهرة الجديدة " فهؤلاء الفتيات سقطن صرعى ضحية الفقر والحرمان ، وتحت ضغط ظروف المعيشة الصعبة القاسية في تلك الفترة الحرجة في مصر . أما في الجزائر فالأمر يختلف تماما . لأن أحوال المعيشة الآن عندنا ميسورة ومريحة . لأن جميع أبواب العمل والتكوين والتوظيف مفتوحة أمامهن . وليست كما كانت عليه في فترة الأربعينات والخمسينات من هذا القرن ، التي كتب فيها (نجيب محفوظ) رواياته المذكورة آنفا . أم أن الكاتب أراد أن يحقق حلم (دليلة) الذي طالما حلمت به وهو الاباحة الجنسية والتخلص من الكبت والحرمان الجنسي لتنطلق جميع الفتيات من قيودهن ، فتهجم على جميع الرجال في كل مكان . ولقد جربت دليلة هذه المحاولة ولكنها فشلت .

---

1 - بان الصبح . ص : 78 .

ان (دليلة) في ثورتها وتمردها تريد أن تحطم الأغلال وتكسر القيود للتحرر من آثار كل عبودية ،وتتحدى كل سلطة ،مهما كان مصدرها ، سلطة الأبوين ،سلطة الأخوة ،سلطة المجتمع ،سلطة الدين ،سلطة الأخلاق والآداب . ترغب في الحرية المطلقة ! هذه الحرية التي تبحث عنها (دليلة) لا وجود لها على أرض الواقع المحسوس ،وأنها لا توجد الا في مخيلة صاحبتها فقط . وهي ليست حرية وانما هي فوضى واضطراب .

و(دليلة) في ثورتها هذه لا تريد تغيير الواقع أو محاولة السعي في ايجاد بديل له ،وانما تريد تدمير المجتمع ،وتحطيم كل من يقف حجر عثره في طريقها ، حتى وان كان من أقرب الناس اليها . وعند ما لم تجد وسيلة في تنفيذ مآربها وتحسن بالعجز ، تنفجر ساخطة ! علينا أن نحطم مجتمع الرجال !"(1).

وتصيح أوتصرخ أحيانا أخرى في حيرة وذهول! . بماذا نغيّر الواقع ؟ بقتل الآباء؟ أو الأخوة ؟ أو الأزواج ؟ أو الأحباب ؟"(2).

ونحن نتساءل هنا ما هي الطريقة التي تريد بها تحطيم الرجال وبماذا تحطمهم ؟ هل تحطمهم بالخمر ؟ بالجنس؟ بالتدخين ؟ بالفوضى بالعبث والمجون ؟

لقد جربت (دليلة) هذه الوسائل كلها وفشلت . وبدلا من أن تحطم الرجال . تحطمت هي وانهارت . أمام فرد واحد من الرجال هو (كريمو) الذي سقطت في شباكه بسهولة ويسر . ولطخت شرفها بالوحل . ولما تحرك

---

1 - بان الصبح . ص : 255 .
2 - المصدر نفسه . ص : 181 .

اللقيط في أحشائها شعرت بوطأة المأساة . وانقلبت حياتها جحيما لا يطاق . وفكرت في الانتحار ،لتجعل حدا لحياتها الماجنة العابثة نهائيا ! الا أنها أحجمت وتراجعت عن ذلك ريثما تدرس المشكلة من جميع جوانبها . تقول (دليلة) في حزن وحرقة ؟ أقتل نفسي ،أنتحر ؟ أرمي بنفسي في البحر ،وأصبح لا شيء . ماذا تخسر الدنيا بفقدي ؟ ماذا يخسر مجتمع الرجال بفقد فتاة بائسة ؟ لا شيء . الموت على كل حال أهون من الحياة بلقيط في ذراعي .؟(1)

والغريب أن (دليلة) كانت غارقة في الرذيلة الى الاذقان . وكانت تعتقد أنها على صواب . وأن جميع تصرفاتها على أحسن ما يرام . ثم انها تسمح لنفسها بممارسة الجنس مع كل من هب ودب من الشباب في حين أنها تصب جام غضبها وسخطها على أخيها (عمر) وتعتبره تافها حقيرا. لانها رأته يضاجع امرأة من بنات الهوى ،في محطة وقوف السيارات ، في رابعة النهار أمام أعين الناس . دون تستر أو خفية . ان (دليلة) لم تخجل من نفسها ومن المجتمع . حين تصف تلك العاهرة بالخسة والنذالة والحقارة . ونسيت في نفس الوقت نفسها وأفعالها الشنيعة ! نسيت تفاهتها وحقارتها واللقيط الذي تحمله في أحشائها . أم أن الانغماس في الجنس مباح ومسموح به للمراهقين والمراهقات من أمثالها وأمثال (كريمو) . وممنوع محظور على أخيها (عمر) وعلى العاهرة التي كانت بين أحضانه . أم أن فوضويتها الجنسية تحلل لها ممارسة الجنس مع من تحب بينما تحرمه على غيرها ! ؟

وهكذا سقطت (دليلة) في حمأة الرذيلة . واكتشفت أنها لم تسقط وحدها ،وانما وجدت أخاها (عمر) هو الآخر يتمرغ في الأوحال القذرة .

---

1 - بان الصبح . ص : 300 .

فازدادت مشكلتهما حدة وتعقيدا . وهنا ربطهما الكاتب بحبل واحد ورمى بهما معا في بؤرة الفساد . ليقول : ان أبناء وبنات الطبقة البورجوازية يعيشون في جو يسوده الانحلال والتفسخ التام . فيغرقون في اللذات والشهوات الى الاذقال . ثم يؤول أمرهم في النهاية الى الانهيار والسقوط والتلاشي . والا بم تفسر كلام (دليلة) حينما تقول بتبجح وغرور . " عندما أفجر البركان أقول للجنرال - تمنى أباها - شربت الويسكي قبالة الجامع!."[1]

وبعد سقوطهما يقول المؤلف "انها لم تسأل الناس رأيهم عندما انزلقت في اثمها . كان الويسكي والفريزة وتمثيل (كريمو) دور العاشق الولهان . كل أولئك تضافروا عليها في وقت من أوقات الضعف فدفعوا بها الى الرذيلة لا تشكو لأحد ولا تطلب من أحد عونا عن مصير كتبت بنفسها خطوطه الأولى ."[2] .

ربما أن المؤلف هنا يلتمس لها بعض الأعذار ليبرر موقفها ويظهر أنها لم تكن سوى ضحية من ضحايا المجتمع القاسي الذي لا يرحم أي فرد حاول الثورة أو التمرد على أخلاقه وقيمه . وهذا ليس بصحيح ، لأن المجتمع لم يرغمها أبدا على السقوط في الرذيلة والفساد ، بدليل أن صديقتها (نصيرة) لم تسقط في شباك (كريمو) وغيره من الخلعاء المجان . فلقد حاول (كريمو) اجتذابها اليه عن طريق وسائل الخبث والاثارة والاغراء . لكنها نفرت منه ، وصدته بعنف . فلم يستطع تلطيخ شرفها ولا تشويه سمعتها . وشتان بين الفتاتين : فتاة عبثية فوضوية ، وفتاة واعية مكافحة ، تناضل من أجل حياة أفضل ! وسنرى بعد تحليل مواقف (نصيرة) وسلوكها .

---

1 - بان الصبح . ص : 307 .
2 - المصدر نفسه . ص : 231 .

ونعود الى (دليلة) فنشير الى أنه توجد بعض الملامح والسمات بين دليلة و (لينافياض) بطلة رواية (أنا أحيا)ل (ليلى بعلبكي) . فكلتاهما تمردت على سلطة الآباء والمجتمع . وكلتاهما حاولت أن تكسر أغلال وقيود المجتمع . ثم انغمستا في الخمر واللهو واللعب الى النهاية .

وفي نهاية الرواية نلتقي ب (دليلة) تلطم وجهها وتصرخ من أعماقها حزنا وأسى على غربتها وضياعها في عالم مليء بالمزالق والأخطار الرهيبة فوجدت نفسها في صحراء قاحلة يلفها السراب من كل مكان . فراحت تتساءل في حيرة وذهول :"ما هذا ." ما هذا العالم الذي تحيا فيه ؟ هو عالم مكايد أم عالم سراب ؟ هل كريمو هو الذي حبك لها هذه اللعبة ؟ دارت الدنيا بها ، ولم تدر ماذا تفعل ؟ بقاؤها بدار أبيها لم تعد تقوى عليه . كل شيء انتهى بالنسبة اليها مع أهلها . انها تشعر بغربتها بينهم . عليها أن تغادر البيت في أقرب وقت ممكن . لكن الأبواب التي طرقتها كلها كانت مغلقة لحد الآن"(1).

ورغم سقوط (دليلة) في بؤرة الفساد فان لها موقفا ايجابيا ،يتمثل في وقوفها بجانب ابنة عمها (نعيمة) . وحاولت أن تخفف عنها محنتها فناصرتها قولا وفعلا ،ودافعت عنها بقوة متحدية في ذلك عجرفة أخيها وصلف أمها مفندة أقوالهما تفنيدا قاطعا ،محتجة مرّة ومستنكرة مرة أخرى . "وخاطبت أباها : يكذبان عليها يا أبي .

هجم عليها عمر وصفعها . فتدخل الشيخ علاوة ليفك بينهما . وقالت دليلة تحذر أخاها : - اياك أن تعود الى هذا أبدا ! سأفضحك أمام زوجاتك"(2)

---

1 - بان الصبح . ص : 329 .
2 - المصدر نفسه . 228 .

وأخيرا تغادر أسرتها وتخرج من دار أهلها نهائيا تجر أذيــــال الخيبة والخسران . متجهة الى صديقتها (نصيرة) طالبة منها أن تأويهــــا مدة وجيزة ريثما تجد سكنا . وقد راقت فكرة هروب (دليلة) من البيــت، أختها الصغرى (حالة) . فنادتها باعجاب شديد .؟أنت الأولى التي تخـرج من الشكنة بارادتها برافو.؟(1) .

واثر خروج (دليلة) من بيت أسرتها تناثرت حبات عقد العائلة الواحدة تلو الأخرى فغادرت (نعيمة) البيت بصحبة أبيها الى الريف . وطـــرد (عمر) من وظيفته كمدير للشركة . وتزوجت (زبيدة) بمدير الثانوية . بينمـا راح (مراد) الطبيب يفتش عن سكن محاولا مغادرة بيت أسرته بأسرع وقـت ممكن ا أما (رضا) فهو الابن الأصغر في عائلة الشيخ (علاوة) وهو طـالب جامعي هو في سبيل اعداد الدراسات المعمقة في الأدب وكان يشارك بانتظام في حملات التطوع كمسؤول للجنة التطوع بالجامعة فيذهب الى الريف ليشارك الفلاحين في أعمالهم ويشرح لهم أهداف الثورة الزراعية ومراميها البعيـدة مساهمة منه بضرورة نشر التوعية والتثقيف في أوساط الجماهير الفلاحيـة الكادحة ،ادراكا منه ؟أن الشعب الجاهل لا يبني اشتراكية ولا اقتصادا صحيحا انما يبني الجوع والخراب اذا كان الجوع والخراب بنيانا؟.(2)

ويشارك من جهة أخرى في مناقشات المشروع التمهيدي للميثاق الوطـني كبقية المثقفين الذين يثرون المناقشات بصفة ايجابية وهو من أجل ذلـك لا يألو جهدا في نشر المبادئ الاشتراكية ،فيدعو الى العمل الجاد المثمر بتفاؤل واطمئنان سعيا منه لتحقيق الأهداف والغايات التي ينشدها المجتمع

---

1 - بان الصبــح . ص : 330 .
2 - المصدر نفسه . ص : 131 .

بكافة فئاته الحية العاملة . لتنمحي بذلك الفوارق الطبقية الاجتماعية . يقول (رضا) في هذا الصدد " عندما يكون الانسان جادا لا يكون حزينا لأن الحياة الجادة لا تتلاقى مع الحزن والعبوس . ان الاشتراكية أمل وسرور مستمر ليست بكاء ولا حزنا "(1) .

ومن حين لآخر كان (رضا) يتعمد اثارة غضب أهله ، ويندد بتصرفاتهم البورجوازية وبأخلاقياتهم المعوجة . فيوجه اليهم سهام نقده اللاذع وخاصة الى أبيه وأخيه (عمر) مما جعلهما يكرهانه ولا يقبلان منه أن يتفوه أمامهما بأية كلمة " وكان (رضا) يفكر في أن سهرات أهله تروح عن النفس أكثر من أي سهرك مهما كانت برامجه ! انها مهزلة تجري كل ليلة في هذا الصالون . "(2)

ان (رضا) كما صوره (عبد الحميد بن هدوقة) في الرواية ، شاب يتفجر حيوية ونشاطا . ويتمتع بطاقات هائلة من الوعي والادراك . وبنصيب وافر من الثقافة . غير أن المؤلف لم يمنح له الحرية الكاملة ، لينطلق الى الأجواء العليا الفسيحة . فيعبر عما يعتمل في نفسه ، ويختلج في صدره . ولم يسمح لبطله (رضا) أن يفجر طاقاته الثورية . فيعلنها صرخة مدوية في وجه كل اقطاعي بورجوازي يعمل لمصلحته الذاتية . دون الالتفات لمصلحة المجتمع أو المصلحة العامة . فكان (رضا) مغلول اليدين مشلول الارادة . حبسه المؤلف في قفص (الشيخ علاوة) وأحكم عليه الاغلاق جيدا!! وفعل به (ابن هدوقة) كما فعل بـ (مالك) في رواية " ريح الجنوب " من قبل حيث كتم أنفاسه الى حد الاختناق بدون أي مبرر!؟

---

1 - بان الصبح . ص : 131 .
2 - نفس المصدر . ص : 159 .

وقد كان بامكان المؤلف أن يجعل من (رضا) بطلا مناضلا ثوريا يدافع عن الايديولوجية التي يعتنقها ، ويضحي في سبيلها بكل طاقاته وامكانياته فيتحول الى بطل مكافح يتسم بالفعالية والايجابية مثل (البشير) في نهاية الأمس" و (زيدان) في رواية "اللاز" ولكن المؤلف أبى الا أن يجعله بطلا سلبيا مستسلما . مثل (مالك) بطل رواية " ريح الجنوب "! ؟ كما أسلفنا .

وهنا تبرز المفارقة بين الأخوين (رضا) و (عمر) . فمن خلال رسم شخصيتهما نرى أن المؤلف يعقد مقارنة بينهما مبينا تناقض مواقفهما وسلوكهما المتباينين اتجاها وتصورا . فالأول جعله اشتراكيا تقدميا ،يشارك في التطوع ،وينضم الى صفوف الفلاحين . بينما الثاني بورجوازيا . استغلاليا . يختلس أموال الدولة ، ويتخاصم مع أعضاء الفرع النقابي ،ويطارد الماهرات في محطات السيارات ،ويحاول الاعتداء على شرف ابنة عمه (نعيمة) ، وأخيرا يطرد من الشركة لسوء تصرفه مع العمال واختلاسه لأموال الشعب! وبذلك يكون (ابن هدوقة) قد أدان البورجوازية والاقطاعية وشن عليها حربا شعواء في شخصية (عمر) رمز الخيانة والجشع والاستغلال . فألصق به كل العيوب والمثالب . وفي الاخير جعله عبرة لكل مختلس متعجرف فاسد !!

وهناك شخصية أخرى تشترك مع (رضا) في بعض الملامح والسمات الثورية . وهذه الشخصية هي (نصيرة) العاملة المناضلة التي تكتسب قوتها بعرق جبينها والتي تعمل بنقابة العمال . وكانت متفتحة على الجماهير الشعبية ،وعلى اتصال وثيق بفئات الطبقة العاملة في البلاد . وكانت تتمتع بفكر ناضج ،وثقافة مستنيرة . تعمل (نصيرة) على بث الثورة وتغيير الواقع الى الأفضل ،وتذليل الصعاب . فهي مثلا تصرح برأيها في وضوح تام لصديقتها (دليلة)مبينة لها وجهة نظرها في المجتمع والحياة . محاولة أن تجنبها طريق الانحراف

والشذوذ الذي سوف يؤدي بها الى الانزلاق والسقوط وقد طلبت منها منها بالحاح أن تبتعد عن فكرة الهروب ،أو التفكير في الاستسلام . لتجد حلا ينقذها من المشكلة التي ورطت نفسها فيها . (لم يكن الهروب في يوم من الأيام حلا لأي قضية . علينا أن نغير نحن الجو الذي نحيا فيه اذا لم يكن صالحا ،لا أن نهرب منه !)(1).

وكانت (نصيرة) تشرح لـ (دليلة) من حين لآخر معنى الثورة الحقيقية التي تستهدف ترقية الفرد الجزائري وتحريره من كل أشكال السيطرة وأنواع الاستغلال والاستعباد . مؤكدة لها في اصرار تام . أن الثورة ليست اشباعا للشهوات المنحطة ،والنزوات التافهة . ولا اندفاعا في النزق والطيش المذمومين ! وانما الثورة نضال وكفاح وجهد وعرق في سبيل بناء غد مشرق وحياة أفضل ولذلك فان (نصيرة) تؤكد بتحد واصرار أن " الثورة ليست سكرا ولا وسيلة الى اشباع الجنس "(2).

ف (نصيرة) اذن شخصية ثورية عاملة مكافحة من طبقة فقيرة . تحاول تحسين معيشتها ومعيشة أهلها . تعمل بثقة وتفاؤل وطموح ضمانا للمستقبل الزاهر . و (نصيرة) شخصية سوية مناقضة تماما لشخصية (دليلة) الشاذة المنحرفة . التي ذهبت ضحية انحرافها وشذوذها !

وقد حاولت البورجوازية ممثلة في شخصية (كريمو عبد الجليل) أن تمرغ الاشتراكية في الأوحال وتشوه صورتها وتحطمها كما حطمت (دليلة) وأمثالها . الا أن (نصيرة) استطاعت أن تحبط دسائس ومؤامرات البورجوازيين

---

1 - بان الصبح . ص : 197 .

2 - المصدر نفسه . ص : 186 .

الاقطاعيين . بفطنة وذكاء . وواصلت (نصيرة) كفاحها ونضالها في جميع الجبهات ومختلف الأصعدة الى النهاية وليس غريبا أن نرى في نهاية الرواية أن تلجأ (دليلة)بعد ما سدت في وجهها جميع الطرق . فتسارع الى صديقتها (نصيرة) تطلب منها يد المساعدة . فرحبت بها (نصيرة) رمز الكفاح والنضال وآوتها في بيتها بكل غبطة وسرور . لذلك كله كانت (نصيرة) وجه مشرق من بين الوجوه النسائية في الرواية وأكثرها فعالية وايجابية وديناميكية . وقد وفق الكاتب في خلق هذه الشخصية . في وسط عالم يعج بالشذوذ والانحراف والخيانة . فكانت بحق شمعة اضاءت جوانب الرواية . وقد مثلت دورها خير تمثيل .

وهكذا فـ (" ان الكاتب الروائي يختار أشخاص قصصه من بين الذين يكدون في اخلاص ويؤمنون بالمستقبل الزاهر ويعملون على سرعة مجيئه ولا يعتورهم وهن أو يأس أو خبل ")(1) .

ولعل أهم الشخصيات النسائية في الرواية هي شخصية (نصيرة) المناضلة الثورية التي لها صورة مشرقة في الرواية . أما باقي الشخصيات النسائية الأخرى فانها اما فوضوية عابثة كـ (دليلة) واما مستسلمة خاضعة راضية بالأمر الواقع . دون أن تبدي أية مقاومة ولا تقوى على القيام بأية محاولة ايجابية . ابتداء من الأم كلثوم . ومرورا بابنتها (زبيدة) وانتهاء بـ (نعيمة) التي كادت تذهب ضحية غدر وخيانة دبرت لها في الخفاء دون أن تكون على علم بها .

ان الدارس لرواية " بان الصبح " يلحظ ذلك التشابه الكبير بينها وبين رواية "بين القصرين " لـ (نجيب محفوظ) من حيث رسم الشخصيات وسلوكها

---

1 - محمد مفيد الشوباشي الأدب الثوري عبر التاريخ ، ص : 130 .

ودوافعها وأسلوب معيشتها وتفكيرها في الحياة في (الشيخ علاوة) عند (عبد الحميد بن هدوقة) يشبه (السيد أحمد عبد الجواد) عند (نجيب محفوظ) . فاذا رأينا أن (السيد أحمد عبد الجواد) قد رغب في أن يزوج ابنته (عائشة) من أحد أبناء آل شوكت ويرى أن مصاهرتهم تعتبر رفعة وسموا وعلو شأن باعتبارهم علية القوم وسادة المجتمع ولابد من التمسك بأهدابهم لانه يطمح أن يتسلق طبقة أعلى من طبقته فان هذا التصور نفسه نجده عند (الشيخ علاوة) فنراه يطمح الى مصاهرة (ابن عبد الجليل) فهو يطلب بالحاح شديد من ابنه (مراد) أن يقبل الزواج من ابنة هذه الاسرة الارستقراطية في الجزائر . أما الام كلثوم فتشبه الام أمينة فكلتاهما مستسلمة خاضعة لزوجها تطيعه طاعة عمياء . وهناك سمات شديدة الشبه بين أسرة (الشيخ علاوة) في " بان الصبح " وأسرة (السيد أحمد عبد الجواد) في " بين القصرين ".

وبرواية " بان الصبح " يكون الاديب (عبد الحميد بن هدوقة) قد رسم لنا صورة واضحة لمجتمع المدينة الصاخب فتجول بنا في احياء العاصمة وشوارعها وأدخلنا حماماتها ، ومطاعمها وقصور أغنيائها ، وصور لنا صنوف ذلك البذخ الفاحش والثراء الشديد الذي تعيشه البورجوازية من خلال أسرة (ابن عبد الجليل) الذي أنفق أموالا طائلة أثناء حفلة زفاف ابنته (دنيا) ووضع أمام أعيننا أنواع التفسخ والانحلال . الذي يعيشه أبناء وبنات البورجوازية في العاصمة . وأخيرا عرج بنا الى الطبقة الكادحة وكفاحها في سبيل لقمة العيش فأدخلنا دار (نصيرة) . وعرفنا على معيشتها . والرواية بهذا تكون قد قدمت لنا وثيقة هامة لمجتمع العاصمة . كما قدمت لنا روايتي " ريح الجنوب " و" نهاية الامس " وثيقة عن مجتمع الريف وما يتخبط فيه من جهل وفقر وحرمان وتخلف وانغلاق وهي صورة تناقض تماما صورة عالم المدينة الحافل بالعجائب

والغرائب والطيش بالغوضى والاضطراب .

المعمار الفني في الروايــة :

من الملاحظ أن المعمار الفني في روايات (عبد الحميد بن هدوقــة) كلها يسير على نسق واحد ،دون أي تغيير أو تطوير ابتداء من " ريح الجنوب" ومرورا ب " نهاية الأمس" وانتهاء ب" بان الصبح " فهو في هذه الروايــات ينسج على منوال واحد . معتمدا على الشكل التقليدي لنباء الروايةالكلاسيكية التي تعتمد أساسا على البداية والعقدة ثم النهاية من جهة وعلى السـرد والوصف والحوار من جهة أخرى . وهو شكل فني تجاوزته الرواية الحديثــة بخطوات عملاقة ومسافات بعيدة جدا جدا .

(فالرواية الحديثة تسلحت بتقنيات وأساليب عصرية متطورة. وفسحـت المجال واسعا أمام الرمز ،والأسطورة ،وتيار الشعور ،والفلاش باك ، والتصوير، والتقطيع السينمائي والتليفزيوني . للاستفادة من تقنياتهما الجديدة .وذلك عبر اللقطة المزدوجة والعرض البطيء والسريع وذوبان المناظر والقطع واللقطات القريبة البانورامية والرجوع الى الوراء في الزمان أو الارتداد .والمونتاج بالمعنى السينمائي يشير الى مجموعة من الحيل التي تستعمل لكي تظهر لنا توارد الخواطر والأفكار وارتباطها بعضها ببعض ، كتوارد المناظر المختلفة بسرعة الواحـد تلو الآخر أو عرض صورة فوق صورة أخرى أو احاطة صورة رئيسية بصـورة أخرى تمت لها بصلة .) (1)

ورغم أن الروائي (عبد الحميد بن هدوقة) له تأليف عدة من الافـلام السينمائية . وكان يشرف على ادارة البرامج الاذاعية الا أنه رغم ذلك لـم يستغد كثيرا من التقنيات السينمائية في رواياته المختلفة من قريب أو بعيـدا ولذلك جاءت رواياته بعيدة كل البعد عن التطور والتجديد . وكان بامكانـه أن يقحم هذه الأساليب التقنية الجديدة في رواياته لتزداد ثراء وغنى وتنوعـا .

---

1 ـ الدكتور طه محمود طه ،القصة في الأدب الانجليزي ص : 204 .

ذلك أنه " لكي تتمكن الرواية الحديثة من التعبير عن مضمونها الجديد الخاص بالنفس البشرية . استعارت من التصوير قدرته على أن يوقف أو يجمد سيولة الزمن ويعطينا صورا تظهر فيها الالوان والظلال بوضوح ، وهو ما يعرف بتكنيك المدرسة الانطباعية في الرسم . وكذلك استفادت من السينما قدرتها على التحكم في تيار الوعي عند الشخصيات باستخدام المونتاج واللقطة المزدوجة والعرض البطيء أو السريع وذوبان المناظر والقطع واللقطات القريبة البانورامية والرجوع الى الوراء في الزمان ." (1)

واذا أمعنا النظر في روايات (عبد الحميد بن هدوقة) فاننا لا نجد في أية رواية من هذه الروايات استخدم فيها المؤلف تيار الوعي ليغوص الى أعماق الشخصيات الداخلية . لتعبر عن أدق مشاعرها وخلجات أحاسيسها وما يضطرب فيها من آلام ومعاناة فيصور ذلك بدقة وعمق وبأمانة وصدق . وهو ان حاول تصوير أزمات أبطاله فانما يصور ذلك عن طريق السرد الجاف دون أن يفسح المجال للشخصية تعبر عن أحلامها وطموحاتها أو ما يعتمل بداخلها من آلام وآمال بحرية . لكن المؤلف كمم أفواه شخصياته وسلبهم حرية التصرف والتعبير . برز ذلك جليا عند (نفيسة) في " ريح الجنوب " عندما بلغت أزمتها الذروة فلم تجد وسيلة للتنفيس الا البكاء والنحيب ونجد نفس الشيء عند (دليلة) في " بان الصبح " حين أحست بوطأة المأساة فلم تجد بدا من سب الشتم والسباب على أولئك الذين أو قعوها على حافة الانهيار . وهنا لم يغتنم المؤلف هذه المناسبة ليفسح المجال ل (دليلة) تعبرعن أدق مشاعرها تجاه المحنة التي قادتها الى الضياع والسقوط . عبر تيار الوعي . كذلك تفتقر هذه الرواية الى أسلوب الفلاش باك الذي ينير ماضي شخصيات الرواية . ويمزج الكاتب بواسطتة أحداث الماضي والحاضر على حد سواء .

---

1 ـ فاطمة الزهراء محمد سعيد الرمزية في أدب نجيب محفوظ . ص: 129 .

وقد استخدم الكاتب الفلاش باك في رواية "نهاية الأمس" عند رسمه لشخصية (البشير) لكنه تخلى عنه فلم يوظفه بعد ذلك نهائيا .

هكذا وكانت رواية "بان الصبح" أقل حظا من أختيها "ريح الجنوب" ونهاية الأمس "من حيث المعمار الفني . فخلت من التقنيات الرواية المعاصرة وخاصة الرمز والأسطورة وسيكولوجية الأحلام ، وتيار الشعور والفلاش بـــــان وتقنيات السينما وفي مجال رسم الشخصيات فقد قدمها المؤلف من خـــــلال أوصافها الخارجية وملامحها الجسدية . وهي عموما شخصيات مسطحـــــة ثابتة لا تتحول ولا تتطور ينقصها العمق والنمو والحرارة .« ان الشخصيـــات ينبغي أن تكون أكثر شبها بالحياة . وأنها ينبغي الا تبدي على الدوام ، جانبا واحدا للقارئ ، بل أن تدور مبدية لنا كل جوانبها بدلا من ذلك التسطـــح الذي لا يتغير .»(1)

وكنا نود من أديبنا (عبد الحميد بن هدوقة) أن يطور أدواته الفنيـــة الروائيـــة . ليواكب التطورات المستجدة في عالم الابداع الروائي المعاصـــــر فلا يتخلف عن ركب التطور والتقدم .

وأخيرا نلاحظ أن أسلوب المؤلف يسير على نسق واحد في جميـــــع أعماله القصصية والروائية فهو أسلوب صنعة وتجويد ، أسلوب شاعري جميـــل لا تعقيد فيه ولا ابهام . ولا غرابة في ذلك فان المؤلف شاعر له ديوان مـــن الشعر الحر بعنوان " الارواح الشاغرة ". ولغة الكاتب عامة خالية من الجمـــل الحويصة والعبارات الملتوية . وانما هي لغة فصيحة وسهلة بسيطة واضحـــة كل الوضوح . وان اعتراها وهن في بعض الأحيان .

---

1 - أدوين موير ، بناء الرواية ، ترجمة ابراهيم الصيرفي ، ص : 20 .

الأكواخ تحترق (1)

محمد زتيلي

(محمد زتيلي) من مواليد 1952 بالميلية خريج كلية الحقوق جامعة قسنطينة 1975 .

وهو شاعر قبل أن يكون روائيا له أربع مجموعات شعرية تحت الطبع ينشر باستمرار المقالات الأدبية والفكرية في الصحافة الوطنية والعربية . وقد نالت رواية " الأكواخ تحترق " الجائزة الأولى في المسابقة الأدبية لمديرية الاعلام والثقافة بقسنطينة سنة 1977 . وقد تكلفت المديرية بطبعها على نفقتها .

ان موضوع الرواية يعالج مشكلة الصراع بين الفلاحين والاقطاع ، ومشكلة الهجرة الداخلية في المدن الجزائرية والخارجية في ديار الغربة بفرنسا . وتعالج الرواية من جهة أخرى قضية الثورة الزراعية وخصائصها ومميزاتها وأثرها على صغار الفلاحين الذين استفادوا منها حيث أنها انتشلتهم من مخالب وأنياب الفقر والحرمان ،وبفضلها حصلوا على العمل والمسكن وحرقوا الأكواخ القصديرية الحقيرة .

وهذا المضمون هو الذي ركز عليه (محمد زتيلي) أحداث روايته (الأكواخ تحترق)ويمكننا تلخيصها بايجاز قبل تحليلها شكلا ومضمونا

---

1 - الأكواخ تحترق ،الطبعة الثانية الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1982 .

ملخص الرواية

تدور أحداث الرواية في الريف الجزائري بناحية قسنطينة قبل تطبيق الثورة الزراعية ،والبطل الرئيسي في هذه الرواية ،هو (مسعود) الذي كان يعمل في النهار خماسا في الأرض للاقطاعي (الحاج عبد الله). ثم يأوي في الليل الى كوخ حقير مع عائلة أخيه ، الذي هاجر الى فرنسا ،فطالت غيبته هناك وأنقطعت أخباره وضاع في أرض الغربة وظل (مسعود) مسؤولا عن أسرة أخيه . وعقب خلاف وشجار حدث بين البطل ومالك الأرض . قرر (مسعود) الذهاب الى قسنطينة بحثا عن العمل وطلبا للقمة العيش وقد وجد العمل واتخذ الخياطة مهنة له واتخذ بيتا يسكن فيه مع أسرة أخيه في قسنطينة في حي شعبي فقير . ومن ناحية أخرى عمل ابن أخيه (كريم) ماسحا للأحذية وفجأة أصيب هذا الطفل بحادث سيارة أودى بحياته . وقد قررت الأسرة أثر ذلك الحادث الأليم ،العودة الى القرية والانضمام الى الثورة الزراعية التي فتحت ذراعيها لعمال الأرض واستفادت هذه العائلة من السكن والعمل في القرية الاشتراكية وفارقت حياة البؤس والشقاء الى الأبد . وسارعت الأسرة حينئذ بحرق الكوخ الذي كانت تسكنه منذ أمد بعيد . والذي عانت منه الأمرين .

شخصية مسعود

. منذ البداية نلتقي بشخصية (مسعود) البطل الرئيسي في الرواية وهو فتى فقير معدم وابن شهيد ،وكان يتصف بالذكاء والشجاعة وكان لشدة بأسه يخافه شباب القرية ويتحاشونه لأنه خاض معارك عديدة وانتصر عليهم

وكان (مسعود) متذمرا من الحالة المزرية التي يعيشها ويتخبط فيها حيث أنه كان يعمل في فلاحة الأرض خماسا عند أحد الاقطاعيين يدعى (الحاج عبد الله) كما ذكرنا قبل قليل وهو من كبار ملاك الأرض المستغلين .

وكانت مهنة الخماسة لا تكفي لسد جوع (مسعود) وأسرة أخيه المهاجر الذي ترك له زوجة وخمسة أطفال . وضاع في بلاد الغربة في فرنسا وانقطعت أخباره فلم يعد يبعث لهم شيئا . وهنا أحس (مسعود) بعبء المسؤولية الثقيلة الملقاة على عاتقه . وعمل على اعالة هذه الأسرة مهما كلفه ذلك من ثمن يدفعه الى ذلك الواجب الأخوي وصلة الرحم . ومن جراء ذلك شعر بوطأة الفقر والحرمان . (وأدرك أن الحياة صعبة ، وأن الصراع من أجلها لذيذ بقدر ما فيها من المتاعب .)(1)

والتفت (مسعود) يمينا وشمالا فلم ير سوى الاقطاع ضاربا أطنابه على عالم الريف فبدأ يفكر في الوسائل التي سوف تخرجه من قفص الخماسة وشرك الاقطاع . وقرر أن يثور على هذه الحالة المأساوية التي تعيشها أسرته . وكانت تدفعه الى ذلك رغبة شديدة في الخروج من الريف الى المدينة حيث تتحقق أحلامه وطموحاته في أقرب الآجال وكان هناك (احساس متدفق يغمر (مسعود) ويدفعه الى الهجرة ، الى الرحيل حيث الخبز والماء وقيمة الانسان .)(2)

لقد سئم (مسعود) حياة الذل والهوان التي كان يعيشها فثار ثورة عارمة على الاقطاع والاستعباد الذي يمثله (الحاج عبد الله) الذي يمتص دماء الفلاحين البؤساء ويستغلهم أبشع استغلال ، هذا الاقطاعي الذي

---

1 - الأكواخ تحترق . ص : 16 .
2 - المصدر نفسه . ص : 30 .

لايكتفي بأن يجعل الفلاحين خدما وعبيدا يسخرهم في الأعمال الشاقة المضنية من طلوع الشمس الى غروبها يركعون بين يديه في ذل وانكسار بل انه أخذ يغتصب بناتهم الواحدة تلو الأخرى يدوس شرفهم ويمرغ أنوفهم في الوحل .

استمع الى (مسعود) يعيّر فلاحا كان خاضعا للاقطاع وهولايدري بأن بناته قد اغتصبهن ذلك الاقطاعي مثل غيرهن من بنات الفلاحين.

(سيتزوج ابنتك الصغيرة سرا مثلما تزوج الأولى ،لن نكتم الخبر هذه المرة .) (1)

ولذلك أطلق (مسعود) صرخة مدوية في وجه (الحاج عبد الله) الاقطاعي بكل جرأة وشجاعة (فرنسا قهرناها بالقوة ،وأنت وأمثالك حللتم محلها ... أين كنتم أيها الخنازير وقتما كان المجاهدون يضحون بالنفس والمال؟ خفافيش أنتم يا أذناب الاستعمار .) (2)

وقد صمم (مسعود) أن ينتقم من الطغاة الظالمين فأحدث خصومة بينه وبين أحد الفلاحين في الحقل وأشبعه ضربا ولكما . وفي اليوم التالي خاض معركة ثانية مع (الحاج عبد الله) اثر خصام حدث بينهما فصوب ركلة قوية الى بطنه وأراد أن يشبعه ضربا بعد أن أشبعه شتما وسبابا لولا أن الخماسين حالوا بينهما ومنعوه من ذلك . واثر هذه المعارك قرر (مسعود) مغادرة القرية قائلا : (بلاد الله واسعة ،ثم ما الذي يشدني لا أرض أخدمها ولا أجني منها غير الذل وخمس لا يكفي فردا واحدا من العائلة .) (3)

---

1 - الأكواخ تحترق ،ص : 13 .
2 - المصدر نفسه ،ص : 60 .
3 - المصدر نفسه ، ص : 10 .

لقد ثار (مسعود) على الاقطاع وتحرر من الذل الذي كان يرسف تحت أغلاله سنين طويلة وتخلص نهائيا من الخوف والعبودية ،وأصبح حرا طليقا لا يخاف اقطاعا ولا يرهب استعبادا لانه جزائري أصيل لا يرضى بالظلم أبدا .ومن تلك اللحظة بالذات شعر (مسعود) بالثقة والاطمئنان والتفاؤل في المستقبل . ثم سافر الى قسنطينة بحثا عن العمل مطبقا شعاره المفضل (وحيثما كان الدينار يجب أن أعمل ،هذه قاعدة لا يجب أن أنساها .) (1)

وتمكن من الحصول على العمل في ورشة الخياطة وأتقن هذه المهنة في مدة لا تزيد عن أسبوعين لفطنته وذكائه وأظهر حيوية ونشاطا حتى أعجب به صاحب الورشة (الحاج الطاهر) الذي وعده بأنه سوف ينقله الى ورشة أخرى أفضل من تلك التي يعمل فيها حاليا . وكانت له أحلام واسعة وطموحات عريضة يسعى لتحقيقها .

وحين عثر (مسعود)على سكن عائلي بعث الى أسرة أخيه يستحثها أن تلحقه بقسنطينة وصرح لزوجة أخيه قائلا : (قلت في نفسي الدينار الذي أصرفه على روحي أصرفه علينا جميعا . المعيشة غالية يا فاطمة ،والمدينة صعبة ،ومن لادار له يتعب العمر كله ،دراهمه يمتصها الطباخ وصاحب الحمام . قسنطينة يا فاطمة قاسية على الغرباء الضعفاء).(2)

ورغم أن هاجس الخوف الذي جعل (مسعود) حذرا يقظا في منتهى الحيطة من اللصوص والاشرار عند ما حل بمدينة قسنطينة فان مخاوفه سرعان

---

1 - الأكــواخ تحترق . ص : 56 .
2 - نفس المصدر . ص : 70 - 71 .

ما تلاشت عندما تبين له أن هذه المدينة لم تبتلعه شوارعها الطويلة وساحاتها المريضة كما كان يتصور من قبل . وعرف كيف يتكيف مع سكانها واختلط مع شرائح المجتمع المختلفة من عمال وفلاحين وتجار وشباب مثقفين . فتفتح ذهنه واتسعت مداركه وعرف أشياء كثيرة عن الثورة الزراعية والثورة الاشتراكية وتابع أخبارهما باهتمام كبير في الاذاعة والتلفزة والصحافة الوطنية ، وبينت له مساوئ الاقطاعيين والبورجوازيين بوضوح شديد وبذلك تطور (مسعود) فكرا ومعرفة وصار يردد الأفكار التقدمية وشعارات الثورة الزراعية في الورشة والبيت والشارع وفي كل مكان . حاول أن يبث هذه الأفكار التقدمية في ورشة الخياطة سعيا منه في أن يوقظ هؤلاء العمال من سباتهم ويدعوهم الى الثورة في وجه الاقطاعيين لكنه لم يلق منهم أية استجابة . لذلك أتهم بأنه مريض بالاشتراكية بل أن بعضهم حذره من مغبة هذه الأفكار التي يدعو اليها والتي تؤدي بقائلها الى الطرد من العمل . حيث أنه (لا يقول مثل هذا الكلام الا من أصابته حمى الاشتراكية . وما العيب في ذلك ؟

- اسمع . . . لو يسمع الحاج هذه الكلمة من فمك ما أبقاك بعد ذلك ربع ساعة .
- هكذا اذن ؟ !
- الخبز يا أخي . ليس باليد حيلة .
- بيدنا كل شيء .
- كيف ؟ ! !)(1)

---

1 - الأكواخ تحترق . ص : 74 .

وهنا اعتقد (مسعود) اعتقادا راسخا أنه لا فرق اطلاقا بين البورجوازيين أرباب المعامل الكبيرة والصغيرة في المدينة ،والبورجوازيين ملاك الارض في الريف ،فكلاهما اقطاعي يمتص دماء الفقراء المحتاجين بكل وحشية وقسوة وتبين له مما لا يدع مجالا للشك أنه في صراع عنيف مع الاقطاعيين فأعلنها حربا عليهم ونادى بالاشتراكية جهارا أمام الجماهير الشعبية الكادحة (ان الثورة جاءت لتعيد الحياة الى مجاريها وتقضي على العبودية والاقطاع واستغلال الانسان للانسان .) (1)

ومن الملاحظ أن (مسعود) قد تحول من شخصية مستسلمة ضعيفة تتبرم من تفاهية الحياة وتكرر عبارات العبث والملل والفراغ والضياع ،الى شخصية قوية شجاعة تقدمية واعية متفتحة تنادي بالاشتراكية وبمحو الفوارق الطبقية وازالة مظاهر الاستغلال البشع بين طبقات المجتمع، وتهلل للثورة الزراعية .

وعندما أممت الثورة الزراعية أراضي الاقطاعي (الحاج عبد الله) ووزعتها على الفلاحين الفقراء عاد (مسعود) الى القرية وتسلم جزءا من هذه الاراضي الموزعة وأخذت كذلك (فاطمة) من جهتها نصيبا منها ، وسهر هو وفاطمة على خدمة الأرض وفلاحتها وعملا باخلاص وتفان حبا للأرض وتعلقا بها . ولم يمض وقت قصير حتى انضما (مسعود) الى الثورة الزراعية فمنحته سكنا مريحا في القرية الاشتراكية (بلفيموز) بصحبة (فاطمة) وأحرقا الكوخ الذي كانا يسكنان فيه والذي يرمز الى حياة الفقر والحرمان والذل والهوان . كما سبق القول . . .

(سنتان مرتا ، وفاطمة ومسعود يخرجان عند الفجر ويعودان عند

---

1 - الأكواخ تحترق . ص : 79 .

المساء لا يشعران بالذل ولا بالخوف . ولكنهما يواجهان المشاكل بالارادة والحزم كغيرهما من الفلاحين المستفيدين من الثورة الزراعية . انتخبت فاطمة رئيسة للتعاونية التي تنتمي اليها ،أما مسعود فقد انتخب في مكتب الولاية لاتحاد الفلاحين) (1) .

ونظرا لاخلاص وتفاني (مسعود) في خدمة الأرض وترقية الفلاحة الريفية والسعي وراء المصلحة العامة فقد تقلب في المناصب الفلاحية حتى ارتقى الى منصب رئيس اتحاد الفلاحين بالولاية .و (بعد الانتهاء من احدى الاجتماعات التي عقدت في مقر المحافظة الوطنية للحزب صرخ مسعود بأعلى صوته :

- لا نريد خطبا كثيرة ،واجتماعات مطولة ،أعطونا الالآت ونحن نحول الصخر تربة خصبة .) (2)

وهذه الصرخة المدوية دلت بوضوح على أن صاحبها شاب يتمتع بثقة كبيرة واعتزاز شديد بالنفس ومتشبع بروح المسؤولية الوطنية والحس الاجتماعي والوعي السياسي . وقد أخذ (مسعود) على نفسه عهدا بأنه لا يدخر جهدا لخدمة الأرض وترقية الفلاحة ويعمل بعزيمة صادقة وارادة صلبة . وقد كان على حق حين صرح قائلا في آخر الرواية ردا على رسالة (الحاج الطاهر .)

(أنا ابن الريف علي بخدمة الأرض والنضال كفلاح ،ولقد تركت هناك رفقاء أعزاء من أبناء المدينة عليهم بالنضال كعمال ،ولابد أن نلتقي

---

1 - الأكواخ تحترق . ص : 85 .

2 - المصدر نفسه . ص : 85 .

يوما ما ،في مكان ما ...) (1)

ومن خلال ماسبق يتضح أن شخصية (مسعود) شخصية ايجابية نامية ديناميكية ومتطورة حققت جميع أحلامها وطموحاتها بالعرق والجهد والكفاح المستمر والعمل الدائب المتواصل . وهو رمز للشباب المكافح

وقد نجح (محمد زتيلي) في رسم شخصية (مسعود) من الداخل والخارج ووفق في تصوير مواقفها وأفكارها وأرائها ونضالها وكفاحها ومعاناتها سواء كان ذلك في القرية أو المدينة . ومن خلال هذه الشخصية عرفنا حياة الريف وما يدور فيه من فقر وجهل وتخلف وانتقل بنا الكاتب الى عالم المدينة بواسطة بطله فطاف بنا شوارع المدينة وساحاتها وحماماتها وأحياءها القديمة والجديدة وصوّر لنا المدينة وما يمور فيها من صخب وضجيج تصويرا ينبض حيوية ونشاطا .

ولا نختم الحديث عن(مسعود) دون أن نشير الى أن الكاتب قد بث أفكارا وآراء فلسفية على لسان بطله (مسعود) أعلى من مستواه الثقافي والاجتماعي فمثلا يقول (مسعود)عقب مشاجرته مع الاقطاعي (الحاج عبد الله) معبرا عن حالته النفسية . (مطرود أنا من الحقل ، وهكذا يعني أنني مطرود من القرية ،أبواب تفتح وأخرى تغلق .
هكذا علمني النهر .
نوافذ توصد وأخرى تحطمها الرياح .
هكذا يتحدث الناس
مدن تبنى وأخرى تحطمها الزلازل .

---

1 ـ الأكواخ تحترق . ص : 87 .

هكذا سمعت في نشرات الأخبار .
جسور تمد وأخرى تجرفها الأنهار .
هكذا حدثتني الأمطار .
وأنا يسكنني الثبات
هكذا حدثني الشجر .) (1)

وفي مكان آخر يقول الكاتب على لسان بطله مسعود (لماذا نجوع؟ ولماذا نشقى ؟ ولماذا لا تشبع كل البطون !؟ ولما لم يجد لتساؤلاته جوابا مقبولا أصدر حكما آخر : العالم مشحون بالظلم .) (2)

وفي موضع ثالث يقول : (الوطن وطننا جميعا ،فلماذا يهاجر البعض ويظل الباقون ؟ وهل خيرات هذه البلاد لا تكفي لكي يعيش الجميع ؟ لابد أن هذا العالم مصاب بالدوار.) (3)

وهذه الأفكار والآراء الفلسفية لا يستطيع أي فلاح أن يفكر فيها أو يعبر عنها . وخاصة اذا علمنا أن شخصا مثل (مسعود) يكاد يكون شبه أمي قبل أن يغادر القرية ويعرف المدينة التي فتحت ذهنه ووسّعت معلوماته .

هذا وقد انحاز المؤلف الى شخصية (مسعود) انحيازا كليا ففدت شخصيته تعبر عن وجهة نظر المؤلف ومن ثم كانت شخصية (مسعود) مرآة مصقولة صافية تعكس آراء الكاتب وأفكاره التقدمية الثورية الاشتراكية التي تعبر عن الآلام وآمال الفلاح الجزائري الذي يتطلع الى حياة أفضل

---

1 - الأكواخ تحترق . ص : 33 .
2 - المصدر نفسه .ص : 34 .
3 - المصدر نفسه .ص : 31 .

وغد مشرق : (وحين ينحاز الأديب وأحلامه فسيصبح أدبه بالضرورة أدبا انسانيا . لأن أحدا لا يتصور وجود تناقض أساسي وجذري بين أشواق الانسان وأحلامه في أية بيئة وفي أي زمان .) (1)

أما الشخصية المحورية الثانية في الرواية فهي شخصية (فاطمة) وهي الأخرى شخصية مكافحة توفر لقمة العيش لأبنائها وتتطلع الى العمل وعند مقتل ابنها الذي ذهب ضحية حادث سيارة حاولت بكل وسيلة أن تأخذ حق ابنها المظلوم ،ولما فشلت رجعت الى القرية وانضمت الى صفوف المستفيدين من الثورة الزراعية ،ثم أنتخبت رئيسة للتعاونية الفلاحية وواصلت نضالها وكفاحها الى النهاية وكان (كريم) بطلا مكافحا هو الآخر رغم صغر سنه فانه عمل ماسحا للأحذية محاولا أن يساعد أمه ولو بشيء قليل من المال قبل أن يلقى مصرعه .

وواضح أن شخصيات رواية (الأكواخ) تحترق) كلها شخصيات ايجابية فعالة شخصيات ثورية مكافحة تستحث الخطى الى حياة أفضل وغد مشرق . وكانت نهاية الرواية متفائلة حيث انتصر الفلاحون وانهزم الاقطاع ،وأممت أراضيه التي سبق أن اغتصبها من الفلاحين وقد تطورت حالة (مسعود) وأسرته بفضل الكفاح والنضال ووصلت الى الهدف المنشود وانتقلت من النقيض الى النقيض من حياة الفقر والحرمان الى حياة الاستقرار والعمل المحترم والسكن المريح . (ان الرواية ذات الهدف الاشتراكي تؤدي رسالتها على الوجه الأكمل اذا صورت العلاقات الواقعية تصويرا صادقا ، وبددت الأوهام القديمة عن طبيعة هذه العلاقات ،وزعزعت تفاؤل العالم البورجوازي ،وحين تزرع الشك في قدسية النظام القائم ،حتى ولو لم يقدم

---

1 - الدكتور عبد المحسن طه بدر ،الروائي والأرض . ص : 32 .

المؤلف من خلال ذلك حلا محددا ،بل حتى لو لم يعلن عن ايشاره لهذا الحل أو ذاك .) (1)

الأسلوب واللغة .

من الواضح أن أسلوب الكاتب سهل شيق يمتاز بالعمق والشمولية ويتسم بالصدق الفني والصدق الموضوعي ،وهو أسلوب واضح شديد الوضوح ،يتفجر حيوية واشراقا . وقد أضفى المؤلف جوا شاعريا على الرواية فزادها رونقا وجمالا يسر النفوس والعقول معا .

ولغة الرواية تتدفق بعذوبة ورقة لفظا ومعنى ،لغة صورت الأفكار والمشاعر والأحاسيس باحكام واتقان ،وبدون اسهاب ولا اطالة وبلا تكلف أو افتعال .

وأخيرا فان رواية " الأكواخ تحترق " للأديب (محمد زتيلي) تعتبر أعمق وأجود رواية جزائرية ، عالجت قضية الثورة الزراعية ،وعبرت بصدق وأمانة وموضوعية عن آمال وآلام ومعاناة الفلاحين ومحاربتهم للبورجوازية والاقطاع بكل شجاعة وتضحية في الريف الجزائري .

ومؤلف هذه الرواية يذكرنا بالكاتب المصري التقدمي (عبد الرحمن الشرقاوي) وروايته الشهيرة " الأرض " التي صوّرت بدقة الكفاح المستميت الذي داربين الفلاحين والاقطاعيين في الريف المصري .

والكاتبان يتشابهان فكرا وموقفا واتجاها وتصورا في معالجة قضية الأرض والفلاح ،رغم فارق السن والتجربة .

---

1 - رياض عصمت ،نقلا عن فردريك أنجلز ،مجلة دراسات عربية يناير 1983 بيروت .

الشمس تشــرق على الجميــع

اسمـــاعيــل غموقـــات

ولد اسماعيل غموقات عام 1951 بمدينة قالمة ـ درس التعليم الابتدائي
[ثـ]ـانوي بمدينته ثم لما تحصل على البكالوريا انتقل الى الجامعة وتخــرج
كلية الحقوق بقسنطينة . حاول (اسماعيل غموقات) أن يكتب الشعـــر
[والقـ]ـصة القصيرة والمسرحية ثم الرواية . وقد نشر مقالات عديدة في الصحــف
[والمـ]ـجلات الوطنية . وصدرت له ثلاث روايات هي : (الشمس تشرق على الجميع)
(الأجساد المحمومة) وأخيرا (التهور) .

ورواية (الشمس تشرق على الجميع) هي موضوع دراستنا .
وقبل أن نتناولها بالنقد والتحليل يمكننا أن نلخصها فيمايلي :

تتركز رواية " الشمس تشرق على الجميع " لـ (اسماعيل غموقات) حــــول
شخصيتين رئيسيتين هما : شخصية (رضوان التومي) وشخصية (رحمة خــلا ف)
[نتـ]ـعرف على شخصية (رضوان التومي) . بأنه طالب في القسم النهائي بالثانوية
[و]كان ابن شهيد قد هضمت حقوقه ، وتركت عائلة هذا الشهيد نهبا للضيـــاع
[بين] مخالب الفقر والحرمان ، فتكفلت أم (رضوان) وأرملة الشهيد باعالــة
[هذه] الأسرة الفقيرة . فكانت تعمل خادمة في بيوت الاغنياء ، تساعدها فـــي
[هذه] المسؤولية البنت الكبرى التي تركت مقاعد الدراسة . لتعمل عند الآخرين
[في مهنـ]ـة الطرز والخياطة ، وكان أجر المرأتين لا يكفي لسد جوع الأسرة المتكونة
[من] عدة أفراد . ولهذا أسرعت كل من الأم وابنتها الكبرى الى العمل في مصنع
[...] فضمنتا للأسرة حياة الهدوء والاستقرار ولا سيما (رضوان) الذي كـــان
[متشـ]ـائما أن على مستقبله الذي كان مهددا نتيجة الفقر المدمر الذي يعصــف

بكيان الفرد والمجتمع .

أما شخصية (رحمة خلاف) فقد كانت تربطهما علاقة حب بـ(رضـــوان) تطورت هذه العلاقة الى خطبة فيما بعد . وكانت (رحمة) هي الاخرى من أسرة فقيرة يعمل أبوها بائعا للفول متجولا في الشوارع والساحات . وكانت (رحمة) من حين لآخر تحاول أن تقنع أباها بضرورة الانضمام الى المستفيدين من الثورة الزراعية . واستجابة لالحاح ابنته الشديد ، وتخلصا من وضعيته المزرية التي طالما تعذب بسببها انضم الى المستفدين من الثورة الزراعيـــة .

وفي نهاية الرواية تقدم (رحمة) شكوى الى مركز الشرطة ضد الناظـــر لانه حاول الاعتداء على شرفها . وبعد التحقيق ألقى القبض على الناظر وسيـــق الى السجن . وبذلك تنتهي الروايـــة .

الشخصيـــــــات :

تحتوي رواية " الشمس تشرق على الجميع " على شخصيات رئيسيــــــة وثانوية وهامشية . يأتي في مقدمة الشخصيات المحورية (رضوان التومي) و (رحمة خلاف) وناظر الثانوية . أما الشخصيات الثانوية ،فتتمثل في كل من شخصية (كمال) و (صلاح) و(سميرة) وأم(رضوان) .

أما الشخصيات الهامشية فهي شخصية (- جهيدة) ووالد (رحمة) و (سي علي) و (الحاج دحمان) . هذه الشخصيات مجتمعة هي التي يتكون نسيج الرواية ككل .

ولنبدأ الكلام على شخصية (رضوان التومي) باعتباره الشخصيـــــة المحورية . و (رضوان التومي) كما يبدو في الرواية شخصية مضطربة ،غارقة

في دوامة من القلق والتمزق ،نتيجة ظروف صعبة حتمتها عليه حياة البؤس والشقاء التي نشأ عليها منذ نعومة أظفاره . لانه فقد أباه ،وهو ما يزال طفلا صغيرا ،فتكفلت أمه بتربيته وتربية أخوته جميعا رغم شيخوختها وعملت كل ما في استطاعتها حتى أوصلته الى بر الامان ،وأصبح (رضوان) شابا يواصل دراسته في القسم النهائي بالثانوية وفي هذه المرحلة الصعبة من حياته أصبح غارقا في شرب الخمر ولعب القمار . تاركا هموم الدنيا ومتاعب الحياة لامه . وانغمس في الرذيلة مبديا ،أسفه الشديد لوضعية أمه وحالتها المزرية ،دون أن يقدم لها يد المساعدة فيشمر عن ساعده بحثا عن العمل مع مواصلة الدراسة ويجمع بين الاثنين معا بارادة صلبة وعزيمة قوية وبذلك يكون بطلا ايجابيا وطالبا مكافحا ينقذ أسرته من مخالب الفقر والهوان . لكن البطل تغلبت عليه سلبيته وضعفه فاستسلم للعجز التام هربا من تحمل المسؤولية الثقيلة ،مسؤولية الاسرة الكبيرة على عاتقه ،ولو لم تكن أمه على قيد الحياة تحمل أعباء الاسرة . لكان من الممكن جدا أن لا يصل الى هذا المستوى من التعليم . بل ربما رضخ للذل واستسلم لليأس ،ثم الى السقوط والانهيار .

وبهذا يمكننا أن نصف شخصية (رضوان التومي) بالسلبية والاتكالية تعتمد على غيرها في حلول مشاكلها ،وتلقي بعبئها على الاخرين متنصلة من كل مسؤولية صغيرة كانت أم كبيرة .

على أن سلبية البطل لا تتوقف عند تهربه من مسؤولية البيت بل تجاوزته الى أكثر من ذلك الى شؤون حياته . وأموره الخاصة . من ذلك أنه يقول عن نفسه أنه ابن شهيد وأن حقوقه قد هضمت ! فلا المصالح الادارية سجلت أباه في قوائم الشهداء ،ولا رفاقه في الثورة والسلاح شهدوا لصالح أبيه . ولا يمكن أن يتواطأ كل من المصالح الادارية ،وقدماء المجاهدين على هضم حق شهيد

من الشهداء ،والا يعتبر ذلك ظلما واجحافا في حق من ضحوا بأنفسهم في سبيل تحرير الوطن لكن هب أنهم فعلوا ذلك الجرم في حق أبيه !؟ فما هي الدوافع التي جعلت (رضوان التومي) يركن الى السكوت ،ويحجم عن مطالب أبيه ،فلا يكلف نفسه عناء ومشقة البحث في سبيل العثور على الأدلة والقرائن والشهود التي تثبت مشاركة والده فعلا في الجهاد ،وليس هذا فقط بل عليه أن يثور في وجه كل من يعترض سبيله ،يثور على بيروقراطية المكاتب والمصالح الادارية، يثور على كل المثبطات التي تضافرت على هدر كرامة والده ،وحقوقه المادية والمعنوية . لأنه ما ضاع حق وراءه مطالب .

على أن ضعف البطل وسلبيته وعدم فعاليته كل هذه الأمور جعلته متقوقعا على ذاته ومنزويا داخل نفسه . فضاعت حقوقه المشروعة هدرا وفلتت منه فرصة ثمينة لا تعوض . وظل بعد ذلك ذليلا مقهورا يندب حظه التعيس وواقعه المرير شاتما لاعنا الثورة ورجالها . هذا وقد كان للأم الفضل الأكبر فقد عملت المستحيل لتنتشل ابنها (رضوان) من بئر عميق القرار ،فغيرت مجرى حياته وحياة اخوته .وهذه الأم تذكرنا بأم أبطال رواية " بداية ونهاية " لـ (نجيب محفوظ) فكلتا المرأتين قاومت وبذلت أقصى جهدها في النضال والكفاح من أجل اخراج الأسرة الى شاطئ الأمان .

وبفضل هذه الأم تغيرت نظريته للثورة ،فبعد أن كان كافرا بها ،وغير مطمئن لها انقلب فجأة الى مؤيد لها ومدافع عنها ،ينظر اليها بتفاؤل واطمئنان لأن المصلحة الذاتية والأنانية الفردية هما اللتان جعلته يغير رأيه تجاه الثورة وينظر اليها بعينين جديدتين متمعنا في أهم الانجازات التي حققتها الثورة في جميع الميادين وشتى المجالات وزالت عنه تلك الغشاوة التي كانت تعصب عينيه منذ طفولته والى حد الآن.يقول (رضوان) بعد أن وظفت أمه وأخته

كعاملتين في مصنع السكر .

(لكن الحدث في ذاته يعني أن الثورة قد وفت بوعدها . لقد وعدت الشعب بتوفير فرص العمل والازدهار والرفاهية ،وهاهي ذي تترجم الكلمات الى منجزات وهذا ما جعلني أعيد النظر في آرائي القديمة .) (1)

وحين جلبت الأم اللحم من السوق وشبع منه (رضوان) طار فرحا وسرورا باعتبار أن اللحم كان شيئا محرما عليه منذ الطفولة بسبب الفقر والحرمان والآن تغير كل شيء بفضل ثورة البناء والتشييد .

يلاحظ القارئ أن (اسماعيل غموقات) حاول أن يشير الى الثورات الثلاث : الثورة الفلاحية التى انضم اليها والد (رحمة) . والثورة الصناعية التي انضمت اليها كل من أم (رضوان) وأخته (جهيدة) . أما الثورة الثقافية فتتمثل في المدارس والثانويات والمعاهد والجامعات ومن ضمنها هذه الثانوية التي يدرس فيها (رضوان التومي) وزميلته (رحمة خلاف) . وفضل هذه الثورات على المجتمع الجزائري خاصة فئاته الثلاث العمال والفلاحون والطلبة المتعلمون ،غير أن الكاتب لم يحالفه التوفيق اذ أنه أشار الى هذه الانجازات الضخمة العملاقة ،اشارة خاطفة ،ولمسها من السطح لمساخفيفا . ولم يحاول أبدا أن يغوص في أعماقها ،ويصورها تصويرا حيا يتسم بالمتعة والفائدة التي ينشدها القارئ داخل البلاد وخارجها . فيتعرف على أهم الثورات الكبرى التى أنجزتها البلاد في جميع المجالات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية في زمن الرواية ابان السبعينات وما بعدها .

كنا نود من المؤلف أن يتعمق في ثورة البناء والتشييد تعمقا كبيرا،مصورا ذلك التغير والتطور الذي طرأ على مستوى الفرد والمجتمع ،وكان من واجب

1 - الشمس تشرق على الجميع : ص . 35 .

(اسماعيل غموقات) أن يصور كل هذه الأعمال الضخمة تصويرا فنيا صادقا دون تكلف أو افتعال ،بحيث يجعل القارئ يرى تلك الأعمال الجبارة بعينية ويلمسها بيديه . والغريب أن المؤلف مرّ على هذه الانجازات الضخمة مرا سريعا واعتبرها لفتة من اللفتات الزائفة . ثم انصرف كلية الى تسجيل الهوامش التي لا ضرورة لذكرها ، فيرسم لنا صورا قاتمة عن جهاز من أخطر الأجهزة التربوية في البلاد فيجعل من الثانوية وأساتذتها بيتا للدعارة ومحلا للفسق والفجور وتعاطي المسكرات والمخدرات . وقد تعمد ابراز ذلك في صورة مشوهة تدعو الى الاشمئزاز والنفور . مما حدا ببعض الدارسين الى اتهامه بالكذب تارة وبالنظرة السوداوية تارة أخرى ،

(انه كان خياليا وسوداوي النظرة وبعيدا عن الواقع . . . لقد ارتعت حقا أمام هذه الصورة القاتمة التي أمعن الكاتب في تسويد جنباتها حتى غدت صورة بشعة . تبعث الغم والانقباض في النفس ،اننا لا ننكر أبدا أن تكون هناك بعض التجاوزات وبعض الانحرافات على المستوى الفردي ،أما أن تكون بهذا الشكل الجماعي وكذ ت أقول المنظم فهذا ما لا يوجد له مثيل الا في ذهن الكاتب. [1])

من جهة أخرى يلحظ القارئ أن نشأة (رحمة خلاف) تشبه الى حد بعيد نشأة (رضوان التومي) . فهي طالبة في الثانوي قسم النهائي ،وهي فقيرة متوسطة الحال . نشأت في بيئة محافظة متمسكة بالعادات والتقاليد القديمة تحرص على الشرف وتحافظ على العرض خوفا من الفضيحة والعار، وكانت تسمى الى التحرر قدر المستطاع . وترفض القيود التي كبلها بها المجتمع التقليدي . ومن حين لآخر تتضايق (رحمة خلاف) من تصرفات والدها الى درجة أصبحت تسخر منه ومن أقواله وأفعاله . يقول (اسماعيل غموقات) على لسانها :

(ثم صاحت تقلد صوت والدها في تهكم :

اسمعي يارحمة . . الليل ثم الليل ! لا أريد أن أراك خارج البيت ليلا فاهمة؟ [2])

1 - أحمد منور : قراءات في القصة الجزائرية . ص : 52 ، 53 .
2 - الشمس تشرق على الجميع . ص : 102 .

وصعقت (رحمة) عندما أكد لها (رضوان) أنه يسير على النهج الذي يسير عليه أبوها !

ولم تخف (رحمة) تذمرها وشقاءها من المجتمع التقليدي حيث أنها عانت صنوفا من القهر والاضطهاد وخاصة سلطة الارهاب الأبوي فلم تستطع الاستمتاع حتى بضياء القمر وجماله ليلا .

ان (رحمة خلاف) كانت تشعر بوطأة الفقر والحرمان ،وتخيم عليها سحابة كثيفة من الحزن والكآبة وتتلهف الى أن تعيش مثل بقية زميلاتها الطالبات في سعة من الرزق ،وبسطة في الأكل واللباس والملذات ،ولذلك فقد كانت تعتريها موجة من السخط تفكر أثناءها أن تضرب بالعرض والشرف عرض الحائط وتنغمس في الشهوات والمسكرات وتبيع جسدها لكل راغب في الجنس ،لكنها تعرض عن ذلك وتحرم على نفسها من كل الشهوات حفاظا على العرض والشرف! !

و (رحمة خلاف) رسمها المؤلف في صورة تناقض تماما صورة زميلتها (سميرة) . فهو يقارن بين نموذجين متناقضين : نموذج متمسك بالأخلاق محافظ ومضحيا في سبيلها برغد العيش ولذة الحياة تمثله (رحمة) التي تدهورت حالتها المادية والنفسية . ونموذج ثاني على رأسه (سميرة) وغيرها من الطالبات الساقطات اللائي انغمسن في الرذيلة الى الأذقان يتمتعن بمباهج الدنيا وملذات الحياة ،غير مباليات بالأخلاق وغير مهتمات بالمستقبل وما تحمله الأيام في طياتها من مفاجآت وتناقضات .

وهناك ملاحظة لابد من الاشارة اليها وهي أن (رحمة خلاف) أكثر ايجابية وفعالية من زميلها (رضوان التومي) ،يتضح ذلك بجلاء في محاولة اقناع

(رحمة خلاف) لأبيها بضرورة الانضمام الى صفوف المستفيدين من الثورة الزراعية ،فقد حاولت (رحمة خلاف) وكررت المحاولة المرة بعد المرة بدون يأس أو ضعف رغم أنها لم تلق، من أبيها الا النفور والازدراء الشديد ،فتحزن لذلك حزنا كبيرا ويؤسفها جدا تصلب أبيها في رأيه وعناده فلا يقبل منها أية مناقشة حول الاستفادة من الثورة الزراعية . وقررت أن تواصل المحاولات حتى يستجيب لها ويعمل بنصيحتها تقول (رحمة خلاف) مخاطبة نفسها (اذا كان ثمة ما هو جدير بأن تفكر فيه هذه الأيام فهو والدها ! وتمثلته بائعا متجولا يتنقل من مدرسة الى مدرسة ومن حي الى حي ليبيع بضعة كؤوس من الفول ،فدهمها الحزن وتساءلت أما لهذه الحال من نهاية؟) (1)

وتأخذ القارئ الدهشة للتحول المفاجئ الذي طرأ على والد (رحمة خلاف) فهقد انتقل فجأة من النقيض الى النقيض ،من شخص ناقم ومضاد للثورة الزراعية يصفها بأنها جريمة نكراء ،الى شخص مؤيد يذكر خصائصها ومزاياها على مستوى الفرد والمجتمع وعهدنا به منذ لحظات قصيرة أنه رجل متصلب ومتحجر ،يزجر ابنته بعنف ويوجه لها اللوم والتقريع . لا ذنب لها سوى أنها لفتت انتباهه الى الانضمام الى الثورة الزراعية والتخلص من وضعيته المأساوية . ثم كيف نستسيغ أو نقبل منه أن ينقلب بسرعة مذهلة من صديق مؤيد ومساند لـ (سي علي) يدافع عن آرائه وأفكاره بقوة ،ثم يتحول بسرعة وبدون تبرير الى خصم عنيد مفندا أقواله ومسفها أحلامه ،يمطره شتما وسبابا يقول والد (رحمة خلاف) في حق (سي علي) :

(الكلب يقول لي أن الاستفادة من الثورة الزراعية جريمة في نظر الدين !) (2)

---

1 - الشمس تشرق على الجميع . ص : 97 - 98 .
2 - الشمس تشرق على الجميع . ص : 135 .

ان (اسماعيل غموقات) لم يقنعنا كيف حصل هذا التغير المفاجئ لبطله والد (رحمة خلاف) ؟ نعجب كيف يتحول البطل من رجل منغلق متخلف في لحظات الى بطل يتمتع بقدر غير قليل من الوعي والادراك ويدخل الى الثورة الزراعية من بابها الواسع بدون تردد بعد أن كان يكن له كرها شديدا !

وكان بودنا لو عرفنا من خلال الرواية وعبر التكنيك الفني كيف طرأ هذا التغير الذي حدث لوالد (رحمة خلاف) هل حدث ذلك بفضل الحملات التطوعية التي يقوم بها الطلاب ضمن مشاركة الفلاحين في القرى والأرياف الجزائرية أثناء العطل الجامعية من خلال شرح ميثاق الثورة الزراعية وتطبيق شعارها الشهير " الأرض لمن يفلحها " ؟ أم يعود الفضل لوسائل الاعلام المختلفة ودورها النشيط في مجال التوعية والتثقيف ؟ أم هو دور الحزب والمنظمات الجماهيرية واحتكاكها بكافة الطبقات الشعبية وما تقوم به من توعية وتجنيد في سبيل التفاف الجماهير حول انجاح ثورة البناء والتشييد . ليرتقي الفرد والمجتمع في أنحاء الوطن الجزائري ؟

غير أن الكاتب غض الطرف وسكت عن دور هذه المؤسسات وما يقوم به هؤلاء المسؤولون من أعمال على مستوى هذه الهيئات المختلفة عبر أنحاء الوطن .

واذا ما حاولنا أن نبحث عن الشخصية الثورية في الرواية ، فاننا لا نجد الا شخصية (رحمة خلاف) التي تنطبق عليها سمات الثورية ، دون غيرها من الشخصيات الأخرى . فمنذ بداية الرواية تلاقينا شخصية (رحمة خلاف) متمردة على أوضاع المجتمع لأنه وضع قيودا وأغلالا تكبل أيدي الفتيات خاصة في البيئة المحافظة التي يمثلها والد (رحمة خلاف) ويشاركه الرأي في هذه القضية

(رضوان التومي) ،فنظرتهما الى المرأة نظرة تقليدية وهذه النظرة تنحصر في أن المرأة لا تصلح الا لخدمة البيت وانجاب الذرية ، وحتى (رحمة خلاف) نفسها - رغم تمردها - فان طموحاتها وآمالها ،لا تتجاوز عتبات الزواج . فهي ترغب في أن تتزوج من ((رضوان التومي) بلهفة وشوق شديدين . وليس وراء ذلك شيء .

ورغم طموحات (رحمة خلاف) المحدودة وآمالها البسيطة فانها تتوفر على نصيب كبير من الثقة بالنفس ،يتجلى ذلك واضحا حين وقفت صامدة أمام تلك الزوبعة التي أثارها ضدها خصومها من الطلبة والطالبات والمتمثلة في علاقتها المريبة بناظر الثانوية ،واجهت (رحمة خلاف) تلك الأراجيف المفرضة الكاذبة بقلب لا يعرف الذل والانكسار وأحبطت كل مخططات المتآمرين . وخرجت من المعركة ظافرة منتصرة ،كما أن ثقتها بنفسها جعلتها تنظر الى المستقبل نظرة تفاؤل وانشراح - و (رحمة خلاف) تؤكد في اصرار أن علاقة الحب التي تربطها ب (رضوان التومي) ستظل قوية صلبة مهما تعرضت للزوابع والاعاصير القوية .

ونظرا لما تتمتع به (رحمة خلاف) من ثورية وايجابية فانها لم تستسلم لأية مساومة أو تهديد مهما كان مصدره ونوعه . فقد ساعدت أباها وانتشلته من مخالب البؤس والفقر حين لفتت انتباهه الى حالته المأساوية التي كادت تنتهي به الى حافة الضياع .

و (رحمة خلاف) ليست كشخصية (نفيسة) بطلة " ريح الجنوب " التي اتسمت مواقفها بالارتجالية والفوضى دون تحقيق غاياتها وأهدافها فمنيت محاولاتها بالفشل الذريع . أما (رحمة خلاف) فقد حققت جميع مآربها حيث أنها أقنعت والدها فانضم الى الثورة الزراعية وأحبطت

المؤامرة التي حيكت ضدها وأثبتت لـ (رضوان التومي) بالدليل القاطع على أنها كانت ضحية اشاعة مغرضة وتهمة باطلة كادت تعصف بها وبمستقبلها .

وأخيرا ظفرت بزواج (رضوان التومي) وحققت أمنيتها ، وبهذا يمكن أن نقول عن (رحمة خلاف) أنها شخصية ايجابية متطورة تمتاز على جميع شخصيات رواية " الشمس تشرق على الجميع " بالثورية والحلم بتغيير الواقع .

ولا بد أن نشير في الأخير الى أن اسم رواية " الشمس تشرق على الجميع عنوان يرمز الى شروق شمس الحرية والاستقلال . شروق الاشتراكية التي تعمل على ازالة الفوارق الطبقية في الجزائر الاشتراكية .

أما الشكل الفني في رواية " الشمس تشرق على الجميع " فمبني على السرد والوصف والحوار . وأخذ المونولوج الداخلي بدوره قسطا كبيرا من الرواية وخاصة لدى (رضوان التومي) و (رحمة خلاف) .

ولقد لجأ الكاتب في روايته " الشمس تشرق على الجميع " الى الأسلوب التقريري المباشر بدل الأسلوب الفني المركز الكثيف . أما لغة الرواية فسهلة بسيطة خالية من كل غموض وابهام . وتكاد تكون سليمة من الأخطاء التي وقع فيها غيره من كتاب الرواية الناشئين .

مالا تذروه الرياح

عرعار محمد العالي

تعتبر رواية (مالا تذروه الرياح) أول عمل فني ل (عرعار محمد العالي) ثم تتالت أعماله الفنية فنشر بعد ذلك رواية (الطموح) ثم رواية (البحث عن الوجه الآخر) وله مجموعة قصصية بعنوان (الحالم).

ويذكر أن له بعض الروايات تحت الطبع . أما رواية (مالا تذروه الرياح) فهي موضوع دراستنا الآن وقبل تحليلها يمكن أن نلخص أهم محاورها الاساسية .

ملخص الرواية :

تبدأ الرواية بحفلة الزواج التي أقيمت ل (البشير) بمناسبة زواجه من (ربيعة) . حيث أقام (البشير) مع زوجته (ربيعة) عند أخيه (العباسي) مدة شهرين ،ثم رجع بعدها الى القرية . وفجأة تأتي دورية عسكرية فرنسية . تفتش البيت بحثا عن (البشير) ليؤدي الخدمة العسكرية الاجبارية فتأخذه ذليلا الى العاصمة ليبقى أسبوعا هناك ،ثم يسافر بعد ذلك الى فرنسا في معسكر قرب باريس . وبعدما يقضي (البشير) سنة ونصف في فرنسا يتغير حسيا ومعنويا ويتنكر لأهله ،وتنقطع صلته بماضيه وبكل ما له صلة بوطنه نهائيا ويغير شكله وعاداته حيث يطلق شعر رأسه ،ويستبدل اسم (البشير) باسم فرنسي جديد وهو (جاك) وينبهر (البشير) بالمظاهر الخلابة التي أفسدت عليه حياته . وانقلب عدوا لكل جزائري . وخاصة أولئك الذين يأتونه بأخبار أهله وقريته ،وما يلبث أن تأتيه الأخبار تبشره بمولود جديد اسمه (باديس) فيحزن لهذا الخبر حزنا شديدا . ويلعن

حامل الرسالة ويمنفه أشد المنف ،لانه عكر صفو حياته وغرق (البشير) في الكحول والمحرمات في بيوت الدعارة بباريس بصحبة رفاق فرنسيين ولم يلبث (البشير) حتى صار يشور لاتفه الاسباب . مما جعل رفاقه يبتعدون عنه . لانه سبب لهم كثيرا من المشاكل كانوا في غنى عنها وذات مرّة خرج (البشير) مخمورا في ليلة ممطرة الى أحد الشوارع فرأى سيدة فرنسية تعبر الشارع ،فسعى وراءها ،فوبخته ونهرته ،لكنه لم يسمع كلامها وواصل (البشير) خلفها حتى أنهكه التعب ،وسقط على الارض فاقد الحس والشعور ،فرق لحالته قلب تلك السيدة . فأخذته التي بيتها ليثام هناك تلك الليلة . وبعد ذلك توثقت العلاقة بينهما وتعددت اللقاءات بين الاثنين ،وكانت لهما جولات سياحية في شوارع باريس وأحيائها ،وصار (البشير) يقضي عطلته الاسبوعية في بيت (فرانسواز) التي كانت تغمره بالحب والوصال ،وكانت تود منه أن يعوض لها الحب الذي فقدته منذ أن قتل زوجها على أيدي الثورة الجزائرية الا أن (البشير) بمرور الايام ملّ صحبة (فرانسواز) وأبتعد عنها ليرتمي بعد ذلك في أحضان البغايا ودور الفسق والعربدة .

وفي أثناء هذه الحياة العابثة صدمته بعنف وسائل الاعلام الفرنسية حين نقلت اليه أخبار استقلال الجزائر ،فاستودت الدنيا في عينيه .ولم يعرف ماذا يفعل لانه باع نفسه ،وخان بلاده وشوّه مستقبله . وماليث أن اعتلت

صحته ويقع فريسة للأمراض الخطيرة . ولم يجد بدا من العودة الى الأهل والوطن بعدما أشتد به الشوق والحنين . وعندما وصل الى البيت وجد نفسه بين نارين : تنكر الابن وفرار الأخ ،واتضح له جليا أن حياته لم تكن سوى سراب خادع ،فكان نصيبه من الحياة الخيبة والخسران واعتلال الصحة !!

منذ البداية هيأ (عراعار محمد العالي) بطله (البشير) للسقوط والانهيار فجعله ينبهر كثيرا من عساكر الاستعمار وكثرة عددهم وعدتهم وحين وجد نفسه في الثكنة الفرنسية شعر بارتياح كبير .

الا أن (البشير) لم يلبث طويلا في العاصمة حتى تبخرت أحلامه وتبددت أوهامه ،وشعر بالوحشة والغربة والضياع ،في هذه المدينة التي لا ترحم الضعفاء ولا تشفق على الجبناء العاجزين . والتفت (البشير) يمينا وشمالا فلم ير الا الظلام الحالك يلفه من كل جهة ومكان ،فراح يتخبط في ذلك الظلام القاتم بدون صديق ولا ناصر ولا معين . وجد نفسه عاريا قلقا تتقاذفه الأمواج العاتية .

وفي باريس سقط (البشير) في حمأة الرذيلة وانغمس في الخمر والجنس وهنا تتجلى مساوئ (البشير) بوضوح ،خاصة عند ما غير اسمه من (البشير) الى (جاك) وأصبح فرنسيا أكثر من الفرنسيين أنفسهم ،يلعن المجندين الجزائريين سرا وجهرا ،ويذيقهم ألوانا من الظلم والاضطهاد ، خاصة أولئك الذين يتدربون على يديه ، فيعاملهم معاملة وحشية قاسية تفوق كل تصور . ويعاقبهم عقابا شديدا ولا ذنب لهم سوى أنهم جزائريون من أبناء وطنه بل من أبناء قريته وعمومته . فهو يكره الجزائر ويحتقر كل وطني .

لنفسح المجال للمؤلف يتحدث عن بطله (البشير) كيف يشتم

الجزائريين ،مسلطا عليهم أقسى العقوبات ! (لعنة الله عليكم أيهـا الكلاب . لا يستطيع الانسان أن يتخلص منكم . فحيثما ذهب لحقتم به وأينما حل نزلتم عليه . فماذا تريدون مني هنا ؟ لن أتواضع حتى أتبادل معكم الكلام . سأكون بئس المدرب معكم ،سأمحي منكم الاعوجاج الذي ورثتموه عن جدودكم . . . سأستعمل معكم القسوة التي لا مثيل لها حتى لا تحدثكم أنفسكم ،فتقولون أن هذا وطني مثلنا ،سيكون لنا نعم المعين ونعم الصديق) (1) .

وهكذا يبدو (البشير) في الرواية فرحا مسرورا بالمنزلة التي ظفر بها من أسياده الضباط الاستعماريين ،فهو يكاد يطير فرحا حين أصبح خائنا يعمل للاستعمار ضد اخوانه الثوار . يقول (البشير) معبرا عن فرحته الكبرى لعدم رجوعه الى أهله ووطنه : (وهكذا تحصلت على ثقتهم وأصبحت لهم عونا ،لا يستطيعون التخلي عنه . فلم يرجعوني الى الجزائر وانما احتفظوا بي معهم في فرنسا ، لاقوم بالواسطة بينهم وبين الجزائريين الذين يقدمون لتأدية الخدمة العسكرية . وكم أعنتهم في هذا الميدان . فقد كان الجزائريون الذين يأتون جددا ،يشكلون جبهة صعبة ،ويخلقون مشاكل عويصة في كيفية الاتصال والمحاورة والتفاهم .) (2)

لقد ظل (البشير) بطل الرواية منبهرا بسراب فرنسا الخادع ، ومنجرفا وراء التيار المعاكس لثورة بلاده . فهو مثلا يحتقر اسمه الحقيقي (البشير) ويحتقر ايضا اسم ابنه (باديس) كما يسخر من (الشيخ باديس) نفسه . وكان يؤثر أن يطلق على ابنه اسما فرنسيا له الفاظ حلوة وموسيقى عذبة .

من خلال ذلك يتبين لنا أن (البشير) بلغ درجة عالية من الاستلاب

---

1 ـ مالا تذروه الرياح . ص : 70 .
2 ـ ما لا تذروه الرياح . ص : 66 .

والاغتراب الروحي والنفسي لم يعد معها يلتفت الى أصله وجنسه وانما ظل يقلد الفرنسيين في كل شيء حتى انه لو استطاع أن يغير بشرة جلده لغيره وحوره . وبذلك يمكن أن نصفه بأنه شخصية مهتزة الثقة مسلوبة الارادة ،نعرف ذلك من خلال مواقفه الاستسلامية وسلوكه الانهزامي عبر وقائع الرواية وأحداثها ومواقفها .

وهكذا ظل (البشير) يجاهر أمام الناس بعدم انتمائه الى وطنه الجزائر وانما هو فرنسي قلبا وقالبا يجعل المصلحة الاولى لفرنسا قبل كل اعتبار . ضاربا مصلحة وطنه عرض الحائط .

وعلى النقيض من (البشير) هناك مجند جزائري كان من ضمن الجنود الذين كان يدربهم (البشير) : يقول المجندى الجزائري والحزن يمزق قلبه أسفا وندما لعدم ذهابه الى جيش التحرير الوطني في الجبال ومكافحة الاستعمار : يقول هذا المجند ل (البشير) :

(لقد اخطأت أنا . نعم لقد أخطأت الخطأ الكبير عندما لم أصعد الى الجبل مثل أخي ،وأرفع السلاح في وجه فرنسا . لأنني لو فعلت ذلك لكنت على الاقل أدافع عن قضية صحيحة وعن قضية مقدسة ،مقدسة عند الله ومقدسة عند العباد) (1)

فهذا المجند الوطني الذي أخذته فرنسا قسرا للخدمة العسكرية ليس من جنس (البشير) ولا من شاكلته . فشتان بين الشخصيتين المتناقضتين : شخصية (البشير) الهشة المتخاذلة شخصية تتفانى في خدمة الاستعمار وتنوي الذوبان في كيانه وبين شخصية أخرى شخصية المجند الجزائري الذي

1 - مالا تذروه الرياح . ص : 72 .

يمجد الثوار ويقدس الثورة ويتحسر على الفرصة الثمينة لعدم انضمامه الى الثورة التحريرية .

وهنا تبرز تلك المفارقة الصارخة بين الشخصيتين المتناقضتين !

ويكفي (البشير) خزيا وعارا أن يعتبر يوم الاستقلال الذي ضحى من أجله مليون ونصف مليون من الشهداء الأبرار ،بعد ثورة عارمة استمرت أكثر من سبع سنوات شداد ،هذا اليوم الذي استقبله الشعب الجزائري بارتياح كبير وفرح عظيم يعتبره (البشير) (يوما ملعونا) .

ومعلوم أن هذا الخبر المعظم قد زلزل كيانه وهد أركانه فراح يهذي بكلام محموم يستنجد بقوات اللفيف الاجنبي وغلاة المعمرين طالبا منهم أن يثوروا ضد بلاده . (ان معظم الضباط الذين أعرفهم غير راضين عن سياسة فرنسا . وهم ينوون القيام بثورة لمعارضة هذه السياسة . لقد غاظهم أن تنهزم فرنسا ،وهي قوية ،من طرف شرذمة أشخاص . والحقيقة أن لهؤلاء الضباط الحق . ان ما يقولونه صحيح . اذا كانت فرنسا تخضع لمثل هذه الثورات فأين هو المجد والخلود وأين هي السيادة والعظمة) (1)

يقول (البشير) بكل سذاجة وبلاهة عن الثورة التحريرية . انها ثورة شرذمة أشخاص !؟ وهذا الكلام نفسه هو الذي كان يردده ضباط الاستعمار وجنرالاته أو لا ثم أذنابه ومرتزقته ثانيا . ومن بينهم (البشير) المرتزق . الذي تبين له في نهاية الأمر انه لم يكن سوى شخص تافه حقير وعرف نفسه على حقيقتها القذرة . يقول مخاطبا نفسه في مونولوج داخلي :

(انه مجرد انسان فاقد العقل ،ليس له شعور بالمسؤولية . تذروه الرياح حيثما أرادت ،انه مجرد كائن ضعيف الشخصية منحط الادراك لا يستطيع

---

1 - مالا تذروه الرياح . ص : 193 .

مواجهة الظروف ،والصمود أمام صروف الدهر .
انه كائن تافه ،مفقود ،يتطلب مرشدا وهاديا .) (1)

ولا نختم الكلام عن (البشير) دون أن نشير الى ذلك التقهقر الذي حدث له فيما بعد ،حيث تدهورت صحته ،وساءت حالته بسبب الافراط في الخمر والجنس وعاد الى قريته ذليلا حقيرا .

ولعل أصدق الأوصاف وأكثرها تعبيرا لحالة (البشير) وما يعانيه من بؤس وشقاء ومرض تلك العبارات التي وصفه بها ذلك الفلاح ابن قريته والتي يلخص فيها بايجاز المراحل التي قطعها (البشير) منذ خروجه من القرية ،وذهابه الى فرنسا وعودته منها ويمكن أن تطلق عليها رحلة الخزي والعار .

(يا لهذا الفتى الغريب ، انه على حافة القبر ،ان الداء ينخره والعذاب يهلكه . ولكنه يستأهل ذلك ،لانه هو السبب في كل شيء . فلولاه لما وقع هذا الشيء ،انه هو الرجل الذي ترك أخاه ،دون اعانة ، وأهمل أهله دون تذكر ،وباع بلاده دون خزي ،وارتد عن دينه دون خشية انه الفتى الذي أغواه الشيطان ولعبت برأسه الاطماع .) (2)

هذه اذن شخصية (البشير) وهي شخصية سلبية متخاذلة لعبت بها الاطماع والاهواء . فلعبت اقذر الادوار وارتكبت أبشع الجرائم خسة منها ونذالة ضد وطنها وشعبها !

أما الشخصية الثانية في الرواية فهي شخصية (العباسي) شقيق

---

1 - مالا تذروه الرياح ، ص : 197 .
2 - نفس المصدر ، ص : 241 .

(البشير) ،الذي شارك في الثورة التحريرية وقدم للمجاهدين مساعدات مادية ومعنوية وظل على وفائه للثورة حتى أصبح مطاردا من قبل السلطات الاستعمارية .

ان (عرعار محمد العالي) لم يوفق اطلاقا في أن يقدم شخصية ايجابية يمكن أن ترقى الى مستوى شخصية رجال الثورة التحريرية الذين كافحوا الاستعمار بشجاعة واقدام .

وبدلا من أن يقدم (عرعار محمد العالي) بطلا ثوريا باعتبار أنه جعل الثورة التحريرية اطارا لروايته (مالا تذروه الرياح) وأشار الى هذه الثورة التحريرية اشارة عابرة تتسم بالسطحية والارتجالية والاندفاع كل هذه الأمور جعل رواية (مالا تذروه الرياح) عملا يفتقر الى الجودة والى السمات الثورية تنقص صاحبه التجربة الفنية الروائية والعمق الثوري والحس السياسي والبعد الاجتماعي .

لم يستطع (عرعار محمد العالي) اذن أن يقدم بطلا مناضلا في صورة مشرقة يتناسب واشراقه الثورة وعظمتها وضخامتها ولم يرق (عرعار محمد العالي) الى المستوى الفني والايديولوجي الثوري الذي يمتاز به (الطاهر وطار) وخاصة في رائعته رواية (اللاز) الفنية بكل الأبعاد الايديولوجية والثورية والاجتماعية والسياسية والفلسفية والفكرية .

ان (عرعار محمد العالي) في روايته (مالا تذروه الرياح) قد انحرف عن الخط الثوري الذي خطه لـ (العباسي) وانصرف كلية الى شخصية (البشير) الشخصية السلبية الضعيفة المستسلمة التي ظلت تمجد الاستعمار وتشيد بجبروته وطغيانه ،وتهلل لجرائمه التى ارتكبها ضد

الشعب الجزائري . ومن خلال شخصية (البشير) أطلق المؤلف العنان لنفسه ،يتهجم على الشعب الجزائري ، يطلق عليه أبشع الشتائم وأقذع السباب . فمرة ينعته بالتخلف وآونة بالجهل وطورا بالهمجية والتقهقر وغيرها من المثالب والنقائص التي كان يصفه بها ،والتي ان دلت على شيئ فانما تدل على أن الكاتب ناقم على الحياة والمجتمع ،حتى ان القارئ ليتخيل أن الكاتب . ومعه (البشير) كان من ضمن عملاء الاستعمار وأذنابه الذين ينفثون سمومهم القاتلة ضد الشعب والثورة عبر الأبواق الدعائية والحرب النفسية التي كان يشنها الاستعمار على شعبنا أيام حرب الابادة والقمع والارهاب ،أيام ثورة التحرير الوطني .

(ان المؤلف أختار لتمثيل الشخصية الجزائرية والاصالة بطلا ساذجا تنقصه الثقافة ،والوعي السياسي ،والغيرة الوطنية ،والعائلية مما جعل الرواية خالية من كل صراع حاد ،لأن المفروض في الصراع بين شخصية وطنية وأخرى غير وطنية أن يكون صراعا فكريا تكون فيه الثقافة والوعي والغيرة الوطنية والعلائق العائلية والتشبع بروح الحضارة الخاصة . أسلحة أساسية حاسمة . وهو ما نفتقده بالمرة في شخصية (البشير) ،بطل الرواية . بل ان الامر أخطر من افتقاد البطل لهذه السمات . حيث انه كان يتسم بسلبية ظاهرة بل منفرة في أغلب الأحيان) . (1)

وأخيرا فان (عرعار محمد العالي) لم يستطع أن يضيف شيئاللرواية الجزائرية . فروايته (مالا تذروه الرياح) رواية تقليدية ضعيفة شكلا ومضمونا . وأن أدواتها عتيقة الشكل فضلا عن تفاهة مضمونها وسخافته . وأن لغتها مليئة بالأخطاء اللغوية والنحوية والصرفية والاملائية ويرجع

---

1 ـ الدكتور محمد مصايف الرواية العربية الجزائرية الحديثة . ص : 286 .

سبب ذلك الى عدم نضج تجربة صاحبها وضيق أفقه وقلة خبرته في مجال الفن الروائي .

(ان قارئ ما لا تذروه الرياح يشعر بأن صاحبها لم يمتلك بعد الأدوات الفنية الكاملة لولوج عالم الرواية العويص .

يظهر لنا هذا من خلال هيكل الرواية غير المتماسك سواء من حيث شكلها أو من حيث تعاملها مع الشخوص والزمن الذي كان متموجا . ولا ننسى أن نوجه لومنا الى اللجنة التي وافقت على نشر هذا العمل .) (1)

---

1 - محمد زتيلي وبوذيبة مقدمة في الرواية الجزائرية : الثقافة والثورة عدد 5 ص : 16 .

المرفـــــوضـــــون (1)

سـمـدي ابـراهـيـم

من المعروف أن مشكلة الهجرة مشكلة عويصة ومعقدة جدا . نظرا لما يعاني فيها المغترب الجزائري من مآس وويلات وآلام ،لذلك أهتم بها جماعة من الباحثين والمؤرخين الجزائريين والأجانب ،فركزوا على نشأتها وظروفها التاريخية وعواملها الاقتصادية والاجتماعية ،والسياسية ونتائجها والآثار المترتبة عنها من قريب أو بعيد .

ورغم أن المغترب يعاني صنوفا وألوانا من القهر والاضطهاد في ديار الغربة ،الا أن ذلك لا يثني من عزيمة البعض ولا يفت من عضده . بل انه كافح وناضل محاولا قدر المستطاع تحسين مستواه المادي والمعنوي . وخاصة أن بعض المغتربين عرف كيف يتكيف مع البيئة والمجتمع الأوربي . فاستطاع أن يظفر بوظيفة محترمة ويكسب مؤهلات مهنية وينال شهادات علمية ضمنت له مستقبل حياته .

وهكذا فقد تنافس الشباب الجزائري وخاصة شباب المجتمع الريفي . في بداية الستينات الى منتصف السبعينات للذهاب الى فرنسا سعيا منهم لجمع المال والثروة وحلما بجلب سيارة فاخرة وفتاة شقراء جميلة . وفي نهاية المطاف تحققت أحلام البعض وتبخرت أحلام البعض الآخر ،وبين هؤلاء وأولئك ضاع فريق ثالث في بلاد السراب ،فتحطم دون بلوغ الأماني وتحقيق الأهداف . وقد تناول موضوع الهجرة مجموعة من كتاب القصة القصيرة داخل الجزائر وخارجها . أما في مجال الفن الروائي في الجزائر فتناولها (سعدي ابراهيم) في روايته " المرفوضون " .

---

1 - صدرت رواية المرفوضون عام 1981 المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر.

ومؤلف هذه الرواية من مواليد 1950 بولاية بجاية حائز على ليسانس في الفلسفة من جامعة الجزائر . وعلى الدكتوراه الدرجة الثالثة من جامعة استرسبورغ . وتعتبر هذه الرواية أول باكورة في انتاجه الروائي . وهو الآن بصدد انجاز رواية ثانية يعتقد بأنها ستكون أكثر نضجا من روايته " المرفوضون".

ملخص الرواية .

في بداية الرواية نرى (أحمد) بطل الرواية في زاوية احدى المقاهي الفرنسية قابعا يسترجع ذكريات الماضي الأليم . يتذكر موت ابنه ،ثم وفاة زوجته بعده . هذه الفاجعة التي ذهبت بالابن وأمه تركت آلاما شديدة في نفس (أحمد) . ومنذ ذلك الحين عاش مشردا ضائعا بدون عمل ، مدمنا على شرب الخمر ،وحياة التشرد هذه جعلته يشعر بالمرارة والخيبة والفشل والاحباط ويعتبر حياته تافهة لا معنى لها .

وفي البيت الذي يسكنه توجد بجانبه العجوز الفرنسية التي تدعى (ماري) التي كانت تخلق له المضايقات والمشاكل باستمرار . وبلغ بها الأمر أن طلبت من صاحبه المبنى السيدة (سوزان) أن تطرده من جوارها لأنها تخاف أن يقتلها كما قتل الثوار في الجزائر ،زوجها (برنار) .واشتد خوف (ماري) كثيرا منه خاصة عندما مات كلبها (بابي) فاستنجدت بالمرتزق الفرنسي (جان) ليجعل حدا لحياة (أحمد) . وذهب مسرعا نحو البيت لكنه لم يجده هناك .

وازداد الأمر تعقيدا عندما أتى (أحمد) بمومس الى بيته ليلا وتعرف صاحبة المبنى الخبر من (ماري) فتطرده من البيت فورا وتبلغ أزمة (أحمد) ذروتها حين ترسل له ادارة المعمل أمرا بالطرد من المعمل

فيخرج من البيت مهموما يبحث عن مأوى لدى بعض معارفه ولو لمدة وجيزة . غير أن الاجل لم يمهله اذا نهالت عليه الشرطة الفرنسية بالضربات القاتلة فيموت متأثرا بجراحه . دون أن يعرف أحد سببا لموته !! وبذلك تنتهي أحداث الرواية .

شخصية أحمد .

في رواية " المرفوضون " يحاول (سعدي ابراهيم) أن يصور مأساة مغترب جزائري ،يعاني صنوفا كثيرة من الذل والهوان . في ديار الغربة وبالذات في فرنسا بلاد السراب فبطل الرواية ذهب الى فرنسا مضطرا وراء لقمة العيش الصعبة . لكنه اصطدم ببيئة غريبة عنه . ولم يجد هناك الا الرفض واللامبالاة حينا والسخرية والاحتقار أحيانا أخرى . خاصة من قبل أولئك المنصريين الفرنسيين الذين ولدوا في أرض الجزائر ،والذين يكنون بغضا وعداوة شديدة لكل جزائري باعتباره مصدر قلق وخوف وانزعاج يهدد أمنهم واستقرارهم في عقر دارهم ـ كما يزعمون ـ ونتيجة لذلك أصبح كل مغترب مطاردا من كل جهة حيثما حلّ وأينما اتجه . فهو مرفوض من قبل البيئة والمجتمع الفرنسي . فالمنصرية تطارد المغترب الجزائري في مكان العمل وفي السكن وفي المقهى وفي المطعم وفي السينما وفي كل مكان حلّ به .

أما عن ظروف العمل ،فان المغترب الجزائري توضع أمامه السدود والقيود فلا يجد طريقا الى العمل السهل . وان وجد عملا فلابد أن يكون شاقا متعبا . كالعمل في الطرق أو السكك الحديدية أو العمل في بناء العمارات الشاهقة . أو معامل صهر الحديد وتذويب الرصاص . وهي أعمال كلها شاقة مرهقة . ينفر منها العامل الأوربي عامة والفرنسي خاصة .

ومع ذلك لم ينج المغترب الجزائري من ظلم العنصرية واعتداءاتها المتكررة ضده في كل مكان .

وتبرز العنصرية المقيتة في أبشع صورها لدى المرتزق الفرنسي الذي كان يحارب الثورة الجزائرية ضمن القوات الفرنسية المحتلة ،والذى يدعى (جان) هذا المرتزق يحقد على كل ما هو جزائري حقدا شديدا خاصة بعدما أصبح يدير مأوى للمغتربين الجزائريين استمع الى هذا المرتزق في حوار له مع صديقته (ماري) : في كيفية معاملته للمغتربين الجزائريين : "-لقد قام هؤلاء البنيول القذرة باضراب .

- صحيح ! ؟

- يريدون أن نغير لهم الأغطية مرتين كل شهر وألا ينام أكثر من واحد في حجرة واحدة . لأنهم يدفعون أجورا مرتفعة كما يقول هؤلاء البلهاء نسوا بأنهم كانوا ينامون في الشوارع حينما كانوا في بلادهم وبأنهم يكرهون الماء كالسرطان ،والآن يريدون أن يعطوا لنا دروسا في النظافة مهما يكن الأمر فانهم لن ينسوني أبدا . لقد جعلتهم يكرهون حياتهم فلقد قمت اذن بواجبي وأنا مرتاح الضمير من هذه الناحية . وبعد أن قدموا لهم بعض التنازلات قدمت استقالتي . لقد ذكرني كل ذلك باليوم الذي وافقت فيه فرنسا على وقف اطلاق النار"(1)

من خلال هذا الحوار الذي يقطر حقدا وكراهية من (جان) . نكتشف الى أي مدى الأساليب القذرة الدنيئة التي تمارس ضد المغتربين الذين لاذنب لهم سوى أنهم من أصل جزائري .

وفي وسط هذا الجو الخانق كان يعيش بطل الرواية (أحمد)

1 - المرفوضون . ص : 76 .

وغيره كثير من عمالنا المهاجرين الذين يعانون الشدائد والاهوال في ديار الغربة . وها هو (أحمد) يتمزق قلبه حسرة وأسى ،ويعيش في أعماق المأساة الرهيبة . (ألقى لعنات حانقة على حياته البائسة القذرة التى لا معنى لها ،حياته مثل ذلك الضباب الكثيف الكئيب الذي غرق فيه شارع " لغيك ".) (1)

ان المؤلف هنا يقارن بين حالة بطله (أحمد) وهمومه الذاتية وما يعانيه من تمزق وانكسار جعل حياته ظلاما في ظلام وحزنا في حزن وهموما تتلوها هموم . فحالته اذن تشبه الطبيعة ظلاما وتجهما وسوادا قاتما . وفي موضع آخر يصف المؤلف بطله قائلا : (هذا الطعام الذي يقوم الآن باعداده كثيرا ما يثير في نفسه تأففا وقرفا حينما يفكر بأنه هو الذي جلبه الى هذا البلد حيث يعيش حياة ليست جديرة سوى بالكلاب المهجورة ." (2)

ونحن نتساءل هنا من الذي أجبر (أحمد) على أن يعيش عيشة (الكلاب المهجورة) في ذل وانكسار ؟ في بلاد الغربة وكان من الافضل له أن يعود الى وطنه كبقية أفراد المجتمع الجزائري مصون الكرامة مرفوع الرأس .أم أنه لم يستطع صبرا على مفارقة جارته (ماري) التي تمطره صباح مساء بالشتم والسباب ، وتقول له في سخط وتهكم مرير " أرجوك يا سيد أن تغادر هذه الغرفة وتذهب الى مكان آخر أوعد الى بلدك فلقد حصلتم الآن على استقلالكم ." (2)

و(ماري) هذه تعتقد أن ارتفاع الاسعار المذهلة في بلادها انما

---

1 - المرفوضون . ص : 135 .
2 - المصدر نفسه . ص : 159 .

يعود سببه بالدرجة الأولى الى العرب الذين يملكون النفط ويرفعـــون أسعاره باستمرار ."كل هذا بسبب العرب عندهم البترول ولذا يريـــدون السيطرة على العالم ."(1)

وهذا الكلام في حد ذاته لا ينحصر نطاقه عند (ماري) وحدهــا وانما هو كلام أجهزة وسائل الاعلام الغربية المغرضة التي تشن حربـــا شديدة على العرب وتؤلب ضدهم الرأي العام الأوربي ورجل الشـــارع الفرنسي .

وهكذا فقد حاول (سعدي ابراهيم) في روايته (المرفوضون) أن يتناول قضية المهاجر الجزائري في ديار الغربة وما يعانيه من ظلم واجحـــاف وقهر وارهاب . لكن التوفيق لم يحالفه في محاولته اطلاقا . ذلك أن قضية الهجرة قضية جد خطيرة ومعقدة للغاية ولا يتناولها الا من خبرها وعـرف عنها الشيء الكثير ،ومعالجتها تتطلب دراسة مستفيضة وتعمقا كبيرا .فالهجرة مشكلة عويصة لا يكتب عنها الا من عايشها من الداخل وتفاعل معها ، وذاق مرارتها ،واكتوى بنيرانها . وتعمق مأساتها فكرا وسلوكا ..

وعرف عن كثب ما يعانيه عما لها من ظلم واضطهاد وقهر وعنصرية وقتـل وطرد وتشريد ...الخ .

فاللقمة التي يحصل عليها المغترب ممزوجة بالعرق والدم والدمــوع لانه يعيش بين نارين : نار الغربة والعنصرية : ونار الشوق والحنين الى الأهل والوطن . وبذلك كله نرى أن المؤلف لم يتعمق كثيرا في معالجة قضيـــة الهجرة ومآسيها . وكأني ب (سعدي ابراهيم) وقد التقى بأحد المتشردين

---

1 - المرفوضـون ، ص : 36 .

في ديار الغربة وأجرى معه حوارا شخصيا أو تحقيقا صحفيا ثم سطره في أوراق مدعيا أنه عمل روائي فني وهو ليس بعمل فني أبدا انما هو وصف لكلمات من الخارج دون أي تعمق أو غوص في المشكلة وأبعادها النفسية والفكرية والايديولوجية، دون أن يتعمق المأساة ويصورها تصويرا فنيا يتسم بخصائص الفن الروائي وتقنياته الحديثة الجديدة والمتجددة.

ان (سعدي ابراهيم) صور لنا في روايته (المرفوضون) شخصية شاذة مريضة تلهث وراء الخمر والجنس ولا يهمها من أمر أهلها أو أمر بلادها شيئا . وبذلك يكون المؤلف قدم للقارئ صورة مشوهة بشعة لجميع المغتربين . فالقارئ لرواية (المرفوضون) يتخيل أن المغتربين كلهم من صنف (أحمد) بطل الرواية المتشرد السكير . ومن هنا تعتبر هذه الرواية اساءة للمغتربين واهانة بالغة للمهاجرين سواء فعل ذلك عن حسن نية أو عن سوء نية . ونحن لا ننكر وجود أشخاص قليلين على شاكلة (أحمد) ولا ينبغي للمؤلف أن يجعله نموذجا أو رمزا الكل مغترب جزائري في أوربا .

وكان الأجدر بالمؤلف أن يركز على شخصية ايجابية لها جانب مشرق تحمل رموز أو ايحاءات فكرية وثورية . ويجعل بجانبها شخصية أخرى على طرف النقيض معاكسة لها في تصرفاتها وسلوكها . ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، وفي هذا المعنى يقول أحد النقاد . (إننا نطالب الروائي اذا ما اختار موضوعه واتخذ طريقه في المعالجة أن لا يخدعنا فيه ، نطالبه أن يخلص لموضوعه في الكشف عنه ، نطالبه أن يتخذ من المحبة والدراسة والمعايشة ما يجعله يحقق هذا الاخلاص وهذا الكشف) (1) .

والملاحظ أن (سعدي ابراهيم) في روايته المرفوضون " قد أساء الى

مواطنيه في ديار الغربة فزادهم غربة الى غربتهم ومأساة على مأساتهم. لانه أهمل الجانب المشرق للعمال الجزائريين في المهجر . وأمعن في تصوير الجانب القاتم المظلم وعالجه في روايته . ولم يدر بخلده أبداأن يصوّر بطلا ثوريا مكافحا ، يريد تغيير واقعه وتحسين ظروف معيشته ماديا ومعنويا . وانما وقع اختياره على ذلك البائس المتشرد الذي ذهب ضحية عجزه وضعفه . وهو يذكرنا ب (البشير) بطل رواية ما لاتذروه الرياح ل (عرعار محمد العالي) فكلا البطلين اتصف بالسلبية والتخاذل وكلاهما ذهب ضحية سلبيته وعجزه !

وختاما نقول : ان رواية (المرفوضون) تخلو تماما من الصدق الفني والصدق الموضوعي . وتفتقر الى العمق والمعاناة الانسانية والصراع الدرامي الدائر بين القوتين المتخاصمتين والمتضادتين والمتناقضتين في نفس الوقت كما تنعدم في هذه الرواية الأساليب الفنية الروائية الحديثة . واتبعت الشكل التقليدي العتيق الذي تجاوزه الزمن منذ فترة طويلة .

وبهذا يمكننا أن نقول أن رواية (المرفوضون) ضعيفة شكلا ومضمونا وهي أقرب الى الريبورتاج الصحفي منها الى الفن الروائي الجيّد الذي يعتمد أساسيا على قواعد وتقنيات فنية متطورة ومتجددة باستمرار.

ولغة الرواية فيها كثير من المباشرة والتقريرية والسرد الجاف الخالي من التدفق والحيوية .

نجمة الساحل (1)

عبد العزيز بوشفيرات

ان مشكلة الارض وقضية الفلاحة ومأساة الفلاح في الريف قد عولجت في بعض الآداب العالمية وخاصة في الأدب السوفياتي . أما في الأدب العربي فقد تناولها (محمد حسين هيكل) في رواية (زينب) و (عبد الرحمن الشرقاوي) في روايته (الارض) . أما في الأدب الروائي الجزائري فقد عالج هذه المشكلة الأديب (عبد الحميد بن هدوقة في روايته (ريح الجنوب) و (نهاية الأمس). والروائي (الطاهر وطار) في رواية (العشق والموت في الزمن الحراشي) وعالج نفس الموضوع الشاعر (محمد زتيلي) في روايته (الأكواخ تحترق) .

وقد تناول قضية الأرض والفلاح كل واحد من هؤلاء الكتاب تناولا يتفق وتكوينه وتفكيره الخاص ويتماشى مع وجهة نظره في الحياة .

وحاول أن يتناول هذه المشكلة فيما بعد (بوشفيرات) في روايته (نجمة الساحل) وهي موضوع دراستنا وقبل أن نتناولها بالنقد والتحليل والمناقشة لابد أن نشير الى أن غلاة المعمرين في فترة الاحتلال الفرنسي قد استولوا على أجود وأخصب الأراضي الجزائرية وشردوا أهلها منها بقوة الحديد والنار ،وتركوا الفلاحين يعملون تحت سيطرتهم من طلوع الشمس الى غروبها بثمن بخس . وظل هؤلاء الفلاحون يرسفون تحت أغلال الذل والهوان فترة طويلة من الزمن حتى اندحرت فلول الاحتلال وذهبت الى غير رجعة .

---

1 - صدرت عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر . 1981 .

ولما استقلت الجزائر أممت الدولة مزارع وأراضي المعمرين التي كانوا قد اغتصبوها ظلما وعدوانا من أصحابها الشرعيين . فحولتها الدولة الى مزارع للتسيير الذاتي وجعلت على رأسها مسؤولين يقومون بالاشراف على ادارتها لكن بعض هؤلاء المسؤولين عاثوا في هذه المزارع فسادا وأصبحت هذه المزارع سلبا ونهبا لكل انتهازي جشع واستغلالي بشع ومن هذا المنطلق حاول (بوشفيرات) في روايته (نجمة الساحل) أن يصور ذلك السلب والنهب الذي كانت تمارسه تلك الفئة من هؤلاء المسؤولين الذين يغلب عليهم الجشع والطمع . فهل نجح المؤلف في تصوير ذلك تصويرا فنيا في عمله الروائي أم أنه أصابه الفشل والاخفاق فسقط الى الحضيض هذا ما سنعرفه عند تحليلنا للرواية مضمونا وشكلا .

ومضمون الرواية يرتكز أساسا على الحديث على مزارع التسيير الذاتي التابعة لقطاع الدولة . وكان يعمل في هذه المزارع فلاحون رسميون ،وفلاحون موسميون ،يشرف عليهم مسؤولون منوزارة الفلاحة .

تصور أحداث رواية (نجمة الساحل) ذلك الجو المظلم القاتم وتلك الفوضى وذلك الاهمال والتسيب الذي يسود تلك المزارع المسيرة ذاتيا . فالفلاحون كسالى يضيعون أوقاتهم في الثرثرة والكلام الفارغ دون أن يبذلوا أي مجهود في عمل الارض . أما المسؤولون المشرفون على هذه المزارع فانتهازيون ينهبون أموال المزارع ويسرقون خيراتها . تصف الرواية الفلاحين وعمال الارض في صورة منفرة جدا فهم عبارة عن مجموعة من الاشخاص تغلب عليهم الانانية الفردية والمصلحة الذاتية وأن أكثرهم لا تهمه مصلحة المزرعة من قريب أو بعيد . وأن جل أحاديثهم تدور حول التهاون

والتحايل والتغيب عن المزرعة بدون مبرر. يقول المؤلف واصفا تصرفاتهم الشنيعة في حوار دار بينهم وهم ذاهبون الى المزرعة :

(- أنا لم أعمل ثمانية أيام في هذا الشهر وأخذت دراهمهم .
- وأنا أكلني (المنستراتور) نقطة ضعفه في الحساب ...
عرفنا هذا ليلة أمس أنا وعبادي .
- وأنا كذلك غلطني رئيس (الشانطي) المزونى .
أدخل آخر دراجته في وسطهم ،وقال :
- كل شهر واحد يبكي وآخر يشكي ولا من يجيب !
ليس بامكانهم الحديث عن أي صغيرة أو كبيرة أمام رئيس (الشانطي.) (1)

وبعد هذا ليس غريبا أن نرى هؤلاء الفلاحين في رواية (نجمة الساحل) يتصفون بالتخاذل والاستسلام يبرز ذلك بوضوح شديد عندما تنهب المزارع التي يعملون فيها على مرأى ومسمع منهم وكأن الأمر لا يهمهم ولا يعنيهم بتاتا فلا يعيرون أي اهتمام لذلك ،وليت الأمر وقف عند هذا الحد بل ذهب الأمر بأحدهم حين طلب من رفاقه أن يغضون الطرف عن السطو والسرقة التي كان يمارسها مسؤولو المزرعة باستمرار. حتى لا يتعرضوا للاهانة أو الطرد كما كانوا يتخيلون . يدور هذا الحوار بين هؤلاء الفلاحين على النحو التالي :

قال الهادي : (الليل ليس له عيون !
رد عليه ابن سعيود وهو يحك في عينيه :
- فيه تحدث كل الأشياء . العين لا تصدقها والعقل لا يقبلها . سيارات

---

1 - نجمة الساحل . ص : 43 .

تجثو ساكنة جنب الطريق . تتحرك ،تعود من حيث أتت محملة . عار،
ها هي قد نضجت وأكلت ،يا للطيبة . قال حميد الفن :

- ابن سمبود والهادي والمتكلم ،ماعساهم يفعلون ؟ ربما كنا ننتظر
حدوث شيء ما . هذا أهم . تجاوزا هذا كله ،ربما يكون مولود جديد
تدخل ابن سمبود قائلا :

- حتى لا نضر بصحتنا نضرب ،النح !

بقي الهادي ينظر فيهما ،كأنه لم يفهم شيئا من كلامهما .
أضاف ابن سمبود وهو ينظر الى الهادي :
- ايه يالهادي ،ربما كنا نحن نباع في سوق النخاسة من حيث لا ندري .
تماما مثلما تباع هذه الفواكه في نهاية كل ليلة !) (1)

وهنا نتساءل كيف أن الفلاحين لم يقوموا بأية محاولة تذكر لردع
وصد عملية السطو والسرقة والتهريب التي تتعرض لها مزارع التسيير الذاتي
باستمرار ؟ كيف يرضى هؤلاء الفلاحون بالقهر والتسلط دون أن يثوروا
أو يقاوموا هذا الاستغلال أو تلك السيطرة ؟ كيف تتعرض مصالح الفلاحين
ومصالح الثورة للضياع والاهمال دون أن تحدث أية مواجهة ساخنة بين
الطرفين المتخاصمين ؟ بل كيف ينسجم هذا التخاذل الذي اتصف به هؤلاء
الفلاحون؟ مع كلام المؤلف في الرواية أن (من يمس نجمة الساحل .مس شرف
الفلاحين .) (2)

وهو يريد أن يوهمنا بأن (نجمة الساحل) هي رمز الفلاحة والتسيير
الذاتي .

---

1 - نجمة الساحل ، ص : 93 .
2 - المصدر نفسه ، ص : 9 .

واذا كانت (نجمة الساحل) وشرف الفلاحين شيئا واحدا فاننا هنا نرى أن الفلاحين قد داسوا على شرفهم وأهانوا كرامتهم حين تركوا أعداء الأرض يعيشون فيها فسادا ووقفوا يتفرجون عن السطو والاختلاس الذي كانت تمارسه تلك الطبقة التي أستولى عليها الطمع والجشع وانعدام الضمير فداست بأقدامها على القيم والمبادئ الانسانية .

على أن هذه النجمة لم تكن سوى نجمة ذل ومسكنة وعار ،قد طأطأ فيها الفلاح رأسه وغض بصره خسة ودناءة . وليست نجمة فخر واعتزاز يرفع من أجلها الفلاح رأسه عاليا ليثور في وجه البورجوازية والاقطاع لأن الفلاح الجزائري عرف عنه منذ قديم الزمان أنه يرفض الذل والهوان مهما كان مصدره ،وأنه يجابه العواصف والأعاصير بالصمود والتحدى والجرأة والشجاعة رغم شظف العيش وقسوة الحياة التي يعيشها في الريف ، كما عرف عنه تعلقه بالأرض وارتباطه بها ارتباطا وثيقا لكن ها هو (بوشقيرات) في روايته شوه صورة الفلاح ومرّغ أنفه في الوحل . وكيف يحمل (بوشقيرات) الفلاحين القضية الخطيرة ثم يجعل القيود والأغلال في أيديهم وأرجلهم فلا يستطيعون القيام بأي تحرك أو مقاومة ضد أعدائهم وأعداء الثورة الزراعية . وبهذا يكون المؤلف قد فوّت الفرصة عن الفلاحين فلم يسمح لهم بالثورة ضد الظلم والفساد . بل لقد رمى بهم في ساحة المعركة بدون سلاح وبقي يتفرج عليهم والأعداء تحيط بهم من كل مكان !

(ابراهيم ،حميد الفن ،ابن سعيود ،الهادي ،يحملون في داخلهم ثقل القضية الكبرى وهي مسألة الأرض وانتاجها .) (1)

---

1 - نجمة الساحل ، ص : 9 .

والملاحظ أن (بوشفيرات) يطلق أوصافا على أبطاله دون أن تنطبق عليهم أبدا هذه الأوصاف أو يجسدونها قولا وفعلا عبر تفجير المواقف والأحداث والوقائع ، من ذلك مثلا أن المؤلف يذكر عن بطله (حميد الفن) أنه (عاش الثورة وأعطى كل مواهبه وقدراته للثورة التي شب وترعرع في كنفها وجعلت منه انسانا يعيش لها ومعها ،ويستمد قدراته في ذلك من تنفسه النضال اليومي الذي عاشه ويعيشه .) (1)

ومن الصعب أن نتقبل هذا الكلام من المؤلف فاذا تتبعنا الرواية من أولها الى آخرها وفتشنا أحداثها ووقائعها لم نعثر أبدا على أي موقف أو سلوك يثبت ثورية هذا الرجل في الرواية .بل رأيناه بطلا متخاذلا لا تنطبق عليه سمة الثورة بأية حال من الأحوال . ولا يمكن أن نقول عنه أنه شخصية ايجابية متطورة تتأثر بالأحداث وتؤثر فيها بشكل بارز ملحوظ . وعلى ضوء ما سبق نستطيع القول باطمئنان أن بطل الرواية (حميد الفن) لم يكن أبدا ثوريا ولم يتنفس النضال اليومي كما زعم المؤلف لأنه . فلا الثورة ولا الغربة ولا النضال اليومي ولا الظروف الصعبة القاسية التي مر بها جعلت منه بطلا ثوريا ايجابيا يكافح الوصولية ويحارب الانتهازية ويحبط مخططاتها ومناوراتها .لأنه ببساطة بطل بلا بطولة تغلب عليه سمة التقهقر والتراجع والتذبذب .

ان (بوشفيرات) في روايته (نجمة الساحل) لم يحاول أن يعمق الصراع الدائر بين الفلاحين وبين (المزوني) تعميقا كبيرا بحيث يجعلنا نحس احساسا عظيما بأبشع الجرائم التي ارتكبها هذا الاقطاعي الجديد ونعطف كثيرا على الفلاحين الذين ذهبوا ضحية هذا المسؤول المتعجرف

---

1 - نجمة الساحل . ص : 07 .

كما أن المؤلف فشل في اثارة الصراع بين الأطراف المتخاصمة ،فبقيت الاحتجاجات والمناقشات يتردد صداها بين الفلاحين وبين أنفسهم فقط ، فاذا حضر (المزوني) سكتوا وخضعوا مستسلمين بدون أن يتفوهوا بكلمة أمامه ا وكنا نود من المؤلف أن ينفخ في أبطاله الفلاحين روح الثورة ليهبوا مسرعين ليطالبوا بطرد (المزوني) . ومن لف لفه ،من مزارع التسيير الذاتي جزاء ما اقترفت أيديهم . غير أن المؤلف اكتفى بقوله أن (المزوني) مرتد ووقح للغاية . وأن الفلاحين استطاعوا أن يكشفوا عيوبه وسرقته!لكن هذا في نظرنا يبقى كلاما عابرا مالم تدعمه الأقوال والأفعال والممارسة الحقيقية لأن تلويك الشعارات شيء والتطبيق الفعلي شيء آخر .

وليس (حميد الفن) وحده هو الذي تنطبق عليه صفة السلبية والتخاذل ، بل ان شخصيات الرواية كلها شخصيات انهزامية هروبية ليس لديها أي استعداد للتضحية والمقاومة دفاعا عن حقوقها المهدورة . وهي شخصيات لا تعرف سوى الخداع والنفاق والغش والتزوير تفضل مصالحها الخاصة دون الاهتمام بالمصلحة العامة .

واضح أن الشخصيات الفلاحية في الرواية لا تربطها مصالح مشتركة ولا منافع متبادلة ولا مواقف ثورية ولذلك ابتعدت عن روح المسؤولية الجماعية ،وافتقرت الى روح الترابط والانسجام والتنسيق فيما بينها وأدى ذلك الى انعدام المبادرة الفعلية بين صفوفها يقول أحد أبطال الرواية :

(- يا اخواني ،نحن ما فرجت علينا وما أظننا سنفرجها رأيي نترك هذا العمل ويكفينا من خبز المذلة .) (1)

---

1 - نجمة الساحل . ص : 48 .

حاول (بوشفيرات) أن يصوّر مأساة الفلاحين وعمال الأرض وهم يئنون تحت ضغط الوصولية وسيطرة البيروقراطية لكن محاولته باءت بالفشل الذريع لانه اكتفى بتصوير الجوانب الهامشية التي لا تمس جوهر المشكلة من قريب أو بعيد باعتبار أنه لم يعش مأساة الفلاحين ولا أحس بالامهم ومعاناتهم ومشاكلهم التي كانوا يتخبطون فيها . وانما عالج المشكلة معالجة سطحية ساذجة بدون احساس عميق بمشاكل الفلاحين ومايرسفون فيه من قيود وأغلال .

فالمؤلف اذن لم يصوّر مأساة الأرض وآلام الفلاح تصويرا فنيا عميقا ولم يبرز نضال هؤلاء الفلاحين وتعلقهم بالأرض وما يبذلونه من جهد وعرق وكفاح في سبيل ترقية مستواهم المادي والمعنوي في روايته وكان ذلك الوصف عبارة عن ملاحظات شخص قابع وراء مكتب ،أفكاره مهلهلة ، وأوراقه مبعثرة وآراؤه مضطربة لا يعرف شيئا عما يعانيه الفلاح من بؤس وفقر وحرمان فهو بعيد كل البعد عن آلام الفلاحين الفقراء وهمومهم ومشاكلهم العويصة وانشغالاتهم اليومية بعيدا عن المعايشة والمعاناة والممارسة العملية ، وكأن الأمر عنده لا يعدو تسويد بعض الأوراق أو رصف مجموعة من الكلمات الجوفاء الجامدة بدون حركة ولا نبض ،وانتهى الأمر ، يقول أحد النقاد في هذا الشأن : (مازلنا نلح في مطالبة الكتاب المعاصرين من أبناء هذا الجيل الرابع ،بألا ينزلقوا في السطحية والابتذال وتكرار المصطلحات الجاهزة والشخصيات المعدة سلفا والأفكار الصدئة ، وبأن يكون لديهم وعي علمي عال بالعالم الذي يعيشون فيه ،مع امتلاكهم رؤية شاملة للمستقبل وحرية فكرية لاحدود لها ،وبألا تبهرهم أضواء الاغراب والتعقيد واللامعقول والتجريب ،فتصرفهم عن البحث في أعماق

واقعهم الاجتماعي اليومي المعاش .) (1)

واذا أمعنا النظر في شخصيات هذه الرواية نجدها شخصيات تتصف بالفوضى والاضطراب فكرا وسلوكا وممارسة . ينعدم فيها صدق الاحساس وعمق المعاناة لأن المؤلف رسمها رسما يمس السطح ولا يغوص الى الأعماق . شخصيات نمطية مسطحة لا تتحول ولا تتطور منذ بداية الرواية الى نهايتها . شخصيات بلاسمات ولا وجوه ولا ملامح ولا أعماق وكان (محمد زتيلي) انضج فكرا وأكثر وعيا وأوسع ثقافة من (بوشفيرات) أن الأول عالج قضية الأرض معالجة تتسم بالعمق والاحساس والمعاناة فجعل أبطال روايته (الأكواخ تحترق) يتعلقون بالأرض ويتفانون في خدمتها ويسهرون على رعايتها والاهتمام بها ويكسبون قوتهم بعرقهم وكدحهم وكفاحهم واخلاصهم وبذلك حولوا الصخور الى أرض خصبة كما صرح بذلك (مسعود) بطل رواية (الأكواخ تحترق) . بينما صور الثاني أبطال روايته (نجمة الساحل) في غاية السلبية والتخاذل والانهزام يفتخرون بالتكاسل وعدم الاهتمام بعمل الأرض وكثرة التغيب عن المزارع كرها للفلاحة ومقتا للعمل ! وهذا ما دفع بالاقطاعي الجديد مسؤول المزرعة (المزوني) أن يهددهم بالطرد قائلا : من (يحاول التقليل من مسؤوليتي سأطرده من المزرعة نهائيا وليشك الى ربه ... أنتم فلاحون بالاسم .) (2)

وهكذا فان شخصيات هذه الرواية عبارة عن صور غائمة غامضة مهزوزة . وسبب ذلك يرجع الى عدم نضج تجربة المؤلف فكرا ووعيا وفنا وخبرة ومعاناة .

---

1 - د . سيد حامد النساج ،بانوراما الرواية العربية الحديثة . ص: 183 .
2 - نجمة الساحل . ص : 46 - 47 .

الاسلـــوب واللغـــة .

والدارس حين يفرغ من قراءة (نجمة الساحل) يفاجأ بخيبة أمـل مريرة حيث يقابله ذلك الاسلوب المليء بالعيوب والنقائص والسقطـات الفنية واللغوية . كما يصدمه ذلك الاسلوب الركيك الذي يحتوي علـى قوالب ميتة محنطة ، وعبارات جاهزة ، ومفاهيم جامدة ، وأفكار متحجـرة متصلبة لا روح فيها ولا نبض ولا حركة .

ولغة الرواية مليئة بالألفاظ العامية البذيئة والجمل المبتذلـة والعبارات السوقية والمنحطة . لغة جافة جامدة تنتشر فيها بكثرة الاخطاء اللغوية والنحوية والصرفية والاملائية يربأ تلميذ المدرسة الاساسيـة أن يرتكبها أو يقع فيها . فأنت اذن أمام ركام هائل من الكلمات المفككة والعبارات التي تثير السأم والارهاق في نفس القارئ الذي سوف ينـدم على الوقت الذي ضيعه في قراءة هذه الأوراق المسماة رواية .
وهي ليست برواية وان وضع المؤلف على غلافها اسم رواية .

وخلاصة القول فان رواية (نجمة الساحل) لـ (بوشفيرات) روايـة ضعيفة تتصف بالرداءة والنظرة الضيقة والسطحية المرتجلة وهي انتـاج رديء وعمل ارتجالي عشوائي تنعدم فيه أهم القواعد والمقومات الاساسيـة للفن القصصي والتكنيك الروائي وأساليبه المعاصرة المتطورة .

الفصل الثاني

الاتجاه الثوري النضالي

ان الثورة بمعناها العام تشتمل على معان واسعة ودلالات عميقة ومفاهيم مختلفة وايحاءات فلسفية ورموز فنية ،وترتكز على قضايا اجتماعية وهموم انسانية ،ومشاكل سياسية .

فالثورة بمعناها الواسع تعني الثورة على الاستعمار ,ثورة على على الاستغلال ثورة على الظلم والقهر والاستلاب ،ثورة على الاقطاعية والبورجوازية والرجعية ،ثورة على الرشوة والمحسوبية والوساطة والمحاباة ، ثورة على العادات والتقاليد والخرافات والأساطير البالية ،ثورة على الأمراض الاجتماعية ،ثورة على الانحرافات الخلقية ،ثورة مظاهر الفساد . وعلى هذا الأساس (فالثورة تعني تغييرا جذريا وبناء جديدا يلبي مقتضيات المرحلة الراهنة ،ويخطط للمستقبل . والثورة لها مفهومان أساسيان : الأول فلسفي والثاني واقعي . في المفهوم الأول الثورة مطلقة ،متجددة ،هدامة ، مبدعة ، وحالمة . وفي المفهوم الثاني هي تكتيكية ،آنية ،بناءة ،دبلوماسية ، تبحث عن أفضل الحلول للسير بالمجتمع خطوة الى الأمام .) (1)

واذا انتقلنا من العام الى الخاص وأمعنا النظر في بعض الروايات الجزائرية التي عالجت البعد الثوري في حرب التحرير الوطنية . وجدنا أن البعد الثوري النضالي يحتبر الدم المتدفق في هذه الروايات ،فمن خلال سرد الأحداث والمواقف والوقائع وصور المشاهد البطولية التي سجلها كتاب الرواية الجزائرية ،بصدق وأمانة حيث تتجلى لنا بوضوح شديد تلك المذابح الدموية في أبشع صورها ،وتبرز تلك الاغتيالات في أقسى أشكالها والتعذيبات الجسدية في أفظع ألوانها .

1 - رياض عصمت ،مجلة دراسات عربية ،يناير 1983 . بيروت . ص : 131 .

ومن جهة أخرى كشفت لنا هذه الروايات جانبا آخر من فظائع الاستعمار المتمثلة في شن الاعتقالات والمحاكمات والعقوبات المختلفة ضد الثوار والمناضلين والفدائيين مما دفع بالجماهير الشعبية الى أن تتجاوب وتلتف حول الثورة التحريرية ،تاركة كل النزاعات والخلافات التي تمزق الصفوف وتثبط العزائم والهمم . باعتبار أن الاحتلال الفرنسي خطر عظيم على الشعب الجزائري كله بدون استثناء أو تمييز.

على أن الثورة لم تهتم بالجانب الحربي فقط بل أولت اهتماما كبيرا لفئات الشعب ونفخت فيهم روح اليقظة والوعي والحماس التام لأن هذه الثورة قادرة على التغيير والتحويل ،وعلى ازالة ما علق بأذهان الشعب من أدران الشعور بالنقص والضعف والاستسلام . كما حاولت القضاء على الجشع والاستغلال فبثت في الشعب روح التمرد على تلك المساوئ والسلبيات التي كبلته طيلة تلك العهود الظالمة . حتى انتشلته الثورة من غياهب التيه والضلال والفساد .

فالثورة اذن هي التضحية بكل شئ التضحية بالنفس والنفيس في سبيل تحرير الفرد والمجتمع من كل سيطرة واستغلال .

وعلى هذا الأساس سندرس الاتجاه الثوري النضالي في كل رواية على حدة ،ولنبدأ برواية (اللاز) .

اللاز

للطاهر وطار

ولد الطاهر وطار سنة 1936 بصدراتة بالشرق الجزائري تعلم في كتاب قريته ثم انتقل الى معهد ابن باديس بقسنطينة . ثم سافر الى تونس ليتعلم هناك حيث درس في جامع الزيتونة .

وبعد الاستقلال عمل كاطار سياسي في حزب جبهة التحرير الوطني .

صدرت للمؤلف الأعمال القصصية والروائية التالية .

1 - على الضفة الأخرى — مسرحية عام 1958 مجلة الفكر تونس.
2 - الهارب — مسرحية عام 1961 مسلسلة مجلة الفكر تونس .
3 - دخان من قلبي — مجموعة قصصية عام 1962 سناد تونس .
4 - الطعنات — مجموعة قصصية عام 1972 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر .
5 - الشهداء يعودون هذا الاسبوع مجموعة قصصية عام 1974 بغداد .
6 - اللاز — رواية عام 1974 المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر .
7 - الزلزال — رواية عام 1974 دار العلم للملايين بيروت.
8 - عرس بغل — رواية عام 1978 دار ابن رشد . بيروت .

9 - الحوات والقصر   . رواية عام 1980   دار البعث قسنطينة الجزائر.

10- العشق والموت في الزمن الحراشي   رواية عام 1980 دار ابن رشد بيروت .

وله رواية جديدة تحت الطبع باسم تجربة العشق . بالاضافة الى هذه الاعمال له بعض التقديمات لكتاب قصصيين ناشئين .

ملخص الرواية .

تدور أحداث رواية " اللاز " في قرية من قرى الريف الجزائري ، تحيط بها عدة جبال ،وتجثم على القرية ثكنة عسكرية يرأسها ضابط فرنسي ابان الثورة التحريرية ،وكانت هذه القرية تعج بأناس من فئات مختلفة وطبقاتَ متنوعة من بينهم " الشيخ الربيعي " وابنه " قدور " و" زينة " بنت " الشيخ السبتي " و " حمو " وأخوه " زيدان " ،يقابلهم في الطرف الآخر " بعطوش " و " الشامبيط " (الحارس) وغيرهما من الذين يتعاملون مع الاستعمار ضد اخوانهم المجاهدين .

نشأ في هذه القرية ولد لقيط وابن غير شرعي لا يعرف له أب اسمه " اللاز " وأمه تدعى " مريانة " (مريم) ،شرير يخشاه الجميع ،يضرب ويسرق ويخطف مستخدما العنف ، وكان سلاحه الخنجر ،وفضلا عن هذا فانه يتعاطى الخمر والحشيش ولعب القمار ." ودأب على دخول السجن حتى بلغ دخوله السجن ثلاثين مرّة في الشهر حتى صار له سجن خاص به لا يدخله سواه." (1)

ولما شب " اللاز " ظن الجميع أنه سوف يقلع عن عادته الشريرة ، لكنه خيب آمالهم ،فازدادت شروره وكثر اعتداؤه .

---

1 - الرواية . ص : 13 .

وحين اندلعت الثورة تمنى الجميع الهلاك "للاز" والقضاء عليه ،من طرف الثورة ليستريح الناس من شروره . لكنه عرف كيف يتكيف مع الظروف ويتأقلم مع الأحداث اذ ما لبث أن عقد صداقة مشبوهة مع الضابط الفرنسي ،وفي هذه الاثناء يتعرف (اللاز) على أبيه (زيدان) لينقلب من شرير الى مناضل يعمل لصالح الثورة فيهرب المجندين الجزائريين الى الجبال ،ولما اكتشف أمره زج به في السجن وذاق ألوانا من التعذيب الوحشي على يد الضابط الفرنسي الذي طلب منه أن يعرفه على أسماء الذين يتعاون معهم من المجاهدين ،غير أن (اللاز) رفض ذلك باصرار وعناد ،وصمد تحت الضغط والتعذيب ،وأعطاه الضابط مهلة قصيرة يراجع فيها نفسه وفي هذه الاثناء ابتكر (اللاز) حيلة ذكية تمكن اثرها من الفرار مع بعض المجندين الجزائريين ليلتحق بأبيه (زيدان) ،وينضم الى صفوف الثوار المجاهدين بالجبل .

أما (زيدان) فيستدعى مع رفاقه الأوروبيين الخمسة الذين عملوا في صفوف الثورة سنتين ،فيطلب منهم أن ينسلخوا من مذهبهم ويتبرأوا من عقيدتهم ، حين أمرت القيادة العليا حل جميع الأحزاب وتكوين حزب واحد هو حزب جبهة التحرير الوطني . لكنهم رفضوا ذلك وآثروا الموت على أن يتخلوا عن المبدأ والعقيدة ،فذبح (زيدان) والأوروبيون الخمسة بحد السكين على مرأى ومسمع من (اللاز) الذي صعق من هول الصدمة وأصابه الذهول والخبل . أما (بعطوش) الخائن الذي ارتكب أبشع الجرائم مع أهل القرية ومع أقرب الناس اليه ،فقد أصيب بنوبة هستيرية ألزمته الفراش عدة أيام ،وفجأة يصحو من غفوته فيقتل الضابط ويحرق الثكنة بعدما استولى هو ورفاقه المجندون على الأسلحة والذخائر ويهرب بها الى الجبال . وتتخلص القرية من ذلك الأخطبوط الذي كان جاثما على صدرها

وتغمر الفرحة جميع سكانها ، ويصبح بعطوش قائدا في الثورة بعد مقتل (زيدان) مباشرة .

ولما نالت الجزائر استقلالها انتقل (بعطوش) الى العاصمة ليحتل مكانة مرموقة بين كبار المسؤولين في أجهزة الدولة . أما سكان القرية فيبتهجون بهذا الحدث العظيم ؟ ولسان حالهم يردد (ما يبقى في الوادي غير حجاره) ، العبارة الشهيرة ذات المعنى الرمزي العميق التي ترددها بعض شخصيات الرواية باستمرار .

مضمون الرواية

هذه الرواية هل هي رواية اجتماعية ؟ أم رواية ثورية نضالية أم رواية مذهبية فلسفية أم رواية تاريخية ؟ انها تجمع كل هذه الصفات في وقت واحد ، فهي رواية متعددة الوجوه كثيرة الألوان والسمات ، قدمت نماذج لها أكثر من جانب وأكثر من عمق فهي :

- رواية اجتماعية نتعرف من خلال أحداثها على قيم وأخلاق وعادات وتقاليد ومعتقدات أهل القرية خاصة وأهل الريف عامة . ونتعرف كذلك من خلالها عن حياة البؤس والفقر والشقاء والجهل والحرمان التي كان يتخبط فيها أهل القرية ، مما دفعهم الى التمرد والثورة على تلك الأوضاع المأساوية .

- رواية ثورية نضالية صورت بشاعة الحرب وفظاعتها في عنفها الشديد وصراعها المرير ضد العدو الغاشم ، وأبرزت بطولات ومعارك جيش التحرير ضد قوات الاحتلال الفرنسي في ميادين القتال وساح الفداء وتنفيذ العمليات الجريئة التي قام بها الفدائيون من ذبح وحرق وتخريب أسلاك وتدمير سكك حديدية وزرع قنابل في مسالك جبلية وطرقات تمر بها قوافل قوات

الاحتلال ونعرف من خلال سياق الرواية وحشية الاستعمار وهمجيته ،وأنواع التعذيب والتقتيل الجماعي التي يصبها على المناضلين الثوريين الذين يطالبون بالحرية والاستقلال ودحر الاستعمار من البلاد الى غير رجعة .

- رواية مذهبية عقائدية ناقش من خلالها الكاتب دور الأحزاب المختلفة في نضال الجماهير وتغيير الأوضاع الطبقية ، وقارن بين أيديولوجياتها المتباينة وموقفها في الصراعات الطبقية من خلال فلسفة كل حزب ونظرته الى علاقة الفرد في المجتمع ونظام الحكم وقد ركز الكاتب بخاصة على دور المذهب الاشتراكي أو قل الشيوعي الذي يدعو الى حرية البلاد واستقلالها من ربقة الاستعمار ،والتنديد بالبرجوازية والرجعية وضرورة محو الفوارق الطبقية ليقضي على الاستغلال والاستعباد .

- رواية تاريخية أرخت لفترة هامة من تاريخ بلادنا وهي فترة بداية الاربعينات الى بداية الستينات التي اندلعت فيها ثورة نوفمبر العملاقة التي قهرت قوى الشر والطغيان ودحرت فلول الغزاة المحتلين وأخرجتهم من البلاد مذلولين مقهورين يجرون أذيال الهزيمة النكراء والحسرة المستمرة!

الشخصيات :

شخصية اللاز

تصف الرواية شخصية (اللاز) بأنه ولد لقيط ،وابن غير شرعي وأمه تدعى مريانة ،لا يعرف من أبوه . وتضافرت فيه كل عوامل الشر بأجلى صورها ،فهو يسرق ويخطف ويضرب ، ويعتدي على الآخرين ،ولم يسلم من شره صغير ولا كبير ،يعاقر الخمر ويقامر ،متحديا السجن والضرب اللذين سلطهما عليه (الشامبيط) ، فـ (اللاز) اذن شرير يتحاشاه سكان القرية جميعا رجالا ونساء وأطفالا ،يستخدم الخنجر في المواقف الحرجة فالويل

لمن يعترض طريقه ،أو تسول له نفسه الوقوف في وجهه ، فهو متعند عنيد صاحب ارادة صلبة ،غير أن الوصمة التي أقلقته وجعلت حياته جحيما لا يطاق هي أنه لقيط فلم يشعر بارتياح منذ نعومة اظفاره ، فحاول جاهدا أن يمحو هذا العار الذي ابتلى به ،بأية وسيلة من وسائل التمرد والغضب مهما كلفه ذلك من ثمن ،ليفرض وجوده على الجميع : (هذه الاعمال البطولية التي قام بها اللاز كانت مرآة لنفسه المتحدية بل كانت صورة لنضال الشعب الجزائري الذي كان اللاز يحمل في طياته جميع بذوره .) (1)

ومن خلال رسم شخصية (اللاز) نرى أن (الطاهر وطار) هيأ بطله لينتقل من حالة الى حالة أخرى من النقيض الى النقيض ،فشخصية (اللاز) كانت شخصية شريرة تعتمد على السطو والسرقة والتهور والاندفاع والاعتداء على الغير كما سبق أن أشرنا .

وقد تحولت هذه الشخصية الى شخصية ثورية مناضلة حين تبين له أن زيدان والده حقا .

وبعد أن أماط (زيدان) اللثام عن هذا السر الخطير انقلبت حياة (اللاز) رأسا على عقب ، بعد أن كان لقيطا شريرا أصبح ابنا لمناضل ثوري، وفي نفس الوقت أصبح يعمل لصالح الثورة ،كيف لا يحدث هذا ،و(زيدان) نفسه يعلم علم اليقين أن (اللاز) لا يخون الثورة أبدا ،مهما كانت اندفاعاته وشراسته . يقول (زيدان) مخاطبا (اللاز) (لقد كنت أعلق عليك آمالا كبيرة وكنت أثق في أنك لن تخون أبدا ،لانك لا تطمع في شيء ،ولا تخشى ضياع

---

1 - الدكتور جودت الركابي : مجلة الثقافة . عدد 33 . ص : 88 .

شيء .. أماما تقوم به من التحدي بالضجيج والصخب ، فانني أقوم به بدوري في صمت ومخاتلة . يجب أن تغيّر الحياة يااللاز يا ابني . عليك الآن أن تعمل في خط واضح ، ومن أجل هدف واضح .) (1)

وفعلا استجاب (اللاز) لرغبة (زيدان) ، وعمل في الخط الواضح السليم واتبع طريق النضال الثوري وهرب المجندين الجزائريين بسلاحهم من الثكنة الفرنسية الى الجبال . قاصد المجاهدين .

(ومن خلال تطور شخصية اللاز المحورية التي تمثل الشعب الذي اكتشف في لحظة من اللحظات انتماءه العضوي الى ثورة شعبية ودفع دماءه ثمنا لهذه الثورة ، مكفرا بذلك عن كل ذنوبه السابقة ومطهرا بالدم الزكي عمر الشقاوة الذي عاشه .) (2)

واستمر اللاز في العمل الثوري حتى اكتشف أمره وألقي عليه القبض ، وسيق الى السجن مقيدا بالاغلال الثقيلة ، وذاق ألوانا مختلفة من التعذيب بأمر من الضابط الفرنسي الذي طلب منه أن يدله على المسؤول الذي يعمل معه لصالح الثورة التحريرية فأنكر ذلك بشدة .

وحين تقابل (اللاز) مع الخائن الذي وشى به عند الضابط ، وجها لوجه وتحقق له فيما بعد أن هذا الخائن لم يكن سوى (بعطوش) ، لم يجد بدا من أن انفجر غضبا وصاح في ذهول شديد : (- مجاهد ، مجاهد . مسبل مناضل . فلاق ، خدعتك أيها المأفون القذر .) (3)

---

1 - اللاز . ص : 96 .

2 - جبور الراسي : مجلة البلاغ عدد 185 . 1975 . ص : 7 ، 8 .

3 - اللاز . ص : 76 .

وهنا تبدأ عملية التعذيب بعدما يزج به في حجرة التعذيب : (ما ان أنيرت الاضواء حتى جردوه من الثياب وأوثقوه بأسلاك نحاسية وقذفوا به فوق منضدة خشبية ثبتت على سطحها مسامير حادة وانهمكوا بجلدونه. هذه العملية الاولى ،ان لم أعترف أثناءها ، تلتها مباشرة العملية الثانية الغطس في الماء مع الكهرباء . وان لم أعترف أثناءها ،جاءت العملية الشاقة اقتلاع الأظافر .) (1)

وصمد (اللاز) صمود الابطال أثناء التعذيب وتحمل المشاق بصبر لا ينفد وعزيمة لا تلين أسوة بالمناضلين الذين تحملوا قبله العذاب وصبروا على الشدائد والمحن وكلما ازداد عذابه أزداد قوة وإرادة : (آي .آي مع من تعمل ؟ تكلم أم تواصل ؟ ليواصلوا ،لن أتكلم مهما كان الامر . اذا لم أتحرك فلن تؤذيني المسامير . واذا لم أصرخ فلن يسألوني . يجب أن تستقر في رأسي فكرة تشغلني . سأنتهي ،أعترف أم لم أعترف ، لان هناك أدلة قاطعة ضدي الخائن . الحركي اللعين . هذه المسامير . لم يصبوا الماء المالح بعد . لو لم أكن أعرف المراحل . هذه المسامير . لم أعد أطيق .) (2)

والكاتب يغوص في أعماق بطله (اللاز) ليعرفنا على ما يعتمل في صدره وما يجول بخاطره وهو تحت وطأة التعذيب الوحشي فيعبر عن طريق تيار الشعور عن حالتين متناقضتين يعيشهما (اللاز) بين الاقدام والاحجام بين الاستسلام والصمود . وأخيرا أختار (اللاز) الطريق الشاق الصعب رغم أنه تجرع صنوف التعذيب التي طاقة البشر وقرر عدم البوح وافشاء السر وآثر الموت على الحياة تمسكا بالوطنية ،وهربا من الخيانة والتخاذل وما قد ينجر عنهما من عواقب وخيمة وأهوال جسيمة تضر بالمجتمع والثورة على حد سواء .

1 - اللاز . ص : 78 .

2 - المصدر نفسه . ص : 78 .

وهكذا التقى (اللاز) بأبيه زيدان واجتمع سملهما وأصبح (اللاز) جنديا في صفوف الثورة التي طالما تمنى الالتحاق بها والانضمام الى صفوفها وكم كان (اللاز) يود أن يخوض معركة في صفوف جيش التحرير الوطني ضد قوات الاحتلال الفرنسي . هذا الحلم الذي كان يراوده منذ أمد بعيد ،وكان صعب المنال بالنسبة اليه وها هو الآن أصبح حقيقة ملموسة يعيشها من أعماقه واتضحت له الرؤية وانجلت له الحقيقة ، وعاش الثورة حسيا ومعنويا ،ورغم أن (اللاز) خلق من جديد الا أنه في نفس الوقت يأسف كثيرا لكونه سيئ الحظ أميا لا يعرف القراءة والكتابة وحرم من نعمة العلم والمعرفة منذ نعومة أظفاره ،كما حرم من قبل رعاية الأب والتربية الحسنة . وهو من أجل ذلك يكره البورجوازية والاقطاعية محاولا اعتناق الشيوعية مذهبا وعقيدة (آه . لو كنت أحسن القراءة مثل أبي ،لكنت أحمر بحق ،ترى لماذا هو أحمر ؟ ألأنه يشتغل بالسياسة ويحقد على الاغنياء ؟ اذن فأنا بدوري أحمر . رغم عدم معرفتي للسياسة فانني أبغض الاغنياء وأبناءهم المأفونين وبناتهم العاهرات .) (1)

(ان اللاز هو الشعب الجزائري بكل ما يحمل هذا الشعب من شرايين مرهقة وممزقة ولكنها شرايين تنتمي الى هيكل عظمي واحد ،انه الشعب الجزائري بكل جريانه اللاهب من أجل البحث عن الذات الضائعة المضروب عليها ستار صفيق من خواء العدم الاستعماري .) (2)

ومن هنا فان الطاهر وطار (يعالج في هذه الرواية دور الشعب العربي في الجزائر معالجة واقعية عميقة وشاعرية فانه فاق بكثير أقرانه ممن تناولوا مرحلة من مراحل الثورة الجزائرية لقد أختار الطاهر وطار شخصية شعبية

---

1 ـ اللاز . ص : 97 .

2 ـ الدكتورعبد الرزان عيد ،دراسات نقدية في الرواية . ص : 130 .

جعلها التجسيد الحي المفوي للفضائل والمثالب الخاصة بالشعب الجزائري ، وهو يصنع مصيره ويسعى الى حريته ،بشكل بطولي ومأساوي معا . فاللاز شخصية أسطورية ، يمثل بطولات الشعب الاسطورية التي أفرزتها معارك التحرير وهو شخصية مظلومة ،مستعمرة ،فقيرة ،جاهلة . كما أرادا الفرنسيون للجزائريين أن يكونوا كذلك) (1)

ولا نختم الحديث عن شخصية (اللاز) دون أن نشير الى رسم شخصيته الخارجية التي صورها المؤلف على لسان (زيدان) وهو يتأمل ابنه (اللاز) مدققا في ملامحه بعد سنين طويلة من الفراق (وجهه مستدير يميل الى البياض ،أنفه عريض قصير ،شفتاه غليظتان ،عيناه بنيتان واسعتان تزينهما أهداب سوداء طويلة وحاجبان متلاصقان يشبه أمه ،وليس فيه من ملامحي سوى الدم . هذه الخدوش المتقاطعة في وجهه لم يلتئم بعضها بعد ،لا شك أنها تؤلمه المسكين . طالما تألم .) (2)

(وشخصية اللاز شخصية ثورية غير مسطحة شخصية حية وحرة ،تمتاز بالعمق والاستدارة والنمو ... لأنها شخصية تتحرك بحرية باتساع الحياة وليست لها مواقفها الثابتة التي يمكن تلخيصها بكلمة أو بفكرة واحدة أو اتجاه واحد .) (3)

شخصية زيدان :

بعدما تطرقنا لشخصية (اللاز) وعرفنا أبعادها الاجتماعية والنفسية وأوصافها الداخلية والخارجية. نحاول الآن أن نتعرف على الشخصية المحورية

---

1 - الدكتور سيد حامد النساج بانوراما الرواية العربية . ص : 225

2 - اللاز . ص : 220 .

3 - أحمد محمد عطية ،البطل الثوري في الرواية العربية الحديثة .ص: 254، 255.

الثانية التي تتقاسم أدوار الرواية مع شخصية (اللاز) الا وهي شخصية (زيدان) المثقف الثوري فنلقي عليها بعض الأضواء . ويبدو أن الكاتب قد اهتم بشخصية (زيدان) اهتماما كبيرا فرسمها ببراعة ودقة متناهية بعد عودة (زيدان) من موسكو اتضحت شخصيته بصورة أكثر وضوحا وأكثر جلاء ،لما تتمتع به هذه الشخصية من فكر وثقافة ووعي سياسي وحس اجتماعي . وقبل أن ندخل في تحليل شخصية البطل يجدر بنا أن نشير الى أن هذه الشخصية لها بعدان هامان البعد الثوري والبعد الأيديولوجي وسنركز هنا على البعد الثوري فقط مؤجلين البعد الأيديولوجي للفصل الخاص به ،من الفصول المقبلة .

لقد أدرك (زيدان) منذ الوهلة الأولى أن حالة البلاد سيئة جدا نظرا للوضعية المتدهورة التي تئن تحت وطأتها . فالاستعمار هو المرض الخطير الذي أصيبت به البلاد . والذي يجب استئصاله والقضاء عليه بكل الوسائل الممكنة . لذلك أعلن (زيدان) - مع سائر الثوار - غضبه وسخطه على الاستعمار وانضم الى الثورة التحريرية ومالبث أنتخب مسؤولا ثوريا في جيش التحرير الوطني وأصبح قائدا لثلاث فرق عسكرية ،وأظهر حنكة سياسية وخبرة عسكرية وتخطيطا محكما دقيقا ،الأمر الذي جعل الضابط الفرنسي يصبح قلقا متذمرا من الضربات الموجهة التي يوجهها الثوار عامة ،(وزيدان) خاصة : (يقين أن الأحمر اللعين هو الذي يخطط لهم تدرب في صفوفنا وتثقف في مدارسنا وسبقتنا اليه موسكو.) (1)

أما آراء (زيدان)وأفكاره حول المجتمع والثورة والاستعمار فتحتوي على النقاط الأساسية التالية :

---

1 - اللاز ، ص : 84 .

(يخرج الفرنسيون ،يفقر الأغنياء وينعدمون ،ينام جميع الناس على الشبع نقرأ كلنا ،نتعلم العربية والرومية ،بما فيها الانجليزية والألمانية والروسية يصبح الحاكم من عندنا ،الشانبيط ،والخوجة والقائد ،والشرطي منا نصير فاهمين ،نظيفين . جميلين ،محترمين ،كالفرنسيس لسنا وحدنا نطمح لكل هذا . ... أيضا المصريون والتونسيون والمغاربة ،حتى الكفار أيضا فيهم من يعاني مثل وضعنا ،ففي الهند الصينية أناس مثلنا ،ولو أن دينهم يختلف عن دينا . كان يحكمهم الفرنسيون فثاروا عليهم وغلبوهم ،وهربت فرنسا منهزمة .)(1)

والمتأمل في هذا النص يرى أن (زيدان) كان يطمح أن نتعلم ونفهم ونتثقف ويرد لنا اعتبارنا ونصبح سادة أحرارا لا يحكم فينا أي أجنبي ونكون قوة معتبرة لها وزنها في العالم . وكان (زيدان) يطمح هذا الطموح لأن الجزائر وقتها كانت في الحضيض الأسفل من الانهيار الاقتصادي والاجتماعي والثقافي . وكان البعض يرى وقتئذ أن استقلال الجزائر ضرب من المستحيل . نظرا للقبضة الحديدية والحصار الشديد المضروب على البلاد من طرف الاستعمار الفرنسي . ولكن الجزائر بفضل أبنائها الأحرار حولت المستحيل الى حقيقة ملموسة وأصبح للجزائر مكانها بين الأمم على الصعيدين . الداخلي والخارجي .

وهكذا بدأ (زيدان) يبعث روح الثورة والتضحية في نفوس الجميع ليسمو الى مستوى عظمة الثورة ، وأدرك (زيدان) المسؤولية الثقيلة الملقاة على عاتقه فانصب جل اهتمامه في ترقية عقول جنوده وتهذيب نفوسهم من كل ما علق بها من رواسب الجهل والعادات الفاسدة . لترتقي الى درجة عالية من الوعي الثوري ،والفكر التقدمي . وانطلاقا من هذا المنظور بالذات طلب (زيدان) من الجنود الذين انضموا حديثا الى الثورة أن يقتدوا بالثوار القدماء الذين ضربوا أروع الأمثلة في البطولة والتضحية والفداء . ثم طلب

---

1 - اللاز ، ص : 43 ، 44 .

فيما بعد من الجميع التحلي بالأخلاق الفاضلة والمثل العليا التي يجب أن يتمسك بها كل جندي مكافح وثوري مناضل في الثورة التحريرية .

وفي مجال التخطيط الثوري اعتمد (زيدان) أعتمادا كليا على حرب العصابات ،وشن الهجومات المتتالية ،على مراكز العدو المختلفة في جميع الجهات . ليزرع الهلع والرعب في قلوب الأعداء من جهة وليغنم كميات كثيرة من الأسلحة والعتاد الحربي من جهة ثانية ،ومع هذا كله ف (زيدان) يلزم جانب الحيطة والحذر توقعا لكل الاحتمالات المنتظرة . وكانت لـ(زيدان) آراء ثاقبة وأفكار صائبة في تحليل شخصيات جنوده ،فيقول مثلا عن الكابران (رمضان) حينما فرّ من الثكنة الى جيش التحرير الوطني : (انه شديد الثقة بنفسه . أبلى البارحة البلاء الحسن . شديد السيطرة على أعصابه الى حد يثير الاعجاب . واما أن يفيد الثورة ،واما أن يخرب قطاعا كبيرا منها) (1) .

وبالرغم من أن (زيدان) كان حازما ويقظا الى أقصى الحدود فانه كذلك كان يشفق على خصومه ،ولو كانوا خونة ،فهو حازم في غير عنف ،ولين في غير ضعف ،ولهذا تأخذه الدهشة حين أعلن له قائد الوحدة الثانية . بأنه ذبح سبع أنفس في ليلة واحدة وبيد واحدة .

و (زيدان) يروح عن نفسه ولا يترك الهم يدخل قلبه لكي لا ينفجر ، فهو يدخن ويشرب الخمر رغم أنه يعلم جيدا أن الثورة تعاقب شاربهما بالذبح . (حين توتينا الفرص يجب أن نمنح لأنفسنا بعض التسامح حتى لا ننفجر دفعة واحدة .) (2)

---

1 - اللاز . ص : 158 - 159 .
2 - نفس المصدر . ص : 200 .

شخصيـــــة حمــــو

تعتبر شخصية (حمو) من شخصيات الرواية المهمة التي لعبـت دورا كبيرا في الثورة التحريرية كما تصفها أحداث الرواية . نشأ (حمـو) فقيرا معدما ينتمي الى الطبقة الكادحة المسحوقة .وقد كان يعمل عنـد البورجوازي صاحب الحمام بثمن بخس لا يكفي حتى لسد جوعه .واستمر على هذه الحالة حتى هبت رياح الثورة التحريرية على ربوع البلاد ،لتعصف بالاستعمار وأذنابه ،فانضم اليها (حمو) وعمل مسبلا يشتري الأدوية والألبسة والأحذية لجيش التحرير ،ثم انتقل الى جمع الاشتراكات والتبرعات، فازداد نشاطه بعد ذلك وصار يبث الحماس في نفوس المواطنين ،ويدعوهم الى الانضمام الى الثورة والكفاح ضد العدو الغاصب وأثناء ذلك، هب (حمو) يبشر الناس بتغيير الأوضاع وتبديل الأحوال ،وينقل أفكار أخيه (زيدان) الى معارفه وأقاربه بحماس شديد . وناضل (حمو) حتى ارتقى الى منصب رئيس مسبلين . (وكم ذهل قدور حين رأى حمو الفقير البئيس ،يخرج الملايين من جيبه ،بينما عائلته تتضور جوعا ،ولباسه ممزق رث كالعادة ،بل وعمله الشاق لم يتغير.) (1)

(ان حمو لا يملك الا النية الطيبة ،والقلب النقي ،والسريرة الحسنة ،فقد عاد بعد الاستقلال خالي الوفاض ،كالآف المجاهدين الا من شرف الاسم الذي يحمله الآن ،والذي يتيح له الانتظار أمام شباك المنح ،ويحمله على الصبر أمام ذلك الموظف الذي كان خارج الثورة ،ومن خصومها والمتعاونيين مع أعدائها ،ثم هو اليوم بيديه الاثنتين يمد النقود ليسلمها لمستحقيها ، انها صورة مقلوبة للأمل الذي كانوا يمنون أنفسهم به ،ولكنهم الآن مجبرون

---

1 - اللاز . ص : 51 .

على تحمل الموقف وحمو ينتظر عودة بمطوش الى القرية حيث قرر الاحتفال بختان ابنه لعله يساعده في المشور على عمل جديد .) (1)

ان (حمو يجسم حجم الفجيعة الجماهيرية . فتجهض أحلامه المشروعة وتطلماته الحقة ،ليقف متلهفا لا يملك من أمره شيئا ،فلقد سرق اللصوص ما جنته يداه .) (2)

يرمز (الطاهر وطار) لشخصية (حمو) الى ذلك النموذج من النـاس الذين خدموا الثورة باخلاص وبذلوا كل ما في وسعهم لانجاح الثورة التحريرية وقدموا أقصى ما يملكون من جهد وعرق وتعب وقد كان (حمو) كما تصفـه الرواية صاحب أمانة واخلاص كبيرين فرغم شدة فقره وتضور أهله بالجوع لم تمتد يداه الى أموال الثورة التي كانت تعد بالملايين فلم ينقص منهـا دينارا واحدا مفضلا الجوع والعري على السرقة والاختلاس ، كما كان يفعل البعض واستمر في النضال والجهاد محافظا على المكاسب الثوريةحتى نالت الجزائـر حريتها واستقلالها حينئذ وجد (حمو) نفسه في وضعية مزرية أسـوأ مما كانت عليه قبل الثورة فتبخرت كل أحلامه وتلاشت كل أمانيه وأصبح يعيش عالة على المجتمع والحياة .

شخصيـة بمطـوش :

اذا تصفحنا حياة بمطوش نجدها سجلا حافلا بالخيانة والعمالة ، فبعد أن كان راعيا للمجول يرسف في أغلال الذل والمهانة . باع نفسـه للاستعمار كمرتزق . ثم انقلب حربا على الثورة فخانها وكشف أسرارهـا

---

1 ـ الدكتور يوسف الصميلي ـ رواية اللاز ـ مجلة الفكر العربي عدد 26 مارس 1982

2 ـ الدكتور عبد الرزاق عيد ـ دراسات نقدية في الرواية . ص : 135 .

للعدو ،ولم يتورع عن ارتكاب أية جريمة سعيا وراء مآربه الدنيئة فقتل (مريم) أم اللاز كما قتل (حيزية) خالته بعدما مثل بها أبشع تمثيل وارتكب معها جريمة فظيعة . كما ارتكب جرائم أخرى ضد سكان القرية حيث أعدم عشرة من أعيانها فداء (للسار جان ستيفان) بأمر الضابط الفرنسي وكان (بعطوش) أشد وحشية وهمجية من الاستعمار وكان فرنسيا أكثر من الفرنسيين أنفسهم ،لذلك يقول عنه الضابط الفرنسي . (القذر ، لو كان واعيا للبث مع اخوانه الانتهازي القذر ،لا يدرك تماما أنه ليس فرنسيا ،ومع ذلك يأتي أعمالا لا يأتيها الا فرنسي مخلص ،الخائن القذر.) (1)

(و بعطوش هذا لا يمكن أن يصمد طويلا في ظل هذا الجو الضاغط لسببين : أحدهما مادي والآخر نفسي . فأما السبب المادي ،فهو شعوره بالخوف على مصيره ،وأن الثورة له بالمرصاد ،وأنه سيحين الوقت الذي لن يبقى فيه للألقاب قيمة ،أن حسه الانتهازي يخدشه عن نهاية دوره لدى الفرنسيين ،وعن قدرة الثورة على الوصول اليه مهما كانت قوة الحراسة حوله ،وأما السبب النفسي فهو تلك الكوابيس المرهقة التي سكنت أعماقه بعد فعلته الشنعاء مع خالته ،حيث أصبح أسير الهوس للذة الجسدية التي شعر بها من جهة وأسير ضميره - ان كان له ضمير - من جهة أخرى.) (2)

ونظرا لخيانة (بعطوش) قررت الثورة اعدامه جزاء خيانته وتحينت الفرص للقضاء عليه . لكنه نجا من الموت !! وفي نهاية الرواية وبعد الاستقلال مباشرة ،تسمح الظروف ل (بعطوش أن يصبح من كبار المسؤولين يحتل أعلى المناصب في أجهزة الدولة ،ومن خلال شخصية (بعطوش) يرمز (الطاهر وطار) الى أن بعض الخونة كالحركة والقياد والحراس ونواب المجالس البرلمانية

---

1 - اللاز . ص : 130 .

2 - الدكتور يوسف الصميلي ،رواية اللاز مجلة الفكر العربي عدد 26 مارس 1982

وشيوخ البلديات المتعاونيين مع الاستعمار الذين كانوا ضد الثورة وسجلهم حافل بالخيانة والعمالة والغدر ،قد تسلموا أرقى المناصب وصارت بأيديهم مقاليد أمور البلاد .

وأما (قدور بن الشيخ الربيعي) فهو شاب يمارس التجارة في دكانه بالقرية وكانت له طموحات وأماني يريد تحقيقها من بين هذه الأماني أن تكثر تجارته ويتوسع دكانه وأن يشتري بعد ذلك شاحنة وجرارا كبيرا ويتزوج بعد ذلك (زينة بنت الشيخ السبتي) . وعندما اندلعت الثورة تغيرت نظرته الى الحياة تماما . وثار على طبقة التجار وانضم الى صفوف جيش التحرير حيث استشهد في احدى المعارك ضد قوات الاحتلال الفرنسي . فهو من هذه الناحية بطلا طموحا يسعى دائما الى تغيير أوضاعه من حسن الى أحسن حتى سقط في ميدان الشرف وفاز بالشهادة وشرف الجهاد . وقريب من شخصية (قدور) شخصية (الكابران رمضان) الذي تمرد هو الآخر على الجيش الفرنسي والتحق بالمجاهدين في الجبال . ومن الشخصيات الثائرة الأخرى نجد شخصية (سي الناصر) الفنان السفاح الذي قتل سبع أنفس في ليلة واحدة بيد واحدة لقد كان تاجرا متجولا في الأسواق ينتقل من مكان الى آخر عبر السكك الحديدية . وحين انضم الى صفوف الثورة رقي الى رتبة قائد وحدة عسكرية .

وهناك شخصيات أخرى ثورية لعبت أدوارا هامشية في الرواية ،كشخصية (سي الفرحي) ،وشخصية (آحمزي) صاحب الاسطبل الذي كان يهرب المجندين الجزائريين من الثكنة الى الجبل بواسطة بغلته .

الشخصيـــات النسائيـــة في الروايـــــة :

ان الشخصيات النسائية في رواية "اللاز" شخصيات نمطية مسطحـــة ليست لها أعماق ولا أبعاد على الصعيد الروائي . وكان دورها ضئيلا باهتـا جاء مقحما في معرض الأحداث ،ولم نجد أية امرأة من نساء الروايـــــة يمكن أن يطلق عليها صفة الشخصية الايجابية ،فهن ضعيفات مستسلمات عاجزات عن أي عمل يقمن به . ولم نعثر على امرأة واحدة في الروايـــــة شاركت في العمل الثوري أو ناضلت ضمن صفوف الثورة ،فضلا عن أن تقاتـل أو تستشهد في ميادين القتال .

ف (مريم) و (حيزية) و (زينة) وبنات البورجوازي صاحب الحمام كلهـــن شخصيات هامشية لا تؤثر في الأحداث ولا تتأثر بها . أما (سوزان) فهـي الأخرى لا تقل سطحية عن بقية الشخصيات النسائية الأخرى وقد استعان بها المؤلف لتقوم بدور المساعد ،لـ (زيدان) في ترقية فكره ووجدانه لكنهـا سرعان ما اختفت عن مسرح الأحداث ولم نعرف عنها شيئا حين أســـدل المؤلف الستار على مصيرها الغامض .

وسبب عدم اهتمام المؤلف بالمرأة في هذه الرواية يرجع الى عـدة احتمالات :

- اما أن المؤلف يرجع عدم مشاركة المرأة في الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية الى الحصار المضروب عليها من طرف سلطة المجتمع المنغلق المتحجر وقتئذ .

- واما أنه اعتبرها مسجونة داخل أربعة جدران ليس لها دور يذكـــر في الحياة سوى الشغل والانجاب حيث لم تتح لها فرصة المشاركة الفعالـــة

في النضال الثوري أثناء ثورة التحرير الكبرى .

- واما أن المؤلف أخر الكلام عن المرأة في هذه الرواية ولم يدعها تشارك في الثورة ليتحدث عنها في الجزء الثاني من رواية - المشق والموت في الزمن الحراشي لتدخل المرأة من الباب الواسع في جميع ميادين الحياة المختلفة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية . ولعل الاديبة (زهور ونيسي) في روايتها " من يوميات مدرسة حرة " هي التي سلطت الأضواء الساطعة على الشخصيات النسائية وأبرزت دورهن في النضال الثوري والكفاح المسلح ضد الاحتلال الأجنبي ،وأكملت الجانب الذي قصر فيه (الطاهر وطار) في حق المرأة حيث حرمها من نعمة الجهاد ضد الاحتلال كما حرمها من مشاركة النضال الثوري والسقوط في ميدان الشرف والفوز بالشهادة .

مصائر شخصيات الرواية :

وحين ننتهي من قراءة الرواية نتعرف على مصير الأبطال الذين كانت نهايتهم مأساوية ومؤلمة الى حد كبير . فالمؤلف قد قسا عليهم قسوة كبيرة ولم ينج من قبضته سوى (حمو) و (بعطوش) ،فلم يصبهما أي أذى منه . أما باقي الشخصيات فقد حل بهم الويل وعمهم البلاء . ف (زيدان) المفكر الثوري يذبح بحد السكين ضحية تمسكه بالمبدأ . و (اللاز) يصاببالجنون حين يشاهد أباه يذبح أمام عينيه ،و (قدور) يستشهد في أحدى المعارك التي خاضها ضمن جيش التحرير ضد قوات الاحتلال الفرنسي . أما (مريم) و (حيزية) فيقتلهما (بعطوش) رميا بالرصاص . كما ألحق بهما الضابط الفرنسي فيما بعد . و (زينة بنت الشايب السبتي) ترمي نفسها في البئر انتحارا عندما حبلت من الحركي خشية الفضيحة والعار .

ويبدو أن (الطاهر وطار) سار على الدرب الذي سلكه (نجيب محفوظ)

الذي كان يدمر شخصيات روايته تدميرا كاملا بين السقوط والانهيار حينا وبين الفشل والانتحار أحيانا أخرى . ونفس الشيء فعله (الطيب صالح) الذى أهلك أبطاله بالسلاح والغرق في البحر . وقضية قسوة المؤلف على أبطاله نجدها في الآداب الأجنبية البرجوازية المتشائمة بصفة عامة وفي الأدب الفرنسي خاصة . كأبطال فلوبير وبلزاك وزولا وموورياك وغيرهم من الروائيين العالمين الذين تشيع فيهم هذه النظرة السوداوية القاتمة .

المعمـــار الفني للروايـــة :

ابتعد (الطاهر وطار) في رواية اللاز عن الشكل التقليدي الذي يتبع نظام الفصول والأبواب والاقسام والحدث الذي ينمو ويتطور الى عقدة تساعدها حبكات ثانوية أو فرعية ثم تحل هذه العقدة وتنفرج هذه الأزمة وتكون النهاية . الا أن الكاتب لم يتخلص من وسائل تقليدية أخرى كالسرد والوصف والحوار فحشرها في الرواية ومزجها بأحدث التقنيات الفنية كتيار الشعور الفلاش باك والأسطورة والرمز والحلم والتراث الشعبي والتقطيع السينمائي والتلفزيوني (ولكي تتمكن الرواية الحديثة من التعبير عن مضمونها الجديد الخاص بالنفس البشرية استعارت من التصوير قدرته على أن يوقف أو يجمد سيولة الزمن ويعطينا صورا تظهر فيها الألوان . والظلال بوضوح ،وهو ما يعرف بتكنيك المدرسة الانطباعية في الرسم ،وكذلك أستفادت من السينما قدرتها على التحكم في تيار الوعي عند الشخصيات باستخدام المونتاج ،واللقطة المزدوجة والعرض البطيء أو السريع وذوبان المنظر ،والقطع واللقطات القريبة البانورامية والرجوع الى الوراء في الزمان .) (1)

---

1 _ فاطمة الزهراء محمد سعيد _ الرزمية في أدب نجيب محفوظ . ص:129.

وقد استفاد (الطاهر وطار) من جميع الفنون الآنفة الذكر وخاصة الفن السينمائي الذي طبقه في رواية " اللاز " ،فكانت عبارة عن شريط سينمائي تتشابك فيه الأحداث ، وتتقاطع فيه اللقطات وتمتزج فيه الأزمنة والأمكنة ، وتتراءى فيه الظلال والألوان .

فخرجت الرواية في ثوب قشيب ،تسر النفوس والقلوب معا .

وتتجلى الثنائية في الرواية بشكل بارز . فمنذ بداية الرواية يضعنا المؤلف مباشرة في دائرة الثنائية التي بنى عليها روايته ،والتي تعج بالمتناقضات المختلفة والمفارقات الصارخة . فتجمع بين الشيء وضده ،الجهل والعلم ، فاذ كان (حمو) و (اللاز) أميين يجهلان القراءة والكتابة وليس لهما نصيب من العلم والمعرفة ،فان (زيدان) يتمتع بدرجة عالية من الفكر والثقافة ومن الأضداد أيضا ذلك الصراع الدائر بين الاستعمار والمجاهدين وهناك ثنائيات أخرى تدور في فلك الرواية ،فالرجعية ضد التقدمية ،والاشتراكية عدوة للبورجوازية وأيضا ثنائية الحرب والسلم وثنائية الهزيمة والنصر ، والشر والخير ،والموت والحياة ، والكذب والصدق ،والانتهازية والاخلاص ،والعنف والقساوة ،واللين والرفق ... الخ .

والملاحظ لهذه الثنائيات يرى أن كلا منها يؤدي وظيفة خاصة وغاية محددة وبالتالي تخدم الهدف العام للرواية شكلا ومضمونا . ونستنتج من ذلك أن المؤلف حين تعمد ذكر هذه التناقضات ،فانما يشير بها الى التناقضات المختلفة والمتباينة داخل المجتمع والى الصراعات الاجتماعية والفكرية فيه ويزيد من ادراك القارئ بحقيقة القيم المختلفة وسط المجتمع ذاته .

والكاتب عندما يتناول رسم أبطاله فانه يغوص في أعماقهم ليعبر عن

أحاسيسهم ومشاعرهم وما يتغلغل في نفوسهم من آلام وآمال وأحلام صور ذلك تصويرا رائعا بمهارة واقتدار ! وهكذا فقد أمسك (الطاهر وطار) الكاميرا وقدم لنا صورا حية ذات أبعاد وأعماق وزوايا مختلفة ،تنبض حركة ونشاطا عن طريق لقطات سينمائية متقطعة وجميلة في هذه الرواية الرائعة .

أما عن الحوار فقد تركزت رواية اللاز على عنصر هام من عناصر المعمار الفني وهو الحوار الذي شغل حيزا كبيرا في الرواية ،الى جانب السرد والوصف . فقد كان الحوار يطول مرة ويقصر أخرى ،حسب الظروف والمناسبات ومن خلال الحوار تتطور الشخصية وتنمو نموا ايجابيا بل نراها تنتقل من النقيض الى النقيض . فشخصية (اللاز) مثلا كانت شخصية شريرة . ولما أراد المؤلف أن يغيرها ويطورها من شخصية شريرة الى شخصية مناضلة استعمل الحوار أداة لهذا التغيير الطارئ على أحداث الرواية .

ومن خلال المناقشات التي بثها (الطاهر وطار) في روايته عبر عن شخصياته المتناقضة نفسيا واجتماعيا وفكريا قد استخدم هذا الأسلوب الفني كوسيلة للتعبير عن أدق مشاعر وأحاسيس شخوصه فعل ذلك تخفيفا من رتابة السرد من جهة وليساعده على رسم الشخصية ودفع الأحداث الى الأمام من جهة ثانية وليبعد السأم والملل عن القارئ من جهة ثالثة .

الا أن (الطاهر وطار) كان في بعض الأحيان يستخدم حوارا أعلى من مستوى شخصيات الرواية حتى ليخيل الى القارئ أن هذه الشخصيات لها نصيب كبير من الوعي والثقافة بل يتخيل القارئ أن هذه الشخصيات لها المام كبير في جدلية ماركس حول الاقتصاد السياسي والايديولوجية الشيوعية خذ مثلا الحوار الذي أداره الكاتب بين (حمو) و (قدور) وهما شخصيتان

أميتان يقول الكاتب في حوار لهما : (نحن لا شيء يربطنا بالماضي ، وأنتم لا شيء يدفعكم الى المستقبل ولم يبق بيننا الا رابط واحد ، هو الحاضر هذا الحاضر الذي أتعاون وزيدان أخي وكل الفقراء على صنعه ، والذي تريدون أن تبقوا متفرجين عليه . بعضكم يتفرج والبعض الآخر يعمل على عرقلته وهدمه .) (1)

وهذا الحوار لا يدل على أن (حمو) كان ذكيا وواعيا بقضايا الحياة والمجتمع فقط بل يدل على أنه كان على درجة عالية ومعرفة واسعة بالاقتصاد السياسي وجدلية ماركس وانجلز حول الصراع المنيف الدائر بين البورجوازية والاشتراكية ! وقد أخذ أحد النقاد على (الطاهر وطار) في أنه أبرز شخصيته بشكل صارخ في ادارة هذا الحوار فيقول :-

(وشخصية الكاتب سافرة جدا عندما يكون الحوار حول التناقضات الطبقية ، حيث يكشف عن وعيه الطبقي ، وانحيازه الحاد للطبقات المطحونة . الثورة في نظره ثورة طبقية لتحقيق الاشتراكية بين فقراء الجزائر ، أمثال اللاز وحمو وقدور وسي الفرنسي وبين أغنياء الجزائر البورجوازية الفرنسية الغازية المستعمرة .) (2)

واعتمد (الطاهر وطار) على الفلاش باك والعودة الى الماضي واسترجاع الذكريات لينير ماضي وخلفيات الشخصيات ويلقي مزيدا من الأضواء على حياة أبطاله . فيزيدنا تعرفا ووضوحا على بداية حياة البطل منذ نشأته ، فنرى البطل يرسم تاريخ حياته عبر هذا النمط الفني الحديث . فرارا من السرد المباشر التقليدي الذي يبعث السأم والملل في نفس القارئ والرواية

---

1 - اللاز . ص : 50 .

2 - الدكتور سيد حامد النساج ، الطاهر وطار ، والرواية الجزائرية ، مجلة فصول العدد الثاني 1982 . ص : 258 .

زاخرة بتداعيات الماضي والرجوع الى الوراء .

تيــار الشعـــــــور :

من الملاحظ أن (الطاهر وطار) اعتمد على تيار الشعور في روايته هذه وجعل الشخصيات تخاطب نفسها كثيرا ،تعبيرا عما يدور في أعماقها من عواطف وخلجات النفس وشتى انفعالاتها سواء في حالة المســـرات والأفراح أو في حالة الهموم والاتراح على حد سواء . وحين يريد المؤلف استخدام هذا المونولوج الداخلي ،يبدأ كلامه بهذه الكلمات أطرق - فكـــر خطر له - قال في سره ،وخاطب ذاته - الى غير ذلك من الألفاظ المعروفة التي تدل دلالية واضحة على كثرة استعماله للمونولوج الداخلي وتيار الشعور أحيانا بين معظم أبطاله عن طريق تيار شعورهم الفياض ،وتدفق خواطرهم الجياشة تبعا لحالات نفسية وظروف معينة كانت تعتري هذه الشخصيـــات من حين لآخر ومن لحظة الى أخرى .

ولعل أبرز شخصية في الرواية قد أخذت النصيب الأوفر هي شخصية (زيدان) المفكر الثوري ،فقد استخدمت هذه الشخصية تيار الشعور علــى نطاق واسع وأخذت حيزا كبيرا من الرواية .

ولكي تكون روايته أكثر فنية وأكثر تشويقا وأكثر متعة وأغنى فكرا استخدم (الطاهر وطار) سيكولوجية الأحلام فقد جعل بعض أبطاله يحلمون بأشياء يريدون تحقيقها أو الوصول اليها ويعيشون لحظات سعيدة عبرالأحـــــلام أحلام اليقظة . ووظف من جهة أخرى أحلام النوم والكوابيس المزعجـــــة حيث يطلق البطل صيحات مدوية فزعا مهموما من تأثير تلك الكوابيـــــس المرعبة وهو بين ذهول وسبات .

والزوايا تحدهما منذ النشأة الاولى عندما كان مراهقا متمردا على العادات والتقاليد الاجتماعية التي يتمسك بها المجتمع فنلاحظ أنه ثار عليها ثورة عارمة . في حين ترمز شخصية (اللاز) في شبابه الى ذلك الشباب الصاخب الذي كان يريد أن يحطم كل القيم والمثل بل يحطم كل ما يقف في وجهه أو يعترض سبيله في أية صورة أو شكل من الاشكال أو أية سلطة سواء كانت هذه السلطة سلطة دينية أو اجتماعية أو سياسية . ويرمز من جهة أخرى الى ذلك الشباب الضائع في دروب الحياة المختلفة . شباب سدت في وجوهه جميع الطرق والمسالك فحرم من نعمة العلم ونور المعرفة ومباهج الحياة وبقي حائرا قلقا مضطربا فلم يجد بدا من الانغماس في حمأة الرذيلة والسقوط في البؤر الموبوءة . فاتجه هذا الشباب الى السرقة وشرب الخمر ولعب القمار وتدخين الحشيش واستعمال العنف بشكل رهيب وما (اللاز) الا صورة مصغرة لالاف الشباب الجزائري الذي كان مشردا ضائعا قبل اشتعال الثورة التحريرية الخالدة .

وشخصية (اللاز) غنية بالرموز المتعددة فتارة (تشبه البحر وتارة أخرى يشبه بذور الحياة وطورا يرمز الى الشعب برمته وآونة يرمز الى الشعب المطلق بكل المفاهيم) (1)

الاسلـــــــوب :

وأهتم (الطاهر وطار) في رواية اللاز بالاسلوب اهتماما كبيرا وسخر له جميع الوسائل الفنية الممكنة ما استطاع الى ذلك سبيلا . ولهذا نجده يمزج الرمز بالواقع والحقيقة بالخيال ويزاوج في أسلوبه بين المضمون الثوري

1- اللاز . ص : 164 .

والزوايا تجدها منذ النشأة الأولى عندما كان مراهقا متمردا على العادات والتقاليد الاجتماعية التي يتمسك بها المجتمع فنلاحظ أنه ثار عليها ثورة عارمة . في حين ترمز شخصية (اللاز) في شبابه الى ذلك الشباب الصاخب الذي كان يريد أن يحطم كل القيم والمثل بل يحطم كل ما يقف في وجهه أو يعترض سبيله في أية صورة أو شكل من الاشكال أو أية سلطة سواء كانت هذه السلطة سلطة دينية أو اجتماعية أو سياسية . ويرمز من جهة أخرى الى ذلك الشباب الضائع في دروب الحياة المختلفة . شباب سدت في وجوهه جميع الطرق والمسالك فحرم من نعمة العلم ونور المعرفة ومباهج الحياة وبقي حائرا قلقا مضطربا فلم يجد بدا من الانغماس في حمأة الرذيلة والسقوط في البؤر الموبوءة . فاتجه هذا الشباب الى السرقة وشرب الخمر ولعب القمار وتدخين الحشيش واستعمال العنف بشكل رهيب وما (اللاز) الا صورة مصغرة لالاف الشباب الجزائري الذي كان مشردا ضائعا قبل اشتعال الثورة التحريرية الخالدة .

وشخصية (اللاز) غنية بالرموز المتعددة فتارة (تشبه البحر وتارة أخرى يشبه بذور الحياة وطورا يرمز الى الشعب برمته وآونة يرمز الى الشعب المطلق بكل المفاهيم) (1)

الاسلـــــــوب :

وأهتم (الطاهر وطار) في رواية اللاز بالاسلوب اهتماما كبيرا وسخر له جميع الوسائل الفنية الممكنة ما استطاع الى ذلك سبيلا . ولهذا نجده يمزج الرمز بالواقع والحقيقة بالخيال ويزاوج في أسلوبه بين المضمون الثوري

1- اللاز . ص : 164 .

والشكل المعاصر ،وحرصا من المؤلف في أن يزيد روايته رونقا وجمالا اختار الأسلوب الذي يتسم بالبساطة والوضوح من جهة والعمق الفكري والشعوري من جهة أخرى . يضاف الى هذا كله فان للمؤلف قدرة فائقة في دقة التصوير وبراعة التعبير وروعة التحليل ،يتجلى ذلك في هذه الرواية بدقة متناهية .

والمتمعن في أسلوب المؤلف يجده لا يسير على وتيرة واحدة وانما هو يرتكز على مستويات مختلفة ودرجات متعددة حتى لا يسأم القارئ من رتابة السرد .

والمؤلف يمزج بين الجد والهزل فمرة يكون أسلوبه ثائرا عنيفا عنف الثورة ومرة يكون هادئا رزينا يتصف ببعد الرؤية وعمق النظرة وقد يقصد التهكم والسخرية التي تصل أحيانا درجة الاهانة والتحقير ،نرى ذلك بوضوح حينما وصم المؤلف كلا من الضابط والشامبيط وبطوش بأقذع الأوصاف وأبشعها فالأول مأفون والثاني خائن ذليل والثالث انتهازي وصولي لئيم . وبهذا الأسلوب الجميل حبب الينا بعض الشخصيات وجعلنا نعتز بها ، وفي نفس الوقت فرض علينا الشفقة والتعاطف على بعض الشخصيات بينما كره الينا شخصيات أخرى وجعلنا ننفر منها ونحتقرها .

وفوق هذا كله . فأسلوب الكاتب يحمل قيمة جمالية ومتعة فكرية تجذب النفس وتملؤها رغبة وتزيدها نشاطا . وتجعل القارئ يتابع أحداث الرواية بشغف ليعرف ماذا يحدث بعد ذلك !

اللغـــــة .

لم يلجأ (الطاهر وطار) الى الجمل المعقدة ولا العبارات الملتوية وانما اعتنى باللغة عناية كبيرة ،فكانت كلماته سهلة بسيطة وعباراته

مشرقة جذابة تزيد الصورة وضوحا والشكل جمالا فتنقل المشاعر والأحاسيس باتقان دون تكلف أو افتعال . فكانت لغته تتغلغل الى قلب القارئ في سهولة ويسر . وقد حاول المؤلف أن يضفي جوا شاعريا على الرواية . فكانت لغة السرد عذبة صافية ،وتراكيب جمله مركزة وكلماته قصيرة موحية سواء في الوصف أو الحوار . مما أضفى على الرواية مذاقا خاصا ونكهة فريدة .

فاللغة اذن تمتاز بسلامة اللفظ وعذوبة المعنى . وبهذا يمكننا أن نقول في ثقة واطمئنان بأن رواية اللاز عمل متكامل موقفا وموضوعا وأسلوبا في تداخل وتفاعل مستمر قلما نجد لها مثيلا في باقي الروايات الجزائرية وهي في رأينا من أكثر الروايات الجزائرية نضجا وتكاملا في هذا المضمار . وأخيرا فهي رواية جيدة لا يمكن أن تنسى بسهولة وستبقى خالدة شامخة على مر القرون والأجيال .

أما الدكتور (جودت الركابي) فلا يخفى اعجابه برواية (اللاز) وما تركته من أثر عميق في نفسه فقال في دراسة قيمة له :

(تمتاز قصة اللاز بكل عناصر الكتابة الثورية والفن القصي الاصيل الممتع ،قصة رائعة ،قوية الحبكة والاداء ،سهلة العبارة ، بارعة في التصوير الواقعي والتعبير الايحائي ،تمجد النضال كما تمجد الحفاظ على المبدأ وترسم لنا وجها عنيفا صادقا من وجوه الثورة الجزائرية الخالدة ،وتبقى هذه القصة نموذجا عاليا للأدب الجزائري الحديث وللواقعية الاشتراكية .)(1)

ويعتقد بعض النقاد في أن شهرة (الطاهر وطار) في عالم الرواية

---

1 - د . جودت الركابي (قصة اللاز دراسة تحليلية) مجلة الثقافة عدد 33 .ص: 93 .

ترجع بالدرجة الأولى الى رواية (اللاز) . فمنذ أن رأت هذه الرواية النـــور تألق نجم صاحبها في سماء الفن الروائي وسلطت عليه الأضـــواء الساطعة في أنحاء العالم العربي وبعض الدول الأوربية الأخرى . ولذلك (فان (الطاهر وطار) بعيد نشره (اللاز) جعل كل الانظار تتجه اليه ،كما سبق أن اتجهت الى (عبد الرحمن الشرقاوي) بمجرد صدور روايته (الارض) كل منهمـــا كانت علامة على طريق . حملت رؤية جديدة . وحركت واقعا آسنـــا واستهدفت شيئا أبعد ما يكون عن التسلية والترفيه ،بعد وجبات دسمة . كل منهما تصدر عن معايشة ومعاناة فعلية حقيقة لا متخيلة . كل منهمـــا تشع بما للغة العربية من دلالات واشعاعات قوية نافذة ،رغم بساطتهـــا وسهولتها .) (1)

1 - د . سيد حامد النساج (بانوراما الرواية العربية الحديثة) .ص: 224 - 225 .

من يوميات مدرسة حرة

زهور ونيسي

(زهور ونيسي) من مواليد 1936 بقسنطينة . ناضلت في صفوف جبهة التحرير الوطني منذ 1956 . تابعت الدراسة الجامعية وتحصلت على شهادة ليسانس في الأدب العربي . بعد ذلك انخرطت في عدة اتحادات وطنية ، ثم انتخبت في المجلس الشعبي الوطني ، وعينت بعد ذلك وزيرة الحماية الاجتماعية ، ثم عينت مؤخرا وزيرة للتربية الوطنية .

مؤلفاتها القصصية :

1 - الرصيف النائم . مجموعة قصص قصيرة ، نشرت سنة 1967 .
2 - على الشاطئ الآخر مجموعة قصص قصيرة ، نشرت سنة 1974 .
3 - الظلال الممتدة مجموعة قصص قصيرة ، نشرت سنة 1985 .
4 - من يوميات مدرسة حرة رواية ، نشرت سنة 1979 .

وهذه الرواية هي موضوع دراستنا ولنبدأ بمضمونها المتمثل فيمايلي : حيث

ركزت رواية " من يوميات حرة " على النضال الثوري والكفاح المسلح منذ بداية الثورة التحريرية وتوقف الحدث الروائي في سنة 1960 وهذه الفترة هي الاطار الزمني الذي دارت فيه أحداث الرواية من أولها الى آخرها وأبطال الرواية جميعا رجالا ونساء وشبابا كلهم شاركوا في النضال الثوري والمقاومة العنيفة ضد الاستعمار وأذنابه .

وقد صورت الرواية العنف الثوري في أجلى صوره وشتى أشكاله ضد

الاحتلال الأجنبي ،وأبرزت الرواية صورا حية معبرة عن البطولة في حي شعبي فقير جاهل هو حي "صلامبي" وهو عبارة عن مزيج وأخلاط من البشر جاءت من كافة أنحاء الوطن . وهذا الحي نموذج ورمز للكفاح الثوري المسلح ، والمقاومة الشعبية .

ملخص الرواية :

بعدما تحدثنا عن مضمون الرواية يمكننا الآن تلخيصها فيمايلي :-

تدور أحداث رواية " من يوميات مدرسة حرة " للأديبة (زهور ونيسي) في حي شعبي من أحياء العاصمة يدعى حي "صلامبي" وهو المدنية حاليا كما ذكرنا في عهد ثورة نوفمبر الخالدة . وتتركز جميع الأحداث في مدرسة من المدارس الحرة بالجزائر العاصمة .

وتعمل بهذه المدرسة معلمة شابة تتفجر حيوية ونشاطا . وكانت مثلا نموذجيا للحي الذي تعمل فيه ،وصرامة . ولم تلبث هذه المعلمة أن انخرطت في العمل الثوري بل انغمست فيه الى الأذقان . وكانت لها اتصالات كثيفة مع المجاهدين وتنقلات واسعة مع الفدائيين لتلك المنطقة . على أن دور المعلمة كان لا ينحصر في دائرة تلقين الأطفال مبادئ القراءة والكتابة وتحفيظ سور من القرآن الكريم فحسب . وانما كان يتجاوزه الى تعلم اللغة العربية والتاريخ العربي الاسلامي والأناشيد الثورية الحماسية . وأصبحت هذه المدرسة الحرة بعد مدة وجيزة ملجأ للثوار ومخبأ للأسلحة والذخيرة التي كان يعتمد عليها الفدائيون من حين لآخر أثناء شن الهجومات المتكررة ضد صفوف قوات الاستعمار العسكرية وأذنابه من خونة وعملاء .

كما أن الرواية تشير بوضوح الى ذلك الاضراب الذي قررته جبهة التحرير عام 1957 أولا ثم الاضراب العام الثاني في 11 ديسمبر 1960.

وفي هذا الاضراب جن جنون الاستعمار فراح يحصد نفوس الشعب الجزائري حصدا فأستشهد آلاف من أفراد الشعب الجزائري في هذا اليوم الاغر. وقد نجح الاضراب العام الذي شنه الشعب بمختلف طبقاته ضد قوى البطش والطغيان معبرا في ذلك عن غضبه وسخطه للاحتلال الأجنبي مطالبا في نفس الوقت بالحرية والاستقلال التام مهما كلفه ذلك من كفاح مرير وتضحيات جسام!.

شخصيات الرواية :

شخصية المعلمة .

ان الكاتب أعطت عناية فائقة لشخصية المعلمة وأولتها اهتماما كبيرا حيث أسندت اليها الدور الرئيسي في الرواية ،فغدت المعلمة محور الأحداث التي تدور حولها الرواية من البداية الى النهاية . وكانت المعلمة تتمتع بحضور كامل في الرواية مؤثرة في الأحداث ومتأثرة بها الى أبعد الحدود .

واذا حاولنا أن نتتبع مراحل هذه الشخصية نجدها منذ النشأة الأولى من حياتها بطلة ثورية قد هيأتها المؤلفة لتكون بطلة ايجابية ووفرت لها جميع الامكانيات لتتيح لها الفرصة وتضمن لها الايجابية في المواقف والأحداث والأفكار. فكانت البطلة تنشد الأشعار الثورية وهي في السنة السابعة من عمرها ،في بعض المساجد احتفاء بمناسبة وطنية ،ولم يمنعها صغرها أن تساق الى مخفر الشرطة الاستعمارية

وتوضع في قائمة المغضوب عليهم .

وحين طلب منها المفتش أن تباشر مهنة التعليم قبلت ذلك بطيب خاطر ولم تحاول الرفض أو التهرب من المهمة التي كلفت بها ذلك أنها لم تجرؤ أن تقول لا :

(أبد قوة بداخلي تدفعني لعدم الرفض .. قوة بداخلي تشعرني أن ما سأقوم به هو الواجب ... والواجب الذي لا هروب منه ..) (1)

وكانت المعلمة متفائلة سعيدة بعملها متفانية فيه الى ما لا نهاية ، باعتبارها مربية لبراعم متفتحة تنير لهم الطريق وتفتح لهم أبواب المستقبل الزاهر ، رغم كثافة ظلام الجهل الذي كان يلف البلاد من أقصاها الى أقصاها ابان تلك الفترة المظلمة التي كان يجثم فيها الاستعمار على صدر الوطن وحرصت المعلمة كثيرا على أن تعمل بنصائح المفتش وسهرت على تنفيذها من أعماق قلبها نصا وروحا خدمة للمصلحة العامة باعتبار أن مصلحة الوطن فوق كل اعتبار . وكان المفتش يلح على جميع المعلمين والمعلمات في المدارس الحرة بأن يجندوا أنفسهم ويواصلوا العمل المستمر الدؤوب وأن يكونوا صفا واحدا ليحبطوا مخططات الاستعمار وأجهزته التخريبية التي حاولت بشتى الوسائل ومختلف الأساليب القضاء على مقومات الشخصية الجزائرية ،ومن ضمنها طمس اللغة العربية . وكان المفتش - كغيره من المربين المصلحين - يحرص كل الحرص على أن تنفذ وتطبق كل التوجيهات والاشادات التي تقدم الى المعلمين والمعلمات وأن يسخروا جميع الامكانيات المتاحة لديهم من توعية كاملة وتعبئة عامة وتجنيد شامل ،ويقظة شديدة لصد الهجمة الشرسة التي يشنها الاستعمار على اللغة العربية وآدابها .

---

1 - من يوميات مدرسة حرة ، ص : 25 .

مستخدما في ذلك أبشع الوسائل من مسخ وتشويه وطمس للثقافة الوطنية.

وفعلا تصدى له المكافحون الثوريون بكل عزم واصرار معتمدين في ذلك على روح الاستمرارية والقوة لتحقيق طموحات الشعب الجزائري وتطلعاته التي لا تعرف الحدود باعتبار أن : (الظروف تحتم علينا أن لا نبخل بما تعلمناه ومن يعرف سورة أو آية أو أي كلمة يجب أن لا يبخل بتعليمها للآخرين أمام تحديات الاستعمار في عملياته لطمس معالم الجزائر العربية المسلمة .) (1)

ومنذ الأشهر الاولى من ثورة نوفمبر الخالدة حرصت المؤلفة أن تجعل من بطلتها المعلمة شخصية ثورية تنصهر في بوتقة الثورة وتدخل بهيبها المستمر فتناضل بكل ما أوتيت من قوة لأجل نصرة اخوانها المجاهدين الذين يحاربون الاستعمار وأذنابه في كل شبر من أجزاء القطر الجزائري.

وعلى ضوء ذلك تصور المؤلفة في رواية " من يوميات مدرسة حرة " بدء العمل والمشاركة بفعالية كبيرة في النضال الثوري . وما لبثت المعلمة أن تحولت الى مسؤولة لجمع الاشتراكات لصالح الثورة ومن تلك اللحظة الحاسمة امتلأ قلب المعلمة غبطة وسعادة تفوق كل تصور ،اعتقادا منها أن المسؤولية الملقاة على عاتقها سوف تحملها تضحيات جساما . فلابد أن تتحمل الصعاب والمتاعب بصدر رحب وعزيمة قوية لا تفتر. ورغم أن مسؤول جمع الأشتراكات سوف يكون معرضا للخطر والموت المحقق بين لحظة وأخرى . فان المعلمة سارت في الطريق المحفوف بالمخاطر وتحملت ذلك بعزيمة صادقة وايمان قوي يحدوها في ذلك الأمل والتفاؤل بقضية تحرير الوطن الكبرى .

---

1 - من يوميات مدرسة حرة . ص : 64 .

ان ان الكاتبة شخرت جميع امكانياتها لتبرز مواقف المعلمة الثورية ففاصت الى أعماقها الداخلية وجسدت ذلك عبر مواقفها وأفكارها وآرائها تجسيدا قويا .

وقد جعلت الكاتبة من المعلمة بطلة متفانية في أعمالها وثابتة في مواقفها فكرا وسلوكا وخاصة في العمل الثوري الذي جعلها تنفخ روح الثورة والنضال في نفوس زملائها وزميلاتها ،بدون كلل أو ملل . استجابة للواجب المهني والوظيفي معا . وفي هذا المجال تقول الكاتبة على لسان المعلمة (نحن مجموعة من الفتيات ،نعلم فتيات أقل مناسنا . لقد قال أحد المعلمين الكبار ،ممن زاروا المدرسة ـ وهو الشيخ العربي التبسي ،الذي استشهد فيما بعد اننا جيل يعلم نصفه الثاني .) (1)

وهنا يتجلى موقف المعلمة الايجابي الثوري عندما قرر الطلبة الجزائريون الفرار من المدارس الفرنسية وصمموا على الاضراب والالتحاق بالمدارس الحرة . وحينئذ عملت المعلمة المستحيل من أجل أن تستقبل صفوف الطلبة الجزائريين الذين أضربوا عن دراسة اللغة الفرنسية ،تلبية للنداء الذي وجهه لهم مسؤولو جبهة التحرير الوطني . فوفرت لهم المعلمة جميع الامكانيات المادية والمعنوية حتى يتسنى لهم الالتحاق بهذه المدارس الحرة لينهلوا من لغتهم العربية ومعينها الذي لا ينضب . وتحملت المسؤولية كاملة متحدية في ذلك السلطات الاستعمارية غير عابئة بأجهزتها القمعية باعتبار أن المعلمة مسؤولة عن ادارة المدرسة بالنيابة لأن مديرها وقتئذ كان معتقلا . قررت المعلمة أن تستقبل الطلبة بالحاح شديد رغم تحفظ بعض مسؤولي المدرسة الحرة لأنهم كانوا يخافون مغبة غضب وانتقام

---

1 ـ من يوميات مدرسة حرة . ص : 64 .

السلطات الفرنسية في أن تأمر بغلق المدرسة فورا على غرار قراراتها واجراءاتها المتعسفة التي أغلقت بسببها مدارس كثيرة عبر أنحاء الوطن لأن هذه المدارس تشكل خطرا كبيرا ضد الاستعمار . ولأنها تلعب دورا بارزا في توعية وتثقيف الشباب . ولم تقف المعلمة عند ترديد الشعارات والالفاظ الجوفاء انها ترجمت أقوالها الى افعال ايجابية فاقتحمت المدرسة التي أمرت السلطات الفرنسية بغلقها وأدخلت التلميذات بعد أن بحثت عن نافذة مكسورة الزجاج وواصلت مهمة التعليم بكل ثقة واطمئنان

على أن سرور المعلمة لم يلبث طويلا اذ سرعان ما تعكر صفوه وتحول الى ذعر وخوف شديد عند مجيء الضابط الفرنسي الى المدرسة مستفسرا عما جرى للمدرسة من أحداث ،ومستطلعا عن مضمون التعليم في هذه المدرسة الحرة . الا أن المعلمة استعملت حيلة ذكية ،فأمرت التلميذات بأن يخرجن أجزاء من القرآن وصرن يرددن قراءة سورة " والشمس وضحاها والقمر اذا تلاها والنهار اذا جلاها ".

بخشوع واجلال كبيرين . وهكذا انطلت هذه الحيلة على الضابط الفرنسي ،وظن أن المعلمة تعلم القرآن فقط وتحفظه لتلميذاتها على الطريقة التقليدية المعروفة ،حفظا بدون فهم أو وعي . لأن هذا الأمر في حد ذاته لا يشكل خطرا كبيرا في رأي السلطات الاستعمارية .

لم يدر بخلد الضابط أبدا أن المعلمة تعلم اللغة العربية وآدابها وتاريخها العربي الاسلامي لمختلف عصوره . وليس هذا فقط بل انها تعلم تلاميذها الأناشيد الوطنية وتبث فيهم روح التوعية واليقظة والحماس.

ولو فطن الضابط الفرنسي الى الحقيقة وعلم بهذه الأسرار الخطيرة

لا نقلب الأمر ولوقعت المأساة !.

وما كانت المعلمة لتتحدى سلطات الاحتلال الفرنسي وأجهزته القمعية لولا أنها تتمتع بثقة عميقة في نفسها جعلتها تحول المستحيل حقيقة مجسدة على أرض الواقع المعاش . وهذه السمة في البطلة قلما يوجد نظير لها في نساء أخريات كن يعملن في النشاط الثوري والفدائي فالمعلمة اذن تتمتع بشجاعة أدبية كاملة وروح معنوية مرتفعة جدا. وهنا تتبلور شخصيتها وتتضح سماتها ومعالمها الايجابية . فهي تنمو وتتطور باستمرار من حسن الى أحسن سعيا منها الى الاستزادة في النضال الثوري . ولا غرابة في ذلك . فان المعلمة قد سيطرت على معظم أحداث الرواية سيطرة تكاد تكون كاملة . فكانت قلب الرواية النابض ولسانها الناطق المعبر عن الرفض والتمرد والثورة المستمرة ضد وسائل القمع والارهاب .

على أن شخصية المعلمة جاءت مفرقة في المثالية . لأن الثورة وأحداثها استولت على جميع مشاعرها وكيانها ولم تعد تهتم أبدا بالأمور التى تخرج عن نطاق الثورة وممارسة النضال والفداء ،وهذا ما جعلها تعزف عن التفكير في ايجاد أية علاقة حب تقوم بينها وبين أي شاب لتتطور فيما بعد الى زواج ورباط مقدس .لكنها حسب ما يبدو صارمة مع نفسها ،فقد حرمت نفسها من هذه العاطفة الانسانية وهي عاطفة الحب في أسمى معانيها وأنبل صورها . فلم تقم أية علاقة حب مع أي شخص مهما كان مركزه الاجتماعي أو الثوري . على عكس زميلتها (عائشة) التي أحبت من أعماق قلبها جارها (عمار) الذي كان صديقا لأخيها (مصطفى) . ويبدو أن المعلمة ضيقت على نفسها وكلفتها صرامة لا تحتمل . صحيح أن المعلمة وجهت كل اهتمامها وطاقاتها النفسية والجسدية ،ولم تترك متنفسا

لأي غرض من أغراض الحياة يخرج عن نطاق الثورة ونضالاتها باعتبار أن الثورة التحريرية هي الهدف الاساسي والغاية المنشودة في الرواية ولكن الصحيح أيضا أن على الانسان الا يحمل نفسه فوق ما لا تحتمل فلابد أن ينفس عن نفسه ويرفه عنها ترفيها في نطاق المعقولية والمحدود والا انفجر بالكبت والحرمان . ذلك أن الانسان يحب ويكره ،يفرح ويحزن ، يتفاءل ويتشاءم ، يصمد ويجبن ،يفشل وينجح ،وليس صخرة جامدة لا يؤثر فيها شيء ولا تتأثر بشيء ،واذا كانت المعلمة قد حرمت نفسها من عاطفة الحب فاننا نجد المجاهدين أنفسهم عكس ما كانت تتصور المعلمة ،فكانوا يمارسون علاقة الحب مع زوجاتهم وخطيباتهم كسائر البشر وفي الوقت ذاته كانوا يحاربون الاستعمار بلا هوادة .

وهناك ملاحظات لابد من الاشارة اليها وهي :

1 ـ أن الكاتبة ركزت جل اهتمامها على عنصر الشباب فجعلته يقود العمليات الفدائية ضد الاستعمار وأذنابه يخطط وينفذ ويقتل الخونة وغلاة المستوطنين الفرنسيين . وكان الأجدر به أن يعتمد على تخطيط منظم يشرف عليه مسؤولون من جبهة التحرير الوطني لهم خبرة واسعة في العمليات الدائية وتجربة عظيمة في الحرب ليقودوا هذه العمليات بكل حكمة وتبصر ورؤية نافذة .

2 ـ ان الكاتبة حصرت نطاق العمليات الفدائية في حيز ضيق جدا وهو حي شعبي من أحياء العاصمة ،وكنا نود أن نرى المؤلفة توسع دائرة النضال الثوري وتنتقل بأحداث أبطالها الى الجبال ليشاركوا في المعارك الحربية ضد قوات الاستعمار وتصور لنا مادار في تلك المعارك تصويرا حيا بارعا متعمقة أبعاده النفسية والاجتماعية والسياسية على مستوى الطرفين

عبر " الفلاش باك " أو عبر تيار الشعور . وقد أتيحت لها فرصة ذلك ولكنها ضيعتها فقد فسحت المجال لـ (ابراهيم) لينتقل الى الجبال . ولم تشأ أن تجعل منه بطلا يخوض معارك ضارية ضد قوات الاحتلال مع رفاقه من جيش التحرير الوطني . واذا كان (ابراهيم) لا يستطيع القيام بهذه المهنة الكبرى وهي فوق طاقته فكان بامكانها أن تخلق وتبدع شخصية جبارة تكون في مستوى عظمة الثورة .

قد تقول المؤلفة أن عملها هذا قد انصب على عمليات الفداء في المدينة ومشاركة الشباب بقسط وافر في النضال الثوري ولا يهمها ما يدور في الجبال وقد يكون هذا صحيحا ولكن الصحيح أيضا أن تتكلم المؤلفة عن العمليات الحربية لأن الرواية رواية ثورية وأن الثورة لا ينحصر نطاقها في مكان محدود ،لانها ثورة شعبية عميقة شاملة عمت سائر أنحاء الوطن وملأت الأفواه والاسماع في سائر أرجاء العالم وأطلع على أسرارها ومضامينها كل مخلص وطني ومناضل ثوري . بل انها شاعت وذاعت في المحافل الدولية وتناقلت أخبار انتصاراتها وسائل الاعلام العربية والعالمية في أنحاء المعمورة . ولا حرج بعد ذلك في أن تنقل لنا المؤلفة معركة واحدة من المعارك البطولية التي لا تعد ولا تحصى في جبالنا الشماء المنتشرة بكثرة عبر أنحاء الوطن . فتخلد ذلك في عملها الفني ولتكون بعد ذلك فائدة ومتعة للقارئ الجزائري خاصة والقارئ العربي عامة .

3 ـ ان الكاتبة دفعت بالشباب أن يناضل ويحارب الاستعمار ويذبح الخونة ،ثم يقتل بالرصاص أو تقطع رأسه تحت المقصلة مثل (مصطفى) ورفاقه . لكننا لم نرا امرأة واحدة قد دفعت بها الكاتبة لتسقط شهيدة في ميدان الشرف دفاعا عن الوطن رغم نضال نساء كثيرات لعبن أدوارا

بارزة في النضال الثوري على مسرح أحداث الرواية .

على أن النشاط الثوري لم يقتصر على فئة معينة من الشعب الجزائري مثل الفدائين الشباب . وانما اتسعت دوائر النشاطات الكثيرة للنضال الثوري لفئات مختلفة من أبناء الجزائر فكان كل واحد منهم يتحرك في ميدان عمله الثوري المنظم في غاية الدقة والتنسيق يستوي في ذلك الرجل والمرأة على حد سواء ،سعيا وراء تحقيق الأهداف والغايات التي ينشدها الشعب الجزائري كله لأنه : (عندما ينجح العمل الثوري فان كل واحد من الذين قاموا به ، يقتنع بأنه كان له نصيب ،مثل غيره ،في انجاحه)[1].

وظل نشاط المناضلين والفدائيين قويا مستمرا على جميع الجبهات وعلى مختلف الأصعدة ضد الاحتلال الفرنسي في ذلك الحي الذي تدور فيه أحداث الرواية وقد أكدت الكاتبة في روايتها على جانب كبير من الأهمية وهو التفاف الشعب الجزائري بكل فئاته وطبقاته المختلفة حول الثورة التحريرية . فامتزجت الأفكار واتحدت الآراء ،وتفاعلت المشاعر والأحاسيس في نفوس المواطنين المخلصين . فكانوا كتلة واحدة صلبة لا فرق في ذلك بين سكان الريف أو المدينة ،وانصهر الفلاح والعامل والتاجر والسياسي والمثقف والأمي انصهروا جميعا في بوتقة واحدة وهي بوتقة الثورة والنضال السياسي والكفاح المسلح يحدوهم في ذلك هدف مشترك ومصير واحد وغاية محددة . وهي محاربة الاستعمار وطرده من أرض الوطن .

وحين أعلنت جبهة التحرير الوطني الاضراب العام في سنة 1957 وذلك لمدة أسبوع كامل ،تغلق فيه جميع المحلات التجارية وتتوقف فيه جميع النشاطات والاعمال المختلفة في جميع مجالات الحياة اليومية في سائر القطر الجزائري . وتلبية لهذا النداء شلت جميع المرافق الحيوية في البلاد

1 - من يوميات مدرسة حرة ، ص : 14 .

من أقصاها الى أقصاها . ونفذ الشعب أوامر جبهة التحرير وبرهن بكل عزم واصرار وصدق على التفافه والتحامه بثورته الأصيلة وتفاعل معها وامتزج فيها امتزاجا قويا ورمى بكل ثقله في سبيل معركة التحرير وفي هذا الاطار:

(تحرك المناضلون والمناضلات ،وانكشفت وجوههم لبعضهم البعض ، في عملية التعبئة ،والتجنيد ،والتفقد ،والرعاية واستعانوا بكثير من المواطنين والمواطنات ،في عملية نضالية تضامنية منقطعة النظير .) (1)

ان نجاح هذا الاضراب كان ضربة عنيفة وطعنة قوية في جسم الاستعمار الفرنسي اذ تأكد له مما لا يدع مجالا للشك أن الشعب هو مفجر الثورة وأن الثورة هي قائدة الشعب الى النصر النهائي .

ان المؤلفة قد أشارت في معرض حديثها في الرواية الى ذلك التعاون الفعال بين جميع الأسر الجزائرية المتضامنة والمتناصرة ابان الثورة . فقد ساد الاخاء وروح المساعدة والتضامن جميع الأسر وتعاونوا تعاونا مدهشا في السراء والضراء وتضافرت جميع جهود المواطنين ماديا ومعنويا ازاء المآسي والنكبات والويلات التي كانت تصبها عليهم باستمرار قوى الشر والطغيان .

وكان هذا التآزر والتكاتف والتلاحم ساد جميع أفراد الشعب الجزائري ابان الثورة التحريرية الكبرى من أهم الوسائل الفعالة في انجاح الثورة باعتبارها ثورة شعبية شاملة تحمل باستمرار شعار الثورة من الشعب والى الشعب .

وعبر أحداث الرواية تعرض علينا المؤلفة شريطا مرعبا تقشعر منه الأبدان وتفزع منه النفوس وترتجف منه القلوب . شريطا يصور تلك الاعدامات

1 ـ من يوميات مدرسة حرة ،ص : 100 - 101 .

الجماعية التي تنفذها السلطات الاستعمارية بكل قسوة ووحشية في الشباب الجزائري المناضل الذي ليس له ذنب اقترفه سوى أنه يكافح من أجل تحرير الوطن من قبضة الاستعمار الحديدية . تقول الكاتبة واصفة تلك المشاهد المروعة في حي القصبة بالعاصمة وبالتحديد في سجن "بربروس" الرهيب : (فها هي الصور ،تحكي وجوه أصحابها . من الشباب المستشهد فجر هذا اليوم . استشهادا منقطع النظير . فلا هو يحمل سلاحا ولا هو حرا لحركة ،مقيد اليدين والرجلين ؟ يسلا سل من حديد ،معصوب العينين ،محفوفا بهالة من جنود جهنم ؟ وشياطين الجن .) (1)

وكانت رواية " من يوميات مدرسة حرة " من الروايات الجزائرية القليلة التي تناولت بعمق الكفاح المرير والنضال السياسي المستميت وتلك التضحيات الجسام التي خاضها الشعب الجزائري بكل شجاعة وبسالة ضد قوات الاحتلال الفرنسي وجسدت المؤلفة في روايتها بطولات الثوار والمناضلين الذين ضربوا أروع الأمثلة في الشجاعة والبطولة والتضحية والفداء ابان الثورة التحريرية .

والمؤلفة صورت تلك البطولات والتضحيات تصويرا بارعا بكل أمانة وصدق وموضوعية وقد سجلت في روايتها وقائع وأحداثا عاشها الشعب الجزائري وعانى ويلاتها واكتوى بنيرانها وتجرع مرارتها بكل حزن وأسى شديد . كما أن المؤلفة لم تعمد في تصويرها الى المغالاة والافتعالات والمبالغات التي ينزلق صاحبها الى التهويمات الخيالية والانفعلات الذاتية وانما التزمت الصدق الموضوعي والصدق الفني ببراعة فائقة فجاءت روايتها تنبض حركة وحيوية ونشاطا تنبعث منها الحرارة والدفء الذي ينشده القارئ من العمل الفني الجيد .

1- من يوميات مدرسة . ص : 120 - 121 .

وتبلغ الرواية قمة العنفوان الثوري والصراع المنيف في فصلها الثامن تحت عنوان " زغرودة الملايين في شهر ديسمبر 1960 " هذا اليوم التاريخي العظيم في ملحمة الثورة التحريرية وهو اليوم الذي برهن فيه الشعب الجزائري كله على التحامه الشديد بالثورة ومساندته المطلقة لها . وفي هذا اليوم بذل النفس والنفيس في سبيل نجاح هذا الاضراب . وكان هذا الاضراب ردا حاسما على الاستعمار الفرنسي اذ استعد الشعب كله للتعبئة العامة والتجنيد الكامل تحت لواء جبهة التحرير .

واندفع الشعب في هذا اليوم كالسيل الجارف الى الشوارع والساحات رافعا الاعلام الوطنية خفاقة تهتف بالحرية والاستقلال وتنادي بسقوط الاستعمار . وحياة الشعب الجزائري تحت قيادة جبهة التحرير الوطني وانفجر الشعب الجزائري كالبركان الثائر يقذف بالحمم ليدمر الغزاة المحتلين لكن قوات الاستعمار واجهت الجماهير الشعبية بعنف وضراوة وهجمت على الشعب الاعزل من كل سلاح الا من سلاح الايمان بقضيته : (وانطلق رصاص المستعمر . من وراء أستار نوافذ الفيلات والشقق الانيقة ،من وراء الأستار ،من تحت رفوف الابواب الحديدية ،من الفرنسيين المدنيين ،فقد كانوا مسلحين جميعا ... من رشاشات الجنود المرتزقة ،والجيش المستأجر في حالة من رد فعل دفاعية ،مستميتة وقد بهره الخصم الزاحف . المملاق المدمر ،واختلط الدم . بالمطر . بالوحل . بالاشلاء . وازداد اندفاع البركان ...) (1)

ومن المهم أن نشير الى أن شخصيات رواية " من يوميات مدرسة حرة " يمتازون كلهم بدون استثناء بالثورية والعمق والايجابية والتطور . فهم جميعا يكافحون ويناضلون على كافة الجبهات وجميع الاصعدة . فالبعض

1 - من يوميات مدرسة حرة . ص : 131 .

حمل السلاح والبعض الآخر تحمل الشدائد والأهوال . وكلهم عزم وارادة واصرار طلبا للاستقلال وانتزاعه من مخالب وأنياب الاستعمار .

المعمار الفني للرواية :

من الواضح أن رواية " من يوميات مدرسة حرة " تشبه رواية " يوميات نائب في الأرياف " لـ (توفيق الحكيم) و " الأيام " لـ (طه حسين) فالروايات الثلاث كلها سير ذاتية لمؤلفيها . فاذا كان بطل " من يوميات نائب في الأرياف " هو (توفيق الحكيم) ذاته . فان بطل " الأيام " هو (طه حسين) عينه وكذلك الأمر بالنسبة لرواية " من يوميات مدرسة حرة " فان المعلمة في هذه الرواية هي (زهور ونيسي) نفسها . الا أن ما يميز رواية " من يوميات مدرسة حرة " هو أنها رواية ثورية عالجت في جميع فصولها الكفاح المسلح ضد الاستعمار وأذنابه . وأشادت من جهة أخرى بذلك النضال الثوري الذي تخوضه فئات الشعب وطبقاته المختلفة . وأبرزت تلك التضحيات الجسام للأبطال عبر مواقف وأحداث الرواية .

هذا وتجمع رواية " من يوميات مدرسة حرة " بين الترجمة الذاتية والفن الروائي . أما أنها سيرة ذاتية فلأنها سجل لبعض أحداث الثورة البارزة والتجربة التي عاشتها الكاتبة في نضالها الثوري ابان ثورة نوفمبر 1954 الخالدة .

أما الفن الروائي فيتجلى بوضوح من خلال استعمال المؤلفة لتقنيات الفن الروائي وأساليبه المختلفة كرسم الشخصيات وتطور الأحداث والتركيز على المضمون والاهتمام بالأسلوب ، وتصوير البيئة الزمانية المكانية زيادة عن استعمال السرد والوصف والحوار . ولا تنسى الكاتبة أن تضيف الى

روايتها أحدث التقنيات الفنية للرواية " كالفلاش باك " الذي ينير ماضي الشخصيات وخلفياتها الفكرية والسلوكية . ثم هناك المونولوج الداخلي الذي يغوص الى أعماق الشخصيات ليعبر عن أدق المشاعر والأحاسيس التي تعتمل داخلها .

وقد أكدت المؤلفة على أن روايتها " من يوميات مدرسة حرة " مزيج بين العمل الثوري والفن الروائي والسيرة الذاتية . فهي تقول في مقدمة الرواية : (وقد حاولت أن أربط بين الموقف الفني الروائي ،وأواجهه بكل صدق ،وبين تقديم بعض تراث الثورة من خلال اشارات سليمة الهوية واضحة المقصد قد لا تكون وافية ولكنها أكيدة بالقطع ،وكنت ،ومازلت أتشوق الى أن أضع تصورا للعناصر التي تكون منها هذه المذكرات، وقد توضح لي بأن ثلاثة عناصر هي مرتكزها :

- الجذور ،والأرضية التاريخية للحدث
- الأشخاص الذين تواجدوا في هذه الأرضية التاريخية في غضون الحدث ذاته بصفتهم حقيقة وواقعا ،وليس خيالا أو أسطورة .
- الصيغة والأسلوب الذي يقدم به هذا العمل للمجتمع.) (1)

وأعطت الكاتبة للغة عناية بالغة وأولتها اهتماما كبيرا وصلت الى درجة الشعر . واستعملت لغة سهلة سلسة واضحة في السرد والحوار ولم تلجأ الى الجمل العويصة ولا الى العبارات الملتوية التي تزيد الأسلوب صعوبة وتعقيدا ،وخلت الرواية كذلك من الاختصار المخل والاطناب الممل وأسلوب التنميق والزخرفة معتمدة في ذلك على التلميح دون التصريح والايحاء دون التقرير .

---

1 - من يوميات مدرسة حرّة . ص : 17 .

وأخيرا سوف تبقى رواية ((من يوميات مدرسة حرّة)) للأديبة (زهور ونيسي) وثيقة هامة من وثائق الثورة التحريرية الكبرى حيث تناولت جانبا هاما من جوانبها الكثيرة ، وسوف تبقى كذلك علامة بارزة ومضيئة في عالم الفن الروائي الثوري الجزائري المعاصر .

الطريـــق الداميـــة

أحمـــد الخطيب

أطلق (أحمد الخطيب) على روايته اسم " الطريق الداميـــة " وهو يقصد بها طريق التضحية والفداء ،طريق الحرية والاستقلال . وهـو يعني بهذه التسمية معاني عديدة من بينها " الطريق الافضل" (1) ثم " الطريق المؤدي الى الحرية ".(2)

وحقا كان طريقا صعبا وشاقا محفوفا بالمخاطر والتضحيات الجسام ومع هذا كله ،فقد سار فيه وتسابق اليه كل مخلص وطني ومناضل ثـــوري، طلبا للحرية والاستقلال . وكان على حافتي هذا الطريق أسلاك شائكـــة مكهربة وقنابل محرقة ،ودبابات مدمرة لكن عزيمة الجزائريين الثوار دمـرت كل وسائل الفناء ،وتحدت كل أجهزة الخراب ودفعت ثمنا غاليا ،فسقـــط في ميدان الشرف مئات الضحايا وآلاف الشهداء تلبية النداء الواجـــب الوطني ووحي الضمير الانساني .

تدور معظم أحداث رواية " الطريق الدامية " في دوار (سيدي بن يخلف) بسهل غريس المعروف بأراضيه الخصبة وكرومه الجيدة بالقـــرب من مدينة " معسكـر " بغرب البلاد . وقد استولى على هذا السهل الخصـب الواسع ، طائفة من غلاة المعمرين الذين أخرجوا أهله منه ظلما وعدوانـــا بمساندة من السلطات الاستعمارية الفرنسية .

أما الاطار الزمني للرواية فيبدأ من الحرب العالمية الثانية الى الخميسينات أثناء ثورة نوفمبر 1954 .

1 - الطريق الداميـــة ، ص : 196 .
2 - نفس المصدر ، ص : 229 .

مضمـــون الروايـــة :

حين يفرغ القارئ من رواية " الطريق الدامية " ل (أحمد الخطيب) يتضح له أن الكاتب ركز بعمق شديد على قضية جد خطيرة . هذه القضية تتمثل في فئة دخيلة من شذاذ الآفاق متعطشة للسلب والنهب والاختلاس فاغتصبت الأراضي الجزائرية الخصبة ،واستولت على مساحات شاسعة وسهول واسعة ،فأخرجت منها أهلها بقوة الحديد والنار ،ومزقت ملاك الاراضي الجزائريين وشردتهم الى الجبال الوعرة ،وبقي منهم جزء يسير تحت سيطرة الاقطاع الأجنبي ، يرسف في أغلال الذل والهوان .واستولى غلاة المعمرين على أجود الأراضي الجزائرية الخصبة ،وازدادوا غنى وثروة وامتصوا دماء الشعب الجزائري وابتزوا خيراته بتشجيع من السلطات الاستعمارية .

وفي هذه الاثناء أشتد نفوذ غلاة المعمرين حتى أصبحوا هم أنفسهم السلطة التنفيذية في البلاد ،وبذلوا قصارى جهدهم لتكريس الوجود الاستعماري وتثبيت أقدامه في أرض الجزائر . وحاولوا عرقلة كل خطوة تدعو الى حرية البلاد واستقلالها . لما يضمرونه من حقد وكراهية شديدة للشعب الجزائري . فاق كل حد وتجاوز كل تصور لذلك كله تضافرت صفوف الشعب الجزائري والتفت حول الأحزاب السياسية والحركات الوطنية والاصلاحية .. وبعد ما تكونت جبهة التحرير الوطني ،تصدت بعنف لهؤلاء الدخلاء فأحبطت كل مخططاتهم الجهنمية وأعلنتها ثورة عارمة . دمرت الاستعمار . وعصفت بالاقطاع . وحطمت الاستغلال بكافة أشكاله وجميع صنوفه وكانت نهاية المغتصبين الطرد نهائيا من البلاد جزاء ما أقترفت أيديهم من ظلم وفساد !!

ملخص الرواية :

يستهل الكاتب روايته بنظرة عامة شاملة للسهول الزراعية الشاسعة بغرب البلاد . التي استولى عليها غلاة المعمرين وطردوا منها أهلها الى المناطق الجبلية والاماكن البعيدة الوعرة . وكان مصير الاعدام الفوري أو السجن المؤبد لكل من حاول الاحتجاج من المواطنين . ومن بين هؤلاء المعمرين المستوطن الفرنسي (فرنان) طاغية " سهل غريس" الذي اغتصب مزرعة (سي عبد الرحمن) وترك أسرته خدما وعبيدا تحت رحمته وكان ل (عبد الرحمن) هذا ولد اسمه (عليّ) وبنت اسمها (مريم) وزوجة تدعى (حليمة) .

كان (عليّ) يتعلم في الكتاب ولما أشرف على ختم القرآن أصبح يحلم بمستقبل زاهر . لانه عما قريب سيفتح كتابا ويعلم فيه أطفال القرية وفي ليلة حفلة ختم القرآن حدث ما لم يكن في الحسبان اذ اعتدى (فرنان) على (سي عبد الرحمن) بالضرب وعزّ على (عليّ) أن يرى أباه مظلوما فانتقم من (فرنان) وثأر لابيه ولم يلبث (عليّ) بعد ذلك، أن ذهب الى مدينة " معسكر " لينخرط في النضال السري الذي تنظمه الشبيبة الواعيةالمتعلمة . ودخل (علي) النضال من بابه الواسع وأظهر كفاءة عليا في هذه التنظيمات السياسية وأصبح رئيسا مكلفا بتعبئة الشعب وتنظيم الخلايا خارج المدينة وأثناء انهماكه في العمل الثوري ألقت السلطات الفرنسية عليه القبض وزجت به في الزنزانة وبعد سنة قضاها (علي) في السجن تمكن من الفرار وتوجه الى الثوار في الجبال وانضم الى جيش التحرير الوطني يخوض المعارك الحربية ضد قوات الاحتلال الأجنبي . وفي نهاية الرواية يثأر (علي) لأبويه - اللذين قتلهما الطاغية (فرنان) قتلهما ظلما وعدوانا بدون شفقة ولا رحمة - تسلل اليه (علي) في ليلة من الليالي وقتله في قصره .

قصاصا لأبويه دون أن يتعرض (علي) لأسرة (فرنان) أو يمسهما بسوء. وبهذا تنتهي الرواية .

شخصيـــــات الروايـــــة :

تشتمل رواية " الطريق الدامية " على شخصيات عديدة ،متمايـــزة ومتناقضة فكرا وسلوكا وموقفا وأيديولوجية وحضارة .

ولنبدأ الكلام بشخصية (علي) المناضل الثوري ،الشخصية المحورية في الرواية . تمر هذه الشخصية المحورية بثلاث مراحل متناقضة ومختلفة أشد الاختلاف فكرا وممارسة . وهي :

المرحلة الأولى نجد فيها أن الرواية ترسم شخصية (علي) وتصفه بأنه ذلك الفتى الريفي الساذج الذي نشأ في كوخ حقير بجانب قصر (فرنان) يساعد أبويه في تربية المواشي ورعي الأغنام وفلاحة الأرض وهذه الأشيـاء كلها ملك للطاغية (فرنان) . وفي نفس الوقت كان (علي) يذهب الى الكتاب يتعلم القرآن ويحلم بمستقبل زاهر ويمني نفسه بالأماني المريضة ،فبعـــد أيام قليلة يفتح كتابا ويصبح شيخا يعلم القرآن ويكتب (الأحجبة) وتقصـده النساء للتبرك فيستمتع بمن يشاء منهن .

ولما شب (علي) أخذت تنتابه وتساوره الشكوك ،ويستولي عليه القلق . نظرا للحالة التي تعيشها أسرته وما تعانيه من بؤس وشقاء وحرمان . فـي حين يرى كبار المعمرين ينعمون بخيرات الدنيا ويتمتعون بالرفاهية القصـوى والسعادة العظمى الى أقصى الحدود . ويحاول (علي) عبثا أن يستعين بشخص يشرح له هذا التناقض الصارخ بين أسرته التعيسة الفقيرة ، وأسـرة (فرنان) الثرية المترفة .

وهكذا بقي (علي) قلقا ممزقا لا يجد مخرجا من دوامة القلق الذي انتابه ،فلم يقر له قرار ولم يهدأ له بال طيلة هذه الفترة الحرجة . حيث استبد به اليأس .ولم يجد بدا من أن ينغمس في الجنس والحياة العابثة مع (جانيت) بنت (فرنان) التي كانت له معها مغامرات عاطفية واتصالات جنسية متكررة دامت سنتين . وأخيرا جمعهما لقاء جديد لكنه ليس لقاء ود ومحبة بل لقاء تنافر وتباغض يقول (علي) مخاطبا (جانيت) في حدة وانفعال : (لن تقربي مني مرة أخرى ،فقد سئمت هذه الحياة بكل ما فيها من صخب ولذة ، انني أبحث الآن عن حياة بمعناها السامي حياة الحقيقة والواقع . تلك الحياة التي تحيط بي وأنا أجهلها ،وتلاحقني فأعرض عنها حياة فيها من المساواة أكثر مما فيها من الاثرة وفيها من المجد ما لن يطاله ذل أو هوان)(1)

كان (علي) اذن في مرحلة بحث وتنقيب وسعي حيث طلبا للكشف عن الحقيقة الغامضة . ولم يمكث طويلا حتى برزت له الحقيقة عارية واكتشف بعد الحادث الذي تعرض له أبوه ليلة حفلة ختم القرآن .اكتشف (علي) ذلك السر الذي ظل مكتوما سنين طويلة فظهرت الحقيقة المرة وانجلى الواقع الأليم ،تبين له أن مزرعة (فرنان) وقصره انما هما أصلا ملك شرعي لوالده (عبد الرحمن) قبل أن يغتصبهما منه ذلك الطاغية المعتدي . وعندما أطلع (علي) على الحقيقة فر هاربا من المزرعة الى مدينة " معسكر" التي فتحت أمامه آفاقا رحبة وجعلته يتطور من فتى ريفي ساذج منغلق على نفسه الى شاب متعلم واع يتفجر وطنية وثورية .

المرحلة الثانية

تبدأ المرحلة الثانية من حياة (علي) مباشرة حينما سافر الى مدينة

1 - الطريق الدامية . ص : 39 .

معسكر " والتقى بابن عمه (الميلود) في المقهى ،ودارت بينهما تلك المناقشة المثمرة حول حالة البلاد المأساوية في جميع الميادين : الاقتصادية والثقافية والإجتماعية والسياسية . وفي هذه اللحظة اتضحت الرؤية لـ (علي) وتجلت له الحقيقة الساطعة بفضل ابن عمه (الميلود) الذي أيقظه من سباته العميق وفتح عينيه على الحقيقة المرّة . حيث أن (الميلود) ورفاقه من الشباب الواعي المتعلم كانت لهم اليد الطولى في انتشال (علي) من بؤرة التخلف والجهل ،وقاده الى الطريق المؤدي الى التطور والرقي . ومن تلك اللحظة الحاسمة بالذات تحول (علي) من بطل سلبي ساذج الى بطل ايجابي ثوري له طموحات كبيرة وآمال عريضة يسعى جاهدا لتحقيقها والوصول اليها وشيئا فشيئا تحول (علي) الى شخصية نامية متطورة ،تثور على تلك القيود التي كبلتها سنين طويلة . ومنعتها من الانطلاق الى الأجواء الفسيحة العليا . وهنا أدرك (علي) ككل رفاقه أن لا سبيل أمامهم سوى طريق التضحية والفداء . فأعلن سخطه وغضبه على الاقطاع والاستغلال وهب نفسه فداء للوطن بغية تحريره من براثن الاستعمار . وفي ذلك الحين أنضم (علي) الى صفوف الشبيبة الثورية وشارك مشاركة فعالة في النضال الثوري . واندفع بقوة وحماس فياض في توعية الجماهير الشعبية ،وتدرج في المناصب حتى رقي الى عضو قيادة الدائرة في منظمة الشبيبة الثورية . لقد تعاظم أمر (علي) واشتد كفاحه واتسع نشاطه الثوري فشمل المنطقة كلها وترصدته السلطات الاستعمارية بواسطة جواسيسها ومخابراتها وضيقت عليه الخناق ،حتى ألقت القبض عليه ورمت به في الزنزانة المظلمة . ليبقى هناك مدة سنة كاملة وراء القضبان على أن (عليا) لم يقبع في زاوية من زوايا السجن متقوقعا على نفسه شاكيا باكيا يتمزق حسرات داخل السجن مثلما يفعل كثير من السجناء غير أن(عليا)

لم يكن من هذا الصنف المذكور ،وانما هو من صنف آخر يحب اقتحام المصاعب والأهوال ،وقد ازداد قوة ونشاطاً رغم أنواع التعذيب التي سلطها عليه حراس السجن وزبانية العذاب . رغم ذلك ضاعف نشاطه النضالي داخل السجن وحرص على بث التوعية والتثقيف في صفوف السجناء وبدأ يحولهم من لصوص مجرمين الى مناضلين ثوريين . فأعلنوا تأييدهم المطلق لـ (علي) وعاهدوه على أن يسيروا في الطريق الصحيح الذي سيقودهم الى الحرية والاستقلال .

وبينما كان (علي يعاني ألواناً من التعذيب الوحشي جاءته (جانيت) الى باب الزنزانة طالبة منه أن يكف عن العمل الثوري لقاء الافراج عنه لكنها فشلت في محاولتها . وتدور بينهما مناقشة طويلة نكتشف من خلالها أن المؤلف يرمز الى نقطة هامة وخطيرة الا وهي أن الأوروبين عامة والفرنسيين خاصة ينقسمون في نظرتهم نحو قضية تحرير الجزائر واستقلالها الى قسمين : فمعظم الأوروبين ينظرون الى الجزائر نظرة حقد وبغض وكراهية ويرفضون استقلال الجزائر رفضاً تاماً . ويضعون السدود والحواجز المحكمة حيال أي تفكير أو أية محاولة تدور حول حرية الجزائر واستقلالها . حرصاً منهم أن تفلت من بين أيديهم سلطة البلاد وثرواتها ،ويمثل هؤلاء غلاة المستوطنين الاوروبين ، والقادة العسكريون بصفة خاصة . أما المستوطنون الأوروبيون فقد استولوا على جميع الأراضي والمزارع الخصبة . معتبرين أن الجزائر قطعة من فرنسا وأنهم أحق بثرواتها من غيرهم . أما رجال السياسة فكانوا يحتكرون مناصب أجهزة الدولة ودواليب السلطة في البلاد ويحكمونها بالحديد والنار. كل هذا يحدث في الوطن والشعب الجزائري يعيش المأساة الرهيبة ،تقتله الأمراض الخطيرة ويتفشى فيه الجهل والتخلف والمعتقدات الفاسدة ، وهناك فئة قليلة من الفرنسيين غير متعصبين ينظرون الى الجزائريين نظرة واقعية

موضوعية حيث يعترفون بقضية الجزائر العادلة . كبعض المفكرين والمثقفين الليبراليين الأحرار وكبقية الأوربيين الذين ليست لهم أطماع سياسية أو اقتصادية في الجزائر وترمز (جانيت) الى هذه الفئة الأخيرة من الفرنسيين .

المرحلة الثالثة من حياة البطل :

تبدأ المرحلة الثالثة من حياة (علي) من اللحظة التي فرّبها من السجن فقد عمل النظام السياسي لجبهة التحرير كل ما في وسعه لاخراج (علي) من الزنزانة وفعلا نجحت المحاولة . وفرّ (علي) من السجن الى الجبل وكله عزم وتصميم على محاربة الاستعمار الفرنسي باذلا نفسه فداء لتحرير الوطن استمع اليه يخاطب مسؤوله العسكري الكبير .

(ان الموت لا يطيب لي الا والسلاح يملأ راحتي) . (1)

هذا وقد شارك (علي) في خوض معارك حربية عنيفة ضد قوات الاحتلال الفرنسي وأظهر شجاعة خارقة ولم يضع السلاح رغم الجروح الخطيرة التي أصابت كتفه ، وواصل كفاحه ضد المحتلين وكله ثقة واطمئنان وايمان لا يتزعزع في أن بلاده سوف تتحرر من الغزاة المحتلين ، وكان لشجاعته النادرة يختار في كل معركة المراكز العسكرية الأشد خطورة قصد تدميرها والقضاء عليها وكم من مرة يحاول فيها قائده أن يقنعه أن المراكز التي يختارها انما هي صعبة وشاقة الاجتياز وقلما ينجو من مخاطرها أحد ويرد (علي) على قائده بحماس فياض : (لذلك أخترته أيها القائد) . (2)

وشعر مسؤوله بارتياح كبير عند سماعه لذلك الرد المقنع الفياض (تأمله القائد برهة بعجب وشعر بانتعاش خفي يهز نفسه وقال في سره : لن تضام الجزائر وفيها أمثال علي .) (3)

1 - الطريق الدامية . ص : 255.
2 - نفس المصدر . ص : 225.
3 - نفس المصدر . ص : 234 ، 235 .

وفعلا قصد (علي) ذلك المركز الخطير . واشتبك مع قوات الاحتلال وجرح جرحا خطيرا لكنه صمم على الانتقام من (فرنان) واقتحم عليه منزله والتقى معه وجها لوجه ،وخاطبه قائلا :

(اسمع يا فرنان لقد مضى العهد الذي كنا ننساق فيه خلف الحاجيات المادية ، اننا نسعى الآن للحصول على شيء أسمى وأعز من الدراهم . اننا نشق طريق الحرية الذي وضعتم فيه العراقيل الشاقة ، وأنت يا فرنان احدى العراقيل التي يجب القضاء عليها . فأنت سارق سرقت أرضي وأرض أهلي وأجدادي وأنت مجرم بفضحك فتيات كثيرات . وأنت قاتل وأرواح ضحاياك البريئة حاكمتك وأصدرت عليك حكمها بالاعدام) .(1)

وهكذا نفذ (علي) حكم الاعدام في (فرنان) وثأر لنفسه ولأهله ولوطنه ودفع (فرنان) الثمن غاليا نظرا لما اقترفه من جرائم بشعة وآثام قذرة يندى لها الجبين . وكانت نهايته على يدي (علي) الذي لم يسكت عن الضيم أو ينام على الظلم .

وتختم الرواية بنقل (علي) مجروحا الى مصحة جيش التحرير تصحبه (زينب) ابنة عمه بينما ترفع (مريم) صوتها مهللة " الله أكبر والنصر للجزائر " .

شخصية مريم :

سبق أن أشرنا الى أن شخصية (علي) من الشخصيات النامية المتطورة ، ويقودنا الحديث الى شخصية (مريم) شقيقة (علي) المناضل الثوري . ف(مريم)

---

1 - طريق الدامية . ص : 234 ، 235 .

فتاة مناضلة ضربت أروع الأمثلة في العفة والطهر . نشأت (مريم) نشأة فقيرة ،تعمل في بيت (فرنان) كخادمة ،وكانت ترفض باصرار ما تقدمه لها (جانيت) من ثياب قديمة رغم أنها في أشد الحاجة اليها . ترفض ذلك كما رفض أهلها من قبل فضلات وفتات موائد (فرنان) وآثروا أكل خبز الشعير ترفعا منهم عن أكل خبز الذل والمهانة الذي يتصدق به عليهم (فرنان) .

وحين حاول (فرنان) أن يعتدي على (مريم) ويغتصب منها أغلى ما تملك ليدوس شرفها بأقدامه القذرة . قاومته مقاومة شديدة . وأشعرته أن الفتاة الجزائرية تفضل الموت وتضحي بحياتها على أن يمس شرفها أو تهدر كرامتها أو تشوه سمعتها .

وكرر (فرنان) محاولاته القذرة مع (مريم) مستعملا معها كل أساليب المكر والخداع ليوقعها في شركه القذر . لكن محاولاته كلها باءت بالفشل الذريع وفي النهاية استعمل (فرنان) القوة ولما أحست (مريم) بالخطر يداهمها وأيقنت أنها بيد ظالم جبار لا يعير أي اهتمام للشرف والكرامة . دفعته بعنف شديد وخمشت وجهه بأظافرها وفرت هاربة الى منزل عمها بمدينة " معسكر " سالمة العرض ممزقة الثياب .

والكاتب من خلال رسمه لشخصية (جانيت) وشخصية (مريم) يريد أن يبرز ذلك التناقض الصارخ بين الفتاة الفرنسية التي داست برجليها على كل القيم والمبادئ الأخلاقية فهي لا تبالي الا باشباع غريزتها الجنسية واتباع نزوتها الطائشة النزقة ،وبين الفتاة العربية الجزائرية التي تحافظ على الشرف وتصون العرض وتربأ بنفسها أن تسقط في حمأة الرذيلة أو بؤرة الفساد . وعملا بالمقولة المأثورة " النار ولا العار المنية ولا الدنية " .

ان (فرنان) الوغد المتجبر يحاول الاعتداء على شرف فتاة جزائرية ترفض

الذل والعار رفضا قاطعا . في حين أن هذا النذل اللئيم لا يدرى ماذا تفعل ابنته (جانيت) التي سقطت في مهاوي الرذيلة والسلوك السيء المنحط

وليست (جانيت) وحدها هي الموصومة بالعار ،وانما يشاركها نساء ورجال " الكولون " كلهم بدون استثناء السقوط في بؤرة الفسق والفجور. ولنفسح المجال للكاتب يصف جانبا من تلك الليالي الحمراء ،ليالي السكر والعربدة والجنس الفاضح والخلق الذميم :

(وأخذت الخمر تدور في رؤوسهم . فنهضت جانيت مترنحة ،وهرعت الى (البيك ـ آب) فوضعت أسطوانة لرقصة " الفالس " وما لبث ريمون الذي كان يتبعهما أن أخذ بيدها . وشرعا ينقلان خطواتهما على أنغام الموسيقى . وشارك الجميع في الرقص . فأمسك كل واحد منهم بزوجة الاخر ماعدا المسيو مارتيناز الذي أصر على الاحتفاظ بزوجه . ودلفوا من باب الصالون . مثنى . مثنى . يطوق كل واحد منهم وسط أنثاه بيساره .ويشدها نحوه برفق ،يتبعهم صوت " البيك ـأب " الذي أخذ يرسل أنغام " الباسادوبلي " وتفرقوا حول الساقية ثم اختفوا في الظلام بين أشجار الحديقة).(1)

وبهذا يفضح الكاتب أخلاقيات الاوربيين المنحطة ،فيؤكد من خلال هذه الحفلة الماجنة أن كل شخص منهم أمسك بزوجة صديقه يشبع منها نهمة الجنسي بدون حياء ولا خجل وبدون غيرة ولا كرامة. ويصورهم الكاتب على أنهم لا يقلون شراسة عن الحيوانات المتوحشة التي لا تبحث الا عن الأكل والشرب والجنس !!

شخصية الميلود :

من الشخصيات الثورية في الرواية شخصية (الميلود) ذلك الشاب

---

1 - الطريق الدامية . ص : 55 .

الثوري الذي يتمتع بدرجة عالية من الوعي السياسي والوطني ،رغم حداثة سنه وهو الذي كانت له اليد الطولى في تثقيف (علي) وترقية فكره ووجدانه . وهو الذي أخذ بيده الى طريق النضال الثوري والكفاح المسلح . والحقيقة أن التحول الكبير الذي حدث لـ(علي) انما يعود الفضل فيه بالدرجة الاولى الى ابن عمه (الميلود) ،فبفضل (الميلود) تطورت شخصية (علي) ونمت نموا مطردا .

وهكذا ظل (الميلود) . بجانب (علي) يشد من أزره ويشاركه آماله وآلامه في جميع المناسبات وشتى الأماكن . في المدينة ،في القرية السجن وحتى في الجبل . ولهذا يعتبر (الميلود) هو المحرك الرئيسي لاحداث الرواية لأنه شخصية قوية وهو يتمتع بحضوره الكامل من بداية الرواية الى نهايتها وهو بهذا يتقاسم الأحداث العامة والمحورية في الرواية مع (علي) ابن عمه . واستمر (الميلود) يناضل بجانب (علي) وينير له الدرب المظلم المليء بالصعاب والعقبات الى نهاية المطاف .

ومن الملاحظ أن ثورة (الميلود) كانت ثورة اصلاحية تثقيفية همها بث الأفكار الاصلاحية التي كانت تنادي بها جماعة العلماء المسلمين الجزائريين منذ بداية الثلاثينات حتى اندلاع ثورة نوفمبر الخالدة والتي كانت تحارب العادات والتقاليد المتعفنة كالسحر والشعوذة والدجل وغير ذلك من الخرافات والأساطير والأوهام .

ويحرص الكاتب من جهة أخرى على أن يجعل من بطله (الميلود) بطلا مثاليا أقرب الى الاسطورة منه الى الواقع . فمرة يجعله خطيبا مصقعا ،وأخرى ممثلا بارعا في التمثيليات التاريخية ،وثالثا مصلحا اجتماعيا ،ورابعا عالما اقتصاديا ،وخامسا محللا سياسيا لأوضاع البلاد الداخلية والخارجية . وبهذه

الأوصاف المجتمعة كلها في (الميلود) تدعونا الى القول بأن المؤلف اندفع بحماس شديد في رسم شخصية البطل فرفعه الى درجة عالية من الوعي والثقافة أكبر بكثير من سنه ومستواه الثقافي والفكري . خاصة اذا علمنا أن سن (الميلود) وقتئذ لا يتجاوز سبعة عشر عاما .

فكيف اذن نصدق الكاتب في كل ما ذهب اليه من أن هذا المراهق يجمع هذه المزايا والصفات الاخلاقية والنفسية والفكرية والاصلاحية كلها ! .

وهي أشياء لا تتوفر الا في من له نصيب وافر من الثقافة الواسعة والوعي العميق والتفتح على الثقافات العالمية والمذاهب الايديولوجية المعاصرة فضلا عن تعمقه في التيارات الفكرية والفلسفات المذهبية . والنظريات الاقتصادية والسياسية التي لم تكن معروفة أبدا لدى المثقفين الجزائريين في فترة الاحتلال الفرنسي المظلمة . وانما هناك ثقافة تقليدية دينية واصلاحية ولغوية بحتة تتزعمها جماعة العلماء المسلمين التي تدعو الى تطهير القلوب من الخرافات والأساطير والرجوع بالاسلام الى منابعه الأصيلة ، وتعمل من جهة أخرى على ازالة الخلافات والمنازعات التي كانت تشتت وتمزق صفوف الشعب الجزائري حينذاك .

الشكل الفني في الرواية :

اتبع (أحمد الخطيب) في روايته " الطريق الدامية " الشكل التقليدي قسم الكاتب روايته الى ثمانية فصول ، قد تطول هذه الفصول ، وقد تقصر وفق مجريات الأحداث ، ومتطلبات المواقف . وقد مزج المؤلف في الرواية بين السرد والوصف والحوار . رغبة منه في تشويق القارئ وجذبه الى متابعة الرواية .

كما استخدمت الرواية في السرد ضمير الغائب عن طريق راو مطلع على كل شيء ،ويتدخل في كل شيء ،ويعرف عن الشخصيات أكثر مما تعرفه هذه الشخصيات عن نفسهــا .

ان المؤلف يقحم نفسه باستمرار للتعليق على المواقف والأحـــداث فيحدثنا حديث الخبير بكل شيء العارف بأسرار أبطاله أكثر مما يعرفـــون هم عن أنفسهم سواء كان ذلك في الكوخ أو المستشفى أو السجن . وكـــان الأحرى به أن يفسح المجال ،للعاشق أو السجين أو المريض يعبر عـــن أشواقه وأحزانه وآلامه وآماله وخلجات نفسه بحرية كاملة وبدون تدخـــل منه .

ومن جهة أخرى يحشو الكاتب روايته بالمواعظ والحكم والخطب المنبرية والسياسية التي تحدث بلاشك تفككا وتصدعا في البناء الروائي .

ولغة الرواية سهلة وبسيطة وسليمة من الاخطاء وان تخللتها بعـــض الكلمات العامية الجزائرية والعبارات الأجنبية المكتوبة بالعربية .

طيور في الظهيرة

مرزاق بقطاش

حيــاتــه :

مرزاق بقطاش من مواليد 1945 بالجزائر العاصمة أكمل تعليمه الابتدائي والثانوي ،ثم انتقل الى الجامعة وتخرج في كلية الآداب والعلوم الانسانية قسم الترجمة بالجزائر .

ومرزاق بقطاش يجيد العربية والفرنسية والانجليزية يعمل الآن صحافيا في مجلة المجاهد الأسبوعية وينشر بعض المقالات الأدبية ويترجم بعض المقالات والقصص الأجنبية الى اللغة العربية .

من مؤلفاته المنشورة .

- طيور في الظهيرة (رواية 1981) الجزائر
- البزاة (رواية 1983) الجزائر
- جراد البحر (قصص 1981) الجزائر
- كوزة (قصص 1984) الجزائر

ومن ترجماته المنشورة عن الفرنسية :

- ألف وعام من الحنين (رواية بوجدرة الجزائر 1981) .
- ضربة جزاء (رواية بوجدرة الجزائر 1985) .
- الرواية (جورج لوكاتش) عدد 9 بدون تاريخ .

طيور في الظهيرة (1)

ملخص :

تتلخص الرواية في أن (مراد) من عائلة بحرية ترعرع في حي يسكنه جزائريون وأوربيون متعددو الجنسيات وقد كان (مراد) يخرج من حين لآخر الى الغابة بصحبة رفاق له يقضون أوقاتهم في اللهو واللعب والمرح .

وعندما انتهت العطلة وبدأت السنة الدراسية الجديدة أضرب أطفال الحي عن دراسة اللغة الفرنسية مطالبين بتعويضها باللغة العربية استجابة للنداء الذي وجهته الثورة لهم . وبعد أخذ ورد دخل التلاميذ الاقسام وفي هذه الاثناء يصطدم (مراد) بالمعلمة اليهودية التي لطمته فأسالت الدم من أنفه نظرا لتعنته وكراهيته للغة الفرنسية .

ولما اندلعت الثورة وشملت جميع جهات الوطن أصبح الاطفال يتطلعون الى رؤية المجاهدين ويرغبون كثيرا في التحدث عن الثورة ومناضليها ويطلبون من الله أن ينصر المجاهدين على أعدائهم المحتلين الغزاة .
وبينما كان (مراد) يلعب مع رفاقه في الغابة طلع عليهم أحد الجنود ودار حوار بينهم لينتهي بطلب هذا الجندي من (مراد) أن يقرأ له بعض الاناشيد الوطنية فيلبي هذا الاخير طلبه .

وحين يحضر (مراد) اجتماعا يعقده المجاهدون بمناسبة الذكرى الثانية لاندلاع ثورة نوفمبر . تأخذ (مراد) الدهشة حين يسمع كلمات جديدة لم تطرق سمعه من قبل وهي :

---

1 - صدرت عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1981 .

الاستعمار ،الكفاح ، الحرب،الحرية ،ذكرى نوفمبر ...الخ .

بعد ذلك الاحتفال الهام أخذ (مراد) على نفسه عهدا بأن يبلغ جميع الاطفال كل ما سمعه عن المجاهدين وصار بعد ذلك يتخيل من حين لاخر بعض المعارك الضارية التي تدور رحاها بين المجاهدين وبين قوات الاحتلال الفرنسي . وذات يوموهو يعبر الشارع شاهد عسكريين مضرجين بدمهما أحدهما ميّت والاخر في حالة احتضار.

عندئذ يصاب (مراد) بنوب عصبية حادة تلزمه الفراش مدة غير قليلة. وفي نهاية الرواية يكشف (مراد) حقيقة لم يكن يعرفها من قبل ولم تدر بخلده أبدا وهي أن أباه كانت له نشاطات واسعة في النضال الثوري من العاملين لصالح الثورة التحريرية ومن المساندين لها . هذا ويتخلل الرواية ذلك الحب الساذج الذي كان يدور بين (مراد) و (فتيحة) ، وهناك شخصيات أخرى تلعب أدوارا على مسرح أحداث الرواية .

مضمون الرواية .

عالج (مرزاق بقطاش) في روايته (طيور في الظهيرة) مضمونا ثوريا يتناول فيه أحداثا ثورية قد وقعت في حي شعبي في أحياء العاصمة وبالتحديد يقع هذا الحي ما بين القصبة وباب الوادي . وكان حي القصبة يطفح بالغليان الثوري والتمرد الشعبي والنضال الفدائي . وقد ثار سكان هذا الحي ضد سلطات القمع والارهاب الفرنسية على غرار بقية الأحياء الأخرى داخل العاصمة ،وسائر المدن والقرى الجزائرية ابان فترة الثورة التحريرية . فقد هبت جموع المناضلين والفدائيين من جميع شرائح الشعب الجزائري في مواجهة الاستعمار بشتى الوسائل المتاحة ،تحارب الاستعمار

بدون هوادة لتخرجه من البلاد بحد السلاح . وفي هذا المضمار يصور لنا (مرزاق بقطاش) نضال فئة من المجتمع الجزائري ، وهي فئة الأطفال ومدى شعورهم واحساسهم تجاه ثورة نوفمبر الخالدة ،فمن خلال (مراد) ورفاقه تحدث المؤلف عن تأثير الثورة في نفسية أطفال الحي وخاصة أطفال المدارس الابتدائية هؤلاء الأطفال الذين كانوا يلتقطون أخبار الثورة التحريرية بشوق ولهفة شديدة .

ولعل (مراد) البطل الرئيسي في الرواية كان من أشد المتحمسين لاستماع أخبار الثورة ،حيث كان يتتبع أخبارها من الأهل والجيران والشارع. ونعرف أن (مراد) كان طفلا صغيرا يتابع دراسته الابتدائية بنفس الحي وكان هو الوحيد الذي يتعلم العربية بجانب اللغة الفرنسية ،ومن خلال قراءتنا للصفحات الأولى من الرواية ندرك أن (مراد) كان يحفظ الأناشيد الوطنية عن ظهر قلب ، ويتباهى أمام التلاميذ بحفظها والتغني بها باستمرار محاولا اثارة الحماس في نفوس التلاميذ وزيادة عن كون (مراد) يحفظ الأناشيد الوطنية فانه كذلك يحفظ حزبين من القرآن الكريم . ومن حين لآخر يحاول الاستفادة كثيرا من امام المسجد ويردد أقواله ، وكان متأثرا به أشد التأثر فهو يعتبر أن الانسان المخطئ تمحى خطيئته بالتوبة ،وأن السرقة حرام ينبغي الابتعاد عنها . فتكونت لديه معلومات هامة عن فكرة الحلال والحرام وخاصة السحر والشعوذة وغير ذلك من المحرمات التي ينهى عنها الدين ويحرمها الاسلام .

ولا غرابة في ذلك فان (مراد) قد نشأ نشأة دينية كان مصدرها الأسرة أولا ثم المدرسة ثانيا ثم هناك شيء آخر حبب الى (مراد) اللغة العربية والأناشيد الوطنية هو تعلقه الشديد بمعلمه الذي يدرس له اللغة العربية

والأناشيد الوطنية فترك في نفسه انطباعا حسنا وصدى عميقا . وقد عبر (مراد) تعبيرا صادقا بقوله : "(من المستحيل أن تتلاشى صورة ذلك المدرس. وهو يقسم بالله على أن يجعل من تلاميذه الجنود الأوائل الذين يحررون الوطن .) (1)

فالمدرس اذن هو الذي غرس في نفوس تلاميذه حب الوطن والتمسك بالعقائد الدينية ونفخ فيهم روح الثورة ضد الاحتلال الفرنسي ، ولاغرابة في ذلك فالمدرس من رجال الاصلاح الذين لم يألو جهدا في تكوين شباب اليوم رجال المستقبل .

لقد بدأ المؤلف يعمل جاهدا في تهيئة الأجواء الثورية ليدخل بطله (مراد) في صراعاتها المختلفة ويبرز مدى شوقه ولهفته في التقاط أخبار الثورة التحريرية . فكان (مراد) في تفكير مستمر يتساءل عن كيفية أحوال المجاهدين في الجبال وكيف أنهم لا ينزلون الى المدينة حتى يتسنى له رؤيتهم بأم عينيه يقول المؤلف عن بطله ، (فقد ظل (مراد) حائرا ، لأنه لا يزال يعتقد بأن المجاهدين يوجدون في أعالي الجبال لا في المدن) . (2)

من المعروف أن الأطفال ابان الثورة التحريرية كانوا ينسجون بأخيلتهم مئات الصور عن المجاهدين وعن بطولاتهم الخارقة وشجاعتهم النادرة ، حيث أن المجاهدين في الجبال دائما منتصرون على جيوش الاستعمار . فالأطفال سواء في الريف أو المدينة ينسجون الخرافات والأساطير العجيبة عن المجاهدين الذين لا يقهرون أبدا في ساحات القتال وميادين الكفاح ، وأن صورة

---

1 - طيور في الظهيرة . ص : 22 .
2 - طيور في الظهيرة . ص : 26 .

المجاهد تختلف اختلافا كبيرا عن غيره من سائر البشر في نظر هؤلاء الأطفال ومن بينهم (مراد) .

ومن الملاحظ أن نظرة (مراد) قد تطورت تدريجيا فبدأ يعي دور الفدائيين ويميز عمل المناضلين عن بقية أفراد المجتمع وأصبح يتمنى من حين لآخر زيارة هؤلاء المناضلين الذين كانوا يعملون على نشر التوعية والتهذيب في صفوف أفراد الشعب .

وقد بدأت الثورة التحريرية تزحف من الجبال الى الشوارع وأحياء المدينة واستقبلها جموع المواطنين استقبالا حارا واندمجوا فيها اندماجا كليا وقدموا لها النفس والنفيس .

ان (مراد) كان يحس احساسا عميقا في أن الثورة سوف تعمل على القضاء على جميع الآفات والأمراض الاجتماعية التي يتخبط فيها سكان الحي خاصة وسكان العاصمة عامة ،واعتقد اعتقادا راسخا أن المجاهدين سوف يرسلون بعض الفدائيين لتطهير الحي من مرتكبي الجرائم والآثام والشرور ،تطهيرا كاملا وخاصة الخمر وما يدور حولها من قريب أو بعيد .

وهكذا وبعد أن انتهت العطلة الصيفية ،وحان وقت الدخول المدرسي أخذ (مراد) كغيره من التلاميذ في الاستعداد للرجوع الى الاقسام الابتدائية وأثناء ذهابه الى المدرسة سمع أخبارا مهمة وتعليقات حساسة وخطيرة ، تدور كلها حول المعارك التي دارت رحاها بين المجاهدين وقوات الاحتلال الفرنسي أثناء فترة العطلة الصيفية .

ولعل أخطر قرار ثوري اتخذه المجاهدون هو ذلك القرار الذي يمنع تلاميذ المدارس منعا باتا من متابعة دراسة اللغة الفرنسية والاكتفاء باللغة

العربية فقط وقد استقبل التلاميذ هذا القرار بارتياح شديد . وصدرت الأوامر الصارمة التي تلح على انجاز الاضراب ضد اللغة الفرنسية والضرب على يد كل من تسول له نفسه مخالفة الأوامر الصارمة للثورة التحريرية .

ومن الواضح أن (مراد) بطل الرواية كان يسيطر عليه باستمرار الحياء والخجل فلا يستطيع التخلص من ذلك أبدا فهو يستحي أمام معلمه فلايكاد يستفسر عما يختلج في صدره ،كما أنه يستحي من العم (عبد الله) التاجر أن يناقشه حول قضايا ومسائل تخص الثورة التحريرية تاركا ذلك للزمن يكفيه مؤونة البحث والاستقصاء وعما ستتمخض عنه الأيام ،بل انه لا يقوى أن يطرح أسئلة أو استفسارات عن أمور غامضة على زملائه الأطفال خوفا من أن يسخروا منه فـ (مراد) اذن دائما في تردد وحيرة من أمره ،معتمدا على غيره في حل مشاكله الخاصة ويرمي بالمسؤولية اما على (أحمد)أوعلي(جوزي) وحين تعترضه أية مشكلة يبقى حائرا ممزقا قائلا (كيف العمل ؟ أيباشرهم بالحديث دون مقدمات ؟ أم يطلب نصيحة من أحمد ؟ انه الوحيد القادر على استقطاب اهتمام الأطفال في مثل هذه المواقف . في تلك اللحظة بالذات ،حث خطاه ،حتى لحق بالأطفال ،ثم اقترب من (أحمد) وهمس له بالفكرة ، وبدا على (أحمد) أنه مطلع عليها . غير أنه أكد له بأن الوقت غير ملائم الآن ،بل من الأفضل عرضها على الأطفال في المساء ،عندما يستعد كل واحد منهم للعودة الى منزله ،حتى يشغل نفسه شيئا ما . ولم يجد (مراد) بدا من الأخذ بنصيحة أحمد).(1)

واذا ما انتقلنا الى مجال الحب الذي كان يكنه (مراد) لـ(فتيحة) فسوف نفاجأ بسلبية (مراد) ومواقفه الهروبية تجاه من يحبها ولا يجرؤ أبدا

---

1 - طيور في الظهيرة ، ص : 114 - 115 .

أن يعبر لها عن مشاعره ويبوح لها بما يختلج في صدره ،بل انه لا يستطيع رد تحيتها عندما يلتقيان ويتورد وجهه خجلا منها . ولا يقف خجله عند هذا الحد بل ان (مراد) كان عندما يلتقي بـ (فتيحة) ينعقد لسانه فلا يستطيع محاورتها ولا ينبس بكلمة .

وفي هذا المعنى يصف المؤلف سلبية بطله تجاه فتيحة قائلا .

(قبل أسبوع صادفها في أحد أزقة الحي ،فبادرته بالتحية لكنه لم يرد عليها بل أحس وكأن الدماء تنزو في وجهه دفعة واحدة ،وبصوته يحتبس في حلقه فلا يقوى على اصدار أية كلمة . انه يشعر بهذا العيب . ولكنه لا يستطيع أن يتخلص منه .) (1)

ونظرا لسلبية (مراد) فشل في تكوين أية علاقة حب بينه وبين (فتيحة) ولذلك كان يخفق قلبه داخليا دون أن يترجم بلسانه هذا الحب لـ (فتيحة) ، لكنه لم يفعل ذلك أبدا . وانما اكتفى بالحسرة والتمنى تاركا مشاعره وأحاسيسه مكبوتة داخل نفسه متمنيا في حسرة الاقتراب منها دون أن يتقدم اليها خطوة واحدة بل انه يتقهقر الى الوراء ،اذا حاولت هي الاقتراب منه . وكان منافسه (علي) أشد جرأة منه وأكثر ايجابية لأنه سبق وأن حاول التقرب الى (فتيحة) والتحدث معها وبالتالي جذب قلبها والغريب أن (فتيحة) كانت تشجع (مراد) على مغازلتها وتدفعه دفعا الى الكلام . لكن سلبيته عقدت لسانه عن مخاطبتها .

وهكذا يتضح لنا أن (مراد) لم يستطع أبدا أن يعبر بحرية عن احساسه وشعوره ،ولا بما يختلج في صدره وعما يلاقيه من لواعج الحب وصور الاشتياق .

---

1 - طيور في الظهيرة . ص : 23 .

ولعل مرد ذلك يرجع الى صغر سنه وعدم خبرته بفنون الحب وألوان العشق . وفضلا عن ذلك قلة تجربته في هذه العاطفة المتأججة الجياشة . واكتفى بقوله أن الحب شيء جميل وهذا الشيء الجميل لم يعرف أبدا (مراد) تجربته وممارسته الفعلية !

لقد ورط المؤلف بطله (مراد) في تجربة الحب ورماه في بحر العشق دون أن تكون لبطله معرفة تامة بفنون السباحة التي تضمن له الخروج سالما من هذا المأزق الى شاطئ الأمان . ذلك أنه من غير المعقول ولا المقبول أبدا أن يمارس طفل لا يتجاوز عمره عشر سنوات تجربة العشق ثم ما تلبث هذه التجربة أن تختفي فجأة نهائيا . ولا نرى مبررا لاختفاء هذا الحب فجأة وكان من المفروض أن ينمو هذا الحب ويتطور بين هذين البطلين الى نهاية الرواية . الا أن الذي حدث هو أن هذا الحب قد سطع فجأة وانطفأ بسرعة خاطفة . ولا نعتقد أن المؤلف قد استعمل هذا الحب لرموز موضوعية وفنية . كما استخدمه كبار الروائيين عربا وأجانب في أعمالهم الروائية . وان حاول المؤلف استخدامه في هذا المجال فقد جانبه الصواب وأخفق في توظيف الجنس في هذه الرواية كما أخفق بطله (مراد) في محاولة استمالة وجذب قلب (فتيحة) اليه لأن المسألة في حد ذاتها مفتعلة ومتكلفة الى حد بعيد !

والحقيقة أن (مراد) بطل الرواية كان سلبيا في جميع مواقفه سواء فيما يتعلق بجانب الحب أو بالجانب الثوري وأنه كان يعتمد اعتمادا كليا على بعض زملائه وخاصة صديقيه (جوني) و (أحمد) فكان ظلا لهما في جميع تصرفاتهما ولا يبرم أمرا دون الرجوع اليهما مستفسرا ومستوضحا ! و (أحمد) هذا يكاد يكون هو بطل الرواية الرئيسي فهو محرك الأحداث ومنشطها على الساحة الروائية . لما يمتاز به من جرأة وديناميكية وهو من

أجل ذلك أصبح يتقاسم مع (جوني) قيادة الأطفال الذين يذهبون الى الغابة ويستمتعون بالألعاب المفضلة لديهم بحرية مطلقة دون خوف من عساكر الاستعمار وجنود السينغال المرتزقة التي كانت تجوب شوارع الحي بحثا عن الفدائين الذين قد يأتون من الجبال فجأة للقيام ببعض الأعمال الفدائية . ضد عساكر الاحتلال الفرنسي ،

الموقف الثوري

ان مضمون رواية (طيور في الظهيرة) ل (مرزاق بقطاش) مضمون ثوري سجل فيه صاحبه جزءا ضئيلا جدا من أحداث ثورة نوفمبر . وتأثير هذه الثورة في نفوس أطفال المدينة . وصور نظرة هؤلاء الأطفال الساذجة السطحية تجاه هذه الثورة ثم مدى شوقهم العميق الى التقاط أخبار المجاهدين ولهفتهم الشديدة في تتبع انتصاراتهم في الجبال على قوات الاستعمار . وكانوا يتحرقون شوقا الى الاستماع الى أخبار الثورة سواء في الشارع أو في الحي أو في المدرسة . وكان بطل الرواية الرئيسي (مراد) أشد التلاميذ شوقا لرؤية المجاهدين وكان يتخيلهم أبطالا أسطوريين يعجز اللسان عن وصفهم هيئة ،وبطولة ،وشجاعة ،بل انه يتصورهم جنسا وصنفا ليس من صنف البشر .

وعند ما كان الأطفال يتحلقون جماعات جماعات حول البركة يصنعون لعبهم من الطين والخشب بواخر نقل وبواخر تجارية . واقترح كل واحد منهم أن يطلق اسم خاص على باخرته وأبى مراد الا أن يطلق على باخرته اسم الأوراس لأنه جبل عظيم هذا الجبل الذي انطلقت منه أول رصاصة في أول نوفمبر ضد الاستعمار الفرنسي من أجل ذلك فقد أختاره (مراد) من بين جميع الأسماء ليكون اسما مفضلا لباخرته ولما يحمله هذا الجبل من رموز وايحاءات

بين الطرفين باستثناء تلك الاجتماعات التي أقامها بعض الفدائيين في المقبرة والتي تدعو الى ضرورة تشديد الكفاح ضد الاستعمار. أما سوى ذلك فلا نجد شيئا ذا بال يؤكد على التفاف والتحام الشعب بالثورة . ثم من جهة أخرى لم يذكر المؤلف الأسباب والدوافع التي كانت سببا مباشرا أو غير مباشر لقيام الثورة التحريرية . ولا شك أن المؤلف يدرك تمام الادراك أن ظروف القهر والحرمان والاستغلال والتخلف والجهل وفساد الحياة السياسية هذه الأمور كلها جعلت الشعب ينفجر كالبركان . ويعلنها ثورة عارمة على الظلم والفساد والاستعمار البشع ،واضطر الشعب الجزائري الى اعلان شتى ضروب المقاومة والكفاح شاهرا سلاح العنف الثوري ضد قوات الاحتلال الفرنسي . مطالبا بالحرية والاستقلال في ظل الحياة السعيدة والعيش الكريم .

وفي مجال الكفاح المسلح كنا نود أن ينقلنا المؤلف الى المعارك التي خاضها جيش التحرير الوطني ضد قوات الاستعمار . فيصف لنا جو المعارك المنيفة والصدامات الدامية بين المتحاربين . ويبرز بطولات جيش التحرير الوطني في قالب قصصي فني مشوق باعتبار أن اطار الرواية كان في فترة الثورة المسلحة وبالضبط في أيام عنفوانها الشديد ،وصراعها المنيف. فالرواية لم تشر حتى اشارة خفيفة الى ذلك العنف الثوري المسلح والغضب الجماهيري المتأجج ضد الاستعمار وأذنابه . كما أن الرواية لم تذكر فئات الجماهير التي تكافح وتناضل حتى تحقق طموحاتها وتطلعاتها . وانما اكتفى المؤلف في روايته بتصوير مشاعر وأحاسيس طفل صغير سلبي وساذج ينقصه الوعي والادراك وقلة التجربة وعدم المعرفة تجاه الثورة وأحداثها . ويتغلب عليه الخجل والحياء في جميع مواقفه وسلوكه وينظر الى الثورة نظرة حيرة وتردد ومع ذلك رسمه المؤلف بدون ملامح جسدية أو نفسية وهذا لا ينطبق على (مراد) فقط وانما ينطبق على جميع شخصيات الرواية . وكان (مراد) بمثابة عين الكاميرا

ننظر من خلالها الى الثورة التحريرية وأحداثها عبر مواقف هذه الشخصية السلبية تجاه الثورة والمجتمع .

ولعل (مرزاق بقطاش) أحس بهذا النقص وذلك العيب الذي وقع فيه وتقصيره في نظرته الى الثورة فاعترف في حوار له أجرته معه مجلة الوطن العربي . اذ صرح بالحرف الواحد بأن (رواية الثورة الجزائرية يكتبها الجيل المقبل .) (1)

والسؤال المطروح ما الذي كان ينقص (مرزاق بقطاش) حتى يؤجل كتابة رواية الثورة الجزائرية الى الجيل المقبل مع أن كل الشروط الضرورية في كتابة رواية ثورية متوفرة لديه . وما هي المثبطات التي جعلته يتخلف عن الركب ويترك زمام المبادرة تفلت من يديه فيحجم عن تحقيق هذا المشروع الهام ! ليكتب رواية تكون في مستوى عظمة الثورة الجزائرية ؟ وهو فعلا قد عالج الثورة الجزائرية في روايتيه (طيور في الظهيرة) و (البزاة) . لكن هذا التناول فيه كثير من لتقصير والاهمال وقلة العناية والاهتمام ولم يرق الى المستوى المطلوب !

الشكل الفني للرواية

تقع رواية (طيور في الظهيرة) لـ (مرزاق بقطاش) في 120 صفحة تتصدرها مقدمة للروائي (الطاهر وطار) . نوه فيها بهذه الرواية الأولى للمؤلف ، وتحتوي الرواية على سبعة فصول وقد اعتمد المؤلف فيها على الشكل الكلاسيكي القديم . مركزا على الشخصية المحورية الوحيدة وهي شخصية (مراد) التي تتركز حولها جميع الأحداث والمواقف . مفضلا في ذلك السرد

---

1 - مجلة الوطن العربي عدد 342 سبتمبر 1983 .

— وأبعاد ودلالات عميقة .

ولذلك يقول (مراد) في هذا المعنى (جبل الأوراس عتيد وسيبقى عتيدا . . . من المستحيل ألا يكون جبل الأوراس جبلا عتيدا ! وانطلقت حنجرته بالنشيد فتبعه الأطفال حول الحركة ، فيما كان جوني يضرب الأرض بقدميه موقعا توقيعا عسكريا ، ويحرك يديه حركة منتظمة .) (1)

ان المؤلف حاول ابتداء من الفصل السادس من الرواية أن يدفع الأحداث الى الأمام ويطور من شخصية بطله (مراد) فيعمق من احساسه وشعوره نحو المجاهدين فيجعله أكثر وعيا وادراكا عما كان عليه من قبل فنراه يدرك أشياء كثيرة كانت من قبل غامضة ومبهمة عليه . وما عتم المؤلف أن دفع ببطله (مراد) الى قلب الأحداث الساخنة الى جو الجموع الغفيرة لدى الاحتفال بالذكرى الثانية لثورة نوفمبر الخالدة حيث تناول الخطباء أمام تلك الجموع الخطب الحماسية يحثون فيها المواطنين على التعبئة العامة للمجهود الثوري . والتحريض على الكفاح المسلح ، ضد الاستعمار الفرنسي . واليقظة التامة ، لاحباط كل الدسائس والمؤامرات التي تحوكها أجهزة القمع والارهاب ضد الجماهير الشعبية .

ولأول مرّة يتعمق احساس (مراد) وتتفتح مداركه ومواهبه على أشياء جديدة ، ومعلومات مفيدة لم تكن لتدور بخلده أبدا في ماضي الأيام فقد أطلع (مراد) مثلا على الاجتماعات التي كانت تقام للاحتفال بمناسبة ذكرى أول نوفمبر . وأدرك ما معنى كلمة نوفمبر . وعرف معاني الكفاح والاستعمار ، والحرب ، كما عرف معنى الوطن الذي طالما تغنى به في أناشيده الوطنية الحماسية بدون وعي ولا ادراك منه .

---

1 ـ طيور في الظهيرة . ص : 93 .

والآن فانه قد عرف معاني كل هذه الأمور ومراميها وأهدافها عرفها عن كثب لأنه حضر بعضا من تلك الاحتفالات المقامة بمناسبة أول نوفمبر فاقترب (مراد) من المجاهدين وسمع خطبهم ووعى كلامهم وتحادث معهم بعد أن كان يتصور أن هذه الأمور كلها بالنسبة اليه كانت بعيدة المنال وعسيرة التحقيق . ولذلك فقد أخذ (مراد) على نفسه عهدا بأن يشرح للتلاميذ كل ما يعرفه من أمور عن أول نوفمبر وما يدور حوله من قريب أو بعيد .

وكان هذا سببا مباشرا في ترك (مراد) للألعاب وكره تلطيخ يديه بالطين فأعرض عن ذلك اعتقادا منه بأنه أصبح مسؤولا عن تبليغ الأطفال كل ما سمعه عن المجاهدين . وفي نهاية الرواية نرى (مراد) يصاب بنوبة عصبية ألزمته الفراش ، اثر مروره بعسكريين اثنين : أحدهما كان مقتولا والآخر في حالة احتضار اثر حادث اشتباك بين الفدائين وعساكر الاستعمار في الشارع الذي يمر منه (مراد) الى بيته ، وقد صعق لذلك واتجه الى بيته في غاية الذهول وتختتم الرواية عندما يفيق (مراد) من غيبوبته . وكان أول عمل قام به هو أنه (أخرج كراسه من محفظته . وتناول قلما أحمر . . . قرب القلم من شفتيه ، وجعل يضغط على طرفه بأسنانه ، وسرعان ما التمعت عيناه ، فانحنى على الكراسة ليخط عليها ، من جبالنا طلع صوت الأحرار ينادينا . ينادينا للاستقلال ، لاستقلال وطننا .) (1)

والغريب أن المؤلف قد أهمل دور الشعب الجزائري في روايته فلم نجد في هذه الرواية أية اشارة الى النضال الشعبي والكفاح السياسي والغليان الثوري في بيئة الرواية علما أن البيئة التي تدور فيها الرواية هي العاصمة التي تجمع بين المتناقضات السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية فالرواية تخلو من النضال الشعبي والصراع الطبقي خلوا تاما . ثم ان هناك انفصاما تاما بين الشعب والثورة التحريرية ، فليس هناك أي تلاحم أو اتصال

1 - طيور في الظهيرة ، ص : 120 .

التقريري المباشر من بداية الرواية الى نهايتها . وكان حظ الاساليب التقنية الفنية الاخرى ضئيلا أحيانا ومنعدما أحيانا أخرى وأستخدم المؤلف الحوار بقدر يسير جدا معتمدا على السرد وحده . والرواية تفتقر الى أهم الاساليب والتقنيات الروائية المعاصرة .

أما في مجال اللغة فهناك أخطاء كثيرة لغوية ونحوية واملائية بامكان القارئ أن يكتشفها بنفسه ،لانه لا يتسع المقام هنا لذكرها .

وختاما يمكن أن نصف رواية (طيور في الظهيرة) بأنها رواية كلاسيكية الشكل ورومانسية المضمون ،وان كانت تدور أحداثها في فترة الثورة التحريرية المسلحة وكان المفروض أن تكون رواية ثورية شكلا ومضمونا . غير أن ما حدث كان هو العكس تماما !؟ وأخيرا تبقى رواية (طيور في الظهيرة) أقل نضجا وعمقا في مستواها الفكري والفلسفي والثوري والفني من روايات (الطاهر وطار) و (عبد الحميد بن هدوقة) محتلة بعدهم المرتبة الثالثة في هذا المجال .

نـــار ونـــور (1)

د . عبـد المالك مرتـــاض

ملخـــص الروايـــة :

(نار ونور) هي أول رواية لـ (عبد المالك مرتاض) تجري أحـــداث هذه الرواية في حي شعبي يدعى حي (سيدي الهواري) بمدينة وهـــران. واطار الرواية الزمني هو الثورة التحريرية الكبرى . وهذا الحي الشعبي قديم وفقير لا يسكنه سوى الجزائريين من الطبقات الكادحة من عمال وفلاحـــين وموظفين صغار وحرفين تقليديين . والبطل الرئيسي في هذه الروايـــة هو (سعيد) الطالب الثانوي في قسم البكالوريا ،وتشاركه في البطولـــة الرئيسية في الرواية (فاطمة) ابنة خاله (قدور) ، وكانت (فاطمة) تبادل (سعيدا) الحب سرا دون أن تجهر به . وكان الاثنان يعملان في النضال الفدائي . وما من يوم يمر الا ويزداد (سعيد) حيوية ونشاطا . وهو أثناء ذلك يحاول باستمرار أن يبث الوعي والحماس في صفوف الطلبة ويدعوهم الى ضرورة الانضمام الى العمل الفدائي . وقد لبى بعض الطلبة نداءه وكونوا مجموعـــة فدائية ،وأمدتهم (فاطمة) بالسلاح الذي كان مخبئا عند أبيها وكان أول عمل فدائي قام به (سعيد) هو القاء قنبلة في ملهى المدينة الـــذي يؤمه المرتزقة . فأحدثت خسائر مادية وبشرية ولم يكتف (سعيد) بهـــذا بل قاد مظاهرة شعبية صاخبة ،جابت شوارع مدينة وهران وسقوط شهيدا في ساحة المدينة أثناء المظاهرة . أما (قدور) فقد داهمته فرقة من المظليين ليلا ، فأخذته عنوة من منزله لتزج به في ظلمات السجن ، ليتجرع ألوانا من

---

1 - صدرت رواية " نار ونور "عام 1975 دار الهلال القاهرة .

التعذيب الوحشي هناك . وما لبث أن لفظ أنفاسه الأخيرة ملتحقا بقوافل الشهداء الذين ذهبوا ضحية القمع والارهاب الذي سلطه عليهم الاستعمار الفرنسي .

هذا وتتخلل الرواية مناقشات كثيرة حول قضايا عديدة . ودارت جل هذه المناقشات بين الأستاذ الفرنسي و (سعيد) من جهة ،و (سعيد) و (فاطمة) من جهة ثانية ،و (سعيد) والطلبة من جهة ثالثة .و(سعيد) والضابط الفرنسي من جهة رابعة .

وفي الرواية شخصيات ثانوية كشخصية (قدور) والهواري)و (عمر) وغيرهم وطبعا هناك شخصيات هامشية كشخصيات أم (فاطمة) وأم (سعيد) وأخته (خديجة) والمحوز (حلومة) . .الخ .

الشخصيات :

شخصية سعيد .

ان البطل الرئيسي في رواية (نار ونور) هو (سعيد) الطالب الثانوي ، كما أسلفنا الذي يبدو ومنذ اللحظة الأولى من الرواية متمردا على دراسة اللغة الفرنسية رافضا أساليبها وبرامجها جملة وتفصيلا . يبرز ذلك بوضوح في المناقشة حول سير الدروس والامتحانات ثم تحولت بعد ذلك الى قضية التعريب والصراع الدائر بين العربية والفرنسية وأيهما أصلح وأقدر على البقاء .

على أن (سعيد) لم يقف عند حد نفوره من الدراسة الفرنسية بل انه راح يحث الطلبة على مغادرة مقاعد الدراسة والانضمام الى صفوف مجموعة الفداء والعمل الثوري ضد الاحتلال الجاثم على صدر الوطن ذلك لأنّ مصلحة

الوطن فوق كل اعتبار .

وهكذا يندفع (سعيد) في المغالاة والحماس الشديد فيطمح طموحا جامحا يصل به الى درجة الوهم فيود أن يثور الشعب الجزائري كله ضد الاستعمار ليطرده من الوطن في مدة أسبوع فقط . يقول (سعيد) في هذا المجال :

(كان أولى بهذا الشعب أن يثور في يوم واحد .. أما بالجوع المستمر، واما بالاضراب المستمر ،بالاضافة الى حمل السلاح ،اذن لتخلص من هذا الاستعمار في مدة لا تزيد على أسبوع).(1)

وأول عمل فدائي قام به (سعيد) هو القاء القنبلة اليدوية في ملهى المسرح بمدينة وهران فكبد فرقة اللفيف الأجنبي خسائر مادية وبشرية

وقد انتهت حياة (سعيد) نهاية مأساوية حيث أن المؤلف قتل بطله أثناء المظاهرة . ولم يمهله حتى يحقق الحلم الذي طالما راوده ،وهو الالتحاق بصفوف جيش التحرير الوطني ،لمكافحة الاستعمار ،في الجبال الشم . لكن نظرة المؤلف التشاؤمية جعلته يعجل بقتل البطل دون تحقيق الأحلام والطموحات المرجوة ؟!

شخصية فاطمة :

أما الشخصية الثانية الثورية في الرواية فهي شخصية (فاطمة) زميلة (سعيد) في الثانوية فقد لعبت هذه الشخصية دورا بارزا في أحداث الرواية

---

1 - نار ونور . ص : 31 .

خصوصا وأنها هي التي قاسمت (سعيد) الجزء الأكبر من أحداث الرواية .

ان المؤلف يحاول ابراز شخصية المرأة الجزائرية ودورها في النضال والفداء من خلال شخصية (فاطمة) فأسند اليها دورا بارزا لا يقل أهمية عن دور الرجل حيث أنها أظهرت كفاءة عالية في توعية وتنظيم صفوف النساء استعدادا للمظاهرة .

أما فيما يخص علاقة الحب بين (سعيد) و (فاطمة) فكان كل منهما يكن في نفسه أضعاف ما يكنه الاخر من عشق ومحبة لكن لا يجرؤ أحدهما أن يبوح عما يختلج في صدره للاخر .

والغريب أن (فاطمة) تبنى قصورا جميلة في الليالي الطوال ثم لا تلبث أن تتهدم هذه القصور وتذبل ورودها وأزهارها عند طلوع الشمس وعندئذ تتبخر أحلامها وتتبدد أوهامها . لماذا ؟

لأنَّ (فاطمة) ببساطة كانت متقوقعة على ذاتها سلبية في مواقفها تجاه حبيبها تنفر منه كلما أراد الاقتراب منها ،ولا تسمح له أبدا أن يخوض معها حديث الحب ،وما يدور به من قريب أو بعيد . فهي تقول له باستمرار عندما تقابله : (فما أنت والحب ؟ وما أنت وهذه العاطفة المجنونة الجارفة التي تبدل حياة الانسان تبديلا غريبا ، وتتحكم فيها تحكما أعمى حتى تعيث فيها فسادا) (1) أو تقول له في موضع آخر وهي في حيرة من أمرها : (ولكن الزمان ليس زمان حب).(2)

---

1 - نار ونور . ص : 133 .

2 - نفس المصدر . ص : 136 .

على أن نظرة (فاطمة) نحو الحب لا تختلف كثيرا عن نظرة قريبهما (سعيد) فهو الآخر ينظر الى الحب نظرة فيها كثير من التزمت والانغلاق. فهو يتهرب من (فاطمة) ولا يريد استمالة قلبها نحوه .

ان المؤلف قد وضع الحواجز والسدود أمام طريق الحب الذي بين (سعيد) و (فاطمة). فلم يستطع أحدهما أن يبدي حراكا تجاه الآخر .

وهكذا فقد فشل المؤلف فشلا ذريعا في أن يوائم بين الحب والحرب فلم يستطع أن يفصل كما فصل غيره ،من كتاب الرواية العالميين من عرب وأجانب في مزج علاقة الحرب بالحب وما بينهما من ارتباط وثيق . واذا ما ألقينا نظرة متأنية حول الروايات التي تناولت قضية الحرب والحب فاننا نجد كثيرا من هؤلاء الروائيين مزجوا بين الحرب والحب ونجحوا في ذلك نجاحا عظيما . والروايات التي تطرقت الى هذا الموضوع بالذات كثيرة ومتنوعة ،ولكن نقتصر على القليل منها ،ولنأخذ مثلا رواية ، (في بيتنا رجل) لـ (احسان عبد القدوس) الذي فسح المجال واسعا أمام بطليه (ابراهيم حمدي) المناضل الثوري وعشيقته (نوال زاهر) . فهذان البطلان يمارسان الحب بدون قيد أو شرط رغم ظروفهما التي كانت صعبة للغاية اذ أن البوليس السياسي يضيق عليهما الخناق بشدة ويحصي عليهما حركاتهما وسكناتهما بدقة متناهية . ورغم ذلك تبادلا الحب والعواطف . ونجد نفس الشيء لدى (حمزة) و (فوزية) في رواية (قصة حب) لـ (يوسف ادريس).

فقد استطاع المؤلف أن يفتح الباب على مصرعيه أمام (حمزة)و (فوزية) ويجعل علاقتهما تخترق الحصار المضروب عليهما من قبل قوات القمع والارهاب، ويتمتعان بلحظات سعيدة تخللتهما قبلات حارة رغم برودة الشتاء.كان هذا بالنسبة للرواية العربية .

أما في الرواية العالمية فنقتصر على مثال واحد فقط يصور علاقة الحب في أجلى معانيها وأبهى صورها ،رغم صوت المدافع وأزيز الطائرات واشتعال نيران الحرب في السهل والجبل وتتجلى تلك العلاقة بوضوح شديد في رواية (وداعا للسلاح) للكاتب الامريكي (أرنست همنغواي) الذي صور هذه العلاقة تصويرا بارعا ورسم بريشة الفنان القدير تلك اللمسات الرائعة التي جمعت ما بين (هنري فردريك) وعشيقته (كاترين) . فكانت هناك لقاءات بينهما متتالية تعد من أمتع وأجمل اللقاءات بين المتحابين . قلما نجد لها مثيلا في الآداب العالمية . فهؤلاء الأبطال والبطلات لم يقل أحد منهم في يوم ما . (فما أنت والحب ؟ وما أنت وهذه العاطفة المجنونة الجارفة) أو تقول (ليس الزمان زمان حب) كما قالت (فاطمة) ومعها المؤلف ، بل امتزجت عاطفة الحب بنيران الحرب امتزاجا قويا وتفاعلت تفاعلا شديدا وهذه هي سمة الفن الأصيل والتجربة العميقة . وهناك بون شاسع وفرق كبير بين من يتناول العمل الفني بفكر عميق ورؤية ثاقبة وتجربة خصبة يغوص من خلالها الى الأعماق فيصور المشاعر والأحاسيس الداخلية بأمانة وصدق كما فعل الروائيون العالميون الكبار . وبين نظرة سطحية ساذجة تفتقر الى الصدق والعمق والموضوعية وهي نظرة (عبد المالك مرتاض) التي تناول بها علاقة الحب بين (سعيد) و (فاطمة) تناولا فيه كثير من التكلف والافتعال . وفيه كثير من التضييق والانغلاق . وباختصار انها نظرة رجعية متخلفة جدا ؟!

يقول أحد النقاد واصفا هذه العلاقة (والعلاقة بين المرأة والرجل ، أو بين " سعيد " وقريبته " فاطمة " التي تريد صفحات الكتاب أن تطبعها في أذهاننا ،تبدو في غاية السذاجة والتفاهة واللامعقولية . لقد أراد لها الكاتب أن تكون يوتوبية أفلاطونية سماوية ،لا يمكن لها أن توجد على مستوى

البشر الماديين وبين الناس الطبيعيين ،حب شفاف ،هلامي ،بين شباب في فورة الشباب ،والانفعال والفتوة ،والقوة . وفتاة في قمة نضجها الأنثوي ،الفترة الحساسة جدا ،الفوارة أبدا ،القادرة دوما على العطاء والأخذ في آن معا ،المكثفة بالحيوية والتدفق والانطلاق والممارسة .)(1)

أما بقية الشخصيات الأخرى في الرواية . مثل (عمر) و(الهواري) و (قدور) وغيرهم من أبطال الرواية فهم شخصيات باهتة ضعيفة غير فعالة وغير مؤثرة في الأحداث والمواقف أو متأثرة بها . أما شخصية العجوز (حلومة) و (خديجة) أخت (سعيد) واليهودية معلمة اللغة العربية وأستاذ الفرنسية ، كلها شخصيات ينبغي حذفها والاستغناء عنها دون أن يتأثر البناء الفني للرواية .

وعن رسم الشخصيات يقول أحد النقاد :(فالشخصيات غير واضحة ولا محددة : لا شكلا ولا هدفا . ولا مبرر لوجود بعضها . اذ نلاحظ أنها جميعا مسطحة ، وتجرى كلها على وتيرة واحدة . لا فرق مطلقا بينها ، لأنها غير موجودة أصلا الا في ذهن المؤلف ،متصورا أنها خرجت عن دائرة هذا الذهن الضيق ، بينما هي ما تزال تعشش فيه تنام أو تستريح أو تدور داخله ،وتنطلق بلسانه وتعبر عن آرائه المتخلفة جدا ،ونظراته التقليدية أبدا ،ورؤيته المتحجرة الجامدة . فان ما يتفوه به عمر هو نفسه ما يقوله سعيد ،هو بعينه ما تذكره فاطمة ،هو بذاته ما يفرضه المؤلف على الهواري ، وما ينشره نشرا في كل سطر من سطور هذه الصفحات بمعنى أنه لا توجد ملامح نفسية أو فكرية أو جسدية أو أخلاقية ،تميز كل شخصية عن الأخرى بل ان الأدوار المرسومة لها جميعا واحدة ،وما يصدر عنها لا يكشف عن اختلاف وتباين . ومن ثم فان القارئ لا يألف الشخوص ،ولا يقدر على معايشتها

---

1 - [illegible] الفساح ،الثورة الجزائرية في رواية تاريخية ،الآداب عدد 1 جانفي 1978 . بيروت . ص : 71 .

ولا يملك أدنى وسيلة تجعله يصدقها .) (1)

وليس هذا فحسب بل ان شخصيات الرواية كلهم بدون استثناء شخصيات مسطحة ثابتة لا تتغير ولا تتطور من بداية الرواية الى نهايتها وقد ولدت مكتملة دفعة واحدة دون أن تنمو وأن تكبر مع المواقف والأحداث وفضلا عن ذلك فقد سلبها المؤلف حرية الحركة والحديث والتصرف فغدت شخصيات كرتونية مجوفة يصب فيها المؤلف آراءه وأفكاره كيفما شاء وحيثما أراد .ولذلك جاءت هذه الشخصيات بلا ملامح ولا سمات خارجية وبدون أعماق ولا أبعاد ولا جذور داخلية . وتفتقر من ناحية أخرى الى الخصائص النفسية والخلفيات الاجتماعية التي تتجسد فيها الثورة في أسمى معانيها وشتى أبعادها .

وفي هذا المعنى يشير بعض الدارسين الى قضية رسم الشخصيات في رواية (نار ونور) فيقول : (ان مثل هذا التطرف في المواقف ، وهذه المثالية في الرواية ،وهذه المبالغات في التعبير ،من شأنها أن تجعل من شخصيات الرواية شخصيات غير نامية ولا واعية ،ولأن المؤلف يتحكم فيها من الخارج ،ويسقط عليها من أفكاره ومواقفه وينطقها متى شاء.وهو أمر أقل ما يقال فيه أنه يفقد الشخصيات ارادتها وقدرتها على التفكير والحركة . فكل شيء للمؤلف . وليست هذه الشخصيات بالنسبة اليه الا أبواقا ، أو آلات طيعة تنقاد اليه في الاتجاه الذي يريد . ونحس بهذه الظاهرة احساسا ملحا في كل فقرات الرواية ،ونتبين مواقف الأستاذ مرتاض وأفكاره في أكثر ما تنطلق به شخصياته .) (2)

---

1 ـ د . سيد حامد النساج ،الثورة الجزائرية في رواية نارية مجلة الآداب عدد 1 جانفي 1978 . بيروت . ص : 69 ـ 70 .

2 ـ د . محمد مصايف ،الرواية العربية الجزائرية الحديثة . ص : 160 .

وهكذا وبعد ما حللنا مواقف شخصيات الرواية وركزنا على مواقفهـا وسلوكاتها الخاصة والعامة . يجدر بنا أن نحلل المواقف الثورية في الروايـة. اننا اذا بحثنا عن الموقف الثوري في رواية (نار ونور) لـ (عبد المالك مرتاض) فاننا لا نظفر الا بمجموعة من الآراء والنظريات الخيالية التي ليس لها وجود على أرض الواقع ،ولم تترجم هذه المواقف والآراء والأفكار الى أفعال وممارسات ومعاناة على أرض الواقع المعاش . فهي اذن مناقشات معلقة في فراغ بين مجموعة من طلبة الثانوية أرادوا أن يثوروا على السلطـات الاستعمارية عن طريقتهم الخاصة بدون تكليف من قادة جبهة التحريـر الوطني . انما يلاحظ القارئ أن هؤلاء الطلبة هم الذين يخططون وينفذون دون اللجوء أو الاعتماد على الثورة التحريرية أولا وعلى الشعب الجزائري ثانيا ا

فالمؤلف هنا جعل (سعيدا) في موقف حساس جدا فهو الذي يصدر الأوامر ويبت في القضايا المصيرية التي تهم الفرد والمجتمع وهو بالتالي القائد والمسؤول عن الشؤون السياسية والعسكرية - حسب مارسمه المؤلف - أمـا الثورة فهي قابعة في الجبال معزولة عن المجتمع . والشعب في واد والثورة في واد آخر في شبه قطيعة بينهما فلا التحام ولا اتصال بينهما . بل ليس لها دور يذكر في القتال الحربي والنضال السياسي حسب رأي (سعيد) ومعه المؤلف . ومن جهة أخرى يقول (سعيد) في غرور وخيلاء : (ولتعلم أننا اذا تواكلنا ،أو توانينا في دفع عجلة هذه الثورة المباركة ،فسنظل عبيدا الى الأبد فالجزائر لا تعول على هؤلاء الذين يربضون بالجبال وحدهم.) (1)

ويبدو أن المؤلف ناقم على جبهة التحرير الوطني ،اذ جردها من مسؤلياتها السياسية والعسكرية ونضالها الثوري المتواصل على كافة الأصعدة

---

1 - نار ونور . ص : 14 .

وجميع المستويات . ومنح هذه المسؤوليات الجسام الى مجموعة من الطلبة المراهقين الذين يغلب عليهم التسرع والاندفاع في الآراء ، والارتجال في المواقف . فضلا عن نقص التجربة وقلة الخبرة . ورغم ذلك كله . فان (عبد المالك مرتاض) يجعل هؤلاء الطلبة الذين لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة . فوق قمة هرم الثورة ومن أعلى مستوياتها . يقول المؤلف مبالغا في وصف الطلبة (ان الطلاب ،طلابنا كغيرهم من سائر طبقات الشعب بل لا أرتاب في أن هؤلاء الطلاب أحسن عناصر الثورة عند الشعب .) (1)

واذا كان طلبة الثانوية هم أحسن عناصر الثورة - كما يرى المؤلف - فماذا يبقى اذن لقادة جبهة التحرير الوطني ؟ وما فائدة مكوثهم في الجبال هناك اذا كان طلبة الثانوية يتحملون عنهم المسؤوليات الجسام الملقاة على عاتقهم فيقومون عوضا عنهم بطرد الاستعمار وتطهير البلاد من أرجاسه وأذنابه .- حسب ما يعتقد المؤلف ،وهو أعتقاد يعد ضربا من الأوهام !

واذا دققنا النظر في العمل الذي قام به هؤلاء الطلبة الذين جعلهم المؤلف أحسن عناصر الثورة فلا نعثر الا على حدثين اثنين قام بهما (سعيد) ورفاقه أولهما يتمثل في القاء قنبلة يدوية داخل الملهى الليلي الذي يقصده جماعة من المرتزقة وثانيهما تحريض (سعيد) على القيام بالمظاهرة في شوارع وهران . أما ماعدا ذلك فلا أكثر من سب وشتم للسلطات الاستعمارية الفرنسية . ثم ان المؤلف بعد ذلك عمد الى تضخيم الامور الصغيرة ، وجعل من الحبة قبة . فمن خلال مظاهرة صغيرة قام بها مجموعة من الطلبة وأخرى من المرتزقة ،سقط خلالها عدد من الافراد قتلى وجرحى بين الطرفين

---

1 - نار ونور . ص : 33 .

كما يحدث عادة .

الا أن المؤلف يتيه زهوا وخيلاء لهذا الحدث البسيط بالنسبة للشورة ،فيقيم الدنيا ويقعدها من أجل شيء بسيط جدا. اذا ما قارناه بعظمة الثورة العملاقة وبطولات جيش التحرير الوطني الخارقة ، التي الحقت الهزائم الثقيلة في صفوف الجيوش الفرنسية المتسلحة بعدة الحرب العصرية ، وفنون القتال المستحدثة .

وكنا نود من المؤلف أن ينقلنا الى المعارك الطاحنة التي خاضها جيش التحرير الوطني والمواجهات الحادة ضد الطائرات والدبابات ووسائل الفتك والدمار المختلفة . كالقنابل الفوسفورية الحارقة والنابالم المدمر التي كان يصبها الاستعمار بالأطنان فوق الجبال على رؤوس جيش التحرير الوطني .

كما أن المؤلف لم يشر الى تلك الاشتباكات المسلحة التي تدور بين جيش التحرير الوطني ،وقوات الاحتلال الأجنبي ،في السهل والجبال.لكن المؤلف صب جل اهتمامه على تلك المظاهرة وأحاطها بهالة من المبالغة والتضخيم وجعل أبطالها كأبطال أفلام رعاة البقر في أمريكا (الواستيرن) يقتحمون المعارك والأهوال دون أن يصيبهم أو يلحقهم أي أذى يذكر. بل انك ترى الواحد منهم يخرج منتصرا ظافرا اثر كل معركة .ولعل المؤلف كان متأثرا بهم فصور أبطاله مثل أبطال رعاة البقر !

ولعل المثال التالي الذي نسوقه يوضح بما لا يدع مجالا للشك في أن المؤلف مغرم بتضخيم الأشياء البسيطة الى حد المبالغة التي تفوق كل تصور. وما (عمر) الا واحد من أبطال (الواستيرن) أنظر كيف يصف المؤلف بطله :

(عمر) يلقي قنبلة على جماعة من المرتزقة ،وعاد يجري كأنه الشيطان الذي لا يصاب .. طورا يعدو على رجليه ،وطورا يحبو على يديه ،وطورا آخر يمشي مشيا عاديا أو شبيها بالعادي . وكان الذين ينظرون اليه لا يستطيعون أن يميزوا . أهو انسان روحا ودما أم هو انسان اصطناعي لا يسخر رجليه في المشي كالبشر ،وانما يسخر كل عضو من أعضائه في سيره القريب المذهل .) (1)

ف (عمر) في صورة شيطان مرة ،وفي صورة انسان آلي مرة ثانية وفي هيئة شبح مرة ثالثة ،ويصف المؤلف بطله الآخر (سعيد) بقوله :

(أما سعيد فقد كان كالصاعقة التي تذهل ،فتحرق ،فتمضي ،لا يعرف أين ذهبت ومن أين أتت . فقد قتل ثلاثة وجرح آخرين ،ثم اختفى من على الارض .) (2)

وفي هذا المعنى يلح بعض النقاد على أن ترسم الشخصية بدقة موضوعية وبدون زيف أو افتعال أو مغالاة . حيث يقول : (سنتوقع من الشخصية أن تكون شخصية انسانية وليست ملائكية أو شيطانية ،وأن تكون أفعالها خاضعة للمنطق الانساني وللتفسير والتعليل ،وأن تكون شخصية نامية ومتطورة ،وألا يجعلها المؤلف وحيدة معزولة متضخمة مسطحة والا يخضعها لمؤثر وحيد ،يحد من حركتها وخصوبتها ،ولا يحملها بصفات تجعلها شاذة متفردة تماما عن غيرها من سائر البشر .) (3)

أما التعذيب الوحشي الذي كانت تمارسه أجهزة القمع والارهاب الفرنسي

---

1 - نار ونور . ص : 124.

2 - نار ونور . ص : 124

3 - د . عبد المحسن طه بدر: نجيب محفوظ ،الرؤية والاداة . ص : 28 .

ضد المناضلين الثوريين الجزائريين داخل السجون والمعتقلات ومراكز التعذيب المنتشرة عبر أنحاء الوطن فقد كان من بين ضحاياه (قدور) والد (فاطمة) الذي اتهم بأنه يعمل لصالح الثورة وكان من قبل يعمل في سلك الدرك الفرنسي . فألقي عليه القبض وزج به في السجن ليتجرع صنوفا من التعذيب الذي يفوق كل تصور حتى لفظ أنفاسه الاخيرة. يقول المؤلف في وصف التعذيب الذي تعرض له (قدور) على أيدي زبانية التعذيب الجهنمي (وكان هذا التعذيب الذي سلط على قدور ،من جنس التعذيبات التي كانت تسلط على أجسام الوطنيين الجزائريين . بيد أن هذا قد بالغ فيه المطليون وأمعنوا . وقد علم (سعيد) أن هذا التعذيب كان همجيا أقبح من تعذيب الوحوش الحاقدة . وقد كان نوع هذا العذاب مما تستحي أن تكتبه الاقلام ،وانما تقوله الألسن في مجالس خاصة في شيء كثير من التقزز والخجل . .) (1)

في هذه الفقرة قدم لنا الدكتور (عبد المالك مرتاض) وصفا تقريريا تسجيليا جافا عن التعذيب الذي تجرعه (قدور) دون أن يتغلغل المؤلف في أعماق هذه الشخصية عبر مونولوج داخلي يبرز فيه ما تعانيه هذه الشخصية من مرارة وعذاب وآلام وبالتالي تعبر هذه الشخصية عن مشاعرها وأحاسيسها الداخلية دون تدخل من المؤلف بتاتا . ولم يستفد المؤلف من تجربة (الطاهر وطار) في رواية (اللاز) حيث أنه فسح المجال واسعا لبطله (اللاز) يعبر عما كان يعانيه من آلام التعذيب الذي يفوق طاقة البشر . وكان (اللاز) يعبر عما يختلج في أعماق نفسه بدون تدخل من المؤلف وانما عبر المونولوج الداخلي فنقل لنا مشاعره وأحاسيسه من داخل أعماق نفسه المعذبة وجسده المنهار . وأعطانا المؤلف صورا تشمئز منها

---

1 - نار ونور ، ص : 148 - 149 .

النفوس وترتجف لها الأبدان لهول صور التعذيب .

ونفس الشيء سجله (احسان عبد القدوس) في روايته (في بيتنا رجل) حيث صور ذلك التعذيب الذي تجرع مرارته (محي زاهر) وابن عمه (عبد الحميد) فجسد لنا المؤلف هذا التعذيب بصورة واضحة . نكاد نلمسها بأيدينا ونراها بأعيننا . لا كما فعل (عبد المالك مرتاض) في تسجيله لذلك التعذيب الذي تلقاه بطله (قدور) .

فالمؤلف اذن لم يعطنا صورة واضحة عميقة عما كان يلاقيه السجناء داخل الزنزانات والسجون والمعتقلات الاستعمارية وانما اكتفى بقوله : (كان نوع العذاب مما تستحي أن تكتبه الاقلام ،وأنه يثير كثيرا من التقزز والخجل .) .

ونحن لا نوافق الدكتور (عبد المالك مرتاض) فيما ذهب اليه من أن هذا العذاب تستحي منه الأقلام فلا ينبغي كتابته بل بالعكس يجب تسجيله وبالحاح ليطلع عليه الخاص والعام وليعرف جيدا تلك الاساليب البشعة التي كانت تمارسها أجهزة القمع وزبانية التعذيب ضد الشعب الجزائري الذي ذاق صنوفا وألوانا شتى من التعذيب والتنكيل ،ونكتفي بذكر القليل منها . على سبيل المثال لا الحصر . فقد كان الشعب الجزائري يتعرض لأبشع صور التعذيب والتنكيل والاضطهاد أثناء الثورة التحريرية على أيدي زبانية التعذيب الجهنمي التي كانت تعذب السجناء بالصدمات الكهربائية والضرب المبرح والكي بالنار ،والجلوس على الزجاجة المكسرة والمسامير الحادة ،ونهش الكلاب ،وقلع الاظافر والاسنان ،والتغطيس في الماء المغلي والتجويع لغاية الموت ،وبتر الأيدي والأرجل والانوف والاذان وسمل العيون والأشغال الشاقة والاعدام ... الخ

الشكـل الفـني في روايـة نار و نـور :

اعتمدت رواية (نار و نور) في شكلها الفني على دعامتين أساسيتين هما السرد التقليدي العتيق والحوار الطويل الممل الذي لا يخدم الحدث الروائي ،ثم يأتي بعد ذلك الوصف التقريري الجاف وكانت كفة الحوار أرجح في هذه الرواية من السرد والوصف . اذ أن معظم الرواية يعتمد أساسا على المناقشات الطويلة جدا التي أثرت كثيرا على الشكل الفني في الرواية بشكل يدعو الى السأم والملل .

واذا ما حذفنا من الرواية تلك المناقشات البيزنطية والخطب المنبرية والوصف الانشائي والاستطرادات المتكررة . فان حجمها حتما يتقلص الى أقل من نصفها وبالتالي ينقلب حجمها حينئذ من رواية الى قصة قصيرة ذات حدث واحد ألا وهو قيام تلك المظاهرة التي جابت شوارع مدينة وهران تهتف بسقوط الاستعمار وتنادي بحياة الجزائر حرة مستقلة . أما القاء القنبلة في الملهى الليلي فذلك حدث بسيط عابر يستحق هو الآخر أن تكتب عنه قصة قصيرة على حدة . وماعدا ذلك كله فكلام فارغ يدخل تحت الشتم والسباب الذي كان يوجهه المؤلف للاستعمار الفرنسي والذي لا يمت بصلة الى الفن الروائي !

الأسـلوب واللغـة :

تزخر رواية (نار ونور) بالنبرة الخطابية والأسلوب المباشر الذي يعتمد أساسا على ابراز الشعارات والهتافات التي فرضت على شخصيات الرواية فرضا من الخارج ،ومن جهة أخرى يكثر في الرواية التضخيم والمبالغة الى حد الافتعال كما أشرنا من قبل . وكان الحشو والاستطراد هو السمة

الغالبة على أسلوبها ولغتها . ورواية (نار ونور) تنعدم فيها كما هو معروف الحرارة التي تلهب المشاعر والأحاسيس ، والتوهج الذي يفجر الطاقات الانفعالية . واذا خلت الرواية من الحرارة المتأججة والشحنات العاطفية المتفجرة ،فانها تتحول حتما الى صور جامدة ميتة لا نبض فيها ولا حركة . ذلك أن المؤلف لم يستطع أن ينفخ فيها العنف الثوري وقوة النضال الحربي الذي تتطلبه رواية تدعي أنها رواية ثورية أو التي تحاول - وان لم تنجح - أن ترسم جانبا من جوانب الثورة التحريرية العملاقة . لكنها لم ترق أبدا الى مستوى الثورة لأنها تفتقر الى الغليان الثوري والرفض والتمرد الشعبي وطابع العنف والقوة .

واذا ما انتقلنا الى لغة الرواية فاننا نجد المؤلف يبحث عن الكلمات العتيقة ويتصيد الألفاظ الميتة التي أكل الدهر عليها وشرب والتي لا يجري استعمالها الآن على ألسنة الناس اطلاقا !

وفي هذا المضمار يقول أحد الباحثين في رواية (نار ونور) :

(لقراءة هذه الرواية لابد من الصبر والا فان الفشل لك بالمرصاد ،فهناك أعمال يشدك اليها مضمونها الثري ،وهناك أعمال يشدك اليها شكلها الفني أما نار ونور فلا تتوفر علي أي منهما ،ولا نعتبر أن نار ونور لـ (مرتاض) قد أضافت جديدا للرواية الجزائرية الا ان كان هناك من يعتقد أن القدرة على نسج الجمل الانشائية والاشتقاقات اللغوية شرط كاف للاضافة.) (1)

وعلى هذا الأساس فان رواية (نار ونور) تنعدم فيها تماما اللغة المرنة

---

1 - محمد زتيلي ،مقدمة في الرواية الجزائرية ،الثقافة والثورة ،عدد 5.ص: 17، 18.

المليئة بالرموز والايحاءات الفنية كما أنها تخلو من الحركة الدرامية المؤثرة والصور الحية التي تحمل طاقات متفجرة قابلة للتفسير والايحاء .

وأخيرا فلغة الرواية خالية من الحرارة والصدق والعمق ،وبالتالي فهي لغة ينعدم فيها التشويق والاثارة والانفعال .

الممسوح

عرعار محمّد العالي

ملخص الرواية .

تحكي هذه الرواية قصة امرأة تسمى (رقية) لها ثلاثة أبناء من رجل يدعى (عيسى) ،وقد أصيبت هذه المرأة بمرض عضال فذهب بها زوجها الى المستشفى وهي بين الحياة والموت . وعولجت في المستشفى ولقيت عناية كبيرة من أحد الممرضين اسمه (محمد) ،ونظرا لاهتمام (محمد) ب (رقية) ورعايته لها رعاية كبيرة . فقد أحبته من كل جوارحها ،وتطور هذا الحب الى درجة الجنون . وأثناء ذلك زارها زوجها (عيسى) لينظر مدى تحسن صحتها ،غير أن (رقية)استقبلته استقبالا فاترا . ونظرت اليه بجفاء واحتقار ،وصارت تنفر منه . وتتغامز مععشيقها (محمد) . وبعد مدة قصيرة خرجت (رقية) مع (محمد) من المستشفى هاربة لتتزوج منه ،بعد ما هجرت زوجها (عيسى) ،وخربت بيتها وأهملت أبناءها وتركتهم لليتم والضياع نتيجة نزوة طائشة كانت لها عواقب وخيمة . وعاشت (رقية) مع (محمد) بعد ذلك أسوأ وأتعس أيام حياتها ،لأنّ حبها ل (محمد) تحول الى نفور وكراهية شديدة من الطرفين ،وأثناء زواجها ب (محمد) انجبت منه طفلا وأسمته (خليفة) وقد نشأ هذا الطفل نشأة تشرد وصعلكة لانعدام اهتمام والده بتربيته ،ولما كبر (خليفة) صار ينظر الى أبيه نظرة عقوق وعصيان . ومن جهة أخرى اشتد الخصام والخلاف بين (رقية) و (محمد) ،وقررت الانتقام منه فقتلته بمساعدة رجل غريب ،لها معه علاقة مشبوهة قتلته بمرأى ومسمع من ولدها (خليفة) ،

ثم فر ثلاثتهم الى الجبل . وبقي (خليفة) فترة في الجبل وواتته الفرصة المناسبة ليقتل ذلك الرجل الغريب الذي تآمر على قتل والده فقتله أخذا بالثار . ثم ان (خليفة) بعد مدة غير طويلة تعرف على فتاة ممرضة في الجبل تعالج الثوار ، اسمها (سعاد) فأحبها وتطور هذا الحب الى الزواج .

ومن ناحية أخرى عقد (خليفة) صداقة مع أحد الجنود اسمه (مصطفى) ، وكانت لـ (مصطفى) زوجة قتلها بعض الجنود بعدما ارتكبوا معها جريمة شنيعة . وتحين (مصطفى) الفرص للانتقام من هذه الفرقة . وفعلا انتقم منها بواسطة وشاية لجيش الاستعمار الفرنسي . فقتلت هذه الفرقة ولم ينج منها سوى (خليفة وزوجه (سعاد) اللذين شفع لهما (مصطفى) لدى قوات الاحتلال .

وبعد ذلك اتخذ (خليفة) وزوجته كوخا في الجبل منعزلين عن العالم وما يحيط به . وفي هذه الأثناء أنجبت (سعاد) من خليفة) ولدا وما لبث (خليفة)أن قتله ونشب بين الزوجين خصام شديد . وصدفة اقتحم الكوخ جماعة من اللصوص قتلوا سعاد بعدما ارتكبوا معها جريمة شنعاء . وفي الأخير تقتل عصابة مجرمة خليفة أثناء ذهابه الى الحي الجامعي . وبعد هذا التلخيص ننتقل مباشرة الى تحليل مواقف شخصيات الرواية وأفكارها . ولنبدأ بشخصية (خليفة) الشخصية المحورية في الرواية .

فهو شارع مليء بالأسود التي تزأر الذئاب التى تعوي والكلاب التي تنبح . والحقيقة أن هذا الشارع لا يوجد فيه كل هذه الوحوش الضارية ،وانما توجد هذه الوحوش في مخيلة البطل أولا والمؤلف ثانيا : فهو يعطي صورة منفرة لهذا الشارع وينظر اليه بنظر كلها تشاؤم وتبرم وضيق ،شأنه في ذلك شأن كل هروبي متخاذل الى الحياة ناظرة سوداوية قاتمة ؛ ولا يرى في الحياة الا وجهها الكالح المتجهم . حياة لا يوجد فيها سوى الضياع والتيه والفراغ . شيء رهيب يثير الخوف والقلق في النفوس . ان وراء هذا العالم لا شيء سوى الضياع والتيه والفراغ وكثيرا ما قرأنا هذه العبارات عن فلسفة العبث التشاؤمية للكاتب الفرنسي " البيركامو " الذي قلده "عرعار" تقليدا فاضحا في هذه النظرة التشاؤمية المظلمة القاتمة . فالغربة والتشاؤم والضياع والتيه والانعزال والغثيان والسأم قاسم مشترك بين المؤلفين وان كان الفرق بينهما شاسع والبون كبير فذلك فيلسوف وكاتب كبير وهذا كاتب مبتدئ يقلد الفيلسوف الفرنسي تقليدا أعمى . واذا تصفحنا رواية الطموح "لعرعار" نجدها مليئة بهذه الكليشيهات يقول (عرعار) عن (خليفة) وهو ذاهب الى الحمام (ان هذه الحمامات تبعث فيه الغثيان وتجعله يشعر بالتضايق والسأم . فهي كلها أدران فكأنها لا تنتمي الى هذا العالم) (1).

وكم كان (خليفة) يشعر بهذا السأم ويحس احساسا . مريرا بهذا القلق والاضطراب الذي سيطر على نفسه واستولى على كيانه فاستحالت حياته جحيما لا يطاق ،وأصبح يتهرب من المجتمع ويتخيل أن مصائب الدنيا كلها تنصب عليه حينما يحاول أن يعقد علاقة مع أي انسان قريبا كان أم بعيدا . حتى ولو كان من أقرب الناس اليه وأشدهم صلة به ، وهو يعتقد أن الحل الوحيد الذي يريحه من المجتمع هو الهروب . ظنا منه

---

1 _ الطموح . ص : 14 .

أن الاختلاط مع الناس يجلب له كثيرا من المشاكل العويصة والصعوبات الجمة التي لا يقوى عليها ولا يستطيع لها دفعا لعجزه وسلبيته. يقول (خليفة) واصفا نفسه : (أمر واحد كان يسيطر علي هو الابتعاد عن المناطق التي يعرفني فيها الناس أو أعرف فيها الناس .. فقد تيقنت أن كل معرفة أو علاقة ، بأحد ، لا تعود علي الا بالتعب والمضايقة .. فأنا لا أعرف أحدا الا تعود علي معرفتي به بشيء من الملل ومن السأم .(1)

وليس هذا فحسب بل ان (خليفة) لا يخامره الشك لحظة واحدة في أنه في حالة مزرية للغاية ، وكان يصيح من أعماق أعماقه والحزن يمزق قلبه والأسى يعذب نفسه . (اني أكره كل الناس .. كما أن كل الناس يكرهونني) (2)

وتحول هذا الكره الى معلمه وزملائه التلاميذ الذين لم يسببوا له أي أذى ، أو يلحقوا به أى ضرر !!

فهو اذن يكره المدرسة ، ويمقت المعلم ، وينفر من التلاميذ ، ويسأم من الدرس ، فلا يقوى لحظة واحدة على الاستماع اليه . (ذهبت في الصباح الى المدرسة وأنا غير مسرور . قضيت ساعتين في القسم ، وأنا أحس أني غير موجود في القسم .. فقد تقت الى الفرار والهروب من كل ما أعرف ومن كل ما يمت الي بصلة .. حتى أني أصبحت أرى المعلم والتلاميذ في صورة بهائم تزحف على هذه الأرض ، منحطة ، تبعث في السأم والمرارة .) (3)

---

1 - الطموح . ص : 73 .
2 - نفس المصدر . ص : 73 .
3 - نفس المصدر . ص : 73 .

وظل هذا الاحساس المرير يطارده من كان الى مكان ومن لحظة الى أخرى . فهو ينظر الى هذه الدنيا نظرة فيها كثير من الاكتئاب . وكثير من الضجر حياة لا تبعث على الارتياح ولا تدعو الى الاطمئنان . فاذا كانت المدرسة ومعلمها وتلاميذها بهائم تزحف على هذه الارض واذا كان جمهور الناس رعاعا دهماء . فان هنالك ما هو أدهى وأمر . هنالك الكارثة المأساوية كيف لا ؟ وهو يصور لنا أن الجامعة وهي مركز اشعاع فكري وثقافي وتربوي . مركز يمور بشتى العلوم والمعارف الانسانية ، ونافذة تطل منها جميع التقنيات والاختراعات العصرية المتطورة يصفها (خليفة) بأنها اصطبل ويشبه طلابها البراعم المتفتحة شباب اليوم الواعي ورجال المستقبل الزاهر يشبههم (خليفة) بالحمير . ويرغم نفسه على أن يكون حمارا داخل اصطبل في حالة كراهية واضطرار ! يقول " خليفة " في هذا المعنى (لاتحول الى حمار وأدخل الاصطبل لفترة من الزمن فلعل الاحمرة تجد في هذه الاصطبلات منافع ومعارف لا يمكن للانسان أن يجدها في الخارج) .(1)

ونحن نتساءل بمرارة لماذا هذا التجني على الجامعة وطلابها من طرف المؤلف (عرعار) وكيف جعل بطله (خليفة) ينظر اليها نظرة ازدراء واحتقار وينعتها بأبشع النعوت التي لا يتلفظ بها أي جهول . فضلا عن شخص يدعي أنه طالب جامعي يناقش أساتذتها في أخطر المشاكل وأعقد المسائل في الحياة المعاصرة ثقافة وحضارة أو أصالة ومعاصرة . فالمؤسسات التعليمية ابتداء بالمدرسة والمتوسطة ومرورا بالثانوية وانتهاء بالجامعة هذه المؤسسات كلها كانت ومازالت وستبقى محل تقدير واحترام لدى الخاص والعام بين سائر الناس عبر أنحاء العالم . ولا يشذ عن هذه القاعدة

---

1 - الطموح . ص : 119 .

الا حاقد غشوم . وربما فحل ذلك " عرعار " لانه مصاب بعقدة عدم دخوله الى جامعة ،اذ حرم من دخولها بسبب فشله واخفاقه في امتحانات البكالوريا التي تفسح له المجال ليتسنى له الالتحاق بالجامعة ،ولذلك راح عرعار " يصب جام غضبه على الجامعة وكل ما يمت اليها بصلة من قريب أو بعيد . علما أن "عرعار" لم يتخط أعتاب الثانوية قط ولم يظفر بنقاط تؤهله للقيام بمهمة التدريس الابتدائي أو المتوسط .ولا نعجب بعد ذلك من أن نرى المؤلف يكن كرها شديدا للجامعة نظرالعقدته المويصة التي لم يجد لها حلا . فعوض هذا الاخفاق وذلك الفشل بالشتم والسباب للجامعة تنفيسا لذلك الكبت والحرمان اللذين أصيب بهما طيلة حياته . وبطبيعة الحال . فان الشخص الذي ينقم على المدرسة والجامعة لا يرجى منه خير للمجتمع وبالتالي فسوف يهرب ويتقوقع على ذاته وعلى العالم وكل ما يدور فيه (بالفعل رأيت نفسي أنجذب للعزلة عن العالم . . فأصبحت أرى العالم في جهة ، وأرى نفسي في جهة أخرى تفرق بيننا المحيطات والأراضي الشاسعة التى لا يمكن لأي شخص قطعها ، والوصول اليها .) (1)

وهكذا انعزل (خليفة) عن العالم وكل ما يحيط به وأخذ يردد بألم كلمات تدل على غربته وضياعة وشعوره بالسأم والقلق والضجر والاضطراب.الخ (2)
والغريب أن (خليفة) يدرك ادراكا قويا أن سبب أزمته انما جاءته من نظرته التشاؤمية التي حرمته من راحة البال وطمأنينة النفس فكان يصرخ من أعماقه والحزن يمزق قلبه عما أصابه من خيبة وخسران قائلا :

---

1 - الطموح . ص : 303 .
2 - للاطلاع على مزيد من تلك الصور ينظر الى الصفحات التالية من الرواية 211 - 218 - 240 - 412 .. الخ .

(يرجع سبب بؤسي الى افتقاري للروح المتفائلة . فأما ما أكاد أفكر في شيء ما ,أو ارتبط بشيء آخر حتى تغزوني الهواجس والمخاوف . أتصور نهاية تعسة للأهداف والمرامي التي أعلقها على تلك الاشياء). (1)

وهناك مشكلة أخرى أشد خطورة من المشكلة الأولى التي جعلته يتصور أن الدنيا كلها ظلام في ظلام وأن المجتمع كله شر ونقمة وقسوة يجب تجنبه والابتعاد عنه قدر المستطاع . هذه المشكلة التي يتخبط فيها (خليفة) والتي لم يجد لها حلا ولم يستطع منها مخرجا ألا وهي عقدة أوديب هذه العقدة التي تناولها روائيون كثيرون عرب وأجانب ومن هؤلاء الكاتب الانجليزي " د . هـ لورانس" في روايته "أبناء وعشاق " ثم تناولها " نجيب محفوظ " تناولا شاملا في روايته " السراب" لدى بطلها الرئيسي " كامل رؤبة لاظ " " ثم في روايته الأخرى " الطريق " وبطلها " صابر الرحيمي " وتناولها كذلك بشكل أقل حدة " سهيل ادريس " في روايتيه الخندق الغميق " و " الحي اللاتيني " . والعقدة التي تدور حولها مأساة أوديب ,كما تحكي الأساطير الاغريقية القديمة . هي أن أوديب قتل أباه " لا يوس" ثم تزوج أمه (جوكاستا) دون أن يعرف أنها أمه وأنجب منها طفلين وبنتين ولما انكشفت الحقيقة واتضح الأمر لهما قتلت الأم نفسها شنقا وفقأ أوديب عينيه بمشابكها الذهبية .

وتناول عقدة أوديب هذه المؤلف في روايته هذه (الطموح) وبطل رواية (الطموح) (خليفة) ,يشبه الى حد بعيد بطل رواية (السراب) (كامل رؤبة لاظ) في كثير من المواقف والأحداث ان لم نقل أنه قلده فيها تقليدا حرفيا . فكلا البطلين يحب أمه حبا يصل الى درجة الجنون .

1 - الطموح . ص : 156 .

وكلا هما يتزوج ويشك في زوجته وفي خيانتها له قبل أن تموت . كما أنهما يشتركان في السلبية والتخاذل والاستسلام للظروف القاهرة بدون مقاومة . وفي هذا الصدد يقول بطل (نجيب محفوظ)(كامل رؤبه لاظ) عن أمه (كانت أمي وحياتي شيئا واحدا وقد ختمت حياة أمي في هذه الدنيا ولكنها لا تزال كامنة في أعماق حياتي ،مستمرة باستمرارها . لا أكاد أذكر وجها من وجوه حياتي حتى يتراءى لي وجهها الجميل الجنون ، فهي دائما وأبدا وراء آمالي وآلامي ،وراء حبي وكراهيتي ، أسعدتني فوق ما أصمع ،وأشقتني فوق ما أتصوّر وكأني لم أحب أكثر منها ،وكأني لم أكره أكثر منها ،فهي حياتي جميعا ،وهل وراء الحب والكراهية من شيء في حياة الانسان). (1)

بينما يقول (خليفة) مخاطبا أمه (أني اكره كل الناس . . كما أن كل الناس يكرهونني ماعدا أنت يا أمي .) (2)

و (كامل رؤبة لاظ) يعبر عن تعلقه بأمه تعلقا شديدا حيث يقول "كنا نستحم معا فتحطني في طشت عاريا وتجلس أمامي متجردة فأرشها بالماء وأقبض على رغوة الصابون النافشة على جسدها فأدلك به جسدي)(3)

في الوقت الذي كان فيه " خليفة " يقول عن أمه " رقية " معبرا عن حبها الشديد له . (وأمسكت ابنها بين ذراعيها وأحتضنته كأنها تريد غيابه فيها أو ذوبانه في عالمها . . راحت توزع القبلات على وجهه وعلى يديه وعلى رقبته وعلى صدره . . كل هذا دون أن تنبس بكلمة . . بالفعل فقد كان لسانها عاجزا عن الحركة وعاجزا عن التعبير . استطاع مشهدها مع " خليفة " أن يثبت أن الكلمة لا تأتي الا عندما تصاب العاطفة بافتقار ،أو تتستر من الحشمة أو الكتمان أو الصفة . . فالجسم هو المعبر الأوّل عما يختلج في

---

1 - السراب ،نجيب محفوظ . ص : 7 .
2 - الطموح ، ص : 73 .
3 - السراب ،نجيب محفوظ . ص : 15 .

قلب الانسان) (1) .

ولعل (رقية) هي التي كانت المتسبب الرئيسي في عقدة ابنها (خليفة) وتعميق الفجوة بينه وبين أبيه اذ أنها ملأت قلب ابنها بغضا وكراهية ضد والده (محمد) وشوهت صورته تشويها فظيعا في مخيلته يقول المؤلف على لسانها (ان أباك وحش يا خليفة . منذ أن عرفته وهو بهذه الطباع . لا يستطيع الانسان أن يأمل في صلاحه ،كنت أعتقد في أول الأمر عندما عرفته أنه رجل طيب ،دمث الاخلاق ،يعد بمستقبل كبير . . لكن كل ذلك كان كذبا ومجرد أوهام) (2)

وظل (خليفة) يشتم أباه سرا وجهرا في ثورة غضب وسخط شديدين (ليذهب الى النار أبي . . ليذهب الى النار أبي) (3)

ونجحت (رقية) في استمالة قلب ابنها (خليفة) وجذبه اليها فصار يثق في كل مواقفها وتصرفاتها السيئة . ويعتبرها أمرأة شريفة ،قد غرر بها . وكان يدافع عنها دفاعا مستميتا . فهو يرى أن فرارها من زوجها الأول "عيسى" انما كان مرده سحرا وشعوذة ونصبا واحتيالا من قبل زوجها "محمد" حتى انصاعت لأوامره . يقول المؤلف (نبع في قلبه احساس بأن أمه بريئة ،وهي ليست غير ضحية لأبيه ولحيله . . فهو لا شك قد خدرها لدرجة تمكنه من املاء شروطه عليها دون التعرض لأية مقاومة من طرفها . . القصة ليست قصة حب أو وفاء انما هي قصة تخدير وسحر واعتداء".) (4)

---

1 - الطموح . ص : 69 .
2 - نفس المصدر . ص : 100 .
3 - نفس المصدر . ص : 84 .
4 - نفس المصدر . ص : 108 -

وهذا كلام يناقضه تماما تصريح والدته (رقية) بحبها الشديد لوالده (محمد) وهي في المستشفى فتقول بكل صراحة (أحببت محمدا كما لم أحب أحدا .. أحببته من كل روحي ومن كل وجداني . من أجله نسيت بيتي ونسيت أبنائي من أجله نسيت ماضي كله ،ولم أعد أثق بأي أحد غيره ،. كل كلمة يلفظها ،أحفظها ...كل حركة بيديها ،أحفظها .. كل وعد يذكره ، أحفظه .. اذا ما قال نعم ،قلت نعم اذا ما قال لا ،قلت مثله) (1)

وعندما غمرها (محمد) بهذا الحب الجارف نسيت زوجها "عيسى" وأولادها . بل أصبحت تنظر اليه نظرة كلها ازدراء واحتقار تقول . (رقية) واصفة زوجها (عيسى) عند زيارته لها وهي بالمستشفى (انحنى بقامته المديدة وطبع على وجنتي قبلتين ،أحسست منهما مدى شوقه الي ومدى حسرته عليّ .. لكني - وأقول لك الحقيقة - سخرت من قبلتيه وسخرت منه الى درجة جملته فيها في مقام وضيع .. خلال الحديث الذي دار بيننا ،كنت أتبادل الغمزات مع (محمد) جهارا وهو لا يفهم شيئا .) (2)

وفي موضع آخر تواصل (رقية) حديثها عن زوجها (عيسى) أثناء هذه الزيارة . (أما أنا فكنت أسمع دون انفعال ، بل لقد اعتبرت كلامه في ذلك الوقت عبارة عن هذيان وتفاهات تحتم على الانصات اليها .. لم أكن أعير أي اهتمام لقصته ، ولم أتأثر لا به ولا بالأولاد الذين يحكي عليهم ..كانت اهتماماتي مشدودة الى (محمد) الذي كان في ذلك الوقت يقف قرب الباب ،خلف (عيسى) . كان قلبي يهفو اليه وحده .) (3)

ولم تنقض غير مدة قليلة حتى ملت (رقية) زوجها (محمد) وكرهته

---

1 - الطموح : 102 .
2 - نفس المصدر: 103 ، 104 .
3 - نفس المصدر : 105 .

كرهسا شديدا ثم قتلته وانتقمت منه شر انتقام . لانه عاملها معاملة سيئة وضيق عليها الخناق . وهكذا أسدل المؤلف الستار على حياتها وانزوت في طي النسيان . هي، وزوجها (عيسى) وأولادهما . فلم نعثر لهم بعد ذلك على أي خبر في الرواية !؟

ومن هنا نلاحظ أن (عرعار) قدم لنا شخصية (خليفة) في صورة بشعة منفرة الى أبعد الحدود ففضلا عن كونه يتسم بنظرته التشاؤمية ومواقفه المهزوزة المتخاذلة وعقدته الأوديبية . هذه ظروف كلها تضافرت عليه وجعلته يتحول الى شخصية غير سوية الى شخصية شاذة مريضة ترتكب أفظع الجرائم ضد أقرب الناس اليها ،فقد شارك (خليفة) والدته (رقية) في زهق روح والده (محمد) يساعدهما في ذلك رجل غريب كان عشيقا لـ (رقية) وهو الذي قربهما الى الجبل هربا من قصاص العدالة وعقاب القانون . وأثناء وجوده في الجبل انضم الى جيش التحرير الوطني ورفع السلاح في وجه الاستعمار وأصبح ثائرا من الثوار الذين يكافحون من أجل حرية البلاد واستقلالها .

وكان من المفروض أن يتكيف (خليفة) مع الجو الجديد ويتأقلم مع المجاهدين فيصبح شخصية ثائرة مكافحة تمتاز بالجرأة والشجاعة والاقدام اسوة بالمجاهدين الآخرين ، لكن ما حدث هو العكس تماما واتضح فيما بعد أن (خليفة) لم يكن سوى شخصية هروبية متخاذلة لا تحمل من الثورة الا أسمها ولا من الكفاح الا وصفه . يحمل (خليفة) السلاح وهذا السلاح لم يكن الا في يد جبان لا يطلق منه رصاصة واحدة في صدر العدو الغاشم وانما أطلق الرصاص على رأس ذلك الرجل الغريب الذي هربهما ليلة الجريمة . وبدلا من أن يكافح (خليفة) ويناضل ويقاتل الأعداء في

الجبال ،بدلا من ذلك انقلب الى عاشق محب ليس له أي عمل الا التغـــزل بعشيقته (سماد) التي كانت ممرضة -في صفوف الثورة التحريرية . وهكـــذا جعل (خليفة) (سماد) عبارة عن آلة معطلة في صفوف جيش التحريـــر الوطني ،وشغلها عن أعمالها النضالية ومهامها الفدائية . وأصبح يغار عليها من جميع الجنود والضباط الذين يكافحون معهما في أعالي الجبال وبطـــون الوديان . وعندما أمرها الضابط بتقديم الاسعافات الأولية لأحد الجنـــود الجرحى الذين كانوا في ساح القتال اضطرب (خليفة) ،وأكل الحسد قلبه واشتد مقته وغضبه على ذلك الضابط الذي فرق بينه وبين (سماد) فـــي لحظة من لحظات شهوتهما . يقول (عرعار) واصفا مشاعر بطله (خليفة) تجاه قائد وحدته . (نسي وجود الشخص المجروح .. ومقت القائد مقتـــا شديدا راودت نفسه رغبة شديدة في نتف لحية القائد ،وبتر شفتيه والعبث به .. رغب كذلك في ضم سماد الى صدره وقطف اللذة من فمها ثم طرحهـــا أرضا والاقدام على ركلها دون أية شفقة :- فهي فتاة لا تموت لها شهـــوة ولا تبرد لها رغبة).(1)

يريد " خليفة " أن ينتقم من (" سماد)لأنها هربت من لذته الرخيصـــة وهرعت الى الجريح تريد انقاذه من موت محقق عاجل . ومن مواقف (خليفة) المشينة كذلك موقفه السلبي المتخاذل الذي سقط فيه الى مستنقع الهزيمة والعار. فعندما اشتدت المعركة واستعر لهيبها وأحاط به وبوحدته الاعـداء من كل مكان تحوط بهم الطائرات من كل مكان في هذا الوقت بالذات وبدلا من أن يظهر (خليفة) شجاعة نادرة وبطولة كبيرة كسائر رفاقه في الكفاح المسلح نراه يخيب أملنا كما عرفناه من قبل ،فلم يطلق رصاصة واحدة من بندقيتـــه في وجه العدو بل استولى عليه الذعر والخوف الشديدان فلم يبد أية مقاومة

1 - الطموح . ص : 261 - 262 .

بل استسلم للعدو استسلام العاجز الضعيف . ومما الطين بلة أن (سماد) التي كان من الممكن أن تشجع (خليفة) وتبث فيه روح الشجاعة والحماسة والتأييد الكامل ومواجهة المواقف الحرجة ا خيبت آمالنا هي الأخرى فقد أجبرت (خليفة) على رمي السلاح وساعدته على الفرار من أرض المعركة ا ليستسلم لقوات الاحتلال التي ذبحت رفاقه بحد السلاح كما تذبح الأغنام .

وهذا الموقف يتناقض مع ما قاله (خليفة) فيها فلقد قال ذات يوم عنها (منذ عرفتها ،عرفت البشاشة والشجاعة والجرأة ،، رأيتها تواجه أشد المواقف حرجا وصعوبة ،بكل قوة نفس وعزيمة همة ..) (1)

فأين الشجاعة والجرأة التي تتحلى بهما (سماد) ؟!

لا نجد شيئا من هذه الأوصاف التي أطلقها المؤلف جزافا على(سماد) ف(سماد) هذه لم تكن سوى نسخة طبق الأصل من شخصية (خليفة) أو بعبارة أصح فهما وجهان لعملة واحدة . فقد عمل الاثنان على الاستسلام والهروب من الاستشهاد في ميدان الشرف ،وفضلا الخيانة والجبن على الشجاعة والفداء . فكانت الهزيمة وكان الخزي والعار والخيانة الكبرى للقضية الوطنية من نصيبهما ولم تكتب لهما الشهادة دفاعا عن الوطن وفي هذا المجال كانت (سماد) تتضرع وتتوسل الى (خليفة) أن يرمي سلاحه ويهرب بنفسه مؤثرا النجاة على الهلاك وأية نجاة هذه ؟

(أرجوك ،ارم سلاحك .. أرجوك . وجد خليفة نفسه ينساق ببلادة الى رجائها دون أي اعتراض ،كأنه يتلقى من شفتيها وحيا أو الهاما) (2)

---

1 - الطموح ، ص : 314 .
2 - نفس المصدر ، ص : 278 - 279 .

ومن خلال هذا ندرك أن (خليفة) ضعيف الارادة قليل الصبر على المقاومة بل قل انه خائب وفاشل في جميع تصرفاته ومواقفه . فهو لا يثبت على مبدأ ولا يتمسك بعقيدة ولا يستقر على رأي . وقد سهل المؤلف لـ (خليفة) سبل الفرار وهيأ له ظروف الخيانة والاستسلام فجعل طائرات العدو تتصيده من مكان الى آخر . ومن جهة أخرى سد في وجهه أبواب المقاومة أو الاستشهاد ليفسح المجال واسعا أمامه للهروب . (في كل جهة يذهب اليها ،يجد نفسه محصورا في دائرة نفوذ الطائرات فكأنه يدور في حلقة مفرغة ليس لها منفذ ؛وخلال هذه الفترة كلها ،لم يطلق أية رصاصة .) (1)

وهنا نتساءل لماذا لم يطلق أية رصاصة ؟ هل هو الجبن ؟ أم الخوف ؟ أم الخيانة ؟ أم الذهول من هول الكارثة ؟ انها هذه الاشياء كلها مجتمعة في (خليفة) .

ومما يثير الدهشة والاستغراب أن المؤلف لما رأى بطله (خليفة) حائرا مترددا لا يدرى ماذا يفعل أمام هول كارثة الحرب وأساة المعركة المحتدمة بين جنود جيش التحرير وقوات الاحتلال الفرنسي التى رمت بكل ثقلها في أرض المعركة فأستعملت الدبابات والمدرعات والطائرات المقنبلة الضخمة . ازاء هذه الحالة الرهيبة وقف المؤلف بجانب (خليفة) وأمر طائرة بقدرة قادر أن توجه (خليفة) الى بر الامان دون أن تمسه بسوء لتتم المؤامرة والخيانة التى دبرها (مصطفى) ضد وحدة جيش التحرير الوطني انتقاما لزوجته التى قتلت على أيدي هذه الفرقة

وهنا جعل (خليفة) يتسأل عن مصيره أمام طائرات العدو فيقول : (ماذا يريدون منا الآن ؟ ـ لا أعرف ،لأنه حسبما أرى ،فانهم يأمروننا بالتحرك في هذا الاتجاه . بالفعل تيقن خليفة من صحة قول سمايل ،فقد تبين أن أحد الرجلين الطائرين ،يشير بيده اليهما ،وبالتحرك في اتجاه معين ، فماكان منهما الا أن نفذ أوا

1 ـ الطموح . ص : 278 - 279 .

المحلق على رأسيهما).(1)

وهكذا فقد نجا (خليفة) وزوجته (سعاد) من الكارثة التي كادت تؤدي بحياتيهما لولا تكلف وافتعال المؤلف الذي أحاطهما بكل رعاية وعناية كما انقذهما من جميع المواقف الحرجة . أنقذهما من قنابل الطائرات كما أنقذهما مرة أخرى من سكين ذلك السفاح الارهابي الفرنسي الذي ذبح جماعة من الجنود كالكباش تنفيذا لخيانة (مصطفى) وغدره بفرقة الجنود كما سبق أن أشرنا .

وهكذا انتهت مهمة (خليفة) بالفرار من صفوف الثورة بعد أن ألقى سلاحه دون أية مقاومة ورمى بنفسه في أحضان الاستعمار . ولم تكتب له الشهادة والسقوط في ميدان الشرف ! وانما شاء المؤلف أن يمد في حياة بطله ويطيل عمره حتى يلقى حتفه على أيدي عصابة تقتله بالقضبان الحديدية في شوارع العاصمة وهو متجه الى الحي الجامعي.كما أشرنا

وفي مجال رسم الشخصية ، نلاحظ أن معظم الشخصيات ولدت مكتملة منذ ظهورها علي مسرح أحداث الرواية بدون نمو أو تطور في المواقف والأحداث والافكار والآراء والسلوك . ف (مصطفى) و (طيبة) ، و (عيسى) وأولاده والاستاذ (سليمان) وزميله (عبد القادر) والرجل الغريب الذي هرّب (رقية) هذه الشخصيات كلها أشباح تسبح في الفضاء بدون ملامح ولا وجوه ولا أعماق ولا أبعاد ،لأن المؤلف لم يهتم ولم يرسمها رسما داخليا أو خارجيا ومرّ عليها مرا سريعا فكان دورها هامشيا وغير مؤثر في الرواية . وقد شغل المؤلف عن رسم هذه الشخصيات رسما جيدا .

---

1 - الطموح . ص : 280 .

وشغله عن ذلك البطل الرئيسي للرواية وهو (خليفة) . وحتى شخصيتـــه المحورية رسمها المؤلف من الخارج ولم يغص الى أغوارها وأعماقهـــا النفسية كما ينبغي وتكاد تكون شخصية نمطية في كثير من الأحيان .

أما البعد الثوري للشخصيات فقد ثارت كل شخصية على طريقتهـــا الخاصة ، سواء أكان ذلك عن طريق الثورة التحريرية أو التمرد علـــى أوضاعها الخاصة . ف (خليفة) ثار على المجتمع واعتبر المدارس والجامعات عبارة عـــن إسطبلات والطلاب مجموعة من الحمير والمجتمع لم يكن سوى خليط من أوباش ورعاع !!

ورغم ذلك فان ثورته ـ اذا جازت تسميتها كذلك ـ باءت بالفشـــل الذريع رغم أنه حمل السلاح وشارك في العمليات الحربية الا أن هذا السلاح لم يجد شيئا فعندما اشتدت المعركة واشتمل لهيبهـــا رمى سلاحه كما ذكرنا دون أية محاولة منه في المقاومة . وأصيب بخيبة الأمـــل التي كانت تلاحقه في جميع محاولاته اليائسة والتي باءت كلها بالفشـــل الذريع . وخرج من المعركة مهزوما ذليلا حقيرا .

وما هكذا تكون الثورة والنضال أبدا . فالثورة جرأة واقدام وضحيـــة وبطولة وفداء ، وليس ترديد كلمات جوفاء أو شعارات فارغة لا تحمل أيـــة قيمة أو معنى . وبالتالي فثورة (خليفة) ليست ثورة بمعناها الحقيقي علـــى الاطلاق . أراد (خليفة) أن يكون مجاهدا فخسر وأراد أن يكون كاتبـــا فسقط وأراد أن يكون فيلسوفا فأخفق ا وأراد أن يكون ثائرا فتحطم .

وبنفس الطريقة ثارت (رقية) على طريقتها الخاصة . فهربت مـــن زوجها (عيسى) ونفرت من أولادها . في سبيل نزوة طائشة غير مضمونـــة العواقب . وهربت مع الممرض (محمد) غير أن عشرتهما لم تدم طويـــلا

حتى وقع بينهما خصام وشقاق أدى بهما الى القطيعة ثم القتل . وكان بامكانها أن تكفر عن جرائمها وتتطهر بالثورة فتقوم بأعمال نضالية وفدائية في صفوف الثورة التحريرية لكنها أحجمت عن ذلك . لانها امرأة في منتهى القذارة . امرأة ساقطة منحلة بل آثمة فرطت في العرض والشرف والازواج والاولاد . وخسرت كل شيء في حياتها !

واذا ما انتقلنا شخصية (سماد) زوجة (خليفة) فهي الاخرى ليست ثورية وانما هي ثائرة متمردة على عائلتها الصور جوازية فذهبت الى الجبل لتعمل كممرضة ؛ والتقت بـ (خليفة) وسممها بأفكاره الاستسلامية والتخاذلية وانقادت الى طرقه المموجه في الحياة وانجذبت الى عواطفه المائعة فتبعتها ،وقتل هو روح الأمل في نفسها وخسرت نضالها الثوري كممرضة ومجاهدة مع المجاهدين في الجبال . وأخيرا خسرت حياتها ودنست شرفها بنزواتها الطائشة وشهواتها الجامحة بسبب اتباعها لـ (خليفة) وبنفس الطريقة وبتلك الشهوة الجامحة وتلك النزوة الطائشة هرب (محمد) الممرض مع (رقية) من المستشفى . لكنه في الاخير دفع الثمن غاليا . دفع حياته ثمنا للغدر والخيانة .

أما (مصطفى) فانه ليس بثائر وانما هو شخص خائن يريد الانتقام من الفرقة التي اعتدت على زوجته فأحدث مجزرة رهيبة في فرقة من فرق جيش التحرير الوطني ورمى نفسه في أحضان الاستعمار بسبب ما ارتكبه من حماقة وتهورا .

وهكذا فان شخوص رواية (الطموح) لـ (عرعار) . ليسوا بثوريين أو مناضلين أو فدائيين يعملون لصالح الثورة ومبادئها السامية ومثلها العليا . وانما هم شخصيات تغلب عليهم النزعة الفردية والانانية المفرطة

والشهوة الجسدية الجامحة . فنزلت عليهم اللعنة ولحقتهم النقمة جزاء ما اقترفوا من جرائم وما ارتكبوا من موبقات .

وهكذا نلاحظ أن رواية (الطموح) رواية تعتمد أساسا على القتل والانتقام والغدر والخيانة والبغض والكراهية والاحتقار وهتك الأعراض وغيرها من الشرور والآثام التي تبرز في أبشع صورها وأفظع أشكالها .

1 - رقية تقتل زوجها محمدا والد خليفة .
2 - خليفة يقتل الرجل الغريب الذي هربه الى الجبل .
3 - اللصوص يقتلون سعاد بعدما هجموا عليها في الغابة ،
4 - خليفة يأخذ الثار لزوجته وينتقم من تلك العصابة ،
5 - فرقة من الجنود تقتل زوجة مصطفى بعدما تدنس شرفها .
6 - مصطفى ينتقم من هؤلاء الجنود ويمشي بهم الى الاستعمار ، الذي هجم عليهم قتلا وتدميرا وذبحا بحد السكين .
7 - وأخيرا يقتل خليفة على يدي عصابة شريرة بالعاصمة .

كما تتضمن الرواية تهويمات ميتافيزيقية وعقدا نفسية وهروبات رومانسية وعبثا وجوديا . فقد تضمنت هذه الرواية جميع المتناقضات في الحياة .

فرواية الطموح لـ (عرعار) ابتعدت ابتعادا كليا عن قضايا الجماهير الشعبية ومشاكلها المأساوية وتصوير همومها اليومية بل انها لا تمت الى الواقع الجزائري المعاش بصلة أبدا !؟

الشكـــل الفـني للـروايــة

سار المؤلف في رواية (الطموح) على النهج التقليدي في بنـــاء الرواية وهو النهج الذي يعتمد أساسا على الابواب والفصول والاجزاء ، وقد تطول هذه الابواب والفصول ،وقد تقصر حسب الظروف ومقتضـــى الاحوال. وهذا الاسلوب الروائي قديم جدا قد تجاوزته الازمنة والاحداث.

وعلى هذا الاساس فان رواية (الطموح) تقوم على هذا البناء الروائي الكلاسيكي العتيق .

وتسرد أحداث الرواية في الزمن الماضي عن طريق راو ثرثار مطلـــع على كل شيء . ويعرف كل شيء عن الشخصيات ومصائرها . ويغلب على الروايــة السرد العتيق الممل والوصف الذي يتصدر بداية كل فصل من فصـــول الرواية وأغلبها أوصاف للطبيعة . كما أن أغلبها لا يخدم الشكل الفني للرواية.

وهناك الحوار المنتشر أثناء أجزاء الرواية ولعل أطول حوار في الروايــة هو ذلك الحوار الذي دار بين (خليفة) والضابط الفرنسي (390 - 399). وهي مناقشة كما نعلم مفتعلة وغير منطقية ، تثير السأم والملل في نفس القارئ.

ولغة الرواية تغلب عليها الاساليب الانشائية وهي لغة بسيطة سهلـــة يكثر فيها الحشو والاستطراد وفي هذا المعنى يقول أحد الباحثين في أسلوب المؤلف .

(فهو ينقل لنا صورا أقرب الى المواضيع الانشائية الوصفية لا أثر لهـــا للفكر والفن . ويبدو لي هذا القاص مع موهبته بمن يسقى صخرة صماء ،لينبت فيها زرعا أخضر).(1)

---

1 - مخلوف عامر ،تجارب قصيرة وقضايا كبيرة . ص : 135 - 136 .

وهكذا فان رواية (الطموح) (عرعار) لا تضيف جديدا للرواية الجزائرية المعاصرة بل انها رواية تقليدية في شكلها ومضمونها يغلب عليها التكلف والافتعال في كثير من الأحيان يبرز ذلك من خلال رسم الشخصيات وتصوير ونقل المواقف والاحداث .

وبالتالي فان رواية (الطموح) لم تكن أبدا في مستوى الموقف الثوري الذي عالجه حجمها الضخم وصفحاتها الكثيرة ا.

بـــاب الريــــح

جــروة علاوة وهبـــــي

يعتبر (جروة علاوة وهبي) واحدا من كتاب جيل السبعينات الذين برزوا على الساحة الأدبية وكتبوا الشعر والقصة والقصيرة والرواية والمسرحية. نشر (جروة علاوة وهبي) مجموعة قصصية وديوان شعر . وجرب حظه في كل هذه الأجناس الأدبية ومن بينها الفن الروائي . فألف فيه رواية بعنوان (باب الريح) وهي موضوع دراستنا . فما هو مضمون وشكل هذه الرواية ؟ وهل وفق فيها المؤلف أم أخفق . للاجابة عن ذلك يجدر بنا أن نلقي نظرة عامة على المحاور الرئيسية للرواية .

ويمكن أن نلخصها فيمايلي :

ملخص الرواية

تتلخص رواية (باب الريح) في أن طفلا يبلغ العاشرة من عمره - وهو راوي أحداث الرواية - قد قتل أبوه في حرب الهند الصينية في صفوف العساكر الفرنسية . ونظرا لشدة فقر هذا الطفل انقطع عن الدراسة واحترف بيع السجاير - مع صديقه (عبد الله) - يتجول في الساحات والمقاهي، وما لبث أن تحول الى بائع حشيش (الكيف) وعندما شب حاول أن ينضم الى الفدائيين الا أن الظروف لم تسمح له بالمشاركة في النضال الفدائي وبقي حائرا ممزقا على طول الخط .

أما صديقه (عبد الله) فكان له أخ يدعى (خالد العلوي) وهو الذي قتل محافظ الشرطة الفرنسية . وبعد هذه العملية اعتقل أبوه وقتل تحت

وطأة التعذيب الوحشي الذي سلطته عليه أجهزة القمع الفرنسية . وفر (خالد الملوي) من الحي الى الجبل لينظم الى صفوف الفدائيين بعد أن ترك خطيبته (حليمة التى انتظرته طويلا ثم اضطرتها الحاجة والعوز فعملت خادمة تنظف بيوت الأوربيين . ولم تلبث (حليمة) أن انضمت الى صفوف الفدائيون مثل خطيبها (خالد الملوي) . وعندما انكشف أمرها زج بها في غياب السجون لتذوق ألوانا من العذاب ومن جهة أخرى تشير الرواية الى اعدام الخائن (عمار) خال الراوي ضمن حملة التطهير التي قام بها الفدائيون في المدينة ضد الخونة وعملاء الاستعمار.

وتنتهي الرواية بقتل الضابط الفرنسي الذي ارتكب مجازر وجرائم ضد الجزائريين . فقد طعنه (عبد الله) بخنجر حاد فأرداه قتيلا .

الشخصيات :

نلاحظ أن المؤلف ركز على شخصيتين رئيسيتين وهما شخصية الراوي وشخصية (عبد الله العلوي) . منذ البداية نلتقي بالراوي وهو طفل صغير لم يذكر المؤلف اسمه ،وانما جعله يروى أحداث الرواية بضمير المتكلم ونعرف عن الراوي أنه نشأ يتيما فقيرا معدما بقرية نائية في الريف الجزائري يسكن كوخا مع والديه وما لبث أن أخذت السلطات الاستعمارية أباه وأرسلته الى حرب الهند الصينية فمات هناك .

وهكذا فقد انقطع الطفل عن الدراسة بسبب عجزه عن تسديد مصاريف المدرسة وحرمانه من أبسط شروط العيش من مأكل وملبس وغير ذلك .

وحين شب هذا الطفل واندلعت الثورة التحريرية حاول أن ينضم الى صفوفها ليعمل فدائيا . وحينما حالت الظروف دون ذلك اكتفى بالمشاركة في المظاهرات الشعبية التي نادت بسقوط الاستعمار وحياة الجزائر .

وبقي الطفل متسكعا يتجول في المقاهي والساحات العامة يبيع علب السجائر والكبريت حتى نهاية الرواية ،تاركا أمه خادمة تمسح البلاط في بيوت الاغنياء .

وبدلا من أن يشمر الطفل عن ساعده ويعمل ويكدح بعرق جبينه راح يصب جام غضبه على الحياة والمجتمع .

شخصية عبد الله :

أما الشخصية الرئيسية الثانية في الرواية التي أهتم بها المؤلف وركز عليها الضوء ،فهي شخصية (عبد الله) صديق الراوي الذي اشترك معه في بيع علب السجائر والكبريت ،والتجول معه في المقاهي والساحات العمومية . كان (عبد الله) هذا منذ نشأته الاولى ،ومنذ أن كان طفلا صغيرا ،يتمنى أن يكون فدائيا في صفوف جيش التحرير الوطني . وأن يقوم بأعمال بطولية خارقة . الا أن صغر سنه حال دون القيام بأعمال فدائية نضالية .

ونلاحظ أن السخط والتبرم قاسم مشترك بين الصديقين الراوي(عبد الله). ورغم أن هذا الاخير انضم الى صفوف الفدائيين بواسطة شقيقه (خالد) ونتيجة لاعتقاده الخاطئ وفهمه السقيم انقلب الى شخصية تشاؤمية تسب وتشتم القيادات السياسية عبر تاريخ الجزائر . وتصفهم بالغدر والخيانة والاهمال والتقصير في حق الوطن .

ومن شخصيات الرواية الأخرى (خالد العلوي) شقيق (عبد اللـــه) الذي صعد الى الجبل بعد مقتل ضابط الشرطة ثم تلاشى خبره بعد مـــا أصيب مرتين بجراح خطيرة .

ثم هناك شخصية الشيخ (محمد العلوي) والد (خالد) و (عبدالله) وقد اعتقلته السلطات الاستعمارية اثر مقتل ضابط الشرطة فعذب فـــي السجن ثم استشهد من جراء التعذيب كما سبق أن أشرنا .

أما (حليمة) خطيبة (خالد) فحين طال انتظارها لخطيبها (خالد) ونفذ صبرها التجأت الى العمل في بيوت الاوربيين . ثم التحقت بعد ذلـــك بالفدائيين وألقي عليها القبض فسجنت وعذبت . ولم يعرف مصيرها بعد ذلك !؟

والملاحظ أن شخصيات رواية (باب الريح) الرئيسية جلهم مـــن الاطفال الذين يتميزون بالتسرع والارتجال . وعدم النضج العقلي والفكـــري . يتضح ذلك بجلاء في الرواية من خلال المواقف والأحداث . ثم ان الاغتيالات التي تحدثت عنها الرواية ،معزولة تماما عن الثورة التحريرية وعن مسؤوليهـــا السياسيين والعسكريين . بحيث يتخيل القارئ أنه أمام عصابة معزولة في نفق مظلم . بعيدا عن المجاهدين ،تقوم بالاعتداءات على ممتلكات الفرنسيين وزهق أرواحهم واحداث البلبلة والاضطراب في المدينة بدون تنسيق ولا تنظـــيم مع المجاهدين الثوار بالجبال . وما قتل ضابط الشرطة وضابط الجيش واغتيال (عمار) الخائن الا تصرفات طائشة من طرف جماعة مراهقين تنقصهـا التجربة في مجال النضال الثوري . فهي لا تدخل في نطاق العنف الثوري المحكـــم . وتصعيد العمليات العسكرية والفدائية والهجومات المنسقة التي يشرف عليها جيش التحرير الوطني .

فشخصيات الرواية اذن شخصيات بعيدة كل البعد عن الثورة التحريرية

وعن الشعب الجزائري برمته .

لكن المؤلف صور أبطاله كالفئران في الجحور المظلمة أو بعبارة أصح كجماعة من اللصوص والقتلة والمجرمين مختبئين في كهف مظلم خوفا من عقاب القانون ؟! شخصيات تنقصهم الخبرة والتجربة الواسعة في الحياة اليومية والواقع المعاش . فضلا عن أن يقوموا بأعباء ثقيلة تفوق طاقتهم كما هو معروف .

هذا من جهة ومن جهة أخرى يقول المؤلف في موضع آخر :
(أخرج خنجرك ، وكن على استعداد أنت كذلك .

الرفاق ينتظرون عودتك في المخبأ .) (1)

أي رفاق هؤلاء يقصدهم المؤلف بكلمة رفاق ؟

وفي مكان ثالث يقول المؤلف على لسان الراوي :

(طلب عبد الله من المسؤول تكليفه بالمهمة ، ولكن المسؤول رد عليه ، بأن طلبه سيدرس .

لماذا لا يكلف هو بها . ليكون انتقاما .) (2)

ونحن نتساءل هنا عن هذا المسؤول ؟ وما هي مسؤوليته ؟ وعما يتضمنه عمله ؟وفي أي حيز يدخل هذا العمل ؟ والى أي تنظيم ينتمي ؟ فهل هو مسؤول سياسي أم عسكري ؟ واذا كان الامر كذلك فالي أي حزب ينتسب هذا المسؤول ؟ فهو اذن اسم بدون تحديد ولا هوية ولا وجه ولا ملامح ولا مذهب ولاعقيدة . فهو مسؤول مجهول . لا نعرف عنه شيئا أبدا . وغير مستبعد أن يكون مسؤول

1 - باب الريح . ص : 164 .
2 - باب الريح . ص : 149 .

عصابة قتل ولصوصية . أو سمه ما شئت من الاسماء لأن المؤلف نسي أو تناسى أن يجعل كلمة جبهة التحرير أو جيش التحرير الوطني بجانب المسؤول لتصبح الكلمة هكذا مسئوول جبهة التحرير . مع الملاحظة أن كلمة جبهة التحرير أو حيش التحرير الوطني لم ترد اطلاقا في الرواية !

ولهذا لا ينبغي أن نسمي هذه الرواية رواية نضالية ثورية . ولا يصح أن نطلق عليها اسم رواية ثورة تحريرية أبدا !

ونلاحظ أن أغلب شخصيات الرواية يتخبط في مشكلته الخاصة فالراوي مثلا ساخط على الحياة والمجتمع لشدة بؤسه وفقره ! فلا يرى في الناس خيرا ولا في الحياة معنى !!

أما (عبد الله الحلوي) فحائر ممزق لا يعرف ماذا يفعل . فهو غارق في دوامة من القلق والحيرة ،فلم يستطع منها مخرجا .

والأسئلة التي تطرح نفسها هنا بالحاح شديد هي :

لماذا هذا القلق الذي أنتاب (عبد الله) ؟ وما مصدره ؟ ولماذا لم يصرح بهذا القلق لصديقه الراوي ؟ وما هو الجرم الذي ارتكبه ؟ هذه الأسئلة كلها ليست لها أية اجابة في الرواية . لا من قريب ولا من بعيد .

وشخصيات الرواية عموما شخصيات نمطية مسطحة لا أبعاد لها ولا أعماق فكرية ونفسية . لقد أهمل المؤلف رسم الشخصيات من الداخل والخارج ولم يبرز ملامحها الجسدية وأبعادها النفسية . كما أنها شخصيات ثابتة جامدة لا تعرف تحويلا ولا تغييرا حيث قدمها المؤلف دفعة واحدة . لا تبعث في القارئ رغبة التطلع الى ما سيحدث فيما بعد . فهي شخصيات جامدة في جميع مواقفها وأحداثها وأفكارها . بحيث بدت أشباحا تسبح

في فضاء ! دون أن تنزل وتثبت أقدامها على أرض الواقع الملموس .

ان (جروة علاوة وهبي) في روايته (باب الريح) لم يذكر لنا خلفيات شخوصه وجذورهم التاريخية والسياسية والاجتماعية والدينية . كما أنه لم يذكر انتماآتهم العقائدية والايديولوجية حين تناول أحداثهم القديمة منها أو المعاصرة .

والرواية بهذا المنظور تفتقر الى العمق الفكري والصدق الفني والصدق الموضوعي ،ويغلب عليها من جهة أخرى التسطح والجمود . وبالتالي فالشخصيات يكتنفها كثير من الغموض والابهام . ولذلك فقد لجأ المؤلف من أجل تغطية هذا العجز الى التكلف والافتعال وقد عمد المؤلف الى تسجيل أحداث لا أساس لها من الواقع مما أحدث فجوة عميقة بين القول والعمل أو بين الفكر والممارسة .

وقد كان أحد الكتاب على حق حين تحدث عن هذه الرواية بقوله :-

(ما هذا الخلط ؟ وما هذه السطحية والافتعال ؟ ان السبب في ذلك كله يعود - في نظري - الى أن العمل الأدبي مفتعل من أساسه وافتقر الى أهم مقومات الابداع وهو الصدق الفني ،اذ افتعل واقعا غير الذي يعيشه فجاءت الأحداث مفتعلة بهذا الشكل واذا أختل الأصل أختل الفرع .)(1)

الشكل الفني للرواية :

بنى (جروة علاوة وهبي) روايته (باب الريح) على شكل يمزج بين المقالة السياسية والقصة القصيرة والمسرحية والشعر .

---

1 - مخلوف عامر ،تجارب قصيرة وقضايا كبيرة . ص : 22 .

فالمؤلف خلط بين جميع هذه الفنون الأدبية في روايته . وهذا الشكل الذي اتبعه (جروة علاوة وهبي) لا يمت الى الفن الروائي بصلة . لأن الفن القصصي عامة والفن الروائي خاصة له أصوله وقواعده وخصائصه وسماته التي ينفرد بها عن غيره من سائر الفنون الادبية الاخرى . بل لا ينبغي المزج أبدا في فن واحد كالفن القصصي مثلا فلا يمزج بين قصة قصيرة ورواية أو بين رواية ومسرحية .

وعلى هذا الأساس فأن (جروة علاوة وهبي) ابتعد ابتعادا كليا عن الفن الروائي سواء كان قديما أو حديثا . وبهذا يكون المؤلف قد جانبه التوفيق في هذا العمل الفني ان لم نقل قد أخفق اخفاقا كبيرا فيما كان يصبو اليه ويرغب فيه .

أما الشكل التقليدي الذي اتبعه في هذه الرواية ان صح أن نسميها رواية تجاوزا فانه قد بناه على شكل فصول تقليدية وهذه الفصول تتخذ شكل عناوين صحف وجرائد يومية .

ومن الأخطاء الفادحة التي أسقطت الرواية الى الحضيض الأسفل أن المؤلف استعان براو ثرثار يتدخل في كل صغيرة وكبيرة . ويعرف عن الشخصيات أكثر مما تعرفه هذه الشخصيات عن نفسها . والراوي يحضر جلسات الاستنطاق ،وعمليات التعذيب والقتل حضورا مباشرا . وهو فضلا عن ذلك عالم ببواطن الأمور وظواهرها مطلع على كل شيء .

وهذا عيب فني كبير وقع فيه المؤلف بسبب تدخله المباشر في أحداث الرواية وشخصياتها . بينما تجنبت هذا الخطأ وابتعدت عنه كثيرا الأديبة (زهور ونيسي) في روايتها من (يوميات مدرسة حرة) . حيث أنها تحدثت عن أخبار الشباب الثوريين الذين نفذ الاستعمار فيهم حكم الاعدام

فلم تستعن المؤلفة بالراوي الذي يعرف كل شيء عن مصير الشخصيات . أو تتدخل هي شخصيا . وانما أسندت مهمة هذا الدور الى امام مسجد الحي . فروى بنفسه أخبار مقتل الشباب وكيف اعدموا بالشنق والمقصلة على أيدي زبانية الاستعمار الجهنمية .(1)

وبهذا تكون (زهور ونيسي) قد نجحت في تقديم المعلومات للقارئ بدون تدخل منها . بينما أخفق (جروة علاوة وهبي) بذلك التدخل غير المنطقي وغير المعقول في الفن الروائي !؟

ولغة الرواية فيها كثير من المباشرة والتقريرية وتزخر بالكلمات الجافة والعبارات المعوجة . ثم هناك بعض الأخطاء اللغوية والنحوية والتراكيب الغامضة المبهمة . ولغة الرواية تسير على وتيرة واحدة . لغة جافة ليس فيها رموز ولا ايحاءات ولا شحنات شورية. وانما هي لغة مثقلة بالصور الجامدة المتحجرة !!

---

1 - من يوميات مدرسة حرة . ص : 122 .

الفصـــل الثالـــث

الاتجـــاه الأيـــديولوجـــي

تحدثنا في رواية (اللاز)عن موقف (زيدان) الثوري ،والآن نتناول دوره في الموقف الأيديولوجي ،باعتبار أن (الطاهر وطار) صب في هذه الشخصيـــة عقيدته الماركسية [illegible] .

ومن الملاحظ أن شخوص روايات (الطاهر وطار) أمثال (زيدان) و(حمو) و(جميلة)و(شريف) و (الحاج كيان)و(علي الحوات) هذه الشخوص كلها انمـــا هي خانات يملؤها الطاهر وطار بأفكاره وأرائه وعقيدته الماركسية .هـــذه الماركسية التي تحرك جميع شخوص روايات (الطاهر وطار) وتجعلها عبارة عن دمى يحركها المؤلف بأصابعه كيفما يشاء بل ان (الطاهر وطار) يشيد بالشيوعيـــة وينوّه بأفكارها بمناسبة وبدون مناسبة . فهو يقول صراحة على لسان (زيدان) (ان الشيوعية لاثقة بالفقراء والمساكين وضد الأغنياء وكبار الملاك .) (1)

وفي موضع آخر يدعو المؤلف الثورة والشعب كله الى وجوب اعتناق الشيوعية واتخاذها مذهبا وعقيدة ،لتتضح الرؤية ويستقيم الأمر حسب زعمه (يجـــب أن نحمر كلنا يجب أن تحمر الثورة كلها لتفكر تفكيرا سليما وتصدر أحكاما صحيحة .) (2)

والشيوعية في رأي (الطاهر وطار) انما هي فكر وسلوك ومبدأ يجب التمسك به والتضحية من أجله (ان الشيوعية ليست رداء ننزعه في الوقت الذي نشاء،وأنها عقيدة تقوم أول ماتقوم به على الاقتناع المدرك للحياة .) (3)

وتأكيدا لذلك جعل المؤلف (زيدان) ورفاقه الأوربيين الخمسة يتمسكون بالعقيدة الشيوعية ويفضلون الموت الجسدي على الموت العقائدي .

---

1 ـ اللاز . ص : 106 .
2 ـ المصدر نفسه . ص : 105 .
3 ـ المصدر نفسه . ص: 105 .

الـــزلـــــزال

للطـــاهــــر وطـــــــار

ملخـص الروايـــــة :

تتمحور رواية (الزلزال) حول شخصية اقطاعية انتهازية رجعية تملك آلاف الهكتارات من أجود الاراضي الخصبة بالشرق الجزائري . وقد امتلكت هذه الاراضي عن طريق الوراثة مرة والنصب والاحتيال مرة ثانية ،والغصب والسلب مرة ثالثة . وكان البطل الرئيسي في الرواية (عبد المجيد بو الارواح) غادر قسنطينة سنوات الثورة التحريرية بعيدا عن الجزائر وبالضبط كان يقيم في تونس . ثم رجع بعد الاستقلال الى الجزائر العاصمة . ليعمل مديرا في احدى الثانويات .

ولما هبت رياح الثورة الزراعية على ربوع البلاد وانتشر الحديث عن تطبيق مبادئ الثورة الزراعية . اهتز كيان الاقطاع وشعرت البورجوازية الاستغلالية بالخطر المحدق بها فشرعت تبحث عن شتى وسائل التزوير والاحتيال بكافة الوسائل الممكنة ،خوفا من أن تؤمم الدولة أراضيها الواسعة وتوزعها على صغار الفلاحين عملا بالشعار المعروف :
(الارض لمن يفلحها) ومن هذا المنطلق غادر (بوالارواح) الجزائر العاصمة متوجها الى قسنطينة بعد ما غاب عنها ستة عشر عاما . يبحث عن بعض أقربائه الذين عاملهم أسوأ معاملة قبل الثورة . ليوزع عليهم اليوم أراضيه في الورق فقط شرط الا ينتفعوا بها الا بعد موته . لانه رجل عقيم . واذا ما بدأت الدولة في عملية التطبيق الفعلي للثورة الزراعية فانها لن تجد لديه ما تؤممه من أراض زائدة .

وهكذا وضع (بوالارواح) قائمة للاقارب وبدأ في عملية البحث عنهم الواحد تلو الاخر . فوجد أن صهره (عمار) الحلاق قد استشهد في سبيل تحرير الوطن . وأن ابن أخيه (الطاهر) النشال أصبح ضابطا ساميا في الجيش الوطني الشعبي . وأن ابن خالته (عيسى بوالارواح) أضحى نقابيا شيوعيا . وأن ابن عمه (عبد القادر بوالارواح) الفرابلي أمسى أستاذا في الثانوية . أما (الرزقي) البرادعي فقد غدا امام مسجد بالمدينة

وفي نهاية الرواية يفشل (بوالارواح) وتذهب جميع محاولاته أدراج الرياح . ولم يجن سوى الخيبة والخسران . فيحاول الانتحار . لكن الشرطة تمنعه وتذهب به الى مستشفى الأمراض العقلية !

ورواية " الزلزال " كما هو معروف موضوعها الثورة الزراعية التي غيرت وجه الريف الجزائري . وأولته العناية القصوى ، ماديا ومعنويا .

شخصية بوالارواح :

قبل أن نحلل مواقف وأفكار (بوالارواح) المضطربة والمتناقضة حول الثورة الزراعية التي هزت كيانه هزا عنيفا . يجدربنا أن نعود قليلا الى الوراء لنتعرف على ماضي هذه الشخصية وتاريخها الأسود القاتم . فمن خلال أحداث الرواية وعبر (الفلاش باك) نتعرف على شخصية (بوالارواح) . حيث أنه كان من طبقة بورجوازية اقطاعية تعاونت مع السلطات الاستعمارية الفرنسية ،منذ احتلالها لأرض الجزائر وكان أفراد أسرته جميعهم خونة يعملون لصالح الاستعمار ومصالحهم الشخصية . يغتصبون خيرات البلاد بالنصب والاحتيال ويستولون على الاراضي الزراعية بالسلب والنهب كما فعل كبار غلاة المعمرين سواء بسواء .

وقد شاركت أسرة (بوالارواح) مشاركة فعالة في ازلال الشعب الجزائري واخضاعه بوسائل دنيئة وذليلة للاستعمار الفرنسي . وفي هذا المضمار يتبجح (بوالارواح) بهذه الاعمال الفظيعة البشعة التي قامت بها أسرته الخائنة ،قديما وحديثا ،حيث يقول بكل زهو وخيلاء (أبي ، الاغا بوالارواح ،وجدي الباش آغا بوالارواح ،جدي فتح الباب لغرنسا وأبي أخضع العباد لفرنسا ،وأنا حاربت في المغرب وفي الشام ،في حلب وحمص وطرطوس . كلنا نحمل وسام الشرف) . (1)

حاول المؤلف في هذه الرواية أن يبرز عيوب ومساوئ شخصية (بوالارواح) فجعله يتحدث عبر (الفلاش باك) عن الفكر الاقطاعي الذي كانت تمارسه الطبقة البورجوازية التي تمثلها أسرة (بوالارواح) وغيرها من الاسر الاستغلالية . والاقطاعية والرجعية في ذلك الحين . وفي فترة عهد الاستعمار الفرنسي كانت هناك طبقتان في الجزائر طبقة الاستعمار وأذنابه من باشوات وآغاوات والتي تمثلها عائلة (بوالارواح) وغيرها . وهي الطبقة الاستغلالية الاقطاعية التي تنعم بجميع خيرات البلاد ،وتعيش في بذخ وترف الوحد التخمة ،وهناك طبقة ثانية ،وهي الطبقة الفقيرة الكادحة المسحوقة التي لا تجد لقمة العيش الا بصعوبة ومشقة كبيرة والتي تحاول الطبقة الاقطاعية والبورجوازية أن تدوسها بالاقدام بدون شفقة ولا رحمة !

ويمثل هذه الطبقة المسحوقة ذلك (الخماس) الذي أخذ منه (بوالارواح) زوجته وابنته عنوة وأرسله الى المنفى بفرنسا .

ويمعن (الطاهر وطار) في ابراز جرائم (بوالارواح) البشعة وآثامه

---

1 - الزلزال . ص : 176 .

النكراء . فيصوره سفاحا للدماء قد أزهق أرواحا بريئة من نسائه اللائي تزوجهن ونساء أخريات من أقربائه ومن ذلك جاءت تسميته في الرواية بهذا الاسم الشعبي وهو اسم (بوالارواح) الذي يطلق على كل انسان قد قتل أرواحا كثيرة ظلما وعدوانا : (وقد حاول (الطاهر وطار) أن يشحن شخصية (بوالارواح) مدير ثانوية ومالك أراضي كبيرة ،بكل ما يقدر عليه من التناقضات حتى بات شخصية مشوهة الخلقة ،تستقل في الواقع حتى وان لم تقف ضد قرار ثوري) . (1)

ولم يكتف هذا الاقطاعي باغتصاب الاراضي والأموال وانما امتدت يده الى السطو على زوجات الاخرين وبناتهم ظلما واجحافا .

(بهذا الشكل يرسم الطاهر وطار أدق وأنقى صورة لواقع هذه الطبقة الاقطاعية في تلك الفترة من تاريخ الجزائر . لا قيم ولا مبادئ ،كل شيء مبرر في سبيل المغنم الشخصي والشهوة العابرة.) (2)

ويجدر بنا أن نذكر تلك المفارقات الصارخة التي سطرها المؤلف في سجل شخصية (بوالارواح) المليء بالغدر والخيانة وسفك دماء الأبرياء ورغم هذه المثالب كلها التي اتصف بها (بوالارواح) فانه لا يخجل أبدا من أن يحشر نفسه في جمعية علماء المسلمين ويقحم نفسه داخل رجال الاصلاح اقحاما . ويدعي كذبا وبهتانا أنه يعمل لصالح العروبة والاسلام وأنه يدافع عن اللغة العربية بحرارة وأنه يعمل على تطهير الدين مما ران عليه من خرافات وأوهام . فهو رجل دين يعمل جنبا الى جنب مع

---

1 ـ قاسم محمد حمزة ،أريق، الشعب 9 ـ 5 ـ 1977 .

2 ـ عادل أديب آغا ،جريدة الثورة السورية يوم 1975/02/13 .

(ابن باديس) يقول (بوالارواح) في مونولوج داخلي : (كنا نعمل بدافع العروبة والدين ، وبضمير العربي الحر ، الى جانب (ابن باديس) وأهل الفضل والعلم من صحابته وتلاميذه كنا نعمر ولا نخرب ، نعمر الألسنة بلغة الضاد ، لغة القرآن الكريم نعمر الافئدة بالدين ، بالحديث والسنة وما كان عليه السلف .) (1)

من خلال هذا النص يحاول (الطاهر وطار) أن يشير الى قضية جد خطيرة وفي منتهى الجرأة والصراحة وهي أن جمعية العلماء المسلمين كانت تحاول جاهدة احياء الكتاب والسنة وتطهير الدين من البدع والاساطير البالية . فضلا عن تنوير القلوب والعقول بالمبادئ السامية والمثل العليا التي حث عليها الدين الاسلامي الحنيف . وزيادة عن ذلك فان هذه الجمعية كانت تناضل في سبيل ايقاظ الشعور الوطني ، والحس الاجتماعي ، وبث الحماس في صفوف الشعب ليهب في وجه الاستعمار الفرنسي . الا أنه رغم كل هذه الاعمال الجليلة لهذه الجمعية فانه وجد من انضم الى صفوفها وانضوى تحت لوائها وطعنها في الصميم مثل (بوالارواح) ومن هم على شاكلته من الذين طغت عليهم الانانية وفضلوا مصلحتهم الذاتية ومنافعهم الشخصية على المصلحة العامة . وارتدوا رداء الخبث والنفاق فكانوا يرفعون شعارات العروبة والاسلام ويلوكون عبارات الاصلاح أمام الجماهير الشعبية وهم في حقيقة أمرهم يضمرون عكس ما يظهرون وهذه هي أبشع أنواع النفاق لدى هؤلاء الناس ضعاف الارادة ومرضى النفوس !

ف (الطاهر وطار) اذن يشن هجوما عنيفا على العناصر الطفيلية الهدامة داخل الجمعية ، وعلى أدعياء الدين المنتسبين اليه خبثا وخداعا ،

---

1 - الزلزال . ص : 41 .

تسترا واخفاء لانانيتهم وجشعهم لكي لا يظهروا على حقيقتهم أمام الجماهير الشعبية . والغريب حقا أن (الشيخ بوالارواح) نفسه قد سفك الدماء واغتصب الاراضي من أهلها واعتدى على شرف وأعراض الناس وجعل الفقراء خدما وعبيدا تحت قدميه . ثم اعتقد أن هذه الجرائم كلها ليست منكرا . وانما المنكر حسب رأيه ،هو تأميم أراضي كبار الملاك وتوزيعها على صغار الفلاحين .

ومن الواضح أن (الشيخ بوالارواح) شخصية جامدة متحجرة متمسكة بمعارفها التقليدية المتيقنة تمسكا عجيبا ،محاولة أن تكبح بشدة عجلة التطور والتقدم في جميع الميادين المختلفة . بل انها شخصية معادية للأحداث والتطورات المستجدة . للحياة العصرية ،رغم أن هذه الشخصية تدير أكبر مؤسسة تعليمية وتربوية ،وهي الثانوية . وكان من المفروض أن تتفتح هذه الشخصية على جميع التيارات الثقافية ،وأحدث الميادين التربوية ، والمعارف الانسانية ،والمذاهب الايديولوجية التي يمور بها العالم المعاصر وفي شتى بقاع الدنيا ليجد نفسه مواكبا لتطور الحضارة ومتجددا باستمرار. وبذلك يكون (الشيخ بوالارواح) قد جمع بين الأصالة والمعاصرة . وبالتالي يتخلص نهائيا من أنانيته وجشعه . غير أن (الشيخ بوالارواح) بقي مشدودا الى الوراء بحبال من حديد فلا يستطيع منها تخلصا أو فكاكا ا وظل منغلقا داخل قوقعته الذاتية حتى اهتزت الأرض تحت قدميه .

وفي هذا المضمار يقول أحد الدارسين واصفا هذه الشخصية :

(ومنذ البداية هو معاد للجديد ،لأن الجديد لا يتوقف . وبوالارواح جامد ، عفن ،حقير ،لكنه خطر ،بدءا من باب القنطره وانتهاء بـ جسر الهواء يتحرك بوالارواح في عالم جديد عليه ،عالم لم يجد ازاءه غير أن يرفضه

منذ البدايـة .) (1)

أن الاشتراكيـة التي تدعـو الى تحرير الفقراء من ربقة الاقطاع والاستغلال قد أممت ثروة ملاك الارض الكبار ،التي كانوا قد اغتصبوها بطرق غير شرعيـة من أهلها ،وهذه الاراضي قد عادت الى أهلها من جديد . ووزعتها الدولة عليهم بالتساوي لتزيل نهائيا الفوارق والطبقات الاجتماعية بأرض الوطـن وثورته الاشتراكيـة التي يسميها . (الشيخ بوالارواح) وطبقته الاقطاعيـة ب (المنكر) . هذا المنكر الذي حول حياة (بوالارواح) الى جحيم لا يطاق وراح يطوف في شوارع المدينة هاذيا ذاهلا عما يدور حوله ا يصرخ مـن أعماقه :

(خدعونا . خدعونا بدأوا بالاشتراكية ،حروفا ،ثم راحوا يبعثـون فيها الروح ،حتى صارت كلمة ،تعني - لا محالة - شيئا ،ثم هاهم وفجـأة لا ،لا الحرية ،حرية الاستقلال استقلال . الحكم حكم . السلطة سلطة . لكـن ، اعمال المبضع في الحياة ،حتى حد المنكر .لا .) (2)

ولما وصل (بوالارواح الى قسنطينة ذهب الى مطعم (بالباي) وهالـه ذلك التغير المذهل الذي طرأ على (بالباي) وكيف تحول من رجل اقطاعـي الى عامل بسيط يخدم زبائنه من عامة الشعب وقد كان هذا المطعم في فـترة الاحتلال مطعما للاقطاعيين والبورجوازيين من باشوات وآغاوات وحكـام ونواب . مخصصا لهم لا يدخله أحد سواهم ا ويبدو أن (بالباي) هـذا كان راضيا مطمئن البال غير ساخط على حالته اذ أنه افتقر بعد غنى وذل بعد عز . فيقول : (-حدث كل هذا وانتهى الامر . مرحبا بقضائه ورضائـه والحمد لله على صحة الابدان .) (3)

1 - عبد الامير الحبيب - الزلزال ،الثقافة العربية ليبيا عدد 12 ،1976.
2 - الزلزال . ص : 12 - 13 .
3- نفس المصدر . ص : 29 .

وفي زاوية من المطعم يفشي (بوالارواح) السر الذي ضاق به صدره وجعله يسافر مسرعا من الجزائر الى قسنطينة ليصرح لـ (بالباي) قائلا :

-(نعم المسألة بيننا . ولا بأس أن تخبر بها أصحاب الارض ،الكبار والصغار .. أقسم في الورق الارض على الورثاء ،حتى اذا ما جاؤوا لا نتزاعها،لم يجدوا بين يدي الشيء الكثير . ويجيبه (بالباي) بسخرية مريرة .

- لكنك، يا الشيخ (عبد المجيد بوالارواح) متأخر جدا . هذه المسألة حلها الحاذقون منذ سنوات عديدة . الأمر واضح منذ بدأ الحديث عن الاشتراكية) (1)

وأثناء تجواله في شوارع مدينة قسنطينة وعبر دروبها المختلفة يصاب (بوالارواح) بالدهشة حين يرى بعينيه مئات الاشخاص يقتحمون المدينة تاركين قراهم،بواديهم ،يبحثون عن أي عمل يعولهم ويضمن لهم لقمة العيش. لقد ظن (بوالارواح) أن هذا العدد الهائل من البشر انما جاء لينتزع منه أراضيه الواسعة . لذلك ظل يتهمهم بالكسل والخمول والهروب من فلاحة الارض .

وهكذا كلما اشتدت حرارة الصيف في جسم (بوالارواح) وتعب من اللف والدوان بحثا عن أحد اقاربه . كلما ازداد حنقا وسخطا على الدولة فيصب جام غضبه عليها شتما ولعنا واصفا اياها بالسطو والسرقة حيث أنها توزع اراضي الاغنياء على الفقراء الفلاحين . فالمسؤولون في أجهزة الدولة - في رأيه - (يسرقون من الاغنياء ويبذرون على الحفاة العراة الرعاة .) (2)

---

1 - الزلزال . ص : 30 - 31 .

2 - الزلزال . ص : 74 .

وحينما أحس (بو الا رواح) باليأس والاخفاق يتسربان الى نفسه اشتعلت نيران الحقد والكراهية في قلبه واسودت الدنيا في عينيه وأمسى لا يدري ماذا يفعل وماذا يقول ولا أين يتجه وأصابته نوبة من الهذيان الحاد . فلم يجد متنفسا الا بشتم الدولة بأبشع الشتم والسباب لانها هي التي كانت سببا في كل المصائب التي لحقت به وطوقته من كل جهة ومكان . وظل (بوالا رواح) يصرخ ويصيح والحزن يمزق قلبه ولم يجد وليا ولا نصيرا ،يخفف عنه وطأة المأساة الكبرى التي ألمت به . لذلك لم يجد بدا من أن يصرخ منالأعماق (الملاعين رجال السلطة . لا يريدون أرضنا ،انما يريدون أرواحنا ،يريدون أن نقع في الهلع والجزع ،انهم يتصرفون مدفوعين برغبات كل هؤلاء الاشرار من الفقراء والتعساء مدفوعين بلؤم العالم الذي انبثقوا منه ،أنا وقعت في فخهم ، بدأت أحس بكلكلهم قبل أن ينزل على صدري ،ملاعين ارهابيون . مجرمون .) (1)

(يتخذ الطاهر وطار منذ البداية موقفا ثابتا ازاء بوالارواح فهو يفضحه دائما من خلال امتزاج الحوار الداخلي لبو الا رواح مع حديث المؤلف. فنجد داخل ثنايا الرواية كلام المؤلف ممتزجا مع الاحاسيس الداخلية المتدفقة من نفس البطل ،امتزاجا واضحا يؤلف جوا متفتحا ،مع أنه متداخل الابعاد اذ ليس هناك فاصل معين بين السرد الروائي والتداعي الذي يلف احساس ومشاعر بوالا رواح .) (2)

وبعد أن هدأت عاصفة السخط والاستنكار التي كانت تجتاح نفسية (بو الا رواح) المتأججة حاول أن يفكر في ماذا تفعل الدولة وفيماذا تخطط للمستقبل ؟ وما هي المصادرالتي تستقي منها أفكارها ومبادئها وثقافتها ؟

(وأخيرا يصل الى نتيجة يعتقد أنها في غاية الدقة والاتقان . انها

1 - الزلزال ، ص : 74 .
2 - عبد السلام الخبيب . الزلزال ،الثقافة العربية ليبيا ،عدد 12 ، 1976 .

نتيجة لا يرقي اليها شك ولا يشوبها نقصان وهي أن خططها - الدولة - سوف لن تعرف نجاحا لانها مبنية على أسس غير منطقية . هؤلاء المسؤولون من :

(الشياطين الملاعين . يخطط لهم الروس بأدمغة اليكترونية ينقلون عنهم خططهم حرفا فحرفا . لكن مهلا . مهلا . منطقهم هذا ،غير مستقيم وفلسفتهم هذه مسطحة كثيرا .) (1)

ونظرا لاشتداد الزحام وكثرة الاختناق الذي عرفته مدينة قسنطينة من اقتحام للفقراء الكادحين الى هذه المدينة . يبدي (بوالارواح) قلقه وانزعاجه وشدة تذمره من ذلك يصرخ بشدة متسائلا في استنكار شديد :-

(نصف مليون ساكن برمته ،في المدينة ،فوق صخرة . ما الذي أتى بهم الى هنا ؟ أهي مدينة صناعية ؟ لا . أهي مدينة تجارية ؟ لا . أهي مدينة ثقافية ؟ لا . بعد وفاة ابن باديس وانقراطنا ،لم يبق في قسنطينة علم أو ثقافة .) (2)

اننا هنا أمام شخصية مأزومة سدت في وجهها جميع السبل والمناهج وقد حاولت طرق أبواب المدينة والولوج داخلها ،فوجدتها كلها مغلقة وفي غاية الاحكام . ووجدت نفسها في عزلة خانقة ووحدة قاتلة ومجتمع جديد يختلف اختلافا كبيرا عن المجتمع الذي كانت تألفه في ماضي الايام ولذلك أخذ (بوالارواح) يتحسر على فترة الاستعمار الفرنسي ويحن بشدة الى العهد البائد ويتمنى لو بقي الاستعمار في البلاد الى الابد وكان يتحرق شوقا الى تلك الايام التي عقد فيها علاقات ود وصداقة حميمة مع الفرنسيين واليهود في الجزائر ،قبل الثورة التحريرية حيث الباشوات والاغاوات يعيشون

---

1 - الزلزال . ص : 161 .

2 - الزلزال . ص : 72 .

مع اليهود والفرنسيين في علاقات متينة وصداقات قوية لانهم تجمعهم مصالح ومنافع مشتركة لا تنقصم عراها مدى الحياة .

وفكرة الحنين والشوق العميق الى الاستعمار فكرة لا يختص بهـا (بو الارواح) وحده وانما هي فكرة سائدة لدى جميع الأوساط والفئات الاقطاعية والبورجوازية لما كان لها من سطوة ونفوذ وتحكم في مصير البلاد والعباد ، ولما فقدت هذه السيطرة وذلك الاستعباد ظلت تذرف دموع الخيبة والخسران ،على ذلك الفردوس الفقود المتمثل في فترة الاستعمار

وقد صور المؤلف شخصية (بو الارواح) شخصية منحرفة المنطق وشاذة التفكير واقطاعية في أقوالها وأفعالها فهو يربط الطبقة الاقطاعية التجار والخونة وأذناب الاستعمار والرجعية ويجعلهم طبقة واحدة لا تشبه غيرها من الطبقات الاخرى . وهذه الطبقة - في رأيه - هي الشعب الحقيقي أما ما سواها من عمال وفلاحين ورعاة فليسوا من الشعب في شئ . وهذا منطق في منتهى الغرابة لدى هذه الطبقة الاقطاعية المستغلة المتعالية

(التجار بما فيهم الخونة والمفلسون معنا . مع السلف الشعب الحقيقي هو هؤلاء ،وليس العمال والخماسة والرعاة .) (1)

بل ان هناك أماكن وساحات وفنادق كانت مخصصة للطبقة الاقطاعية والبورجوازية فقط ومحرمة الدخول على جميع طبقات الشعب وخاصة الطبقة الكادحة التي يسميها (بوالارواح) بالرعاع: (ايه . نزل باريس . المنزل الكبير المقاهي العظمى الثلاث المشرفة على الساحة . هنا كان الملتقى . الموظفون المسلمون . كبار الفلاحين والمعمرين . الاغوات والباشاغوات . كبار أصحاب الاعمال والتجار . هناك كان الدخول ممنوعا على الرعاع . كانت الهيبة وحدها

1 - الزلزال ، ص : 26 .

تمنع الاهالي من الولوج .) (1)

نسي (بوالارواح) أو تناسى أن عهد الاستعمار والاقطاع قد ولى الى غير رجعة . وأن زمن الفوارق الطبقية والامتيازات الشخصية وعصر الاغاوات والباشوات والنواب قد عملت الدولة على ازالته نهائيا من الجزائر الاشتراكية وجعلت بدلا منه تنظيمات ديمقراطية ومنظمات جماهرية ونقابات عمالية وتسييرا اشتراكيا للمؤسسات الوطنية وأصبح العامل والفلاح سيد نفسه ومسيير معمله أو حقله بدون تسلط أو نفوذ أجنبي أو اقطاع محلي .

وبينما كان (بوالارواح) يلهث في الشوارع اذ لفت انتباهه شيء غريب ف (ركز بصره في اللافتة فقرأ : دار النقابات . تأمل وجوه الشبان ،فلم يقرأ فيها شيئا . نظراتهم عميقة ثابتة . أصواتهم رصينة حركاتهم هادئة) (2)

يقارن (الطاهر وطار) في هذا النص بين شخصياته الروائية المتناقضة تناقضا صارخا فبينما كان (الشيخ بوالارواح) يلف ويدور في الشوارع غاضبا ساخطا منهوك القوى خائر العزيمة متوتر الاعصاب يتخيل أن الجماهير الشعبية الكادحة كلها تطارده من مكان الى آخر مصوبة نحو جسمه السهام الحادة تريد تمزيقه اربا اربا . نرى في الجانب الآخر صورة أخرى تناقض الصورة التي عليها (الشيخ بوالارواح) وهي صورة الشباب الجديد من الجيل الجديد الذي يتمتع بثقة واسعة وأمل عريض وتفاؤل كبير في المستقبل . جيل جديد يختلف اختلافا كبيرا عن جيل (بوالارواح) الذي تلاشى واندثر وانتهى دوره الى الابد .

وعلى بضع خطوات منه سمع (بوالارواح) طالبا وطالبة يتجاوران فيما بينهما -

---

1 - الزلزال . ص : 71 .
2 - نفس المصدر . ص : 141 .

(انظر ،انظر ،هذه عاصمة فلاحية . انها الجزائر كلها . انها افريقيا كلها . انها آسيا برمتها . انها كل العالم المتخلف القائم على الفلاحة)(1)

(فالتحولات الجارية في العالم الثالث لم تبق بدون مقاومة. لقد جرت وتجري محاولات عديدة لتدمير هذه التحولات وايقافها ،وهناك كثيرون من قبيلة بوالارواح يتوزعون في العالم الثالث ،مستعدون دائما لرفع عقيرتهم بوجه الجديد . فقد وقفت الرجعية منذ زمن بعيد ضد أن ينتزع من يحرث الارض أرضه ،ومن يقف وراء الالة آلته .)(2)

وفي هذا المعنى يعلق (الطاهر وطار) على روايته الزلزال في حوار له مع جريدة النصر قائلا :- (ان الزلزال هي :-

1 - قسنطينة العاصمة الفلاحية لعدة ولايات فلاحية .

2 - هي الجزائر بأسرها التي تتعرض لتغيير اجتماعي كبير بعد الحصول على السيادة الوطنية .

3 - هي العالم القديم بحكم روح المحافظة التي اشتهرت بها عن حق أو عن باطل .

4 - هي العالم المتخلف في افريقيا وآسيا وآمريكا اللاتينية ،

5 - هي التي تتشابه معظم أحيائها في كل شيء حتى في قدم البنيان الذي يوحي بضرورة اعادة بنائه في أسرع وقت ممكن .

6 - هي أخيرا المحاصرة بوادي الرمال الذي قد يكون الماضي وقد يكون التراث ،وقد يكون الهوة التي تفصل بين الطبقات وقد يكون آلام الطبقات الكادحة ورمز العالم السفلي .)(3)

---

1 - الزلزال . ص : 88.

2 - عبد الامير الحبيب : الزلزال ،الثقافة ،ليبيا عدد 12 - 1976 .

3 - الطاهر وطار في حوار مع جريدة النصر 19 - 09 - 1973 .

وفي نهاية الرواية تبوء محاولات (بو الارواح) كلها بالفشل الذريع ويصاب بنوبة هستيرية تصل به الى حد الجنون .

(ولا يكتفي الطاهر وطار بعكس التطور الثوري الحادث في ذهنية الجماهير وهو الزلزال الحقيقي الذي يقصده في روايته هذه انما يبرز هذا التحول ويمنحه دفقا من الصدق والثقة بالمستقبل . بينما نجد بوالارواح الرمز وقد نقض عن امكانية اصلاح الملحدين ،فالجزائري الجديد ملحد ، وأقاربه الذين تغيروا .. ملحدون ،والحكومة ملحدة ... انها الثورة الزراعية ترمي حبالها حول أعناق الاقطاع ومضطهدي الفلاحين .) (1)

وهكذا تظهر لنا شخصية (بوالارواح) شخصية سكونية جامدة ،غير متطورة وسلبية الى أبعد الحدود . فمنذ بداية الرواية الى نهايتها لم تتطور الشخصية قيد أنملة . واكتفى الشيخ (بوالارواح) بالشتم والسباب تنفيسا عن الورطة التي أوقعته فيها الثورة الزراعية وكونت لديه مشكلة عويصة صعب عليه حلها ،وبالتالي انتهى الى طريق مسدود فأوقع نفسه في مأزق لم يستطع منه مخرجا !

وهناك بعض الشخصيات الثانوية في الرواية تتصف بالايجابية والتطور كشخصية (عبد القادر) النشال ابن عم (عبد المجيد بوالارواح) فقد تطور (عبد القادر) من شخص نشال ،الى شخصية أستاذ في التعليم الثانوي . بفضل العمل المتواصل ،والكفاح المستمر ،داخل السجن وخارجه ،فقد استطاع أن ينقذ نفسه من براثن الجهل ومخالب الفقر ،وكافح كفاحا مـ...

---

1 ـ عبد الامير الحبيب . الزلزال . الثقافة العربية ليبيا عدد 12 . 1976 .

في سبيل ترقية مستواه المادي والمعنوي . وبفضل ذلك النضال تغير تغيرا جذريا وتحول من النقيض الى النقيض ا من رجل أمي جاهل الى رجل مثقف يتمتع بمستوى رفيع في العلم والمعرفة .

أما شخصية (عيسى بوالارواح) فقد تطور هو الاخر تطورا كبيرا وقد قفز قفزة عملاقة ،من ضفة الى ضفة . فبعد أن كان رجلا رجعيا سلفيا ساذجا ،يؤمن بالخرافات والاوهام والاساطير البالية ،تحول الى النقيض الى شخصية واعية متطورة تقدمية . تبث التوعية والتثقيف ،في أوساط المناضلين وتعمل على تنظيمهم وتوحيد القلوب في صفوف الجماهير الشعبية الكادحة . لتحبط كل المخططات والمؤامرات التي تحيكها الاقطاعية والرجعية والبورجوازية المحلية . للقضاء على الثورة الزراعية والمؤسسات الاشتراكية : (في اعتقادنا أن الطاهر وطار أراد أن يقول شيئا معينا ، أراد ان يقول الثورة فعل جماعي ،وأن التغير حتمي والجديد يأتي، وهو آت . . . وليست هنالك قوة تقف في طريقه . . وكل المحاولات التي يبذلها أعداء الثورة ،قشور رقيقة لا تحمل خطورة كبيرة . . ويكفي أن يداس فوقها عموديا . . وبحزم ،لينتهي أثرها الى الابد .) (1)

المعمار الفني للرواية :

مزج (الطاهر وطار) في روايته (الزلزال) الاساليب التقليدية للرواية الكلاسيكية كالسرد والوصف والحوار أحداث الاساليب التقنية الجديدة في الرواية الحديثة كالمونولوج الداخلي والعودة الى الماضي (الفلاش باك) .

---

1 - عبد الامير الحبيب ،الزلزال . الثقافة العربية ،ليبيا عدد 12 ،1976 .

أما المونولوج الداخلي فيحتل معظم الرواية . على لسان شخصية (بو الارواح) ليعبر به عن أفكاره وأحاسيسه ومشاعره الداخلية تعبيرا يغوص داخل الشخصية فيبرز ما تعانيه في أغوارها ،من طمع وجشع وجزع وهلع خوفا من ضياع ما تملكه من أراض واسعة تارة . ومن سخط وغضب على المجتمع الجديد الذي عجزت عن أن تتكيف معه تارة أخرى .

وقد صور (الطاهر وطار) شخصية (بوالارواح) من الداخل والخارج تصويرا بارعا . وأبرز بصورة واضحة أهدافه ومراميه وأساليب خداعه وتحايله على الحكومة حتى لا تطبق الثورة الزراعية على أراضيه الواسعة المريضة .

أما أسلوب (الفلاش باك) فقد استخدمه (الطاهر وطار) ليبرز من خلاله جذور وخلفيات أسرة (آل بوالارواح) وماضيها الأسود وسجلها الحافل بالغدر والخيانة والعمالة .

أما الحوار فكان مركزا قصيرا يعبر عن واقع الشخصية وعن اتجاهها ويدفع بمجريات الأحداث الى الأمام . فهو حوار خصب ينبض حركة وتطورا وتصاعدا وحرارة وتدفقا وصدقا .

وأما اللغة : فقد استخدم (الطاهر وطار) في السرد والوصف والحوار لغة سهلة بسيطة فليس فيها تعقيد ولا غموض ،لغة تتغلغل الى قلب القارئ في سهولة ويسر . وتشده الى متابعة الأحداث وتطوراتها من البداية الى النهاية . دون ملل . فلغة الكاتب في هذه الرواية لغة صريحة واضحة تمتاز بالعمق والدقة ،ذات معان ودلالات . وقد حرص المؤلف على أن يجعل لغته عربية فصيحة لتكون في مستوى الجميع .

والكاتب من جهة أخرى استعمل الاسلوب البرقي الذي يحتوى على كلمات قصيرة ذات معان كثيرة وهو يذكرنا بأسلوب الروائي الامريكي

(أرنست همنغواي) الذي يؤدي الجملة الطويلة في أوجز صورة . والمؤلف اختار في رواية الزلزال الالفاظ والعبارات المليئة بالايحاءات والرموز والاشارات الدالة والشحنات العاطفية المتفجرة .

وفي هذا السياق يصرح (الطاهر وطار) قائلا :

(أنا الذي قضيت سبع سنوات في كتابة اللاز كنت أخشى كثيرا أن لا أصل مرة أخرى الى مستواه . في أي عمل أدبي جديد . لكن ما ان انهيت الفصل الاول من الزلزال حتى عاد الى الاطمئنان الى أنني لا أتقهقر وأنني في كل عمل جديد أشعر بنضج اكثر في مجال اللغة ، في الرؤية ،وفي مجال التكنيك .) (1)

---

1 - الطاهر وطار في حوار مع جريدة النصر ،19 - 9 - 1973 .

العشق والموت في الزمن الحراشي

للطاهر وطار

عالج (الطاهر وطار) في الجزء الأول من رواية (اللاز) جانبا من ثورة التحرير الوطني معالجة فنية تتسم بالنظرة الشمولية والفكر العميق . والتي تضم أبعادا كثيرة وتجربة انسانية خصبة عريضة . فاعتبرت بحق في رأي كثيرة من النقاد رواية ذات مستوى رفيع من حيث الجودة والاتقان . وهذا ما جعلها تقف الى جانب بعض الروايات العالمية ضمن أحدث أساليب التكنيك الروائي ،وقد بذل فيها المؤلف أقصى ما يملك قدرات وطاقات فكرية وفنية .. فجاءت تحفة نادرة المثال في الأدب الجزائري المعاصر ،عقب ثورة التحرير الكبرى وبعد الاستقلال مباشرة !

أما في الجزء الثاني من رواية (اللاز) المسمى ب (العشق والموت في الزمن الحراشي) فقد كان المؤلف فيه يلهث وراء الهتافات ،والشعارات ،والخطب السياسية ، والمقالات الصحفية الدعائية ،ونتيجة لذلك سقطت الرواية في السرد المباشر والتقريرية الصارخة ،والتكرار الممل ،وابتعدت عن الأساليب الفنية الممتازة التي تعطي الرواية قيما فكرية وفنية وجمالية تسر النفوس والعقول . وحين ابتعدت هذه الرواية عن الأساليب الراقية للفن الروائي . واتبعت الأسلوب الدعائي الصارخ . تهاوت وصار مآلها الفشل والاخفاق . ولم تستطع أبدا أن تفرض نفسها على جمهور القراء وتقنعهم وتنال اعجابهم ولم تستطع هذه الرواية كذلك أن تصور جانبا هاما في ثورة البناء والتشيد كما صورت شقيقتها (اللاز) بعض أحداث ثورة نوفمبر الخالدة ؟

ملخص الروايـــــــة :

تتلخص أحداث الرواية في أن مجموعة كبيرة من طلبة الجامعة . خرجوا في رحلة تطوعية في عطلة الشتاء الى الريف الجزائري لمساعدة اخوانهم الفلاحين

الصغار المستفيدين من الثورة الزراعية . وعمل هؤلاء الطلبة في فلاحة الارض. وقاموا بنشاطات مختلفة على أرض الميدان كتوعية وتثقيف الفلاحين الصغار وكان الطلبة يركزون على شرح وتحليل مبادئ الثورة الزراعية وأبعادها ومراميها القريبة والبعيدة سعيا منهم في أن تتفتح عقول الفلاحين المكبلة بقيود الجهل والامية والتخلف من جهة . والمقيدة بأغلال الاقطاع والبورجوازية من جهة أخرى .

وتنقسم مجموعة الطلبة الى قسمين : قسم يقف على رأسه (جميلة) و (ثريا) و (يامنة) و (شريف) وهؤلاء الطلبة من الاتجاه الشيوعي .

وقسم آخر يجمع في صفوفه (مصطفى) و (ابراهيم)و (بوزيد)و(علوان) وغيرهم وهم من جماعة الاخوان المسلمين .

وقد احتدم الخصام بين الطرفين المتناقضين ايديولوجيا . وتحول هذا الخصام الى صراع حاد ،حول المبادئ المتناقضة والاتجاهات المختلفة بين الدين والعلم ، والايمان والالحاد ،بين الروح والمادة . وقد رجح المؤلف الاتجاه الأول على الاتجاه الثاني .

وهناك شخصيات أخرى لعبت أدوارا متناقضة على مسرح أحداث الرواية ، من بينها (عبد القادر) رئيس التعاونية الفلاحية .و (عيسى بوعبن) كاتب القسمة ، ومدير التكميلية (الشيخ مبارك) . بالاضافة الى شخصيات قديمة كنا نعرفها في الجزء الأول من رواية (اللاز) وعلى رأسها شخصية (اللاز) نفسه . و (حمو) وبعطوش) و (الشيخ الربيعي) .

أما الشخصيات الهامشية فتحتل جانبا كبيرا من الرواية وفي مقدمتها (سي رضوان) و (سي منصور) و (الشياح المكي) . . .الخ

وبعد أن تتشابك المواقف وتتطور الأحداث من خلال هذه الشخصيات المتناقضة والمتصارعة تنتهي الرواية بفوز الاتجاه الشيوعي وانهزام الاخوان المسلمين على أرض المعركة . فقد فر (مصطفى) رئيس المجموعة وانضم بعض رفاقه الى مجموعة (جميلة) و (شريف) .

مضمون الرواية :

يتجاذب مضمون الرواية قطبان رئيسيان أولهما التطوع الطلابي للثورة الزراعية . وثانيهما الصراع الايديولوجي الدائر بين الشيوعيين والاخوان المسلمين في صفوف الطلبة المتطوعين أنفسهم .

والملاحظ أن المؤلف ركز جل اهتمامه على قضية الصراع الايديولوجي دون اهتمامه . لجانب التطوع للثورة الزراعية أو قضية الأرض والفلاح الجزائري بصفة عامة . مما جعل هذا الجانب المهم يتضاءل بشكل كبير ولم تعط له الأهمية المرجوة كما ينبغي . فكان هذا الحدث الكبير هامشيا على مسرح أحداث الرواية . ونعتقد بأن اهمال المؤلف لهذا الجانب المهم شكل ضعفا بينا في الرواية . لأنه كان منشغلا في اثارة الصراع المحتدم بين هذين الاتجاهين المتناقضين أي الصراع بين الاسلام والكفر والالحاد .

ومن المعروف أن الصراع بين الشيوعيين والاخوان المسلمين قد عالجه الروائي الكبير (نجيب محفوظ) معالجة خطيرة وبشكل موسع في رواياته المختلفة مثل (القاهرة الجديدة) و (خان الخليلي) و (الثلاثية الشهيرة) في أواخر الأربعينات وبداية الخمسينات من هذا القرن .

على أن (نجيب محفوظ) لم يقحم نفسه في ذلك الصراع الدائر بين المعسكرين المتصارعين . ولم يحاول أن ينحاز الى جانب معسكر ضد معسكر

آخر ،ويحارب صفوفه ويشيد بمواقفه وأفكاره . لقد ابتعد (نجيب محفوظ) عن حلبة الصراع الدائر بين المتخاصمين واهتم أساسا بتسجيل صور المعركة الفكرية المحتدمة والقائمة بينهما بدون تدخل منه بل سجل الأحداث بكل موضوعية وحياد تام . ولم يورط نفسه في الوقوف بجانب أية شخصية مهما كان موقفها واتجاهها سواء كانت تقدمية أورجعية

لكن (الطاهر وطار) انحاز كليا الى الاتجاه الذي يؤمن به ويناضل من أجله فانتصر لحزبه وحارب معه في أرض المعركة يقول : (لكن برهما - أي الطاهر وطار - يستحيل أن تمحى آثاره . لقد حارب الرجعية من داخلها ،وبلغتها ،وهذا ما يثير حقدها أكثر .) (1)

عالج (الطاهر وطار) مشكلة الصراع الايديولوجي في هذه الرواية بشكل تجريدي مثالي فجعل الأفكار والمعتقدات تتصارع فيما بينها كأنها أشباح في فضاء واسع عريض ،وكانت بعض شخصيات الرواية عبارة عن دمى يحركها المؤلف كيفما يشاء . وينطقها بآرائه وأفكاره ومشاعره الخاصة حيثما رغب . لذلك ظلت هذه الشخصيات بدون ملامح محددة أوسمات مميزة . لأنها ليست شخصيات من لحم ودم بقدر ما هي أفكار وآراء ومشاعر مجردة . فجاء هذا الصراع خاليا من الحيوية والحرارة المطلوبة في مثل هذا المتأزم . وقد كان بامكان المؤلف أن يجعله صراعا دراميا ينبض حركة واثارة وتأزما :"(اننا لا نظفر بمستوى فني من الصراع الدرامي . اذ انحصرت الخلافات في مجرد مناقشات بيزنطية لفظية حوارات شباب مراهق دينيا وسياسيا ،لدرجة اننا نجد فقرا بعينها مكررة من روايات الكاتب السابقة فضلا عن أنه انتهى الى حشو روايته بآراء الفلاسفة ،والثوار ،والأدباء

---

1 - العشق والموت في الزمن الحراشي . ص : 43 .

والشعراء ،من الفرنسيين والعرب والصينيين والفيتناميين والاتراك .) (1)

وعلى هذا الاساس يمكن أن نقول أن رواية (العشق والموت في الزمن الحراشي) قد تناولت قضية الصراع الايديولوجي تناولا سطحيا . وأهملت مشكلة الارض والفلاح اهمالا كليا . وأشارت الى هذه القضية الكبرى اشارة عابرة دون التركيز القوي على لب المشكلة والغوص الى أعماق نفسيات بعض الفلاحين من شخصيات الرواية وما تعانيه من بؤس وفقر وحرمان وقهر ،سلطته عليها فئة من البورجوازية والاقطاعية المستغلة .

شخصيات الرواية .

تزخر الرواية بشخصيات متعددة الآراء والمواقف والافكار . ورغم كثرة هذه الشخصيات فلا نجد في الرواية شخصية محورية تتمركز حولها جل الأحداث والمواقف وانما وزع المؤلف أدوار الشخصيات بالتساوي تقريبا وان كان أولى اهتماما لشخصية (جميلة) ورفيقاتها المتطوعات .

وعلى هذا الأساس يمكن أن نلقي بعض الأضواء على شخصية (جميلة) وبعض الشخصيات التي لها أهمية سير أحداث الرواية .

شخصية جميلة .

تحتل شخصية (جميلة) مكانة مرموقة لدى المؤلف دون شخصيات الرواية الأخرى . فهي " الناطق الرسمي " باسم المؤلف ،باعتبارها وسيلة يبث من خلالها أفكاره وآراءه وأيديولوجيته الماركسية اللينينية

---

1 - د . سيد حامد النساج ،الطاهر وطار والرواية الجزائرية مجلة فصول ص:260 .

التي تشبع بها ورغب فيها ودافع عنها بقوة . فالمؤلف حتم على (جميلة) وارغمها بأن تشيد بذكائه وفطنته بل بعبقريته وتطلق عليه ألقابا وصفات عظيمة وتجعله في منزلة الكتاب العالميين وتقرن اسمه بأسمائهم في مواضع شتى من الرواية .

ولا تنسى (جميلة) أن تستشهد بأقوال (الطاهر وطار) بمناسبة وبدون مناسبة معتبرة أعماله الفنية وكتاباته (أناجيل ودساتير وتعاليم)(1)

واذا تتبعنا مراحل حياة (جميلة) منذ بداية نشأتها الاولى نجد أنها تمردت على أبويها وأسرتها ،والتحقت بالجامعة وانخرطت في صفوف لجنة التطوع الطلابي لفائدة الثورة الزراعية مع جموع الطلبة والطالبات في العطل الجامعة صيفا وشتاء في القرى والارياف الجزائرية .

لقد تحررت (جميلة) من سذاجة وجهل أمها من جهة . ومن قبضة أبيها وجشعه وطمعه من جهة أخرى ،وتخلصت من كل القيود الاجتماعية وأعلنتها ثورة عارمة على كل القيم والاخلاق والعادات والتقاليد والاعراف البالية .

ثم أنها أبرزت مواقفها الثورية ونضالها في صفوف الطلبة المتطوعين ونالت اعجابهم لانها تتمتع بشخصية قوية فكانت متمسكة بعقيدتها وثابتة على مبادئها الثورية .

يبالغ (الطاهر وطار) في الاشادة بدور (جميلة) ويجعلها في قمة النضال الثوري . فيفضلها على (جميلة بوحيرد) بطلة الثورة التحريرية

---

1 - د . سيد حامد النساج ،الطاهر وطار والرواية الجزائرية مجلة فصول ص : 260 .

وبعد مقارنة بسيطة يستنتج المؤلف أن دور (جميلة) أعمق وأشمل من دور (جميلة بوحيرد) وربما أن (الطاهر وطار) يرمز من خلال شخصية (جميلة) الى الجزائر في هذا المجال .

ولست أدري لماذا يصر (الطاهر وطار) على أن يربط بين نضال الفتاة الجزائرية وشرحها لمواثيق الثورة الزراعية وعملها في الحقول تطوعا للثورة الزراعية ، وبين انحلالها وسقوطها في بؤرة الرذيلة وحمأة الفساد والاجهاض ! هل يريد أن يقول أن الفتاة الجزائرية داست بقدمها على كل القيم والمبادئ الاخلاقية ،وضربت بعرض الحائط كل عرض وشرف.أم أنه يجد الرغبة الطحة في التلذذ باهانة المرأة أم ماذا يقصد من وراء ايراد هذه الصورة البشعة التي تشوه صورة الطالبة الجامعية الجزائرية؟

والقارئ يتساءل هنا ،أي دور قامت به (جميلة) و(ثريا) و(فاطنة) و(دليلة) وغيرهن من المتطوعات في هذه الرواية ،باستثناء غرس بعض السلال من البطاطس والبصل والثوم ؟ ! هؤلاء الفتيات اللائي يشيد المؤلف بدورهن الفعال وموقفهن الشجاع . يصفهن في جزء من أجزاء هذه الرواية في أبشع صورة وأقذر منظر وأسوأ فعل .

فالطالبة الجامعية في نظر (الطاهر وطار) مزدوجة الشخصية تجمع بين المتناقضات بين وجه مشرق تبرز فيه معاني الثورة والنضال والكفاح ضد البورجوازية والاقطاع والرجعية . ووجه مظلم تبرز فيه الرذيلة في أقبح صورها وأشكالها من فسق وفجور ودعارة واجهاض..الخ .

كما نجد ذلك عند (جميلة) وزميلاتها المتطوعات . وما يزال المؤلف يرفع من قيمة (جميلة) ـ رغم ما وصمها به من خزي وعار ـ ويفضلها على

سائر المناضلات ابان ثورة التحرير الكبرى ،ففضلها على لسان شخصيات الرواية ذكورا واناثا . (كل الناس في الحقيقة يعرفون جميلة . انها أشهر من جميلة بوحيرد ،وجميلة بوعزة وغيرهما من الجميلات) (1)

والقارئ يندهش لمنطق المؤلف عندما يكيل المدح والثناء لـ (جميلة) ويعتبرها أشهر من (جميلة بوحيرد) ،و (جميلة بوعزة) في مجال الثورة والنضال والعمل لبناء وتشييد الوطن . ثم يراه مرّة ثانية يناقض كلامه في جزء آخر من الرواية فتظهر لنا تلك المناضلة الثائرة في وجه يناقض الوجه الأول ،وجه ملطخ وملوث بالخزي والعار ،

والملاحظ أن لـ (جميلة) وجهين متناقضين وجها قبيحا مستترا ووجها جميلا بارزا للعيان . ولعل الوجه الجميل هو الذي استهوى بعض المستفيدين وأهل القرية ،فلقبوها بالمجاهدة وكانت محل احترام وتقدير عندهم .

واذا ما دققنا النظر في مسيرة (جميلة) عبر الرواية فلا نجد أي شيء يلفت انتباهنا في مجال الموقف الثوري رغم أن المؤلف أحاطها بهالة من التبجيل والتكريم وفضلها على جميلات ثورة نوفمبر التحريرية . لم تقم (جميلة) بأية محاولة ثورية باستثناء رد هجوم (مصطفى) عندما حاول أن يشوه وجهها بالحامض . أو هتافها بحياة الاشتراكية والثورة الزراعيةوالاقطاع والرجعية . وليس وراء ذلك أي حدث يذكر فعلته (جميلة) على نطاق أحداث الرواية ككل !

وبهذا نستطيع القول أن (جميلة) شخصية نمطية مسطحة تفتقر

---

1 ـ العشق والموت في الزمن الحراشي . ص : 62 .

كثيرا الى الايجابية والعمق والفعالية . فالبطلة اذن تعجز عن اتخاذ أي موقف ايجابي من أجل تغيير الواقع . ثم انها لم تترجم أقوالها الى أفعال واقعية . وانما بقيت حبيسة صدرها ولم تفجر الطاقات الكامنة داخل أعماقها فكرا وشعورا وممارسة ولعل السبب في ذلك يرجع الى افتتانها بالمؤلف والاشادة بعبقريته الفذة على حد تعبيرها . وقد شغلها ذلك المديح والاطراء عن القيام بأية مبادرة ايجابية وثورية تذكر ،والغريب أن (جميلة) سلطت الأضواء الساطعة على الجانب السلبي والبشع في نفس الوقت من حياتها الخفية فقد تعرت على حقيقتها أمام جمهور القراء وكشفت عن مساويها بدون حياء ولا خجل ؟!

أما شخصيات (اليامنة) و (فاطنة) و (دليلة) و (شريف) و (بوزيد) و (ابراهيم) و (علوان) فكلها شخصيات نمطية مسطحة ،شخصيات بدون أعماق ولا أبعاد ولا خلفيات ولا جذور نفسية أو اجتماعية أو سياسية .

(ان هذه الشخصيات تتحول في الرواية الى مجرد غطاء للطرح السياسي المباشر ولصورة مشوهة عن الالتزام السياسي تصل الى حد تسطيح جميع الشخصيات والملاقات وتمجيد السلطة .) (1)

وتبقى من الشخصيات النسائية في الرواية شخصية (ثريا) اليسارية المتطرفة .فـ (ثريا) تحاول أن تستخدم العنف الثوري . وتسيل الدماء في سبيل تحقيق النصر للثورة الزراعية . وهي صورة مضخمة لصورتي (جميلة) و (شريف) ويمكن أن نقول أن (ثريا) تعيش في أحلام جوفاء وخيالات جامحة وأوهام خاطئة .

---

1 - الياس خوري ،الذاكرة المفقودة ، ص : 181 .

أما (شريف) فقد كان منخرطا في صفوف طلبة الجامعة المتطوعين في قرية (اللاز) يرأس مجموعة كبيرة من طلاب الجامعة المتطوعين ،الذين يساعدون الفلاحين في الاعمال الفلاحية ،ويشرحون لهم مبادئ وقوانين الثورة الزراعية في عين المكان .

وقد برزت هذه الشخصية فجأة على مسرح الاحداث بدون أن تنمو أو تتطور فنيا مع الوقائع والاحداث والمواقف والافكار . وظلت شخصية (شريف) نمطية مسطحة فضلا عن سلبيتها وهروبها من مواجهة المواقف الحرجة . انها شخصية اتكالية ضعيفة تتهرب من المواجهة والاصطدام وتنتظر من الغير أن يتحملوا عنها عبء المسؤولية الملقاة على عاتقها .

ان ثورة (شريف وثورة زميلتيه (جميلة و (ثريا) لم تكن في أية لحظة من اللحظات ثورة صادقة راسخة تنبع من الاعماق . يضحي صاحبها في سبيلها بالنفس والنفيس . ولكنها ثورة انفعالية تتسم بالارتجالية والتسرع ان لم نصفها بالثرثرة الجوفاء والكلام الفارغ!

لأن هذه الشعارات التي كان يرددها أصحابها لم تترجم في يوم من الايام الى ممارسات فعلية على أرض الواقع العملي (ولسنا نعتقد أن الشخصيات الثائرة يمكن أن تكون كتلة متشابهة الملامح الى هذا الحد ولا يجوز أن تكون ثورية الشخصية مرادفة لتسطحها وجفافها .)(1)

ف (هذه المساحات الهائلة التي شغلتها المناقشات ،والحديث الشخصي أفقدت كثيرا من الفصول حيوية الصراع وحرارة الاحداث ،

---

1 - الدكتور عبد المحسن طه بدر ،الروائي والارض . ص : 185 .

والتعمق في نفسيات الشخصيات ،ولعله أيضا ابتعد بالقارئ عن الواقع الفوار المتحرك الحي ،وجعله يتابع - فقط - آراء الشخصيات وأفكارها ومناقشاتها التى لا تخرج عن دائرتين اثنتين : الدائرة الاولى هي دائرة الشباب المتحمس للثورة الزراعية والمتهم بالشيوعية ،والدائرة الثانية هي قوى الثورة المضادة للثورة من الداخل ومن الخارج معا ،أي من داخل صفوف الثورة ومن خارجها .) (1)

أما شخصية (مصطفى) رئيس فوج الطلبة المتطوعين ،الممثل لاتجاه جماعة الاخوان المسلمين . فقد رسمها المؤلف رسما كاريكاتيريا يقطر سخرية واحتقارا وقد جمع المؤلف كثيرا من المساوئ والعيوب ورمى بها (مصطفى) حتى غدت صورته في غاية من التقزز والنفور . يصفه المؤلف بأنه شخصية غريبة الأطوار تثير البلبلة والاضطراب في صفوف الطلبة المتطوعين . جاعلا صديقه المخلص يتهمه بقوله : (انك ضد الثورة الزراعية ،ضد أن ينال الفقراء والمساكين ،قطع أرض يفلحونها . ضد أن يحصلوا ولو على الحد الادنى من قوتهم ،وقوت عيالهم ،وانك بذلك تخدم أهداف المالكين المحتكرين والاغنياء وكبار التجار . تريد أن تبقى على نظام الخماسة والرعي ،وعلى الجهل والامية ،وعلى الفساد الاجتماعي .) (2)

وترجع هذه الاتهامات التهجمات التي يشنها المؤلف على شخصية (مصطفى) الى عداوة عقائدية مذهبية . فشخصية (مصطفى) ليست شخصية ذاتية بعينها وانما هي عبارة عن فكرة ايديولوجية يرفضها المؤلف رفضا قاطعا ان لم يكن يحاربها محاربة بلا هوادة .

---

1 - الدكتور سيد حامد النساج ،الطاهر وطار و الرواية الجزائرية . ص : 260 .
2 - العشق والموت في الزمن الحراشي . ص :102 .

لقد صور المؤلف بطله (مصطفى) في غاية الجزع والهلع خوفا من خصومه في حين صور المؤلف (جميلة) ورفاقها في غاية الهدوء والاطمئنان وكلهم ثقة وتفاؤل وكلهم قوة وارادة وارتباط وتلاحم فيما بينهم حتى هتافهم كان في غاية الدقة والانسجام اذ (كانت الأصوات قوية كانت ثابتة رصينة . واضحة تتميز بالصدق .)(1)

بينما كان (مصطفى) وجماعته على النقيض تماما . فهم في تمزق وتفكك وتناحر فيما بينهم في صورة غائمة وغامضة ومهزوزة لا تبعث على الارتياح !

ولا يترك المؤلف بطله (مصطفى) يخرج من المسجد بعد انتهاء درس الوعظ والارشاد وتفسير (سورة العصر) دون أن يجعله أضحوكة ومحل سخرية وازدراء لأصدقائه ورفاقه قبل خصومه وأعدائه !

وبعد هذا كله لا نستغرب اذا رأينا (مصطفى) منهزما في أرض المعركة التي دارت بينه وبين (جميلة) ويلوذ بالفرار بعد انضمام أصحابه الى (جميلة) وتختم الرواية بهذه العبارة عقب فرار (مصطفى) (الثورة الزراعية) ،صخرة سيتحطم عليها قرنا كل رجعي ،يحاول أن ينطحها .)(2)

ومن المعلوم أن (جميلة) و (ثريا) و (فاطنة)و (اليامنة)و (شريف) (واللاز) طبعا . امتداد لـ (زيدان) البطل الشيوعي في رواية (اللاز) .

وأن (مصطفى) امتداد للشيخ مسؤول جبهة التحرير الوطني ،ابان الثورة التحريرية ،والذي ذبح (زيدان) لعدم انسلاخه من الحزب الشيوعي

---

1 - العشق والموت في الزمن الحراشي . ص : 102 .
2 - نفس المصدر . ص : 101 ، 102 .

الجزائري ورفضه الانضمام الى حزب جبهة التحرير الوطني . وقد أكد (مصطفى) مرارا على أنه انحدر من معدن جبهة التحرير ،وأحد أبنائها البررة المخلصين فهو يصرخ قائلا : (نحن أشبال المجاهدين الذين حرروا الوطن عميروش ،بن بولعيد ،بن مهيدي ،الحواس ،بوقرة . وعلينا أن نتحلى بجميع صفاتهم ،وبجميع قيمهم ،والمثل العليا التي استشهدوا - رحمهم الله - من أجلها .) (1)

وكأني ب (الطاهر وطار) قد شعر بعقدة الذنب عندما ذبح (زيدان) على يدي (الشيخ) مسؤول جبهة التحرير الوطني . فأراد أن يكفر عن هذا الذنب الذي ارتكبه في حق (زيدان) . فصمم أن ينتقم من أحد أبناء (الشيخ) وهو (مصطفى) فلطخ صورته ولوث سمعته وهزمه أمام أعدائه وخصومه . فكانت هزيمته وفراره من وجه خصومه أشد فظاعة ومرارة وألما من ذبح السكين وحزه من القفا !

ومهما يكن من أمر فان شخصية (مصطفى) جاءت قاتمة شديدة السواد بسبب تشويه المؤلف لها وحقده عليها ،وتشفيه بها :

ومن بين شخصيات الرواية هناك شخصية (اللاز) البطل الرئيسي في الجزء الأول من الرواية .

نرى (اللاز) في هذه الرواية في حالة غيبوبة وذهول مستمر لا يدرى ماذا يجرى حوله من أحداث داخلية أو خارجية ومع أن (اللاز) لا يتكلم ولا يعمل ولا يشارك في أحداث ووقائع الرواية من قريب أو بعيد ، يبدو (اللاز) في الرواية واقفا منتصبا كالتمثال الضخم تتبرك به نساء القرية

---

1 - العشق والموت في الزمن الحراشي . ص : 215 .

ويطلبن منه متوسلات ،أن يقضي حوائجهن ،ويحل مشاكلهن العويصة اعتقادا منهن في أنه يمنح ويمنع . يعز ويذل .

أما الطلاب المتطوعون ،فيحاولون جذبه اليهم والفوز به دون غيرهم لتقوية صفوفهم ومباركة أعمالهم .

والمؤلف يؤكد باستمرار من خلال أحداث الرواية أن (اللاز) هو الشعب نفسه . يشير الى ذلك تارة اشارة وتارة تلميحا .

وفي نهاية الرواية يستيقظ (اللاز) من غيبوبته الطويلة عندما حاول (مصطفى) أن يشوه وجه (جميلة) بالحامض .

أما شخصية (حمو) فقد جاءت في رواية (العشق والموت في الزمن الحراشي) موغلة في المثالية المفرطة التي ليس لها وجود في واقع الحياة اليومية . والا كيف نصدق ما ذهب اليه المؤلف من أن هذه الشخصية تسكن في حي قصديري يدعى (حي الشيكاغو) في كوخ قديم ،وأن (حمو) يعمل فراشا في دار البلدية . يعرض عليه السكن وهو في أشد الحاجة اليه ومع ذلك يرفض رفضا قاطعا أن يسكن في فيلا فخمة ،مؤثرا الآخرين على نفسه مع اشتداد أزمة السكن الخانقة التي تعرفها البلاد طولا وعرضا وعمقا !

اننا لم نصادف أبدا مثل هذه الشخصية على أرض الواقع المعاش الشخصية التي يغلب عليها الزهد والعفة ونكران الذات . ف (حمو) في رأي المؤلف :-

(لو لم يكن متطهرا ،لكان الآن في قصر ذي سبعة طوابق يحيط به ألف حارس

وليس في حي الشيكاغو ،وفي كوخ متواضع .) (1)

ان (الطاهر وطار) في هذه الرواية يبالغ مبالغة حادة فيصور (حمو) على أنه صنف من ذلك الخير المطلق . ليقارن بينه وبين (سي رضوان) و (سي منصور) وغيرهما من الفئة المستغلة التي أستولى عليهما الجشع والطمع وجمع المال والسعي الحثيث وراء الوظيفة والجاه . ولو داست في سبيل ذلك على كل القيم والمبادئ الانسانية . وهذا هو بالذات الشر المطلق .

وليس هذا بصحيح ف (حمو ليس خيرا مطلقا . كما أن (سي رضوان) و (سي منصور) ليسا شرا صرفا . فالمجتمع كما هو معلوم مزيج بين الخير والشر . فالناس ليسوا كلهم ملائكة أخيارا ولا شياطين أشرارا . وانما يمتزج فيهم الخير والشر . بأقدار ودرجات متفاوتة حسب طبائع البشر المختلفة وأمزجتهم المتباينة .

أما شخصية (بعطوش) فيبدو أن المؤلف في هذه الرواية حاول أن يرد اليها الاعتبار ،لانه ندم على ما فعله بها من مسخ و تشويه في الجزء الاول ، فبعد أن كان (بعطوش) شخصية شاذة وقذرة غارقة في وحل الغدر والخيانة تحول الي شخصية وطنية تجعل المصلحة العامة فوق كل اعتبار.

وليس هذا فحسب بل ان المؤلف سوغ خيانة (بعطوش) الكبرى واختلق له أعذارا متنوعة ليقول في النهاية أن (بعطوش) لم يكن خائنا بمعنى الكلمة وانما هناك ظروف ضاغطة حتمت عليه أن يرتكب بعض الحماقات ضد أهله

---

1 ـ العشق والموت في الزمن الحراشي . ص : 202 .

ووطنه . ثم تاب وتطهر في بوتقة الثورة التحريرية .

والغريب أن المؤلف في هذه الرواية لم يشر من قريب أو بعيد الى شخصية واحدة تمثل الفلاحين وعمال الأرض مهما كان دورها باهتا أو هامشيا ضعيفا . فالمؤلف قد أهمل الفلاح وهمومه ومشاكله المختلفة اهمالا كليا . ولعل ذلك يرجع الى أن المؤلف بعثر كل جهوده حول ذلك الصراع الايديولوجي بين الشيوعيين وجماعة الاخوان المسلمين واثارة الجدال بينهما حول الكفر والايمان ،والاسلام والالحاد ،والتقدمية والرجعية . وغير ذلك من المصطلحات الايديولوجية والفكرية والسياسية :-

(غير أن هذا ليس مبررا كافيا لغياب الفلاحين تقريبا عن الرواية وحضور الطلبة الذي هو حضور المثقفين وغياب للجموع التي جاء من أجلها ميثاق الثورة الزراعية .) (1)

لقد نسي المؤلف قضية الأرض والفلاح التي تعد أخطر القضايا واكثرها حساسية في عالم القرى والأرياف !

فالمؤلف لم يشر بكلمة واحدة الى الطبقة المسحوقة من فقراء وفلاحين وما تعانيه من بؤس وفقر وحرمان . ومع ذلك لم يسمح لها المؤلف أن تعبر عن آلامها وهمومها بصيحات الاستنكار والاحتجاج فضلا عن التمرد والثورة والنضال . فالفلاح في هذه الرواية سلبي مستسلم لظروفه المأساوية يدفن همومه وأحزانه في المقاهي مضيعا وقته في الثرثرة ولعب الحجر والورق . دون التفكير اطلاقا في العمل بالأرض بكل اخلاص وتفان . والفلاح في هذه الرواية لم يدر بخلده أبدا أن يثور في وجه البورجوازية والاقطاع والاستغلال ثورة عنيفة ترد للفلاح كرامته كانسان وقيمته كفرد من أعضاء

1 - تيسير نظمي مقال حول العشق والموت في الزمن الحراشي جريدة الوطن 6 /10 /1981 .

المجتمع يتمتع بحقوقه وواجباته باعتبار (أن الأدب الصادق ينبغي أن ينهض على أساس أنه يعبر عن المشكلات الأصيلة بارفع مستوى ممكن من التعبير وعلى أساس أنه يغوص الى أعماق الانسان ليلمس معاناته وانفعالاته وأفكاره وأفعاله .) (1)

فالمؤلف جرد الفلاحين من سلاح الثورة والتمرد والنضال ورماهم في زوايا الاهمال والنسيان و (يبقى الطاهر وطار من خلال الرواية بعيدا عن الواقع اليومي للفلاحين مهما حاول رصده ، ويعود ذلك الى الذاتية المنصبة على الاحداث والمواقف ، ذاتية المثقف الثوري الذي يتعامل يوميا مع المصطلحات والمفاهيم ، أكثر مما يتعامل مع الممارسات الواقعية في الريف . لذلك تبقى هذه الهموم هموم مثقف أكثر مما هي هموم فلاح .) (2)

الشكل الفني للرواية .

(لقد أجمع النقاد على أن رواية العشق والموت في الزمن الحراشي لا ترقى الى رواية اللاز شكلا ومضمونا لأن المؤلف في الجزء الثاني كان سياسيا يحب الثورة الزراعية أكثر منه قاصا روائيا .) (3)

وقد أكد المؤلف هذه الفكرة في حوار مع (اليسار العربي) اذ يصرح قائلا (لقد أقدمت على خطاب سياسي فعلا في الرواية وهذا ما فعلته في كل رواياتي ولا أقول جلها . فعلت ذلك منتصرا

---

1 - جورج لوكاتش ، دراسات في الواقعية الاوربية . ص : 211 .
2 - محمد ساري ، البحث عن النقد الادبي الجديد . ص : 86 .
3 - انطوان شلحت مجلة الغد . 4 أيار 1981 في مقال له حول الرواية

لقضية . ومساهما في دفعها الى الامام . ولم أكن أحتاج لا الى التجريد ولا التعميم والتعتيم، بل كنت أتجنبه بقدر الامكان وكتبت في الموضوع بنفس الانفعال والصدق والعفوية الذي أكتب به في باقي المواضيع . ان الأمر يتعلق أساسا وأولا وأخيرا لصراع سياسي وأيديولوجي واضح ،في مرحلة نسبيا واضحة ومتبلورة .) (1)

معنى هذا أن المؤلف أهتم بأدب الدعاية السياسية وتسجيل الصراع الايديولوجي في قالب تقريري مباشر . ومقال صحفي صارخ ،مبتعدا عن قواعد الفن الروائي وتقنياته الجديدة وأساليب جمالياته المتطورة . (حين يفقد الروائي القدرة على تجسيد رؤيته ،يتحول عمله الى مجموعة من الخطب والمقالات تتخللها أحداث يبالغ المؤلف في تصويرها والتعليق عليها ويفقد عمله التفاعل بين الشخصيات والأحداث وتصبح شاعرية الأسلوب مجرد حلية خارجية لا تساعد على تطور الأحداث ورسم الشخصيات) . (2)

وأصر المؤلف من جهة أخرى على أن يمدح نفسه كثيرا في فصول هذه الرواية ،فيصف نفسه أثناء الثورة بأنه كان مناضلا ثوريا في صفوف جيش التحرير الوطني بل من حراس (هواري بومدين) في ذلك الوقت (وحديث الكاتب عن نفسه يطول ويطول ،دون لف أو دوران . بكل الوضوح والمباشرة وهناك صفحات كاملة تعتبر ترجمة شخصية للكاتب وصفحات أخرى أقرب الى أن تكون مقالات سياسية ،أو نقدا اجتماعيا صريحا ولا أحد

---

1 - محمود الراشد في حوار مع المؤلف اليسار العربي . 28/ 2 / 1981 .

2 - د . عبد المحسن طه بدر ،الروائي والارض . 162 .

على الاطلاق يشك في أن الطاهر وطار مثقف ومناضل وطني نزيه لكن التصريح بذلك في عمل روائي يصدم القارئ الذي يتهيأ لمعايشة رواية موضوعية . أن تضخيم الذات الى هذا الحد ،ربما جاز في مجال آخر غير الرواية ولدى قراء لا يتوقعون من الكاتب الواقعي الاشتراكي طغيان الأنا والذاتية بهذا الأسلوب اللافني . ودون داع أو ضرورة تفرضها أحداث الرواية وموضوعها الأساسي) (1)

وقد أشاد المؤلف بأعماله الروائية كثيرا ووصف نفسه بأنه قمة من قمم الفن القصصي المعاصر ،وأن عبقريته فذة تمتاز بالذكاء والشمولية :- (برهما ،في رواية اللاز ، كان عبقريا حقا . استطاع وهو يتحدث عن حوادث داخلية محضة ذات طابع خاص ،تجري ببلادنا ،أن يستشف جوهر حركة عبد الناصر . ربط بين ما يجري عندنا وما يجري عندهم ،وكما لو أنه يمسك بخيوط القضية كلها . كان شموليا وكان ذكيا .) (2)

و (الطاهر وطار) لا يتحرج من أن ينقل لنا فصلا كاملا من الرواية يعتبر وصفا تسجيليا فوتوغرافيا لسوق الحراش وما يمور فيه من حركة واضطراب، وصخب وصراخ وضجيج ،عن طريق سرد جاف لا يمت بصلة الى الفن الروائي .

ومن الفصول التي تعتبر حشوا اضافيا ذلك الفصل الذي هو عبارة عن مجموعة من الرسائل الغرامية التي كان يبعث بها أحد المعيدين بكلية الآداب ل (جميلة) التي لا تحبه . هذا الفصل الذي أحدث شرخا عميقا وضعفا كبيرا في المعمار الفني للرواية فهو حشو لا يضيف شيئا جديدا للرواية ،ينبغي حذفه دون أن تتأثر أحداث الرواية أو يصيبها خلل .

---

1 - د . سيد حامد النساج ،الطاهر وطار ،والرواية الجزائرية مجلة فصول عدد 2 - 1982 .

2 - العشق والموت في الزمن الحراشي . ص : 141 .

أما أسلوب الرواية فيغلب عليه الوصف والسرد الجاف . ويقل فيه الحوار والمونولوج الداخلي ،وينعدم فيه أسلوب الاسترجاع الى الماض(الفلاش باك)الى غير ذلك من الوسائل التقنية الحديثة للمعمار الفني للرواية المعاصرة . وكانت لغة الرواية تقريرية مباشرة يغلب عليها التسطح والجفاف والجمود أحيانا كثيرة .

ومهما يكن من أمر فان هذه الرواية تبقى نقطة ضعف في أعمال المؤلف الروائية نتمنى الا تتكرر مرة أخرى في أعماله مستقبلا .

التفكـــــك (1)

رشيـــد بوجـــــدرة

(رشيد بوجدرة) من الأدباء الجزائريين الذين كتبوا انتاجهم الأدبي . باللغة الفرنسية وهو من الجيل الثاني بعد جيل (محمد ديب) و(مولود فرعون) و (مولود معمري) و(مالك حداد) وغيرهم من كتاب الرواية المكتوبة بالفرنسية .و (رشيد بوجدرة) من جيل الاستقلال بدأ كتابة الفن الروائي في أواخر الستينات من هذا القرن .

ولد (رشيد بوجدرة) عام 1941 بعين البيضاء بالشرق الجزائري تابع دراسته الابتدائية والثانوية في كل من الجزائر وتونس وهو مزدوج اللغة يتقن اللغتين العربية والفرنسية وهو كاتب غزير الانتاج باللغة الفرنسية

مؤلفاته الروائية باللغة الفرنسية .

1 - الطلاق عام 1969 .
2 - ضربة شمس (الرعن) عام 1972 .
3 - طبوغرافية مثالية لاعتداء موصوف عام 1975 .
4 - الحلزون العنيد عام 1977 .
5 - ضربة جزاء
6 - ألف وعام من الحنين (2)

---

1 - صدرت رواية التفكك دار ابن رشد بيروت 1982 .
2 - ترجمت هذه الروايات جميعها الى اللغة العربية .

أما مؤلفاتــــه بالعربيـــة فهي :

1 ـ التفكك عام 1982 دار ابن رشد بيروت .
2 ـ المرث عام 1984 المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر .
3 ـ لقاح وهو ديوان شعر صدر عام 1983 المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر

عندما صدرت رواية التفكك باللغة العربية عام 1982 أثـــارت ضجة كبيرة في الأوساط الأدبية واستقبلتها وسائل الاعلام الوطنيـــة بالتعاليق الضافية والمناقشات المطولة . واعتبرت هذه الرواية دعما للغة العربية في الجزائر التي تدعمت بهذا الكاتب الموهوب الذي ما انفك يساهم في اثراء عملية الابداع الروائي باللغة العربية .

ملخـــص الروايـــــــــة .

تتركز الرواية حول شخصية (الطاهر الغمري) الفلاح الفقير الـــذي كان يعلم أطفال القرية القرآن ،ثم أنتقل الى جمعية العلماء عام 1945 ومالبث أن وقع خلاف بينه وبين أعضائها . فاتهموه بالكفر والالحـــاد، فانشق عليها واعتزلها . وفي نفس السنة دمرت قوات الاحتلال الفرنســـي كوخه وهو غائب وقتلت أفراد عائلته ومن بينهم زوجته وابنتاه الصغيرتان في حوادث 8 مايو 1945 المأساوية .

وعقب ذلك انخرط (الطاهر الغمري) في صفوف الحزب الشيوعـــــي الجزائري عام 1947 . وظل يعمل في هذا الحزب وينظم صفوف الفلاحـــين والعمال الفقراء ويدعوهم الى ضرورة الوحدة والتضامن والانسجام ،حـــتى لا تدوسهم أقدام غلاة المعمرين والبورجوازية المستغلة . وكان يحـــاول

جاهدا أن يبث فيهم روح التضحية والنضال ليثوروا ضد الاقطاع والاستغلال .

ولما اندلعت ثورة نوفمبر 1954 . وحل قادتها جميع الأحزاب السياسية وكونوا حزبا واحدا هو حزب جبهة التحرير الوطني الذي قاد الثورة الى الاستقلال .

وانضم (الطاهر الغمري) مع رفاقه الأربعة (سيد أحمد)و (بو علي طالب) و (الدكتور كتيون) و (محمد بودربالة) الملقب بالألماني. وجاهدوا في الجبال ضد قوات الاحتلال الفرنسي ، وقد استشهد رفاقه جميعا وبقي هو وحيدا يجتر آلام الماضي وجراحاته العميقة ، محتفظا بتلك الصورة الشمسية التذكارية التي تجمع صور الرفاق الخمسة والتي لم تفارقه طيلة حياته .

وبعد الاستقلال انتقل (الطاهر الغمري) الى الجزائر العاصمة ، ليبني كوخا هناك بجانب الميناء . وكانت له زيارات متتالية كل جمعة الى ضريح (سيدي عبد الرحمن) يسرق شمعة ويتفرج على النساء ،وفي الليل يستحضر صورهن عندما يمارس العادة السرية . وقد تعرف فيما بعد على فتاة تدعى (سالمة) موظفة في المكتبة الوطنية ،وهي فتاة مستهترة لا تتجاوز خمسة وعشرين عاما . فتاة متحررة من كل القيود الاخلاقية تمارس الجنس بكثرة مع من تحب من الرجال . وقد تطورت الصداقة الوطيدة بينها وبين (الطاهر الغمري) وصارت تذهب الى كوخه باستمرار للاستماع الى ذكرياته التاريخية وكفاحه الثوري عبر مراحل حياته . وكانت (سالمة) تناقشه في قضايا البلاد السياسية والاجتماعية والايديولوجية . . . الخ . ومن جهة أخرى أطلعته على أخبار أسرتها البورجوازية دون أن تخفي عنه شيئا

من أسرارها .

والرواية كما هو معلوم مليئة بالقضايا السياسية ،والعقائدية ،والفكرية والجنس والاباحية ،والشذوذ ،والنفاق ،والخيانة ،والبيروقراطية ،والانتهازية ، وغيرها من الأمراض الاجتماعية الفتاكة ،التي سنشير اليها أثناء تحليلنا لمضمون الرواية وأفكارها المتباينة المتناقضة .

ان الدارس المتمعن لرواية (التفكك) يلحظ ذلك الجو المظلم القاتم الذي يلف جميع شخصيات الرواية بدون استثناء ابتداء من (الطاهر النمري) ورفاقه الخمسة ومرورا ب (سالمة) وأسرتها وانتهاء بالشخصيات الثانوية والهامشية . فهي شخصيات شاذة مريضة تعاني التمزق والقلق والضياع نتيجة الشعور بالذنب والعقد النفسية والجنسية ، التي كانت تجتاحها باستمرار .

ويأتي في مقدمة هذه الشخصيات (الطاهر النمري) الشخصية المحورية في الرواية والبطل بدون بطولة فقد رأينا أنه نشأ فقيرا معدما يعلم القرآن في كتاب القرية ثم انضم الى جمعية العلماء ثم انتقل الى الحزب الشيوعي الجزائري ،ثم الى ثورة التحرير الكبرى كما سبقت الاشارة وأخيرا فراره من الثورة وانهزامه النهائي الذي حطم آماله وأحلامه اثر رحلته الهروبية التي قادته الى الانزواء والانغلاق . وكان عبر رحلته الشاقة الطويلة والمحفوفة بالمخاطر والأهوال وانتقاله من مرحلة الى أخرى جملته يتأرجح بين الشك والتردد . فهو لا يثبت على عقيدة ولا يتمسك بمبدأ ولا يحافظ على عهد ولا يستقر على حال . لأن عقيدته الايديولوجية لم تكن مبنية على أسس قوية ومبادئ ثابتة . لذلك راح يتخبط في كل اتجاه ويلهث وراء شهواته المنحطة يرفع الشعارات دون أن يترجمها الى

واقع ملموس . ذلك أنه (تقرمط وتزنج وتمنبأ وتشيّع ،ثم صعد الى الجبل وقاتل وفي يوم من الأيام فهم اللعبة ،وهرب بروحه). (1)

وذلك راجع لعدم التمسك بالمبدأ و الصلابة في الموقف . وكانت رؤيته ضبابية مضطربة بسبب تذبذبه في الآراء وتناقضه في الأفكار وهذه الأمور كلها جعلته يلقي السلاح وينهزم مستسلما ذليلا الى النهاية.

وقد كان هذا الانهزام المقيت هو السبب الرئيسي الذي ضخم في نفسه عقدة الشعور بالذنب (التحقنا بالثورة المسلحة منذ البداية . تفاوضنا . اتفقنا تماثقنا . مفاوضات وامضاءات وتسليمات . وكانوا يقاتلون في سبيل الله ونحن نقاتل في سبيل القضية . لكن الفردوس كان بعيدا . كان مجرد فكرة مبهمة ،مغلقة ،غامضة ،مضببة .) (2)

تلك العقدة التي ولدت في نفسه شعورا قويا بالقلق والعزلة الخانقة واليأس المدمر الذي انتهى به الى الضياع والاندثار والتلاشي .

فـ(الطاهرالغمري) الآن (مازال يعيش تحت كابوس الخوف والهروب وهو يحسب أن الأمور لازالت على حالها ،فلا يطمئن لأحد ولا يثق بأحد ولا حتى في نفسه .) (3)

وربما أن الخوف من الذبح هو الذي ضخم في نفس (الطاهر الغمري) احساس قويا بالاحباط وخيبة الأمل المريرة ،خاصة اذا علمنا أنه قد حكم عليه بالاعدام غيابيا لانتمائه الى العقيدة الشيوعية .

---

1 - التفكك . ص : 165.
2 - المصدر نفسه . ص : 153 .
3 - المصدر نفسه . ص :104 .

(وقد علم أنه حكم عليه بالموت ذبحا لانه يعتز بعقيدته .)(1)

فكان يعيش المأساة وسيطرت عليه مشاعر الحيرة والتردد والشك والهروب من الذبح وكان يتخيل أن الخنجر مسلط على رقبته من لحظة الى أخرى . (وقد كان ذلك نتيجة شعور بالذنب تجاه الاخرين هؤلاء الذين ماتوا كلهم فيما نجا هو من الموت أنذاك . . . فندم على هروبه من وجه أعدائه يوم علم انهم قرروا ذبحه لكونه منتميا الى عقيدة لم يسمعوا عنها شيئا .)(2)

ونتيجة لسيطرة هذه الكوابيس المرعبة التي شلت جميع نشاطاته فعجز عن اتخاذ أي موقف ايجابي وهذا العجز عاقه عن الذهاب الى المصالح الادارية ليخرج منها أوراقه الثبوتية كبطاقة التعريف وجواز السفر . وهذا ما جعل (سالمة) تتذمر منه وتصرخ في وجهه مؤنبة :

(لا تخف شيئا ،انقضى زمن الذبح ،يمكنك التحصل على أوراق رسمية وبطاقة هوية وحتى على جواز سفر .)(3)

والملاحظ أنه مهما كانت حدة المرارة التي خلفتها الكارثة التي حلت به فلا ينبغي له أن يستسلم لأول صدمة بل عليه أن يقاوم ويكافح بصبر وثبات لأن مهمة البطل الثوري أن يتصدى للصعوبات والعراقيل ويقهرها بكل جرأة وشجاعة مهما كلفه ذلك من ثمن لكن موقف (الطاهر الغمري) كان مخيبا للآمال اتضح ذلك بوضوح شديد من خلال سلوكه وتصرفاته ومواقفه حيث سجن نفسه في كوخ حقير وحطم نفسه بنفسه لانه غير قادر

---

1 - التفكك . ص : 218 .
2 - المصدر نفسه . ص : 269 .
3 - المصدر نفسه . ص : 116 .

على التكيف مع متطلبات الأوضاع المستجدة فضلا عن أن يناضل بشتى ضروب المقاومة والكفاح الثوري ويقف صامدا أمام الزوابع والأعاصير. لكن (الطاهر الغمري) آثر أن يحيى داخل أوهام وخيالات مريضة وحياة كلها تناقض واضطراب من البداية الى النهاية . يصفه الكاتب قائلا :
«قام بمراجعة كل الأحداث التي عاشها منذ ولادته بصفة دقيقة واعادة النظر في آرائه القديمة عن الحزب منذ تأسيسه سنة 1936 فأدرك أن قسوته لا ترجع الى الأحداث التي عاشها مدة الحرب باغتيالاتها وتصفياتها وأمواتها وشراستها وقساوتها و نفاقها وخياناتها ،كما ظن في السابق انما ترجع الى عدم قدرته على الخروج الى الميدان وعلى خوض المعركة الجديدة لانه يحس بأنه غير مسلح لمثل أمور ومشاكل كهذه وترجع الى اكتشافه المذهل أنه لم يقاتل في تلك المعارك السياسية أو العسكرية كلها عن مثالية وأنه لم يقم بكل هذه الاعمال وهذه الاعمال وهذه المجهودات الالسبب الانتقام من الجريمة التى راح ضحيتها كل أفراد عائلته.» (1)

من خلال هذا النص نكتشف بجلاء ووضوح أن (الطاهر الغمري) لم يحارب قط الاستعمار عن عقيدة صادقة وايمان قوي عقيدة يضحى صاحبها بالنفس والنفيس . ولم يشارك في الثورة من أجل طرد الاستعمار من أرض الوطن . وانما رفع السلاح محاولا القتال في سبيل الانتقام الشخصي انتقام من الذين قتلوا أسرته وهدموا بيته . فثورته اذن انما كانت تتحكم فيها أهواء . ونزوات ذاتية وميول شخصية بحتة . وهو على هذا الأساس لا يكافح من أجل قضايا بلاده ولا عن مشاكل مجتمعه ولا عن اهتمامات وتطلعات مواطنيه . وانما هو شخصية أنانية فردية منطوية على ذاتها تفضل المصلحة

---

1 - التفكك ، ص : 192 — 193 .

العامة ،لانعدام الحس الوطني والوعي لديها . ولعل المؤلف يرمز من خلال شخصية بطله (الطاهر الغمري) الى فئة من المجتمع تدعي الثورية وفي حقيقة أمرها تغلب عليها الانانية الذاتية والمصلحة الشخصية تدوس في سبيلها على كل القيم الانسانية والقضايا الاجتماعية والمصالح الوطنية .

لقد أشعرنا (رشيد بوجدرة) في مواضع عديدة من روايته " التفكك " بأن بطله (الطاهر الغمري) قد صعد الى الجبال وكافح وتمرد وشارك في ثورة التحرير ورغم كل هذه التصريحات من المؤلف فاننا لا نجد أي موقف واحد للبطل يثبت أنه فعلا كافح وناضل وتمرد فكان على المؤلف أن يصوّر كفاح ونضال بطله تصويرا فنيا مجسدا من خلال المواقف والوقائع والأحداث والممارسة الفعلية ، سواء كان ذلك في السهل أو في الجبل في القرية أو في المدينة وكان من المفروض أن يفسح المؤلف المجال لبطله يعبر عن أفكاره ومشاعره وآلامه ومعاناته بدون تدخل منه وانما يصور ذلك بواسطة تيار الشعور والعودة الى الماضي (الفلاش باك) والاستبقى هذه التصريحات من المؤلف مجرد أخبار عادية وعابرة في آن واحد بعيدة كل البعد عن الفن الروائي وتقنياته المتطورة .

وأخيرا تنتهي حياة (الطاهر الغمري) وكان موته نوعا من الانتحار لانه رفض زيارة الاطباء والذهاب الى المستشفى رفضا قاطعا .
(لقد راح عم الطاهر وانقضى معه عهد بكامله وجيل برمته) . (1)

أما الشخصية المحورية الثانية في رواية "التفكك" فهي شخصية (سالمة) التي يناديها والدها باسم (الطافشة) مرة وباسم (الطائشة) مرة أخرى وهي فتاة داعرة منغمسة في أوحال الرذيلة الى الأذنين تنادي بالحرية الجنسية المطلقة . وهي صورة للفتاة المتمردة عن المجتمع تمارس الجنس في تحرر تام ، وتذكرنا ب (دليلة) بطلة رواية "بان الصبح" ل (ابن هدوقة) في طيشها ونزواتها وتهورها واندفاعها نحو الانحراف والشذوذ الجنسي .

ومن صور التفسخ والانحلال التي كانت تعيشها (سالمة) باستمرار هي أنها كانت : (تعيش على هامش الحياة وعلى هامش الأمور والاشخاص فراحت تعشق تضاجع من تحب ثم تهرب تتقيأ في مراحيض الغيظ والوحدة) (2)

وفي موضع آخر تصرح قائلة : (أنا لا أكره الرجال . أنا حاقدة على التاريخ فقط . الرجال ، أضاجعهم ، أسقط في حبالهم من حين الى آخر ثم أتركهم وأشكالياتهم الصبيانية .) (3)

ولكثرة ممارستها للجنس أطلق عليها الناس اسم عاهرة وهددها أخوها بالقتل ان هي لم تكف عن غوايتها قائلا لها :

---

1 - التفكك . ص : 268 .
2 - نفس المصدر . ص : 167 .
3 - نفس المصدر . ص : 173 .

(لابد من ذبحك . أنت عاهرة الناس يقولون أنت عاهرة .) (1)

و(سالمة) مثلما تمارس الجنس مع الرجال تمارس العادة السرية في بيتها حيث أنها تقف عارية أمام المرايا وتمارس هذه العادة بلذة وألم . (2)

و(سالمة) كما يبدو أنها تعيش أزمة نفسية داخلية خانقة فهي في قلق دائم وعذاب مستمر لا تعرف طعما للاطمئنان ولا معنى للاستقرار فهي كالغريق الذي يتشبث بقشة فهي تتأرجح بين أخيها (لطيف) وصديقها (الطاهر الغمري) لعلها تجد عندهما بعض الراحة والهدوء أو بعض الدفء والحنان : (لعلني أجد مسلكا بينهما أسلكه وأطرح فيه عذابي وضجري وقلقي وحنيني .) (3)

ومن الملاحظ أن شخصيات الرواية كلها شخصيات جامدة مسطحة ثابتة لا تتغير ولا تتطور منذ بداية الرواية الى نهايتها . شخصيات ليست محددة الملامح ولا واضحة السمات . ومن الصعب جدا أن نعثر في رواية " التفكك " على شخصية ثورية ايجابية تجسد معاني الثورة والمقاومة بأتم معنى الكلمة . كما أنها لا تمارس نضالا جماعيا ولا كفاحا متواصلا ولا تعاضدا قويا ،وصولا الى الهدف المنشود والغاية المحددة وهي الحرية والاستقلال .

ومن خلال أحداث الرواية هاجم (رشيد بوجدرة) بشدة البيروقراطية والانتهازية والاستغلالية وشجب بشدة كذلك الاعمال البشعة التي تمارسها فئة من التجار الجشعين . الذين يجرون وراء الربح السريع فيحتكرون

---

1 - التفكك ، ص : 130 - 131 -
2 - المصدر نفسه ،ص : 189 .
3 - المصدر نفسه ،ص : 228 .

المواد الغذائية لتختفي نهائيا من السوق . ويندد المؤلف من جهة أخرى بالرشوة والفساد في المؤسسات الادارية . كما عالج (رشيد بوجدرة) في روايته " التفكك " بجرأة وشجاعة ، قضية الجنس ، ومشكلة السياسة ، ومسألة الدّين ،وهو الثالوث المحرم الذي عالجه من قبل (الطاهر وطار) في روايته (عرس بغل) .

هذا وقد وظف (رشيد بوجدرة) في هذه الرواية تاريخ الجزائر المعاصر : 1936 - 1945 - 1954 - 1962 - 1965 - 1978 .وركز على هذه الفترات نظرا لما تحمله من رموز ومعان ودلالات عمقية فذكر المؤلف تاريخ 1936 وهو نشأة الحزب الشيوعي الجزائري . ثم عرج على تاريخ 1945 وهو يشير الى مجزرة 8 مايو الرهيبة .
وفي سنة 1954 اندلعت ثورة نوفمبر الخالدة لتتوج بالاستقلال عام 1962 . أما تاريخ 1965 فقد حدث فيه الانقلاب العسكري بقيادة هواري بومدين الذي تسلم فيه مقاليد الحكم وفي عام 1978 كان تاريخ وفاته .

الاسلوب واللغة .

اتبع (رشيد بوجدرة) في روايته (التفكك) أسلوب التكلف والتعقيد والتقعر والالتواء . وحشا روايته بالاستطراد والتكرار والاطناب والمبالغة أحيانا والنبرة الخطابية والتقريرية والمباشرة أحيانا أخرى وهو بذلك قد جمع بين النقيضين .

وقد تأثر بأسلوب (رشيد بوجدرة) القاص (جيلالي خلاص) في روايته " رائحة الكلب " فسار على منهجه ونسج على منواله . خاصة اذا علمنا

أنه ترجم بعض رواياته الى اللغة العربية .

ورواية " التفكك " مليئة بالأوصاف والاستعارات والكنايات الكلاسيكية العتيقة . والمؤلف لا يجد حرجا من أن يقحم الالفاظ الجنسية الصارخة باللهجة الجزائرية بما فيها الألفاظ السوقية البذيئة الداعرة على لسان (سالمة) وعمتها (فاطمة) .

ولغة الرواية تكثر فيها الجمل والتفاصيل والمملة والجزئيات الدقيقة والجمل المترادفة ذات المعنى الواحد في أماكن مختلفة وللتدليل على ذلك نسوق بعض الشواهد على سبيل المثال لا الحصر وهي تسير على هذا النسق (مجمدة متخشبة متحجرة .) (1)

وفي موضع آخر (تشابكات تداخلات تضافرات .) (2)

وفي مكان ثالث (الاشرطة والحبال والخيوط والاسلاك .) (3)

وكان يمكن الاقتصار على لفظة واحدة في كل مثال من هذه الأمثلة وهناك كلمات غامضة مبهمة يصعب فهمها على القارئ المتخصص حتى وان بحث عنها في القاموس فلايجد لها تفسيرا مثل كلمة (بسهوكته) ولفظة (يهصهص) ولفظة (أخوزقكم) (4)

وهذا قليل من كثير مما لا يتسع المقام لذكره هنا .

---

1 - التفكك . ص : 88 .
2 - المصدر نفسه . ص : 92 .
3 - المصدر نفسه . ص : 98 .
4 - وردت هذه الكلمات في الصفحات ، 2 ، 32 ، 106 على التوالي .

وتوجد بالاضافة الى هذا كله أخطاء لغوية ونحوية وصرفية مبثوثة عبر صفحات الرواية باستطاعة القارئ اكتشافها بسهولة .

وفي مجال المقارنة يلحظ الدارس تشابها كبيرا بين رواية (الطاهر وطار) " اللاز " ورواية (رشيد بوجدرة) " التفكك " حيث يلتقيان في كثير من النقاط الأساسية والمحاور الرئيسية والخطوط العريضة ولنبدأ بأوجه الاتفاق بينهما . فمن حيث المضمون نجد أن رواية " اللاز " عالجت الحالة السياسية في فترة الأربعينات بعد الحرب العالمية الثانية وانتقلت الى فترة الخمسينات فترة ثورة نوفمبر 1954 . وهي فترة تتصف بالغليان الثوري والصراع السياسي والتناحر الحزبي . وهي نفس الفترة التي تناولتها روية " التفكك " ونسجت على منوالها بنفس الطرح والطريقة .

واذا كانت رواية "اللاز " تحدثت عن الصراع السياسي المحتدم بين الأحزاب الثورية والخلافات الايديولوجية بين شخصيات الثورة الذين كان بينهم تنافس كبير وصراع حاد بين الاسلام والشيوعية وانتهى بانتصار الاسلام وانهزام الشيوعية الاسلام المتمثل في شخصية الشيخ مسؤول جبهة التحرير الوطني وخصمه (زيدان) عضو الحزب الشيوعي الجزائري .

ونجد نفس الصراع الذي سجلته رواية " التفكك " في أحداثها ووقائعها وتكرر نفس السيناريو فقد اشتد الصراع الحاد بين جماعة العلماء المسلمين و (الطاهر الغمري) أثر نزاع وقع بينهما فطرد (الغمري) من جمعية العلماء نهائيا .

أما في مجال رسم الشخصيات فنجد أن شخصية (زيدان) البطل المحوري في رواية " اللاز " هي شخصية رجل فقير من الطبقة المسحوقة

انغمس في السياسة الى أذنيه وعمل في النضال الثوري وانتمى الى الحزب الشيوعي الجزائري وشارك في ثورة التحرير ،وجاهد في صفوفها وأظهر حنكة كبيرة في التنظيم السياسي واضطلع بمهام كبرى في النشاط العسكري ورقي الى درجة قائد كبير في جيش التحرير الوطني . أما (الطاهر الغمري) في رواية " التفكك " فنشأ هو الآخر فقيرا معدما وانخرط كذلك في الحزب الشيوعي الجزائري ثم انضم الى الثورة وجاهد في صفوف جيش التحرير الوطني مثلما فعل (زيدان) . فهو يشبهه في النشأة والمعتقد والاتجاه ويختلف عنه في الحنكة السياسية والعسكرية حيث ارتقى الأول بفضل مهارته وخبرته في الميادين العسكرية الى ضابط كبير وانخفض الثاني بخموله الى جندي بسيط . و (زيدان) الى جانب تجربته السياسية وخبرته العسكرية فانه ذو ثقافة واسعة وفهم عميق فقد درس أصول المذهب الشيوعي في أكبر المعاهد وأرقى الكليات في العالم ، في باريس ،وموسكو فتعمق في نظريات الاقتصاد السياسي وتيارات وأفكار النظام الاجتماعي والطبقي وانتهج المدية القول بالعمل والفكر بالممارسة . وهذه الخصائص والمميزات كلها هي التي أهلته لأن يكون قائدا سياسيا وعسكريا محنكا ومفكرا ثوريا تقدميا ينطلق من أرض صلبة .أما (الطاهر الغمري) فثقافته تقليدية عتيقة تعلم القرآن وعلمه قبل أن ينضم الى جمعية العلماء ذات الاتجاه الديني والاسلامي وفي أواخر مراحل حياته انجذب الى المذهب الشيوعي فقرأ شذرات من كتاب رأس المال لـ (كارل ماركس) قراءة سطحية يغلب عليها طابع السرعة والارتجال فجاءت معلوماته متسمة بالنظرة الضيقة والفكر الساذج ،فهو ينقصه الفهم العميق والوعي السياسي والحس الاجتماعي ،ولذلك كانت أفكاره وآراؤه مضطربة غامضة ومهزوزة . بينما كان (زيدان) يمتاز عليه فكرا وثقافة ووعيا ومرونة وتفتحا

على قنوات الاتصال والترابط بين الأفكار والاتجاهات والثقافات العلمية المعاصرة .

و(زيدان) شخصية ايجابية فعالة تشعر بالاعتزاز بالنفس ،متفتحة على الحياة والمجتمع . وهو بطل طلائعي قيادي يقتحم الأهوال بقوة وعزيمة صادقة لانه كان يسعى لهدف واضح وغاية محددة . وكان اهتمامه منصبا على هموم وتطلعات وطموحات ورغبات الجماهير الشعبية الكادحة ، فراح ينفخ فيها روح التوعية والتعبئة والتجنيد رغبة منه في التغيير والتطوير والتثوير لتستيقظ الجماهير الكادحة من سباتها العميق وتهب في وجه الاستغلال والاستعباد والاستعمار .

وعلى النقيض من ذلك شخصية (الطاهر الغمري) تلك الشخصية المهزوزة ضعيفة الارادة قليلة الصبر على المقاومة ، شخصية هروبية منزوية على نفسها ، ومنغلقة على ذاتها ، شخصية جامدة نمطية مسطحة لا تتحول ولا تتطور الى النهاية . نظرا لما تعانيه من يأس وقهر واحباط .

واذا نحن ألقينا نظرة على النهاية التي انتهى اليها مصير الشخصيتين (زيدان) و(الطاهر الغمري) فنجد أن (زيدان) قد كافح وناضل الى آخر لحظة من حياته بعقيدة راسخة وايمان قوي . وعندما خير بين الموت الجسدي والموت المذهبي ، اختار الأول بصبر وثبات متمسكا بالمبدأ العقائدي. وقد اتيحت له فرصة الفرار . وكان بامكانه أن يهرب ولكنه رفض ذلك بشدة معتبرا ذلك عار لا يمحي مدى الدهر . أما (الطاهر الغمري) فآثر الفرار من المقاومة وتنكر لمبادئه وأفكاره وتخلى عن تضحياته القديمة وظل مختبئا حتى الاستقلال ، ومات في كوخه ذليلا حقيرا .

أما (سالمة) في رواية " التفكك " فتشبه في بعض النواحي (سوزان) بطلة رواية "اللاز" فمثلما عملت (سوزان) على أن تخرج (زيدان) من جهله وتخلفه وجعلت منه اطارا سياسيا ورجلا مثقفا . عملت (سالمة) جاهدة على أن تخرج (الطاهر الغمري) من قوقعته فبفضلها أزال تلك الأوساخ المتراكمة على جسده وعلى كوخه وخرج الى الشارع واستعمل الالات الحديثة التي كان ينفر منها فركب الحافلة وتكلم في الهاتف..الخ

ومن جهة أخرى فان (سالمة) في احلالها وتفسخها واباحيتها في الجنس تشبه بنات البورجوازي صاحب الحمام في رواية (اللاز) اللائي يتسابقن الى (حمو) ليروي عطشهن الجنسي ليلا ونهارا .

ويبدو أن (الطاهر وطار) و (رشيد بوجدرة) ينظر كل منهما الى المرأة نظرة ازدراء واحتقار . فالمرأة دائما في أعمالهما الروائية مومس تمنح جسدها لكل من هب ودب بمقابل وبدون مقابل في تهوره واندفاع ،وهي اما بغي ساقطة في أوحال الرذيلة واما عاهرة في قمة التفسخ والانحلال والاباحة الجنسية .

وقد اهتم الكاتبان بتصوير الجوانب المظلمة في حياة المرأة . وتكاد تخلو أعمالهما الروائية من وجود تلك المرأة الثورية المكافحة التي تواجه هموم الدنيا ومشاكل الحياة بصبر واحتمال وكفاح ومعاناة من أجل غد مشرق أفضل . ولذلك رسم الكاتبان المرأة في صورة بشعة قاتمة منفرة جدا . والقارئ لاعمال هذين الكاتبين يتخيل أن المرأة عندهما لا تصلح لشيء في الحياة سوى لدور البغاء وأماكن الخلاعة ودروب الفساد وبالتالي ليس لها أي دور ايجابي في الحياة الاجتماعية أو الاشتغال في المجالات السياسية ومن ثم فهي عضو أشل يجب بتره حسب رأيهما . ولكن الواقع

يقول عكس تصورهما تماما .

فالمرأة الجزائرية أخذت بروح المسؤولية ،وروح المبادرة ،وأثبتت جدارتها ومشاركتها للرجل في جميع الميادين الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية ، حيث حققت طموحاتها وتطلعاتها وآمالها واحتلت أرقى المناصب السياسية عن جدارة واستحقاق .

أما أوجه الاختلاف بين الكاتبين فتبرز واضحة جلية في النقاط التالية ويأتي في مقدمتها ذلك الجو العام الذي طبع الروايتين ففي حين نرى جو رواية (اللاز) يغلب عليه طابع المرح والفكاهة والبسمات اللطيفة بين أغلب شخصيات الرواية الذين يتصفون بالحيوية والنشاط والحماس رغم جهامة الحرب الدائرة والعنف الثوري في تلك الفترة . بينما نجد رواية (التفكك) على العكس من ذلك حيث يسودها جو من الحزن والكآبة ويرجع سبب ذلك في رأينا الى أن جميع شخصيات الرواية شاذة مريضة تعاني عقدا نفسية وجسدية وأمراضا جنسية وانحرافات في الخلق وشذوذا في السلوك وأن أغلبها يعاني كذلك أزمات وصراعات داخلية كالقلق والحيرة والاضطراب . وأن هذه الشخصيات كلها ترسف في أغلال العجز واليأس والاحباط الى حد الضيق والاختناق .

وباختصار فان رواية (التفكك) يخيم عليها جو مظلم قاتم تنعدم فيه الرؤية الواضحة والوجه المشرق الوضاء .

وهناك اختلاف بارز بين الكاتبين يتمثل في الأسلوب واللغة ففي رواية (اللاز) يلحظ الدارس ذلك الأسلوب الواضح المتسم بالصدق والموضوعية والرؤية الانسانية والاحساس المتدفق والعاطفة الحارة التي

لاتخمد . أسلوب يوقظ الضمائر ويشحذ المشاعر ويلهب النفوس حماسا ، أسلوب تتخلله لغة موحية مرنة مكثفة مشحونة بالدلالات والرموز والصور، والمعاني العميقة التي تحرك خيال القارئ وتوقظ مشاعره وتتغلغل الى أعماق نفسه بسهولة ويسر وانسياب لما فيها من متعة فنية وفكرية في غاية البساطة والوضوح .

أما رواية (التفكك) فأهم ما تتصف به هو أسلوبها الغامض ومعناها العويص ولغتها الجافة المعقدة .

الفصـــل الرابـــع

الاتجـــاه الأسطـوري والرمـــزي

لقد زخرت الآداب العالمية بفن الأسطورة منذ مطلع القرن التاسع عشر، ووظف الأدباء هذه الأساطير في الشعر، ثم انتقلت الى مجال الرواية. فحفلت رواياتهم بهذا الفن الأسطوري فكتب فوكنر قصة الدب وحذا حذوه آخرون فكتبوا في القصة والرواية والشعر.

ولعل الدكتور (طه حسين) كان من أوائل من استخدم الأسطورة في الرواية العربية فألف رواية (شهرزاد عام 1943).
وكتب بمشاركة (توفيق الحكيم) رواية (القصر المسحور 1936).
ثم كتب (محمد فريد أبو حديد) (رواية آلام جحا 1948).
وتوالت بعد ذلك الروايات ذات الاتجاه الأسطوري في أدبنا العربي.

أما في الأدب الجزائري فيعتبر (الطاهر وطار) أول من كتب فن الأسطورة في روايته (الحوات والقصر) وهي موضوع دراستنا في هذا الفصل.

أما الرمز فيرى بعض الدارسين أن لجوء الروائي الى استعماله يرجع الى عدة عوامل من أهمها :

1 - أن يكون هناك دافع فني خاص يفرض عليه أن يلتزم بالرمزية كأسلوب من أساليب الأداء الفني، فكثير من الفنانين الرمزيين يرون أن الرمز الفني أرقى من التعبير المباشر وأن الرمز هو الفن الصحيح الراقي.

2 - وقد يظهر الرمز أحيانا في الفن عندما يكون موضوع الفن نفسه غامضا مضطربا مما يؤثر على الفنان وعلى طريقته في التعبير.

3 - ونجد من ناحية أخرى أن الأدب يمكن أن يتجه الى الرمز

اذا حاصرته ظروف اجتماعية أو سياسية خاصة ،تفرض على الأديب أن يتخفى وراء الرمز ليعبر عن وجهة نظره ويفلت من الظروف) (1)

واذا دققنا النظر في أدبنا الجزائري المعاصر عامة والفن الروائي خاصة نجده يكاد يخلو من كل المعوقات والمثبطات التي تعترض سبيله بكافة أنواعها . فهو أدب غير مكبل وغير مضطهد من أية سلطة سواء كانت هذه السلطة : سياسية أو اجتماعية أو دينية . ولعل أهم دافع يلجأ اليه الأديب الجزائري هو الدافع الفني الذي يجعل الأثر الأدبي أكثر فنية وجمالا أو تعبيرا عن الحالات النفسية والاجتماعية التي يحسها الأديب ويرغب أن يصبها في قالب رمزي أو موضوعي دون تطرف أو اسراف في الغموض والمغالاة...

وقد استخدمت الرواية الجزائرية الرمز بدرجات متفاوتة واتخذ أغلبها شكل رموز جزئية تعبيرا عن بعض الآراء والأفكار التي تدور حول الأحداث أوالأشخاص .

وكانت الرواية الوحيدة في الأدب الجزائري التي عالجت الرمز الكلي الشامل هي رواية (عرس بغل) لـ (الطاهر وطار) التي سوف ندرسها بالنقد والتحليل في بداية هذا الفصل .

---

1 - فاطمة الزهراء محمد سعيد ،الرمزية في أدب نجيب محفوظ . ص: 19 .

عـــرس بغـــل

الطـاهـــر وطـــار

(١) ملخـــص الروايـــة .

تدور أحداث الرواية في مبغى كبير يضم عددا كبيرا من البغايـــا والقوادين وأصحاب السكر والعربدة من بينهم (الحاج كيـان) ،و (حمود الجيدوكا) ،و (خـاتم) ،و (القـروي) ،و (المنابيمة) و الوهـرانيـــة) وحيـاة النفوس) و (علجيـــة) .

تدير الماخور العنابية (المعلمة) ،ويؤم هذا المبغى مختلـــف الفئات من ريفيين ،ومدنيين ،وعسكريين ،وعمال ،وطلبة الثانويات . تقــام في هذا المبغى كل ليلة موائد السكر والعربدة والدعارة ،وتختلط أصـوات الموسيقى بالرقص والغناء والضرب على الدف . وتقرع كؤوس الخمر المختلفـــة بين السكارى والقوادين . فتحدث صراعات دامية فيما بينهم . وكان كل قواد داعر يستعمل قوته البدنية وبذاءته اللسانية ليظفر بأحسن عاهـــــرة في المبغى ،والتي تكون أكثر ما لا وجمالا من غيرها فينعم بمالها وجسدهـــا ، ويفتخر بها على سائر أقرانه .وما يلبث هذا القواد أن تؤخذ منه غصبا تلـك البغي على يدي من هو أشد منه قوة وقسوة وشبابا ،بعد معركة خفيفة يستعمل فيها الملاكمة والمصارعة والخناجر والعصي . وغير ذلك من السلاح الأبيــض وفي هذا الجو المتوتر الحافل بالسكر والعربدة والغناء والاتصال الجنسي ومصارعة القوادين تقرر (العنابية) اقامة عرس يدوم ثلاثة أيام تدعو اليــه جميع الوفود من أنحاء الوطن من بينهم (معلمات المواخير) والقوادون والأعيـان والنواب والاغاوات ،بهداياهم من فضة وذهب ومال . وأثنـــاء

اقامة العرس حاول (خاتم) أن يستغل هذه المناسبة للاستيلاء على المال والذهب . كما صمم (حمود الجيدوكا) وجماعته تدمير العرس وافساده انتقاما من (العنابية) التي طردته من الماخور . غير أن (الحاج كيان) أفسد خطتهما فلم يحققا ما كانا يصبوان اليه أو يرغبان فيه من غنيمة أو تدميرا لأن (الحاج كيان) كان قد اتخذ جميع الاحتياطات الأمنية والتدابير المشددة توقعا لأي حادث قد يطرأ بين لحظة وأخرى فيفسد حفلة العرس . وقد نجحت فعلا خطة (الحاج كيان) وانتصر على خصومه وبذلك تنتهي أحداث الرواية .

مضمـــون الروايـــــة .

تحتوي رواية (عرس بغل) على تهويمات فلسفية ،وشطحات باطنية واشارات صوفية ،وقيم مطلقة مجردة ،وتصورات خيالية ، ورؤى ضبابيـــة ، ومواقف بطولية ،وشورات تراثية ،ورموز وأساطير مختلفة ،جعلت القارئ يتيه في دروب التجريدية والاشكاليات السوريالية . فكانت الرواية عبارة عن مزيج من الواقع والخيال حينا والتجريد والمثالية والوهم أحيانا أخرى . ولذلك اتسمت الرواية بالغموض والابهام والتعقيد عبر فصولها وأجزائها وتراكيبها وحتى عباراتها !؟ 7

* و(الطاهر وطار) في هذه الرواية يحاول من خلال رسمه لذلك المبغى الكبير ،وما يمور فيه من بغايا وقوادين وجنس وخمر ،انما يرمز به الى تلك الحالة التي ترسف في أغلالها حاليا الأمة العربية والاسلامية من ذل وتخلف ،وتقهقر وانغماس في الشهوات والملذات ،وفي مقدمتها الجري السريع وراء الجنس والخمر والجاه والمال . وقد ترمز الى الجزائر في فترة الستينات وما سادها من فوضى واضطراب وصراع وصدام حول السلطة السياسية .

ومضمون الرواية في حد ذاته يشير الى ذلك الصراع المنيف الذائر بين المتخاصمين على السلطة السياسية والجاه المريض .

فيحاول كل فريق الاستيلاء على السلطة باستخدام القوة والأسلحة الفتاكة عبر الانقلابات العسكرية والسياسية .

وما محاولات (حمود جيدوكا) و (خاتم) والفلاح صاحب العصا في الاستيلاء على (حياة النفوس) الا رموز حيّة لتلك الأحزاب والفئات المتناحرة حول السلطة السياسية ، والتي ترغب بالحاح شديد ،وتعطش كبير ،في الظفر والفوز بتلك السلطة وذلك النفوذ العظيم !!

الشخصيات .

من شخصيات الرواية المحورية شخصية (الحاج كيان) الذي كان طالبا في جامع الزيتونة ،يتعلم اللغة والبلاغة وأصول الدين . تحمس لأفكار الاخوان المسلمين . وحاول أن يغير الواقع عن طريق ثورة اصلاحية تقضي على الظلم والفساد . (ان حسن الشيخ لا يبشر بالاسلام أو يدعو في الدخول فيه انما يستنهض المسلمين . فكما يدخل المقاهي والملاعب والمسارح . ويقيم التجمعات في الساحات العامة يقصد أيضا الغاويات الضالات .) (1)

وكان أول مكان بدأ به دعوته هو ذلك الماخور الذي كانت تديره (العنابية وما لبث (الحاج كيان) أن وقع في حب (العنابية) التي استولت على مشاعره . (وشقت قلبه بعينيها الجميلتين ووضعت فيه حبها . استطاعت أن تزعزع جامع الزيتونة بسواريه وبمشائخه وبفقهه ونحوه وصرفه وتجويده وتحوله الى (حزك) يحج الى كيان) (2)

1 - عرس بغل . ص : 32 .
2 - عرس بغل . ص : 96 .

وصرفته عن المهمة التي جاء من أجلها . فانغمس في بؤرة الخمر والجنس الى الأذقان وارتكب أبشع الجرائم . فقتل سبع نفوس تحت تأثير الخمر والقمار والجنس .نفي اثرها الى جزيرة / كيان/ ،وبعد ما قضى عشرين سنة سجنا في المنفى عاد مرة ثانية الى المبغى والتقى من جديد ب (العنابية) التي رحبت به وأكرمته وفتحت له قلبها وباب ماخورها يتمتع بكل الملذات الحسية كيفما شاء . فهو (يلبس ،ويأكل ويشرب ،ويفعل يوم السبت والأحد ،ما لا يعلم الا الله به ،لربما يقمر ،ولربما يتهزز في مواخير أخرى .) (1) والملاحظ أن (الحاج كيان) كان يصلي ويتلو القرآن ثم يذهب الى الماخور وكان يشتغل باستمرار بين ثلاث محطات رئيسية هي المقبرة والمسجد ثم الماخور . فحياته اذن موزعة بين تدخين الحشيش حينا وبين المسجد لأداء الصلاة وتلاوة القرآن حينا آخر وبين الانغماس في الخمر والجنس أحيانا أخرى . متأرجحا بين الظاهر والباطن بين الحلم والواقع بين المعقول واللامعقول .

(يغوص الحاج كيان في هذه الملاقات التناحرية ،ويتشابك معها بكل كيانه وكينونته رغبة منه في التنفيس عن ذات عاجزة ،عندما يرى نفسه زعيما لذلك الماخور وعشيقا لسيدة الماخور العنابية ثم ومن جانب آخر رفضا منه لهذا الواقع وتلك العلاقات الفاسدة . وهو صاحب العقلية المحافظة الغارقة في الميثولوجيا يقترح أو يتزعم اقامة عرس بغل ذلك العرس الذي لا يخرج عن كونه فكرة ميتة منذ تكوينها في عقلية ميثولوجية ، جاءت للدلالة وهو ما تصبو اليه عن واقع فاسد ،والبديل غائب ، هذه الاسطورة ،أسطورة عرس بغل ليس لها في الصحة سوى ما في المعتقد

---

1 - عرس بغل . ص : 71 .

العام من ضمنية تدعو الى استحالها بشكل تعجيزي . حتى لا ننتظر نتائجها التي لا تتمدى أن تكون عقما في عقم .) (1)

حاول (الحاج كيان) أن يتقمص شخصيات أعجب بها وأحبهـا من خلال دراسته في جامع الزيتونة ،وفي مقدمة هذه الشخصيات شخصية (المتنبي) و (الاشمري) و (حسن البنا) و (حمدان قرمط) و (زكرويـة الدنداني) و (حسن الأهوازي) . وهي شخصيات ثائرة في زمانهـا تحاول تغيير الواقع واستبداله بواقع جديد واقع يحلم بالثورة والتمـرد وتحطيم كل القيود والسدود التي أقامتها قوى الشر والظلم والفسـاد ، في ذلك الحين . غير أن محالات (الحاج كيان) الثورية باءت بالفشـل الذريع . ولم يستطع أن يحقق ما كان يحلم به من ثورة وتمرد ضد تلـك الأوضاع المزرية المتعفنة حينذاك . لقد ضيع روح الكفاح والنضال وهو فـي طريقه الى كيان . ف (الحاج كيان) يصرح في بعض خلواته الحشيشيـة قائلا : (لقد تقوقعت على نفسك مرة أخرى . الاشمري ،وحسن ،والمتنبي،طالب التجويد ،ينبعثون فيك من جديد .لا . لقد ماتوا جميعا . ماتوا في كيان ،بـل في الطريق اليه .) (2)

ولما عجز (الحاج كيان) عن محاولة تغيير الواقع أو اعلان الثـورة والتمرد ،وتخلف عن اللحاق بالثوريين الكبار عبر التاريخ العربي الاسلامـي الذين أعجب بهم كثيرا ،تخلى عن حماسه ودفن همومه وأحزانه في الخمر والحشيش والجنس وتقوقع على نفسه ،وانزوى في المقبرة يجر أذيال الخيبـة وآلام الحسرة مبديا حزنه العميق ،ومعبرا عن أسفه الشديد لما أصابه من فشل واحباط واخفاق (ان لم نقرمط بين الناس فلا أقل من أن نقرمط بـين ظاهرنا وباطننا .) (3)

---

1 .. ينظر مجلة الكاتب الفلسطيني عدد 3 حزيران 1978 .

2 .. عرس بغل . ص : 194 .

3 .. نفس المصدر .ص : 196 .

من خلال استسلام (الحاج كيان) وعجزه عن التمرد والثورة ضد الظلم والفساد يريد المؤلف من وراء ذلك أن يقول أن شخصية (الحاج كيان)المشبعة بالثقافة التقليدية التراثية لا تقوى أبدا على المواجهة أو التمرد في وجه الاقطاع والرأسمالية والسلطة الفاسدة .. مهما حاولت هذه الشخصية أن تلوح بالشعارات الثورية .. فان مآلها السقوط والاندثار . بدليل أن (الحاج كيان) . قد اندفع في رفع الدعوة الى الثورة والاصلاح لكنه سقط في أول جولة على عتبة باب الماخور وانهارت جميع مبادئه وقيمه التي كان يدعو اليها ويلوح بشعاراتها قبل أن يسقط في وحل الرذيلة ولم يبد أية محاولة تذكر . للتمرد أو المقاومة أو التضحية والكفاح عجزا منه وضعفا ، بل انه سلك طريقا منعرجا أدى به الى السقوط والضياع لقد انتصرت عليه عاهرة وحولته الى قواد إذ ان (الحاج كيان) (يعيش وهما يظنه الواقع . ويحارب واقعا يظنه الوهم وكأنما تعبث به آلهة الاغريق ، وتتحكم بدوافعه .) (1)

وحول سقوط (الحاج كيان) وانهزامه يصرح (الطاهر وطار) قائلا . (الحاج كيان هو رمز للفئة البرجوازية تلك التي تحاول منذ أمد بعيد في جميع أقطارنا العربية أن تقدم الحلول لازماتنا المختلفة بشعارات ثورية ،لكنها في نهاية الأمر تعجز عن ذلك بحكم طبيعتها الطبقية وهي حسب المقولة المعروفة لا تستطيع أن تكون ثورية الا اذا انتحرت ولكنها ترى أنه يعز عليها أن تغادر حياتها وأوضاعها ومكاسبها .) (2)

وهكذا أصبح (الحاج كيان) عجينة طيعة في يد (المنابية) تتصرف به كما يحلو لها وتتحكم فيه ،كما تريد . تقول (المنابية) موجهة أوامرها

1 - الرواية العربية واقع وآفاق مجموعة من الاساتذة . ص : 162 .
2 - تجارب قصيرة وقضايا كبيرة ،مخلوف عامر . ص : 75 نقلا عن مجلة الهدف.

بصرامة الى (الحاج كيان) :- (أنت مكلف من الآن بالبحث عن ثماني عشرة فتاة في جمال حياة النفوس . أريد أن أجلب كل الاعيان الى محلي . أتفهم يا الحاج كيان ؟ أريد أيضا ،أن تبحث لي عمن يأخذ مكان حمود الجيدوكا . أريد أيضا أن تصبح مدير المحل .) (1)

(وهكذا تكون صياغة هذا البطل الاشكالي دلالة واضحة على خيبته الواقعية والنفسية أمام مثله العليا فيرتكب جريمة قتل ،يقضي من جرائها عشرين عاما في سجن الاشغال الشاقة من أجل امرأة ما لبثت أن جرته بعد عودته لتستخدمه وسيطا لها ومديرا لاعمالها . وليغدو عنصرا حيا من عناصر الصراع الشرس في مجال هذا العالم الموبوء بالاستغلال .) (2) وتأمره (العنابية) في مكان آخر قائلة (تول كل الأمر . أنا علي الانفاق ،وأنت عليك اقامة عرس بغل لم يشهد تاريخ المواخير مثله .) (3)

وسقط (الحاج كيان) في مستنقع المخدرات وغرق في وحل الجنس والخمر فلم يجد بدا من أن يصرح بأنه انتهى خاصة عندما طلبت منه المومس (الوهرانية) الزواج فأعلن بأنه أصبح هامشيا لا يصلح لشيء اطلاقا وأنه (محكوم عليه بالسير نحو نهايته ،خطوة فخطوة ،وبدون أية مقاومة . حتى يفتقد الخطوات ،وينتهي سيره .) (4)

ولقد كانت شخصية (الحاج كيان) ببساطة شخصية سلبية انهزامية الى النهاية .

---

1 - عرس بغل . ص : 88 .
2 - الرواية العربية واقع وآفاق . لمجموعة من الأساتذة . ص : 162 .
3 - عرس بغل . ص : 90 .
4 - عرس بغل . ص : 152 .

أما الشخصية الرئيسية الثانية في الرواية فهي شخصية (العنابية) مديرة الماخور التي يصفها المؤلف بقوله : (المعلمة هذه ،عندما كانت في عنفوانها ،كانت تذبح وتسلخ الرجال ،بنصف ابتسامة . لقد ذهب الحاج كيان من أجلها الى كيان وعاد . هي التي أعادته .) (1)

وعبر (الفلاش باك) تقص علينا (العنابية) ماضي حياتها وهي في الخامسة عشرة من عمرها حيث اغتصبها الجنود السينغاليون في عهد الاستعمار الفرنسي وقتلوا أهلها وتركوها وحيدة في العراء نهبا للضياع والفراغ فالتجأت فورا الى احتراف مهنة البغاء وتدرجت في هذه المهنة حتى ارتقت الى درجة (معلمة) أي مديرة لاكبر ماخور في البلاد . وحين يسألها (الحاج كيان) عن سبب ممارستها لمهنة البغاء فتجيبه بكل مرارة أنها تبيع جسدها كالسلعة لكل صاحب نقود مهما كانت منزلته الاجتماعية أو حالته المادية فهي تبيع وتشترى مثل بقيه التجار . غير أن حالتها تختلف تماما عن بقية التجار لانها تمارس هذه المهنة تحت ظروف ضاغطة وقاسية جدا نتيجة للقهر والكبت والحرمان والاستغلال . تقول (المعلمة) في هذا الشأن .

(اشتغل . أبيع وأشترى ،ككل عباد الله . استبدل تحمل شخص ، على بدني لدقائق ،ببدلة اتصال ،استبدلها بدورها بنقود . بعضهم خفيف بعضهم ثقيل ،بعضهم نظيف ،بعضهم متسخ ،بعضهم صحيح ،بعضهم مريض، بعضهم عاجز ،بعضهم مقتدر ،لكن كل البدلات سليمة ،تمد بما قدر لها من ثمن . اسمع . عندما تكون واقفا في موضع . على حافة جرف مثلا ،ويهوي بك ذلك الجرف ،من تلوم ؟ هل تلوم نفسك ،أو تلوم الجرف ،أو تلوم من جعله يهوي ؟ ماذا تقرأون في جامع الزيتونة ؟) (2)

ف (العنابية) هنا عن طريق (الطاهر وطار) تفلسف موقفها في الحياة

1 - عرس بغل . ص : 71
2 - عرس بغل . ص : 64 .

والمجتمع وتعتبر نفسها ضحية القدر والمجتمع الذي لا يرحم . فهي تشبه في موقفها هذا المومس العمياء عند الشاعر العراقي الكبير (بدر شاكر السياب) تلك المرأة المغتصبة المظلومة التي قسا عليها القدر فسلبها كل نعمة في الحياة تتساءل بحرقة وألم قائلة :

(ومن الملوم وتلك أقدار كتبن على الجبين ؟
حتم عليها أن تعيش بعرضها ...
ومن الذي جعل النساء
دون الرجال فلا سبيل الى الرغيف سوى البغاء .) (1)

ومن الملاحظ أن كلتا المرأتين الماهرتين لم تكونا سوى ضحيتين من ضحايا النظام الفاسد والمجتمع المتخلف والاقطاع المتسلط في كل من البلدين حينذاك .

وفي موضع آخر تقول العنابية :

(لم أفهم طبيعة هذا التناقض الصارخ . في حين يغلق مجتمعنا على المرأة الاغلاق التام ،ويعتبر الاختلاط حراما ،يسمح بأن تكون هناك مثل هذه المؤسسات . تخرج الواحدة من بيت أبيها أو أخيها ،أو تغادر زوجها وأطفالها ،وتأتي الى هنا لتبيع بالنقود ،ولكل صاحب نقود ،ما أباحه الله ، بشروط معينة .) (2)

ف (العنابية) و (الوهرانية) وعلجية) و (حياة النفوس) هؤلاء البغايا بطلات الرواية كلهن ضحايا الطبقة البورجوازية التي لا ترحم ، والتي لاترى

---

1 - ديوان بدر شاكر السياب ،المجلد الاول .ص: 521 .دار العودة بيروت 1971 .
2 - عرس بغل . ص : 43 - 44 .

في المرأة سوى سلعة تباع وتشتري مثل بقية السلع الأخرى القابلة للتجارة والاحتكار والاستغلال البشع . من طرف فئة استولى عليها الجشع والطمع والأنانية فلم تعد ترى سوى مصلحتها الخاصة الانية ولوداست في سبيلها على جميع رقاب العباد بدون شفقة ولا رحمة ! ان (الطاهر وطار) يعالج قضية المرأة في المجتمع البورجوازي المستغل ويرى أنها مهضومة الحقوق مداسة الكرامة ملوثة العرض وأن قيمتها منحطة في الدين والدنيا والاخرة (انها بضاعة في كلتا الحالتين في حالة امتلاكها وخزنها احتكارا للنفس أو في انتظار الزبون اللائق صاحب العرض الاوفر . وفي حالة جمعها في محال عمومية ،تقع وسط السكان ،وقرب المساجد وبيوت الله . وعرضها على كل من يشاء . هناك تباع بالجملة ،وهنا تباع بالتقسيط .)(1)

(ان الطاهر وطار يرى من خلال بطله الاشكالي أن الدين غير قادر على حل مشكلة المرأة .)(2)

بل ان المؤلف يؤكد صراحة في الرواية على أن الدين والدولة لا يستطيعان أبدا حل المشكلة العويصة التي يتخبط فيها المجتمع من ظلم وقهر وتسلط باعتبار أن (الوضع كله فاسد . لن يصلحه خليفة ،لن يصلحه دين .)(3)

و (الطاهر وطار) في هذه الرواية يقوم بمحاولة تشريح الواقع الفاسد المتعفن وما استشرى فيه من احتكار واستغلال الى درجة استحالت فيه المرأة الى سلعة تباع وتشترى بالجملة والتقسيط عن طريق البغاء والفساد والاحتكار وبذلك انهارت كل القيم والمبادئ الانسانية والاخلاقية الى الحضيض الأسفل . وازاء هذه الحالة المزرية يرى (الطاهر وطار) أن الحل الوحيد

1 - عرس بغل . ص : 44 .
2 - الرواية العربية واقع وآفاق . لمجموعة من الاساتذة . ص : 162 .
3 - عرس بغل . ص : 161 .

لانقاذ المجتمعات البشرية هو اعتناق الاشتراكية التي نادى بها القرامطة في العصور الغابرة أو بعبارة أدق هو يريد من المجتمعات وخاصة الطبقات الكادحة أن تتبع العقيدة الماركسية ف (الطاهر وطار) يؤكد بالحاح شديد على اعتناق هذا المذهب ،ذلك أن (مصير الانسانية جمعاء القرمطية . لا صلاة ولا زكاة ،ولا وعظ ولا ارشاد يؤثر في قلوب الجياع . دينهم العدل . لقد فعلنا معهم ،ما لم يفعله الأنبياء.) (1)

وفي مكان آخر يؤكد المؤلف على ضرورة التمسك بالمبادئ الماركسية التي سوف تصلح ما أفسده الدهر وهي التي تحرر الناس من الاقطاع والاستعباد - حسب اعتقاده - (هذا هو نظام الحياة . انه فاسد في أساسه وفي حاجة ملحة الى حمدان ليقرمط بين الناس ويقرمط ،حتى يقيم الألفة ويذيقهم جميعا طعام الجنة :) (2)

فالمؤلف يضع اسم (حمدان قرمط) بدلا من ماركس والألفة وطعام الجنة بدلا . من ثمار العدالة الاشتراكية .

* ان رواية (عرس بغل) يمكن أن تقرأ على مستويين المستوى الأول جنسي أو مستوى حقيقي ومستوى مجازي أو بعبارة أدق مستوى واقعي ومستوى رمزي أما المستوى الواقعي فيقول أن هناك مبغى يجمع فئة كبيرة . من البغايا والقوادين وأصحاب السكر والعربدة . فتحفل أيامهم ولياليهم الحمراء بالجنس والخمر والحشيش تتخلله بعض المشادات الكلامية والبدنية وتكون فيه الكلمة الأولى والأخيرة للأقوى والأشد كما سبق أن أشرنا .

---

1 - عرس بغل . ص : 108 .
2 - عرس بغل . ص : 196 .

أما على المستوى الرمزي فالمؤلف يرمز بالمبغى وما يجرى فيه من أحداث وصراعات الى حالة البلاد السياسية منذ بداية الاستقلال الى سنة 1975 . تاريخ كتابة الرواية .

وشخصيات الرواية ترمز الى شخصيات سياسية واقعية معروفة تصارعت على كرسي الرئاسة ولعبت أدوارا رئيسية على مسرح الأحداث في الجزائر.

4 وشخصية حياة النفوس ترمز الى كرسي الرئاسة الذي تتصارع من أجله جميع شخصيات الرواية ليفوز به الاقوى من جهته بعد صراعات سياسية وانقلابات عسكرية وخلافات شخصية .

أما المقبرة التي يقصدها (الحاج كيان) فترمز الى الماضي . والجنس بدوره يرمز الى التجارة والاحتكار والرأسمالي الذي حول كل شئ الى سلعة تباع في السوق السوداء . وأما العرس فيرمز الى الثورة والبغل يرمز الى العقم . وبذلك نستطيع أن نغير عنوان الرواية ليصبح هكذا (ثورة عقم) بدلا من (عرس بغل) .

أما الشخصيات التراثية أمثال (المتنبي) و (حمدان قرمط) و (زكراوية الدنداني) شخصيات ترمز الى معنى الثورة والنضال والكفاح ضد الاوضاع المتردية في زمانهما وثورة العقم هذه يمكن أن توجد في الجزائر ويمكن أن يحدث مثلها في العالم العربي وأفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية .

وفي هذا الاطار يقول (الطاهر وطار) (بعض الشخوص يأخذون طابعا رمزيا محليا ،أي غير الاستغلال ،فمثلا حياة النفوس هي تقريبا تجسد السلطة من يستولى على السلطة ؟ . وتكون الرواية بالتالي صراعا على السلطة ،وهذا

يعكس كثيرا العالم الثالث في خلافاته ومشاكله .) (1)

وعلى هذا الأساس فان رواية (عرس بغل) ليست رواية جنس تتحدث بخلاعة عن الممارسات الجنسية الاباحية الفاضحة والصور العارية المكشوفة التي تخدش الحياء بشكل صارخ ، مثل ما نجد ذلك لدى الكتاب الذين يتحدثون عن الجنس بصورة يكثر فيها الاغراء والاثارة مثل روايات (يوسف السباعي) وروايات (احسان عبد القدوس) الذي صور بدقة بنات الصيف وساقطات الشتاء .

وانما هي رواية سياسية تعالج مشكلة الخلافات والصراعات السياسية على السلطة من جهة ، وتشير بأصابع الاتهام الى ذلك الطمع والجشع الذي تمارسه الرأسمالية الاحتكارية .

(والجنس عند الطاهر وطار ليس تعويضا عن الكبت الذي يعانيه الكاتب أو الشخوص الذين يبنيهم بقدر ما هو عامل من عوامل الوعي في بنائهم ، أي أنه أقرب الى التوظيف الروائي منه الى المكاشفة .) (2)

المعمار الفني للرواية :

بنى (الطاهر وطار) معماره الفني لرواية (عرس بغل) على الرموز والأساطير والتراث العربي الاسلامي . ومزج ذلك بالصراع على تجارة الجنس والصراع على السلطة السياسية .

واعتمد الشكل الفني للرواية على أسلوب السرد الوصف والحوار وبناء

---

1 - الطاهر وطار يتحدث لمجلة الحياة الثقافية التونسية عدد 32 . 1984 .

2 - الرواية العربية واقع وآفاق ، لمجموعة من الاساتذة . ص : 159 .

الرواية لم يخضع للتسلسل الزمني وانما بناه المؤلف على أحدث التقنيات الحديثة كتيار الشعور الذي استخدمه كثيرا (جيمس جويس)و (فرجينيا وولف) و مارسيل بروست) في رواياتهم المختلفة . واستخدمه (الطاهر وطار) في هذه الرواية على لسان بعض الشخصيات على مستويات مختلفة ودرجات متفاوتة ،ثم هناك العودة الى الماضي (الفلاش باك) وقد استخدمه المؤلف كثيرا على لسان بطله (الحاج كيان) حين يلجأ الى خلوته الحشيشية ويستحضر الماضي ورجالاته ،فيتذكر مواقفهم الثائرة وعقائدهم القوية ونضالهم المستميت ودفاعهم عن الحق والعدالة . ومن الواضح أن (الطاهر وطار) يسلط الأضواء الساطعة في روايته على الشخصيات المتمردة الثائرة ذات الأبعاد العميقة التي تحمل في طياتها دلالات واشارات ومعاني رمزية وأسطورية وظفها المؤلف لتزيد روايته اغناء واثراء وقيما جماليا وفنية وفكرية ،وترابطا وتماسكا بين الشكل والمضمون فجاءت الرواية متماسكة البناء في غاية الدقة والاحكام والاتقان . وهذا ان دل على شيء فانما يدل على أن المؤلف له ثقافة واسعة متنوعة في التاريخ العربي الاسلامي ومذاهبه المختلفة وفلسفاته المتنوعة وآدابه الزاهرة وتصوفاته المتشعبة فأخرج من كل ذلك باقة من الرّموز الحية ووظفها في روايته فكانت تنبض حركة ونشاطا . وأعطت الرواية نموا وتطورا على مستوى الوقائع والأحداث .

أما أسلوب الرواية فيحتوي على ثلاثة مستويات كما أشار الى ذلك (الطاهر وطار) نفسه حيث قال :

(في روايتي عرس بغل خرجت من مأزق اختيار الدلالات غير المقصودة .. بغير خلق أجواء تكون فصولا كاملة وموجهة أساسا للقارئ الذي يرى المعاني المبطنة في الاستعارات . . .فقد جعلت بطلي يعيش في ثلاث مراحل:

حياة يومية في بيت دعارة .. حياة أخرى في المقبرة مع المخدرات لاستحضار الماضي .. وحياة ثالثة يعيشها لنفسه فقط .. في الحياة الأولى اعتمدت الأسلوب الواقعي ،في الثانية التجريدي . وفي الثالثة التصوف .) (1)

وقد أدخل المؤلف فضلا عن هذه الأساليب المذكورة اللغة المحلية والاغاني والأمثال الشعبية الجزائرية التي تعبر عن مشاعر وأحاسيس الشخصيات بعمق لما تحمله من أبعاد وأعماق بعيدة الغور ا

أما لغة الزواية فهي لغة مشحونة بالرموز والايحاءات والصور التي تفجر الطاقات العاطفية والشحنات الذهنية والقدرات الفكرية وفي لغة الرواية امتزجت جميع الصور والأخيلة والأحلام بالأحاسيس والعواطف والانفعالات. وكونت سمفونية رائعة تمتاز بالشمولية والعمق .

ومن المؤكد أن رواية (عرس بغل) سوف تبقى رواية اجتماعية رمزية سياسية -وان طعمت بألفاظ جنسية - تؤرخ بصدق وأمانة حالة البلاد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وما تخللها من عنف وصراع وثورة وتمرد منذ الخمسينات الى منتصف السبعينات من القرن العشرين .

---

1 - الطاهر وطار في حوار مع فاروق يوسف الثقافة العربية عدد 3 . 1980 .

الحــوات والقصـــــر (1)

الطاهر وطــار

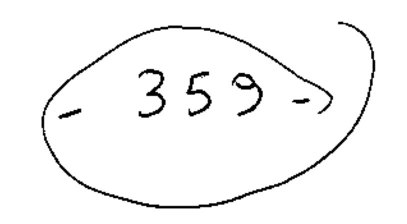
قبـل أن نتناول هـذه الروايـة بالنقـد والتحليـل نشير الى أن هذه الرواية لم تخـرج الى حيز الوجود ،وترى النور ،حتى تجرع مؤلفهـا مــرارة الاهمال واللامبالاة ، فقد استقبلهـا الباحثون والدارسون بالفتــــور ولم يجرؤ واحد منهـم أن يتناولهـا بالدرس والتحليل لانّهـا تعالج قضية الحكم والمعارضة وهي مسألة في منتهى الخطورة . ومن جهـة أخـــرى سدت في وجه هذه الرواية أبواب الناشريـن العرب . وظلت (الحـــوات والقصر) تدق بالحاح أبواب دور النشـر العربية عدة أعوام ،وعادت الى صاحبهـا في الثوب الذي ذهبت به لانّهـا لم تلـق أية استجابـة أو ترحاب من دور النشـر التي طرقت أبوابهـا . وعندئذ أقبل مؤلفهـا على مغامـرة طبعهـا على نفقته الخاصة .

وهنا نفسح المجال لـ (الطاهـر وطـار) يعبر عن شعـوره ، اذ يقول في مرارة متحسرا : (ان هذه الرواية طافت حوالي ست سنوات على العواصم العربية طمعـا في أن ترى النـور ،وأخيرا أقدمت على طبعهـا في الجزائـــر على حسابي الشخصي ومزقت حذائي في توزيعهـا ،وأذللت نفســـــي أمام أصحاب المكتبات وأنا أبيعهـا وأملأ الفواتير ،وأبصم وأتفاوض علــــى النسبة المائوية . . . الخ الخ .

وتمنيت أيامهـا لوانّني أستطيع كتابة قصة عن قصة ، ولو أنني كنت

---

1 ـ طبعت هذه الرواية لأول مرّة عام 1980 دار البعث قسنطينة الجزائر



أمنّا لاصلة لي بعالم الشقاء،هذا .) (1)

ملخص الرواية .

(الحوات والقصر) رواية أسطورية خرافية تدور حوادثها حول شخصية محورية هي شخصية (علي الحوات) الذي نشأ يتيما وفقيرا معدما لا يجد ما يقتات به سوى صيد الأسماك . وحين بلغه نبأ نجاة السلطان من محاولة الاغتيال التي دبرها له الفرسان الثلاثة في غابة الوعول للاستيلاء على السلطة ،قرر (علي الحوات) أن يصطاد سمكة تزن سبعين رطلا ويهديها للسلطان تعبيرا عن فرحه وسروره بنجاة جلالته من الموت . الا أن هذه النجاة تضاربت حولها الآراء وحامت حولها الشكوك فالبعض يقول ان السلطان قد نجا والبعض الآخر يقول انه قد مات .

وعندما تمكن من اصطياد هذه السمكة وذهب بها الى قصر السلطان وقبل أن يصل القصر لابد عليه أن يمر على سبع قرى هي : قرية التحفظ وقرية الاحتجاج ،وقرية التساؤلات ،وقرية بني هرار ،وقرية التصوف، ثم قرية الحطنة ،فقرية الاعداء . وبعد ذلك لابد أن يتعرض لتفتيش دقيق من قبل حراسة المراكز السبعة لحدود المملكة قبل أن يصل الى السلطان .

واستطاع (على الحوات) أن يجتاز القرى السبع غير أنه اصطدم بحراس المراكز السبعة الذين سدوا في وجهه الطريق بسبب تعقيدات البيروقراطية والرشوة والفساد .

---

1 - الطاهر وطار في حوار له مع مجلة النداء البيروتية 12 تشرين الأول 1980 .

وقبل أن يصل الى السلطان قطع حراس القصر يده اليمنى . فرجع الى قريته واصطاد سمكة أخرى . ولما وصل الى الحراس قطعوا يده اليسرى. وكرر المحاولة مرة ثالثة فقطعوا لسانه الا أنه لم يستسلم لليأس أبدا بل أنه أصر بالحاح شديد على أن يقوم بهذه المهمة مهما كلفه ذلك من ثمن . وحاول للمرة الرابعة وفي هذه المحاولة فقئت عيناه ومع ذلك لم يصل الى السلطان . واكتشف في نهاية الأمر أن الفرسان الثلاثة الذين اغتالوا السلطان لم يكونوا سوى اخوته هو اخوته الثلاثة العصابة الشريرة (جابر) و (سعد) و (مسعود) هؤلاء القتلة المجرمون القساة الذين اغتصبوا الأموال وزهقوا الارواح وعاثوا في الارض فسادا بعد استيلائهم على السلطة ولم يكتفوا بذلك كله بل ارتكبوا في حق أخيهم (علي الحوات) أبشع الجرائم ونكلوا به أشنع تنكيل

وأخيرا أفتضح أمرهم للناس ونالوا العقاب الذي يستحقونه ، جزاء ما اقترفت أيديهم من شرور وآثام . وشهر بهم في الساحة العامة أمام وفود القرى السبع !!
وبذلك تنتهي أحداث الزواية كلها .

وواضح أن توظيف العنصر الأسطوري قد عالجه (الطاهر وطار) في روايته (الحوات والقصر) وعالجة كذلك مجموعة من الروائيين العرب من بينهم (جمال الغيطاني) في رواية (الزويل) 1975 .
و (مجيد طوبيا) في رواية (دوائر عدم الامكان) 1975 .
و (محمد البساطي) في رواية (التاجر والنقاش) 1976 .
وفي الجزائر هناك رواية (عبد الحميد بن هدوقة) (الجازية والدراويش 1983 .

أما في الآداب الأجنبية فتعتبر رواية (غابرييل غارسيا ماركيز) (مائة عام من العزلة) 1967 . قمة في مجال استعمال العنصر الأسطوري وهي تعج بعالم السحر والرموز والأساطير . وقد أعتبر مؤلفها رائد الواقعية السحرية في العالم المعاصر .

ومن المؤكد أن كل فنان أصيل في العالم يسعى جاهدا أن يثور على الأنظمة المستبدة والديكتاتوريات المتسلطة على رقاب العباد وأن يحاول تغيير تلك الأوضاع الفاسدة اما بالواقع أو بالحلم أو بالأسطورة .

(ان الفنان اذ يجد نفسه مواجها بواقع معقد ،متداخل العلاقات، لايجد بدا من تفحص أدواته ومدى قدرتها على خلق هذا الواقع خلقا جماليا جديدا حتى لا يكون فنه مجرد انعكاس لما يدور في هذا الواقع، بل ابداعا جديدا يومئ ويشهد لكنه - في ذات الوقت - يفجر ويشارك في فعل التغيير .) (1)

الشخصيـــــات .

ان (علي الحواث) هو الشخصية الرئيسية التي تركزت حولها جميع أحداث الرواية من البداية الى النهاية . فهو المحرك الدينامي للأحداث والمواقف والمواقع والآراء . وتجسدت فيه معاني الرمز والاسطورة في أجلى صورها رغم أن البطل شخصية شعبية عادية بسيطة من الطبقة الرثة المطحونة اجتماعيا . فهو ليس بطلا أسطوريا يحارب الآلهة ولا أنصاف الآلهة أو يحارب القدر بالخوارق كما هو موجود في الأساطير والملاحم اليونانية والرومانية . هو ليس من هذه الأصناف كلها في شيء

---

1 - محمد بدوي ،مغامرة الشكل في الرواية مجلة فصول العدد الثاني 1982 ص : 127 .

كما أنه ليس من طبقه النبلاء الاقطاعيين ولا من البرجوازيين المستغلين ، انما (علي الحوات) من الطبقات الشعبية المسحوقة نشأ يتيما فقيرا معدما لا يجد قوت يومه يعمل صيادا و يسكن كوخا حقيرا . كما سبق أن أشرنا .

تصفه الرواية بأنه في غاية الطيبة والسذاجة وأنه شاب اجتمعت فيه كل خصائص ومميزات البرو الاحسان حتى غدا يمثل الخير المطلق ويرمز الى القيم والمثل العليا . كيف لا ؟ (وعلي الحوات الشاب الطيب الذى شذ عن أخوته الثلاثة ، وعن كثير من أقاربه . فابتعد عن طريق الضلالة . لم يسرق يوما . لم يكذب مرة . لم يعتد على أحد . لم يثلب في عرض ،أو يتعرض بسوء لغيره .) (1)

ويصفه أحد سكان قريته بأنه هو ذلك (الشاب الخير ، الذي يندفع نحو الخير بلا قيود أو حدود الى درجة البله ؟.) (2)

أما هو شخصيا فيصرح بكل فخر واعتزاز وثقة مطلقة في النفس بأنه رجل يتسم بالخير منذ نشأته الاولى (هذا طبعي وهذا أنا انني خير من الصغر ،وسأظل خيرا ما استطعت . لقد اختارتني الاقدار بين اخوتي لأمثل الخير .) (3)

ونظرا لسمة الخير التي يمتاز بها (علي الحوات) فلم يجد بدا من أن يقرر باصرار أكيد أن يهدي سمكة كبيرة لجلالة السلطان تعبيرا عن الفرح الشديد بنجاته من محاولة الاغتيال التي دبرها له خصومه

---

1 - الحوات والقصر . ص : 17 .
2 - الحوات والقصر . ص : 34 .
3 - نفس المصدر . ص : 28 .

وأعداؤه في غابة الوعول .

وهكذا فقد سافر (علي الحوات) متجها الى القصر ،وهو يحلم بمقابلة جلالة السلطان ليهدي له تلك السمكة التي أصطادها من وادي الابكار . وقبل أن يصل الى القصر واجهته مصاعب جمة ومشاكل عويصة ما كانت لتخطر له على بال في هذه الرحلة رحلة العذاب والشقاء والالام حيث بترت يده اليمنى ورجع خائبا كاسف البال دون تحقيق الاحلام والرغبات بسبب الحواجز والسدود التياعترضت سبيله فلم يستطع اختراقها أو القفز عليها ولئن أخفق (على الحوات) في هذه الرحلة فلم يظفر بمقابلة السلطان وتقديم الهدية له ،وخسر يده اليمنى فانه قد استفاد من هذه الرحلة تجربة وخبرة عرف عن كثب أشياء كثيرة وفي مقدمتها التفتيش والرقابة والمماطلة ، والتطويل الممل ،والبيروقراطية والرشوة التي كانت متفشية بكثرة في أوساط حراس حدود القصر وبين حجابه وحاشيته .

(هذه هدية القصر ،وأين هديتنا نحن ؟ أتعتقد أننا نسمح لك بالمرور بهذه البساطة ... قبل أن يتحدثوا اليه كانوا يقولون فيما بينهم وبأصوات مرتفعة ، كيف يجوز أن يمر أحد بطريق القصر دون أن يحمل هدايا لرؤساء مراكز الحراسة .) (1)

ولذلك فقد عمل (على الحوات) كل ما في وسعه لتفادي جميع الأخطاء التي وقع فيها من قبل فاتخذ جميع الاحتياطات اللازمة التي سوف تساعده على تذليل الصعاب وتسهيل المهمة التي تجشم من أجلها الأهوال الشداد . واستفاد من جهة أخرى في هذه الرحلة حيث

---

1 ـ الحوات والقصر ، ص : 123 ، 124 .

ظفر البطل بعطف ومساندة سكان القرى السبع فقدموا له مساعدات مادية ومعنوية وزودوه بكل ما يحتاج اليه في رحلته الثانية الى القصر .

ورغم أن سكان القرى السبع قد ألحوا عليه ،في بادئ الأمر - الحاحا شديدا طالبين منه ألا يذهب الى القصر لأن ذلك سوف يعرضه للأخطار الفادحة أو الى الموت المحقق . باعتبار أن (القصر أقيم في البدء على مطاردة اللصوص ،ثم تحول شيئا فشيئا حتى صار وكرا لهم ، ينطلقون منه للنهش ثم يعودون . كان القصر مصدرا لأمن الرعية ، فتحول الى مصدر رعب وذعر .) (1)

رفض (على الحوات) نصائح سكان القرى السبع وأبى الا أن يذهب الى القصر مهما كلفه ذلك من ثمن . فقد عزم على الذهاب الى القصر وألزم نفسه بذلك الالزام لأنه أعطى عهدا ولابد أن يلتزم به مهما كانت الصعاب والظروف القاهرة التي سوف تعترض سبيله أو تعيق طريقه. يقول (على الحوات) في هذا الصدد : (ان من يندفع للقيام بالواجب ،بوازع الضمير ينبغي أن لا يفكر كثيرا في ما يترتب عن فعله .) (2)

ولم تكن الرحلة الثانية لـ (على الحوات) بأحسن من الأولى اذ بمجرد ما وصل الى مراكز حراسة القصر حتى قطعت يده اليسرى وفشلت محاولته للمرة الثانية . لم يتسرب اليأس الى نفس (على الحوات) بل ازداد قوة وارادة واصرارا على مواصلة السير نحو الهدف المنشود .

وفي الرحلة الثالثة نزلت بـ (على الحوات) الكارثة الكبرى حيث كانت

---

1 - الحوات والقصر ، ص : 114 .

2 - نفس المصدر ، ص : 49 .

المواجهة الحقيقية بين (علي الحوات) وأخيه (جابر) الذي أمر بقطع لسانه وبعد ذلك صرخ في وجهه بحدة وانفعال قائلا :

(- هكذا تطاردنا يا كلب .

- أنا لا أطاردكم اطلاقا ، انظر ماذا فعل في مسعودوسعد ،ومع ذلك لم أحدث أحدا كل ما هنالك ،أنني نذرت ما أن بلغني خبر نجاة جلالته من هجوم الأعداء ...

- هكذا تعترف بذنوبك كلها ،ما أن تسلمنا الحكم ،حتى برزت كغراب الشؤم ،توقد نار الفتن في القرى ،فخرجت قريتنا من تحفظها واستعاد الخصيان رجولتهم ،وحمل الصوفية السلاح .

انك تتآمر مع الأعداء يا علي الحوات .

- لقد عقدت العزم أن لا أتعرض لكم بسوء اطلاقا . أنتم اخوتي ، أولا وقبل كل شيء ، فكيف لي أن أضركم ،ولا شك أنكم تبتم ،ولم تبقوا شريرين مجرمين .

- هذا كلام ،مغفلين يا علي الحوات ،عندما يتعلق الأمر بالحكم ، تزول الاعتبارات والعواطف . يا سياف خذه ،أسكته الى الأبد .) (1)

أما الرحلة الرابعة وهي خاتمة المطاف والتي تبلغ فيها المأساة الذروة في أبشع صورها وأقذر أشكالها عند اكتشف فيها (علي الحوات) المفاجأة المذهلة عندما دخل القصر حيث تبين له بوضوح شديد أنه لا وجود للسلطان اطلاقا وانما الذي يسير الأمور ويدير دفة الحكم انما هم جماعة من اللصوص المجرمين . ولم يكن هؤلاء المجرمون سوى

---

1 - الحوات والقصر . ص : 247 ، 248 ، 249 .

اخوة (على الحوات) (جابر) و (سعد) و (مسعود) الذين التقوا ب (على الحوات) وجها لوجه وسقطت كل الأقنعة واتضح كل شيء وعرف كل منهم الآخر .

وهكذا (يتحم الطاهر وطار في روايته الحوات والقصر على الطبقة الحاكمة حصونها وقلاعها ،وأسرارها المنيعة ،بعد أن خرجت من قاع المجتمع لتختصم على القمة . انها القوى الثورية المصطنعة ،التي نبتت من أصول شعبية فقيرة ،وارتقت باسم الشعب ،حين أجادت التعبير عنه بشكل مفتعل ومزيف ومصنوع . وسرعان ما يكتشف الناس العاديون أن هذه القوى التي تنهش المصالح ، والبراءة والاصالة ،والتي تفتت وحدة الجماعة ،وتحطم الاستقرار النفسي والأمن الاجتماعي . والتي تستثمر الفقر لاذلال المطحونين ،والجنس لامتصاص دم الاصحاء . هذه القوى المتسلطة المستبدة ،ليست الا مجموعة من اللصوص ،يفقأون العيون الحالمة ،ويبترون الأيادي الكادحة الفاعلة . ويفتكون بالعذارى ،ويثيرون الرعب والفزع في نفوس كل الناس) (1)

ولقد أجمعت الآراء في كافة أنحاء المملكة على أن القصر قد دمر تدميرا كاملا وأن اللصوص الذين كانوا يحكمونه سلطت عليهم أقسى العقوبات التي كانت في مستوى جرائمهم وآثامهم . لكن هذه الآراء تضاربت فيما بينها واختلفت في كيفية نهاية القصر ومصير حكامه الطغاة الآثمين . وكل يراها حسب رأيه الشخصي ونظرته الخاصة . نظرا لما تمتاز به هذه الشخصية الثرية بالايحاءات والاشارات الرمزية وهي تمتاز أيضا بخصائص ومميزات أسطورية لأن العالم الأسطوري عالم مستقل، يحتوي في نفسه على شرحه وتبريره . والقاعدة الوحيدة التي

---

1 - د . سيد حامد النساج ،الطاهر وطار والرواية الجزائرية ،مجلة فصول عدد 2 . 1982

تعتمد عليها بنية هذا العالم هي أن كل شيء ممكن ،ولا غرابة في حدوث أي شيء ،فكما أن السماء تمطر زهورا صفراء عندما يموت الكولونيل بوين ديا في مائة عام من الوحدة لجارثيا ماركيز ،فان الاشجار والنباتات ترسل دمما ناطقا في (زويل) جمال الغيطاني) (1)

ونحن نقول على هذا السياق : (ما أن فقئت عينا علي الحوات حتى صار وهجا ،ارتفع الى السماء ،ثم صار شمسا ،هبطت على القصر ، فتحول الى دخان أزرق ،وعندما وصلت جيوش الانتقام ،لم تجد سوى الرماد).(2) في رواية (الحوات والقصر) .

قد يرى البعض أن شخصية (علي الحوات) شخصية بسيطة ساذجة تفتقر الى الوعي والفطنة وتضحي بكل شيء في حياتها من أجل المصلحة الخاصة لتنال حمد الناس ورضاهم ،وفي كل مرة تصاب بصدمة عنيفة تخسر فيها كل شيء دون أن تنال شيئا بسبب الاندفاع والارتجال . أويصفها البعض الآخر بأنها شخصية مستسلمة متخاذلة تسمح لأعدائها يمزقون جسدها اربا اربا بعنف وقسوة فتبتر يداها ويقطع لسانها وتفقأ عيناها وهي غير مبالية بالأضرار التي لحقتها من جراء سوء تصرفاتها ورأيها غير السديد . وهي مع ذلك كله منهمكة شغلها الشاغل الجري وراء الاخلاقيات المثالية التجريدية المطلقة التي يندر وجودها في عالم الماديات الصاخب. وقد يقسو عليها فريق ثالث فيدمغها بالبلادة والغفلة لأنها تسير في طريق محفوف بالمخاوف والمخاطر فتقع باستمرار في أزمات حادة وكل مرة تقع في كارثة أقسى من سابقتها دون أن تتفادى الوقوع فيها مستقبلا وذلك لانعدام الاستفادة من الخبرة والتجربة التي مرت بها عبر رحلاتها

---

1 - وليد منير، توظيف العنصر الأسطوري في الرواية ،مجلة فصول عدد 2. 1982.
2 - الحوات والقصر . ص : 267 .

المتمددة الى القصر .

ولكن الدارس المتمعن لهذه الشخصية يرى عكس هذه الآراء السطحية الارتجالية . فشخصية (علي الحوات) في حقيقة الأمر شخصية ايجابية فعالة شخصية ترمز الى الطبقات الشعبية الكادحة في الجزائر .ان لم نقل في العالم الثالث برمته . فهي تذكرنا بشخصية (اللاز) وما ترمز اليه من رموز ودلالات وأبعاد .

وهما من هذه الناحية وجهان لعملة واحدة .

واذا تتبعنا شخصية (علي الحوات) من خلال مواقفه وسلوكه نجده على درجة عالية من الوعي والفعالية . فهو مثلا عندما قطعت يده اليمنى لم يركن الى البكاء والنحيب أو يتراجع عن تحقيق رغبته في الوصول الى السلطان . وانما تلقى ذلك بعزيمة صلبة وارادة قوية رغم فداحة الحادث فأصر على مواصلة السير الى النهاية (سأصطاد بيد واحدة . سأنذر لجلالته أجمل سمكة أصطادها ،اذا كانت السمكة الأولى فلتت ،فان السمكة الثانية لن تفلت من الشص ،وان فلتت فالي الثالثة ،فالي غيرها .) (1)

ولقد حاولت خطيبته الفتاة العذراء كما حاول سكان القرى السبع أن يثنوه ويحولوا بينه وبين رحلته الى القصر فلم يفلحوا في ذلك أبدا لأنه شعر في قرارة نفسه أنه قد ازداد وعيا وادراكا ومسؤولية أكثر من ذي قبل : (أشعر أنني قد تضخمت سبع مرات . ولم أبق علي الحوات القديم .) (2)

---

1 - الحوات والقصر . ص : 136 .
2 - نفس المصدر . ص : 161 .

وقد أخذت (علي الحوات) الدهشة من هذا الانقلاب المفاجيء السريع الذي طرأ على القرى السبع في مدة وجيزة :

(لقد اتخذت المسألة تشعبات وانعراجات ،تفوق قدرة الفرد عن التفكير والتحليل .. آخرون يقيمون لي احتفالات ومهرجانات آخرون يؤلهونني ويقدسونني . وآخرون يهدون لي أجمل بناتهم آخرون يمرضون علي السلطنة .) (1)

لقد استطاع (علي الحوات) بفضل تضحياته وتفانيه في العمل الايجابي الفعال أن يبث روح الثورة والتمرد والنضال بدون صخب ولا ضجيج في كافة القرى السبع وأحدث ضجة كبرى أيقظتهم من سباتهم العميق . فهبوا جميعا الى النضال يحاربون القصر وحكامه الطغاة حتى دمروه وأذاقوا حكامه كأس الذل والهوان .

وهكذا فقد خرجت قرية التحفظ من تحفظها وقاومت بحد السلاح رجال القصر الملثمين واهتدى رجال قرية الحيرة الى اليقين واستعاد المخصيون رجولتهم وفحولتهم . وانضمت قرية بني هرار الى الانتماء بعد الانعزال . واكتشف الصوفيون طريقهم الى المقاومة والنضال ،وتحالف الابناة وأنصار الظلام . في حين أعلن أنصار الظلام خروجهم الى الحياة العلنية وتخلوا نهائيا عن السلطان .

وقد وجدت كل قرية حلا لمشكلتها العويصة بفضل تضحيات (علي الحوات) الجسيمة وتفانيه في خدمة الآخرين . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تجاوزه الى أكثر من ذلك حيث شكل وفد لنصرة

---

1 - الحوات والقصر . ص : 100 .

(علي الحوات) ضم عددا من رؤساء القرى السبع يصاحبه الى القصر .

ونتيجة لذلك ساد السلام والوئام والوحدة عبر أرجاء المملكة وصاروا يدا واحدة وزالت بعد ذلك كل أسباب الخلاف والشقاق الذي عرفته القرى السبع مدة طويلة قبل ظهور (علي الحوات) على مسرح الأحداث . ويكفي (علي الحوات) فخرا أنه أستطاع بمفرده أن يسقط تلك الطغمة الشريرة التي كانت تحكم القصر وتعيث في الأرض فسادا فاندحرت وزالت من الوجود !

(ان علي الحوات انسان عادي بسيط ،أحب الناس فأحبوه ، وأخلص لهم فأخلصوا له ،وصاروا سندا يستند اليه . حمل همومهم ومشاكلهم ،وسعى من أجل التعبير عنها . في مواجهة الزعماء المستغلين الذين ينتهكون الحرمات ويمتصون دماء الناس . واذا به يدمر هبو نفسه ويمزق تمزيقا ،واذا بالناس يلتفون حوله ويفتدونه . انه رمز للشعب العامل الطيب ،الذي ينتصر في النهاية ويمرى أعداء الشعب من الحكام اللصوص .) (1)

ومن المؤكد أن (الطاهر وطار) يرمز من خلال شخصية (علي الحوات) الى أن الجماهير الشعبية المضطهدة في كل مكان ،اذا اتحدت صفوفها وقويت عزيمتها وتسلحت بالنضال الثوري ،وكافحت قوى الشر والطغيان فبامكانها أن تطيح بعروش الجبابرة والطغاة ،وتدك قلاعها الحصينة مهما كثرت جيوشها وتنوعت أسلحتها . وهذا ما وقع بالفعل في السنوات القليلة الماضية ،حيث هبت ثورات مختلفة فأطاحت بأكبر الامبراطوريات

---

1 - د . سيد حامد النساج ،الطاهر وطار والرواية الجزائرية ، مجلة فصول عدد 2 . 1982 .

الديكتاتورية في العالم المعاصر .

ومن الملاحظ أن الشخصية المحورية الثانية في الرواية هي شخصية السمكة الكبيرة وهي سمكة أسطورية يمكن أن ترمز الى الثورة أو الى الديمقراطية أو المسؤولية . فالبعض يقول أنها جنية تتكلم والبعض الآخر يعتقد أن الجن أرسلتها الى (علي الحوات) وهي كما يريدها (علي الحوات) تزن سبعين رطلا ،وبها تسعة وتسعون لونا ،تعيش في الماء مثلما تعيش في البر ،أحملها حين تتعب على كتفي ،وتحملني حين أتعب على ظهرها . في النهار سمكة ،وفي الليل امرأة ،اذا ما رأت خطرا بدا همنا تحولت الى شبح أو الى رغبة تسكن الصدر . تعينني على قهر أعداء جلالته ،وتساعد على الوصول اليه .) (1)

فالسمكة اذن تتصف بخصائص ومميزات خارقة فهي التي سافرت مع (علي الحوات) في رحلته الى القصر على ظهر البغلة . وكانت هذه السمكة تبعث في نفوس سكان القرى السبع الدهشة والاعجاب تارة والرهبة والخوف تارة أخرى . وهي نعمة على (علي الحوات) ونقمة على أعدائه وهي تتشكل في صور مختلفة اذا داهم صاحبها خطر . وقد تتحول الى أفعى تنفث السموم وتقهر الاعداء . وعندما تحدق ب(علي الحوات) الأخطار تتحول الى براق يطير به الى الفضاء : (السمكة المسحورة تحولت عند مدخل القرية الى براق ذي رجل واحدة وثلاثة أجنحة ،ركب على الحوات براقه ،ودخل قرية بني عرار كالفاتح) . (2)

وسمكة (علي الحوات) تشبه الى حد بعيد من حيث توظيف الرمز والأسطورة بطل رواية (دوائر عدم الامكان) ل (مجيد طوبيا)

---

1 - الحوات والقصر . ص : 210 .

2 - نفس المصدر . ص : 59 .

حيث : (كان يبدل شكله من حال الى حال ، مرة هو حيوان من ذوي الأربع بوجه أصفر باهت مستدير ،ومرة هو طائر كالرخ بنجوم صفراء ، ومرة ناعم كالحية الرقطاء ،أو نافث شباك كالعنكبوت . . ولم تكن النيران بقادرة على حرقه .) (1)

(لقد استعانت الرواية المعاصرة بهذا العنصر الفني الأثير ـ أي الأسطورة ـ في تشكيل بنيتها ،وتحميل عناصرها الدالة بهذه الطاقة الايحائية والسحرية الكامنة ،بوصفها طاقة خلاقة وقادرة على استقطاب الشعور ،وعلى تحريك مخزون المعاني الذي سرعان ما يربط الانسان بواسطة حصيلة خبراته الحاضرة بنظيرها في الماضي .) (2)

أما شخصيات (جابر) و (سعد) و (مسعود) فتشكل قطب الصراع الدائر بينهم وبين أخيهم (علي الحوات) ،وكانوا على طرفي النقيض معه منذ شبابهم . فبينما كان (علي الحوات) يصطاد السمك ويوزعه على سكان القرية بدون مقابل . كان اخوته يسفكون الدماء وينهبون أموال الناس ثم ينطلقون الى الغابة . ثم بعد ذلك استولوا على السلطة ،وارتكبوا جرائم في منتهى البشاعة . ولهذا كانت أسماؤهم عكس أفعالهم تماما . ويمكن أن تقلب هذه الأسماء الى نقائضها فيسمى كل منهم بضد اسمه . وهذه الأسماء ترمز الى البطش والارهاب والقوة الغاشمة . كما يرمز اسم (علي الحوات) الى المثالية والى الخير وحب الناس جميعا ! !

---

1 ـ وليد منير ،توظيف العنصر الاسطوري في الرواية ،مجلة فصول عدد 2 . 1982 . ص : 31 .

2 ـ نفس المرجع ، ص : 32 .

المسار الفني في الروايـــــة .

بني (الطاهر وطار) الشكل الفني لروايته (الحوات والقصـــر) على الرمز والأسطورة . ووظفهما توظيفيا في غاية الجودة والاتقـــــان حيث انه مزج في هذه الرواية الحلم بالحقيقة ، والخيال بالواقع . وقد نجح في ذلك لأنه سخر جميع امكانياته الفنية والفكرية في هذه الرواية

ورواية (الحوات والقصر) شديدة الشبه بالتراث العربي وخاصـــة أجواء (ألف ليلة وليلة) وان كانت شديدة الصلة بالقضايا السياسيــــة ومشكلة الحكم والمعارضة ومأساة الانسان ومعاناته في أي زمان وفي أي مكان كما أنها ركزت على قضية الصراع العنيف بين الخير والشـر وبين الفضيلـــة والرذيلة بين الحق والباطل .

وفي نهاية الرواية ينتصر الحق على قوى الشر والطغيان .

ولعل المؤلف تعمد الغاء فكرتي الزمان والمكان من الرواية وعوضهما بالرمز والأسطورة لتظل الرواية تتمتع بحرية مطلقة دون قيود أو ســدود قد تعترض طريقها أو تحد من انطلاقتها لتحلق في الأجواء الفسيحـــة العليا . وبالتالي يمكن أن تقع أحداثها في الجزائر أو في أي مكان من العالم الثالث كله لأن همومه ومشاكله ومعاناته تكاد تكون متشابهة في جميـــع مجالات الحياة المختلفة وان بعدت أقطاره وتباينت اتجاهاته ومعتقداته .

وأسلوب الرواية شيق وممتع يتتبعه القارئ باهتمام كبير .

وقد حرص المؤلف على أن يجعل لغة روايته سهلة بسيطة ليفهمهـــا القراء على اختلاف مستوياتهم رغم أنها تعالج قضية الرمز والأسطورة التي

غاليا ما يستعصي فهمهما على القارئ العادي البسيط .

وأخيرا فان رواية (الطاهر وطار) (الحوات والقصر) تركز على الأبعاد السياسية والوقائع الاجتماعية والدلالات الرمزية والآراء الفكرية والمضامين الأسطورية ، هذه الأمور كلها عالجها المؤلف في روايته بأسلوب يتفجر حيوية ويتدفق سهولة وعذوبة تنطق بما يمتاز به كاتبها من فكر عميق وفن أصيل وموهبة فذة ومقدرة فائقة في التحكم في الفن الروائي وتقنياته وأساليبه الثرية المتنوعة والمتجددة باستمرار .

الخاتمة

امتاز الأدب الجزائري بخصائص ومميزات ثورية ،أهلته بأن يحتل مكانه وسط الآداب الأخرى . فهو أدب ينبع أساسا من المقاومة الشعبية ،والاحساس الجماهيري ،والغليان الثوري ،والصراع السياسي ،والكفاح المسلح ،منذ نشأته في الأربعينات وخاصة بعد مجزرة مايو 1945 الى الآن ويرجع سبب ذلك الى أن الجزائر قد ابتليت بأبشع أخطبوط استعماري استيطاني رهيب دمر البلاد ،وخرب الاقتصاد ،وطمس الثقافة ،وخنق اللغة العربية ، وأحل محلها ثقافته ولغته . وقد تصدى الشعب الجزائري لهذا الاستعمار وحاربه بصلابة وقوة وارادة وعمل جماعي منظم ،حتى خرج من الجزائر غير مأسوف عليه .

وقد صوّرت الرواية الجزائرية قبضة الاستعمار المحكمة ،وسيطرة البورجوازية الاستغلالية التي كانت ضاربة أطنابها على الشعب الجزائري فذاق من خلالها الذل والهوان . وأبرزت هذه الرواية من جهة أخرى كفاح ونضال الشعب الجزائري . وتنبأت بالثورة التحريرية قبل اندلاعها مثلما سجلت ذلك ثلاثية محمد ديب الشهيرة وغيرها من الروايات .

واذا كانت الرواية الجزائرية ذات التعبير الفرنسي قد لعبت دورا طلائعيا في مجال النضال السياسي والهاب احساس الجماهير ،وسجلت بعض الجوانب الهامة من تاريخ البلاد قبل ثورة نوفمبر بكل صدق وموضوعية ، فان الرواية الجزائرية العربية أشارت هي الاخرى الى جانب هام من جوانب الثورة . وعالجت بشكل أوسع وأعمق جميع تلك القضايا الاجتماعية والسياسية وكما أن الثورة عملت على ايقاظ الشعب وشحذت مشاعره وألهبت فيه الحماس ونفخت فيه روح التمرد والكفاح . فان الرواية الجزائرية تبنت هذا الاتجاه

وعمقت ذلك الحس الثوري النضالي ،ثم ركزت هذه الرواية على ثورة البناء والتشييد وخاصة تلك التحولات التي طرأت على الشعب الجزائري في جميع الميادين الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي عرفتها البلاد . ويندرج ذلك كله ضمن رواية الاتجاه الاجتماعي .

أما النتائج التي توصلت اليها في هذا البحث من خلال دراستنا للموقف الثوري في الرواية الجزائرية فيمكن حصرها في عدة أمور وهي :

ان الرواية الجزائرية خلت تماما من الرواية البوليسية ،ورواية الخيال العلمي ،والجنس الفاضح الذي يعتمد على الاغراء والاثارة ،لأن الرواية الجزائرية في معظمها اهتمت اهتماما كبيرا بالقضايا الاجتماعية والهموم الانسانية والمشاكل السياسية ،وركزت كثيرا على القضايا الوطنية وهموم المجتمع ومشكلة الأرض ومعاناة الفلاح وبؤس الفقير وشقائه ... الخ .

والمتتبع لاهتمامات الرواية الجزائرية المكتوبة بالعربية يكتشف أنها ذات ارتباط وثيق بالرواية العربية وبعيدة كل البعد عن التبعية الثقافية الفرنسية لأنها جزء لا يتجزء من الرواية العربية . والرواية الجزائرية كانت وما زالت تؤكد على التمسك بقضايا الحرية والالتزام معتمدة اعتمادا كليا على المبادئ الثورية معبرة عن هموم الشعب وطموحاته وتطلعاته الى غد مشرق وحياة أفضل .

وانطلاقا من هذا المنظور فان الرواية الجزائرية بعضها أسس على قواعد الواقعية النقدية وبعضها الآخر يسير سيرا حثيثا نحو الواقعية الاشتراكية محاولا أن يغرس جذورها بقوة في أرض الواقع الجزائري ، ومن هنا عبرت هذه الرواية عن حركة التغيرات التي شهدتها البلاد في جميع مجالات الحياة اليومية ،ومن ثم فان الرواية الجزائرية ليست رواية تسلية وقتل وقت وتزجية فراغ ،وانما هي وسيلة فعالة لتثقيف النفوس وتغير السلوك تغييرا

جذريا على مستوى الأفراد والجماعات .

وركزت الرواية الجزائرية على قضايا هامة ومشاكل خطيرة يأتي في مقدمتها الكفاح ضد الاستعمار ومحاربة البورجوازية والاقطاع وقوى البطش والارهاب ،ثم تناولت قضية الصراع بين القديم والجديد وصراع الأجيال والايديولوجيات والمذاهب المتناقضة المتباينة . واهتمت الرواية من جهة أخرى بقضية الهجرة الى الخارج والنزوح الريفي الى المدن وقضية الأرض ، وعلاقة الرجل بالمرأة ،وتحرير المرأة من كل القيود التي كانت مكبلة بها ، وأكدت مشاركتها للرجل في جميع ميادين الحياة ،ولم تنس الرواية الجزائرية أن تعبّر عن قضية التعريب وردّ الاعتبار الى اللغة العربية كما أن هذه الرواية سلطت الأضواء ساطعة على التاريخ الجزائري المعاصر خاصة على المرحلة التي سبقت ثورة نوفمبر 1954 . مستلهمة في ذلك التاريخ العربي الاسلامي ،ومعتمدة على توظيف الأدب الشعبي عامة والجزائري خاصة .

فالرواية الجزائرية اذن "لها طعم التربة وأنفاس الناس وأصالة الجذور وصفاء الأفق" على حد تعبير بلقاسم بن عبد الله ،(النادي الأدبي بصحيفة الجمهورية العدد . 419)-

على أن الرواية الجزائرية تناولت مواقف الشخصيات سلبا وايجابا فأشارت الى البطل الشجاع الايجابي ،والبطل السلبي المنهزم والبطل الخائن المرتزق ، ثم البطل الانتهازي الوصولي ،الى غير ذلك من الشخصيات التي تشتمل عليها الرواية موقفا واتجاها وتصورا وسلوكا .

ولا يتصورنّ أحد أن الرواية الجزائرية كلها على قدر كبير من الجودة والاتقان بل أن هناك روايات في غاية الضعف والرداءة شكلا ومضمونا وقد تحتم علينا أن ندرس الرواية ونبين النقاط الايجابية والسلبية ونشير الى الجيد والرديء ،

والغث والسمين ،باعتبار أن هذه الدراسة تطمح الى أن تكون دراســـة تأسيسية للرواية الجزائرية ولعل أهم النقاط السلبية التي بدت لي من خلال دراستي للرواية الجزائرية عامة هي مايلي :-

1 - انعدام الرؤية الواضحة والمنهج السليم عند بعض الروائيين الذين يفتقرون الى الموهبة والتجربة في هذا الفن الصعب .

2 - سعي بعض الروائيين وراء التغريب والتهميش بعيدا عن الهمـــوم الاجتماعية والمعاناة الانسانية .

3 - انهماك بعض الروائيين في قضايا ميتافيزيقية تجريدية .

4 - سقوط البعض منهم في الخطابات السياسية والشعارات الأيديولوجية دون الاهتمام بالابداع الفني والجمالي .

5 - انعدام الاحساس الأدبي والجمالي وقلة المعاناة الفعلية واللامبالاة لدى بعض الروائيين .

6 - التضخيم والمبالغة والافتعال في تصوير الأحداث والمواقف الروائية مما أفقد العمل الروائي الصدق الفني والصدق الموضوعي معا .

7 - الغرور والتعالي وطغيان المشاعر الذاتية حتى خيل لأحدهم أنـــه أصبح أعظم عبقري في الرواية المعاصرة بينما هو ما يزال في بداية الطريـــق .

ومهما يكن من أمر فان الرواية الجزائرية استطاعت أن تخترق الحـــدود وتخرج من النطاق المحلي الضيق الى المجال العالمي الواسع ،فترجمت الى أوسع لغات العالم وسجلت تطورا ملحوظا في الخلق والابداع بعد أن كانت تتبع طريق التقليد والمحاكاة ،وهي بالتالي في تزايد مطرد وتحسن مستمر ،أرجو أن تتاح لـي الفرصة في المستقبل كي أدرس بقية الروايات التي لم يشملها هذا البحث .

المصـــــادر

1 - أحمد الخطيب : الطريق الدامية ،الشركة الوطنية للنشر والتوزير الجزائر، 1982 .

2 - اسماعيل غموقات : الشمس تشرق على الجميع ،الشركة الوطنية للنشروالتوزيع،(د ت)

3 - جروة علاوة وهبي : باب الريح ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، (د ت)

4 - رشيد بوجدرة : التفكك ،دار ابن رشد بيروت،الطبعة الاولى ، 1982 .

5 - زهور ونيسي : من يوميات مدرسة حرة ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر،979

6 - الطاهر وطار : الحوات والقصر ،دار البعث قسنطينة الجزائر ،الطبعة الاولى 980

7 - " " : الزلزال ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ،الطبعة الاولى، 980

8 - " " : اللاز ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر ،الطبعة الاولى ، 981

9 - " " : عرس بغل ،دار ابن رشد ،بيروت ،الطبعة الاولى ، 1978 .

10- " " : العشق والموت في الزمن الحراشي ،دار ابن رشد بيروت، 1980 .

11- مرزاق بقطاش : طيور في الظهيرة ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر ، 1981

12- عبد الحميد بن هدوقة : بان الصبح ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر،980

13- " " : ريح الجنوب ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر الطبعة4 ، 980

14- " " : نهاية الأمس ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر الطبعة2 ، 978

15- د .عبد المالك مرتاض : نار ونور ،دار الهلال ،القاهرة ، 1975 .

16- عبد العزيز بوشفيرات : نجمة الساحل ،الشركة الوطنيةللنشر والتوزيع،الجزائر1 98

17- عرعار محمد العالي : ما لا تذروه الرياح ،الشركة الوطنيةللنشروالتوزيع الجزائرط1،972

18- " " : الطموح ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر الطبعةالاولى ،1978

19- محمد زتيلي : الأكواخ تحترق ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ،ط 2 ، 1982

20- سعدي ابراهيم: المرفوضون ،الشركة الوطنيةللنشر والتوزيع،الجزائر، ط 1، 1981

المراجع العربية (1)

1- د . أبو القاسم سعد الله : دراسات في الأدب الجزائري الحديث ، دار الآداب الطبعة الثانية ، 1977 .

2 - " " " : محمد العيد آل خليفة ، دار المعارف بمصر الطبعة الثانية ، 1975 .

3 - أحمد محمد عطية : البطل الثوري في الرواية العربية الحديثة ، وزارة الثقافة ، دمشق ، 1977 .

4 - أحمد منور : قراءات في القصة الجزائرية ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1981 .

5 - أدوين موير : بناء الرواية ، ترجمة ابراهيم الصيرفي ، الدار المصرية للتأليف والترجمة 1965 .

6 - د . أنيسة بركات درار : أدب النضال في الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ، 1984 .

7 - آلان روب جرييه : نحو رواية جديدة ، ترجمة مصطفى ابراهيم ، دار المعارف بمصر (د ت)

8 - جورج لوكاتش : دراسات في الواقعية الأوربية ، ترجمة أمير اسكندر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1972 .

9 - د . محمد برادة وآخرون : الرواية العربية واقع وآفاق ، دار ابن رشد بيروت ، 1981 .

10- د . محمد العربي الزبيري : الثورة الجزائرية في عامها الأول ، دار البعث قسنطينة ، 1984 .

11- محمد مفيد الشوباشي : الأدب الثوري عبر التاريخ كتاب الهلال القاهرة 1967 .

12- د . محمد مصايف ، الرواية العربية الجزائرية الحديثة ، الدار العربية ليبيا ، 1983 .

---

1 - ماعدا المراجع الثانوية التي ذكرت في الهوامش .

13- محمد ساري : البحث عن النقد الأدبي الجديد ،دار الحداثة بيروت 1984 .

14- مخلوف عامر : تجارب قصيرة وقضايا كبيرة ،المؤسسة الوطنية للكتاب 1984 .

15- د /مكارم الغمري : الرواية الروسية في القرن التاسع عشر الكويت 1981 .

16- د / طه محمود طه : القصة في الأدب الانجليزي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة 1966

17- د / صلاح فضل : منهج الواقعية في الابداع الادبي ،الهيئة المصرية العامة للكتاب 1978

18- د / عبد الله ركيبي : تطور النثر الجزائري الحديث معهد البحوث والدراسات العربية 1976

19- د / عبد المحسن طه بدر: تطور الرواية العربية الحديثة في مصر ،دار المعارف بمصر 1977

20- " " " : الروائي والأرض ،الهيئة المصرية العامة للتأليف النشر 1971 .

21- " " " : نجيب محفوظ الرؤية والأداة ،دار الثقافة للطباعة والنشر القاهرة ، 1978 .

22- د / عبد الرزاق عيد : دراسات نقدية في الرواية والقصة وزارة الثقافة دمشق 1980 .

23- فاطمة الزهراء محمد سعيد : الرمزية في أدب نجيب محفوظ ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت 1981 .

24- د /فاطمة موسى : بين أدبين ،مكتبة أنجلو المصرية 1965 .

25- د / سامية أحمد أسعد : في الأدب الفرنسي المعاصر ،الهيئة المصرية العامة للكتاب 1976 .

26 - د / سعاد محمد خضر : الأدب الجزائري المعاصر ، المكتبة العصرية بيروت صيدا 1967

27- د / سيد حامد النساج : بانوراما الرواية العربية الحديثة ،المركز العربي للثقافة والعلوم بيروت 1982 .

28- د/ " " " : بحوث ودراسات أدبية ،دار المعارف بمصر 1978 .

29- د / يحي بوعزيز : ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين ،دار البعث قسنطينة ،الجزائر . 1980 .

الـــــدوريـــــات

مجـــــلات :

المجلة	العدد	السنة	المكان
ابداع	العدد 11	1983	القاهـــرة
البـــلاغ	العدد 185	1975	بـــيروت
الثقافة	العدد 3	1971	الجزائـــر
	العدد 8 ، 9	1972	الجزائـــر
	العدد 33	1976	الجزائـــر
	العدد 46	1978	الجزائـــر
الثقافة والثورة	العدد 5	1975	الجزائـــر
الثقافـة العربية	العدد 8	1979	ليبيـــا
	العدد 3	1980	ليبيـــا
الحياة الثقافيـــة	العدد 32	1984	تونـــس
دراسـات عربيـــة	العدد 3	1983	بـــيروت
الآداب	العدد 10	1977	بـــيروت
عـ	العدد 1	1978	بـــيروت
الكاتب الفلسطيني	العدد 3	1978	بـــيروت
الفكـــر العربـي	العدد 26	1982	بـــيروت
المجـــاهـــد	العدد 7 - 10	1985	الجزائـــر
فصـــــول	العدد 2	1982	القاهـــرة
الغـــــد	العدد 4	1981	بـــيروت
اليســـار العربي	العدد 28 - 2	1981	بـــيروت

الصحـــــف :

الجمهورية النادي الأدبي الأعداد : 419 ، 420 ، 421 ، 1986 ، الجزائر

الشـــورة 13 - 2 - 1975 سوريـــــا .

طريق الشعـب 9 - 5 - 1975 سوريـــــا .

النصـر 19 - 9 - 1973 الجزائـــــر .

الشعـب 10 - 9 - 1985 الجزائـــــر .

الشعب الأسبوعي العدد 35 - 1976 الجزائـــــر .

الوطـــن 6 - 10 - 1981 سوريـــــا .

الفهرس